

مِنْ مَوْضُوعَاتِ سُورَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

« ٢-١ »

الْإِسْلَامُ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَى

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وقد أضفنا لتفسير هذه السورة

تفسير سورة الفاتحة وافتتحنا به هذا الكتاب

تأليف

عبد الحميد محمود طه

الدار السامية
بيروت

دار الفقه
دمشق

الطبعة الأولى

١٤١٤هـ ~ ١٩٩٣م

حقوق الطبع محفوظة

دار القلم

للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧

الدار الساعية

للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٣

الاسلام لله تعالى

في
سورة البقرة

الفاتحة ثناء ودعاء

الفاتحة أول سور القرآن الكريم في ترتيب المصحف، وهي بحق مقدمة القرآن الكريم، وفاتحته، جاءت بآياتها السبع الموجزة كعنوان له، ترشد إلى أصوله الكبرى وأساسه العظيم؛ ولهذا قال تعالى فيها: ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم﴾^(١).

قال القرطبي رحمه الله: سميت بذلك لتضمنها جميع علوم القرآن، وذلك لأنها تشتمل على الثناء على الله عز وجل بأوصاف كماله وجلاله، وعلى الأمر بالعبادات والإخلاص فيها، والاعتراف بالعجز عن القيام بشيء منها إلا بإعانتة تعالى، وعلى الابتغال في الهداية إلى الصراط المستقيم، وكفاية أحوال الناكثين، وعلى بيان عاقبة الجاحدين^(٢).

إلى جانب ما تضمنته من تقرير للمسؤولية والحساب في يوم الدين.

فهي أعظم سورة في القرآن الكريم، ففي الحديث الشريف عن أبي سعيد بن المعلى قال: كنت أصلي فدعاني النبي ﷺ فلم أجبه، قلت: يا رسول الله إني كنت أصلي، قال: «ألم يقل الله: ﴿استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم﴾؟» ثم قال: «ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد؟» فأخذ بيدي، فلما أردنا أن نخرج قلت: يا رسول الله إنك قلت: لأعلمنك أعظم سورة في القرآن، قال: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته^(٣).

قال ابن حجر: المراد به (أعظم سورة) عظم القدر بالشواهد المرتب على قراءتها،

(١) الحجر: الآية ٨٧.

(٢) تفسير القرطبي ١/١١٢.

(٣) صحيح البخاري، فضائل القرآن (٥٠٠٦).

وإن كان غيرها أطول منها، وذلك لما اشتملت عليه من المعاني المناسبة لذلك^(١).
وقيل لها المثاني، من الثنية؛ لأنها تتكرر في الصلاة، أو من الثناء؛ لاشتغالها على ما هو ثناء على الله عز وجل.

وعطف (القرآن العظيم) على (السبع المثاني) مع أن المراد بهما واحد، لما علم في اللغة العربية من أن الشيء الواحد، إذا ذكر بصفتين مختلفتين، جاز عطف إحداهما على الأخرى، تنزيلاً لتغاير الصفات منزلة تغاير الذات^(٢).

وذهب فريق آخر من المفسرين إلى القول بأن الله تعالى، أعطى النبي ﷺ سورة الفاتحة، وأعطاه أيضاً القرآن العظيم، فيكون العطف من قبيل عطف العام على الخاص، وهو لا يتعارض مع ما ذكر في الحديث النبوي السابق، إذ يمكن أن يقال: إن تسمية الفاتحة بالمثاني وبالقرآن العظيم لا ينافي وصف القرآن كله بذلك أيضاً، وقد وصف الله تعالى القرآن بصفة المثاني في قوله الكريم: ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم﴾^(٣) فهو مثاني من وجه، ومتشابه من وجه، وهو القرآن العظيم أيضاً^(٤).

وتسمى أيضاً أم القرآن؛ لأنها مفتحة ومبدؤه، فكأنها أصله ومنشؤه؛ ولذلك تسمى أساساً، أو لأنها تشتمل على ما فيه من الثناء على الله تعالى والتعبد بأمره ونهيه، وبيان وعده ووعيده^(٥).

وفي الحديث الشريف عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «مَنْ صَلَّى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج» ثلاثاً، غير تمام. فقيل لأبي هريرة: إنا نكون وراء الإمام؟ فقال: اقرأ بها في نفسك، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: قسمت الصلاة^(٦) بيني وبين عبدي نصفين ولعبي ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾، قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿الرحمن الرحيم﴾، قال الله تعالى: أثني علي عبدي، وإذا قال: ﴿مالك يوم الدين﴾، قال: مجدني عبدي - وقال

(١) فتح الباري ٥٤/٩.

(٢) أضواء البيان ١٩٥/٣.

(٣) الزمر: الآية ٢٣.

(٤) انظر: الإنسان بين الأمل والأجل في سورة الحجر ص ٨١.

(٥) تفسير البضاوي ١٧/١.

(٦) المراد بالصلاة هنا الفاتحة.

مرة: فَوَضَّ إِلَيَّ عَبْدِي - فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قال: هذا بيني وبين عبدِي، ولعبدِي ما سأل، فإذا قال: ﴿اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالِّين﴾، قال: هذا لعبدِي، ولعبدِي ما سأل»^(١).

وإذا كان موضوع سورة البقرة هو الإسلام الله تعالى، والانقياد لأحكامه الشرعية والقدرية، فسورة الفاتحة إعلان لهذا الإسلام، وعنوان لهذا الانقياد، ولا عجب أن الله تعالى أنزل ملكاً خاصاً على النبي ﷺ يبشّره بالفاتحة وخواتيم سورة البقرة. فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ، سمع نقيضاً من فوقه، فرفع رأسه فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم، لم يُفْتَحْ قطّ إلاّ اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض، لم ينزل قطّ إلاّ اليوم، فسلم وقال: أبشروا بنورين أوتيتهما، لم يؤتهما نبيّ قبلك، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلاّ أعطيته»^(٢).

وهي شفاء ورقية، ففي الحديث الشريف عن أبي سعيد الخدري قال: كنّا في مسير لنا، فنزلنا، فجاءت جارية فقالت: إن سيّد الحيّ سليم - أي: لديغ - وإن نفرنا غُيِّب، فهل منكم راق؟ فقام معها رجل ما كنّا نأبّنه برقية - أي: نتهمه بأنه راقٍ - فراه فبرأ، فأمر لنا بثلاثين شاة، وسقانا لبناً، فلما رجع قلنا له: أكنّت تُحسِنُ رُقِيَةً أو كنت ترقّي؟ قال: لا ما رقيت إلاّ بأَمِّ الكتاب، قلنا: لا تحدثوا شيئاً حتى نأتي أو نسأل النبي ﷺ، فلما قدّمنا المدينة ذكرناه للنبي ﷺ فقال: «وما كان يدريه أنها رُقِيَةٌ، اقسّموا واضربوا لي بسهم»^(٣).

البِسْمَلَةُ

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ افتتح الله تعالى الفاتحة بالبسملة، كما افتتح بها جميع سور القرآن الكريم، عدا سورة التوبة، والمعنى: باسم الله أقرأ أو أتلو، وقدّر المحذوف «أقرأ» أو «أتلو» متأخراً تعظيماً لاسمه تعالى، فهو المقدّم على القراءة، وكانوا يبدؤون بأسماء آلِهِتهم، فيقولون: باسم اللّات وباسم العزّى، فوجب أن يقصد الموحّد معنى اختصاص

(١) صحيح مسلم، كتاب الصلاة (٣٩٥).

(٢) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين (٨٠٦).

(٣) صحيح البخاري، فضائل القرآن (٥٠٠٧).

اسم الله عز وجلّ بالابتداء، وذا بتقديمه وتأخير الفعل، وقدم الفعل في: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ لأنها أول سورة نزلت، وكان الأمر بالقراءة أهم، فكان تقديم الفعل أوقع^(١).

﴿الله﴾ هو اسم علم خاص لله تعالى، تفرّد به الباري سبحانه وتعالى، ليس بمشتق ولا يشركه فيه أحد، وهو الصحيح المختار، دليله قوله تعالى: ﴿هل تعلم له سمياً﴾^(٢) يعني: لا يقال لغيره: الله.

وقيل: هو مشتق من أله يأله إلهة، مثل: عبد الرجل يعبد عبادة، دليله ﴿ويزرك وإلهتك﴾^(٣) أي: وعبادتك، ومعناه: المستحق للعبادة دون غيره.

وقيل: من الوله، وهو الفزع؛ لأن الله يولّهون إليه، أي: يفرعون إليه في حوائجهم.

وقيل: أصله أله، يقال: ألّهت إليه، أي: سكنت إليه، فكأن الخلق يسكنون إليه ويطمثون بذكره^(٤). ويؤيده قوله تعالى: ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾^(٥).

﴿الرحمن الرحيم﴾ [١] اسمان من أسمائه الحسنی، يدلّان على كثرة إحسانه وسعة فضله وجوده جلّ جلاله، معناهما: ذو الرحمة.

والرحمة في اللغة: رقة القلب وانعطاف يقتضي التفضل والإحسان، ومنه الرحم لانعطافها على ما فيها، وأسماء الله تعالى إنما تؤخذ باعتبار الغايات، التي هي أفعال، دون المبادي، التي تكون انفعالات^(٦)، لتزّهره سبحانه عن الحدوث والتغيّر.

واختصاص التسمية بهذه الأسماء يدلّ على أن المستحق لأن يُستعان به في جميع الأمور، هو المعبود الحقيقي الذي هو مولی النعم كلها، عاجلها وآجلها، جليلها وحقيقها^(٧).

(١) تفسير النسفي ١٩/١.

(٢) مريم: الآية ٦٥.

(٣) الأعراف: الآية ١٢٦. وهي قراءة منسوبة لابن عباس.

(٤) تفسير الخازن ٢٠/١.

(٥) الرعد: الآية ٢٨.

(٦) تفسير البيضاوي ٢٤/١.

(٧) تفسير البيضاوي ٢٥/١.

(الحمد لله رب العالمين)

أثنى الله على ذاته المقدسة بقوله عز وجل:

﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ [٢] ويدلّ هذا الثناء على وجوب اتّصافه تعالى بكافّة صفات الكمال والجلال والجمال، فهو المستحق للحمد بذاته؛ لأنّه سبحانه وحده المتّصف بجميع صفات الكمال، وهو ثابت له تعالى بطريق البرهان والاستدلال، كما سيظهر معنا. ولهذا فسّر بعضهم ﴿ الحمد ﴾ بالإحاطة بأوصاف الكمال^(١).

ولمّا كانت كمالاته سبحانه غير متناهية، ولا يحيط بها أحد من المخلوقات، حمد الله تعالى نفسه بنفسه، فقال: ﴿ الحمد لله ﴾.

وقد ورد في بعض أدعية النبي ﷺ «اللّهمّ إنّي أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»^(٢).

ولمّا سُئل علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن معنى ﴿ الحمد لله ﴾ قال: الحمد لله كلمة رضيها لنفسه^(٣).

فما عرف الله حقّ المعرفة أحد، وما أحاط بكمالاته غيره تعالى، تقدّست ذاته وتباركت أسماؤه، وتسامت صفاته.

واستحقاقه سبحانه للحمد ثابت دائم، قبل إيجاد الخلق وبعده، وسواء حمده العباد أم كفروه وجحدوا فضله، لأن صفات كماله وجماله وجلاله أزلية أبدية غير حادثة، لا يطرأ عليها تغيير أو تبدل، فهو سبحانه خالق قبل أن يخلق؛ لأنّه قادر على الخلق أزلاً، ورازق قبل أن يرزق؛ لأنّه قادر عليه أزلاً.

والألف واللام في ﴿ الحمد ﴾ لاستغراق جميع المحامد، كما جاء في الحديث النبوي الشريف: «اللّهمّ لك الحمد كله، ولك المُلْك كله، ولك الخلق كله، وإليك يرجع الأمر كله، أسألك من الخير كله، وأعوذ بك من الشرّ كله»^(٤).

وأمر الله عباده أن يثنوا عليه به في ضمن هذا الثناء الذي أثنى به على نفسه، فعن

(١) انظر: نظم الدرر ٧/٢.

(٢) رواه مالك والترمذي وأبو داود.

(٣) فتح القدير ٢٠/١.

(٤) رواه البيهقي في السنن.

أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها»^(١).

قال ابن كثير رحمه الله: ﴿الحمد لله﴾ ثناء أثنى به على نفسه، وفي ضمنه أمر عباده أن يشنوا عليه، فكأنه قال: قولوا: الحمد لله. وهو ثناء على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية، والشكر لا يكون إلا على المتعدية، وهو نقيض الذم وأعم من الشكر، والشكر: الثناء على المحسن بما أولاه من المعروف^(٢).

ثم بين تعالى موجب استحقاقه للحمد بقوله:

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: مالك العالمين، يقال: رب الدار، ورب الشيء، أي: مالكه.

ومنه قول صفوان بن أمية، عندما سمع أخاه في غزوة حنين يقول: ألا بطل السحر اليوم، فقال له صفوان: اسكت فض الله فاك، فوالله لأن يربني رجل من قريش، أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن^(٣).

والرب في الأصل مصدر بمعنى الإصلاح والتربية، وهو تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً، ووصف الحق به للمبالغة، كما وصف بالعدل، فهو سبحانه مالك العالمين ومربيهم ومصلحهم.

ولا يطلق الرب معرفة إلا على الله وحده، وإذا أطلق على غيره قيد بالإضافة: نحو رب الشيء، ﴿ارجع إلى ربك﴾.

و﴿العالمين﴾ جمع عالم، لا واحد له من لفظه، مشتق من العلم أو العلامة، وإنما سمي بذلك؛ لأنه دال على وجود الخالق سبحانه وتعالى^(٤).

فالعالمون كل ما سواه من الموجودات، فإنها لإمكانها وافتقارها إلى مؤثر واجب لذاته، تدل على وجوده، وإنما جمع بالواو والنون، المختص بصفات العقلاء؛ لما فيه من معنى الوصفية، وهي الدلالة على معنى العلم^(٥).

(١) صحيح مسلم، كتاب الذكر (٢٤٣٧).

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٢٠/١.

(٣) سيرة ابن هشام ٦٥/٤.

(٤) تفسير الخازن ٢٦/١.

(٥) تفسير النسفي ٢٦/١.

وقيل: اسم وضع لذوي العلم من الملائكة والإنس والجن، وتناوله لغيرهم على سبيل الاستبصار.

وقيل: عني به الناس ههنا، فإن كل واحد منهم عالم؛ من حيث إنه يشتمل على نظائر ما في العالم الكبير من الجواهر والأعراض، يُعَلِّمُ بها الصانع، كما يعلم بما أبدعه في العالم؛ ولذلك سَوَّى بين النظر فيهما فقال: ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾^(١) وقال أيضاً: ﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾^(٢)، وإلى هذا المعنى ذهب القائل:

وتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

﴿الرحمن الرحيم﴾ [٣] وقد مرَّ ذكرهما في التسمية، واستدلَّ بذلك القائلون بأن التسمية ليست هنا من الفاتحة، إذ لو كانت من الفاتحة لما ذكرهما سبحانه مرة ثانية، وقد يكون التكرير لبيان كثرة رحمته وتوالي إحسانه على خلقه، فمنه الإيجاد والإمداد جلَّ جلاله، ورحمته وسَّعت كلَّ شيء في الوجود، والكلُّ مفتقر إليها، قائم بها.

يوم الدين

﴿مالك يوم الدين﴾ [٤] وهي قراءة عاصم والكسائي ويعقوب، وقرأ الآخرون ﴿ملك﴾.

والمالك: هو المتصرِّف في الأعيان المملوكة كيف يشاء، والملك: هو المتصرِّف بالأمر والنهي في المأمورين^(٣).

فهو سبحانه المالك الذي لا يسأل عما يفعل، والذي يتصرَّف في ملكه كما يشاء، وهو سبحانه الملك الذي له الحكم والأمر، والتحليل والتحريم، فالحاكمة المطلقة له جلَّ وعلا.

﴿يوم الدين﴾ أي: يوم الجزاء والحساب، فالدين الجزاء والحساب؛ ولهذا قيل: كما تدينُ تُدان. ومنه قوله تعالى: ﴿أإنَّا لمدينون﴾^(٤) وفي الحديث الشريف: «الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت»^(٥).

(١) الذاريات: الآية ٢١. انظر: تفسير البيضاوي ٢٦/١. (٤) الصَّافَّات: الآية ٥٣.

(٢) يونس: الآية ١٠١. (٥) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه.

(٣) تفسير البيضاوي ٢٧/١.

فهو سبحانه مالك الأمر كله يوم الحساب والجزاء، وهو يوم القيامة، والتخصيص بيوم الدين لأن الأمر فيه يكون لله وحده، كما في قوله تعالى: ﴿الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً﴾^(١) وقوله سبحانه: ﴿لَمَنَ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾^(٢).

فالمملك في الحقيقة هو الله عز وجل، وأما تسمية غيره في الدنيا بمملك فعلى سبيل المجاز - كما قال ابن كثير رحمه الله - وفي الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ قال: «يقبض الله تعالى الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض»^(٣).

ودلت الآية على مسؤولية المكلفين أمام الله تعالى يوم القيامة.

ضراعة ودعاء

وانتقلت الآيات مباشرة من الغيبة إلى المواجهة؛ لأن صدرها ثناء على الحق جلّ وعلا، وذيلها ضراعة ودعاء، كما مرّ في الحديث الشريف: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين».

ولأنه لما أثنى على الله تعالى، فكأنه اقترب وحضر بين يدي الله تعالى، فلهذا قال: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾^(٤).

ويشير إلى هذا المعنى قول النبي ﷺ لابن عباس: «يا غلام إنّي أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله»^(٥).

وقوله: ﴿إياك نعبد﴾ أي: لا نعبد سواك؛ لأنك وحدك المستحق للعبادة، وهو إعلان الإسلام لله تعالى، والخضوع والانقياد لأحكامه، والعبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل، فكأن العبد يقول لمولاه: أنت الحقيق بالحمد والثناء والتعظيم والتمجيد، ونحن حقيقون بالتذلل والخضوع لك وحدك، وعزّ وشرف لنا أن نعبدك وحدك فلا نعبد

(١) الفرقان: الآية ٢٦.

(٢) غافر: الآية ١٦.

(٣) صحيح مسلم، كتاب صفات المنافقين (٢٧٨٧).

(٤) مختصر تفسير ابن كثير ٢٣/١.

(٥) رواه أحمد والترمذي.

سواك. فالعبودية مقام عظيم يشرف بها العبد وهي أعظم نسبة تصله بالله جلّ وعلا، وقد سُمّي سبحانه وتعالى رسوله بعبده في أشرف مقاماته، فقال: ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً﴾^(١)، وقال أيضاً: ﴿وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً﴾^(٢) وقال أيضاً: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنُريه من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾^(٣).

فسمّاه عبداً عند إنزال القرآن عليه، وعند قيامه للدعوة، وعند إسرائه به^(٤). ولا شك أن ﴿إياك نعبد﴾ أبلغ في التواضع من: إياك عبدنا، وفيها أدرج الفرد عبادته في تضاعيف عبادة العابدين الخاضعين لله تعالى، لعلّها تقبل ببركتهم، كما ورد في الحديث الشريف في فضل مجالس الذكر: «... فيقولون ربّ فيهم فلان عبد خطّاء إنما مرّ فجلس معهم، قال: فيقول: وله غفرت، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم»^(٥). ﴿وإياك نستعين﴾ [٥] أي: نطلب المعونة منك وحدك، كما مرّ في الحديث: «وإذا استعنت فاستعن بالله».

وطلب المعونة من الله إقرار بالافتقار إليه، وقدّمت العبادة على الاستعانة؛ لأن العبادة إعلان الاستسلام الكامل لله تعالى، والخضوع له جلّ جلاله، فتكون وسيلة إلى الإقرار بالعجز والضعف والافتقار إلى معونته وإحسانه ورحمته.

وحتى العبادة فإنها لا تكون إلّا بمعونته تعالى وتوفيقه، فهي من الله تعالى وإلى الله تعالى، فالفضل له سبحانه أولاً وآخرأ، والحمد له تعالى بدءاً وختاماً، فهذا وجه من وجوه استحقاقه سبحانه للحمد.

الصراط المستقيم

ثم بيّنت الآيات أهم معونة مطلوبة يحتاج إليها الناس في حياتهم:

(١) الكهف: الآية ١.

(٢) الجن: الآية ١٩.

(٣) الإسراء: الآية ١.

(٤) مختصر تفسير ابن كثير ٢٣/١.

(٥) انظر الحديث كاملاً في: صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء (٢٦٨٩).

﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ [٦] أي: ثبّتنا على الطريق المستقيم، وأرشدنا إلى النهج القويم.

والهداية: دلالة بلطف، ولذلك تستعمل في الخير، وإذا ما استعملت في غيره يراد بها حينئذ التهكم، كما في قوله تعالى: ﴿فاهدوهم إلى صراط الجحيم﴾^(١). والمراد منها في القرآن الكريم إما هداية البيان والإرشاد، وذلك بإرسال الرُّسل وإنزال الكتب، كما في قوله تعالى: ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾^(٢)، وقوله أيضاً: ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً﴾^(٣).

وإما هداية التوفيق من الله تعالى للتمسك بالحق والثبات عليه، كما في قوله سبحانه: ﴿إنك لا تهدي مَن أحببت ولكن الله يهدي مَن يشاء وهو أعلم بالمهتدين﴾^(٤).

وقوله أيضاً: ﴿الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب﴾^(٥).

وهي أهم ما يحتاج إليه الإنسان في حياته، فلا صلاح لحياته إلاّ بها، ولا استقامة له إلاّ بالتمسك بحبلها؛ إذ طرق الضلال في الحياة كثيرة، وإليها أشار الله تعالى في قوله: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾^(٦).

ولهذا علّمنا سبحانه، وهو الرحمن الرحيم والبرّ الكريم، أن نسأله هذه الهداية في كل يوم مرّات كثيرة، كلما وقفنا بين يديه مصليّين خاشعين.

والصراط المستقيم هو طريق الإسلام، الإسلام لله تعالى وحده، والانقياد والإذعان لحكمه وشرعه، وهو دين جميع الأنبياء والمرسلين، دلّ على ذلك قوله تعالى في تعريفه.

(١) الصّافات: الآية ٢٣.

(٢) السجدة: الآية ٢٤.

(٣) الإسراء: الآية ٩.

(٤) القصص: الآية ٥٦.

(٥) الزمر: الآية ١٨.

(٦) الأنعام: الآية ١٥٣.

﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ أي: مننت عليهم بنعمتك العظمى والكبرى،
نعمة الهداية، وهم الأنبياء والمرسلون ومن تبعهم وسار على طريقهم، الذين ذكرهم
سبحانه بقوله: ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ
وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا، ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ
عَلِيمًا ﴾^(١).

﴿ غير المغضوب عليهم ﴾ أي: غير صراط الذين غضبت عليهم، بسبب
إعراضهم عن صراطك المستقيم وعنادهم وجحودهم، ومنهم اليهود.

﴿ ولا الضالين ﴾ [٧] أي: وغير صراط التائهين الشاردين عن الصراط المستقيم،
الذين غلبت عليهم أهواؤهم وشهواتهم، فحجبت بصائرهم عن دلائل الحق وحججه،
فتأهوا وانحرفوا عن الصراط المستقيم، ومنهم النصارى.

فأصحاب الصراط المستقيم هم الذين سلموا بفضل الله تعالى من أسباب غضبه
سبحانه، ومن أسباب الضلال والشroud عن ساحته وفضله ورحمته. آمين.

إذ من السنة أن نختم الفاتحة بـ آمين. ومعناها: استجب يا رب. وهي ليست من
القرآن، لما ورد في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ
قال: «إذا قال الإمام ﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ فقولوا: آمين، فمن وافق
قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه»^(٢).

(١) النساء: الآية ٦٩ - ٧٠.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير (٤٤٧٥).

الْإِسْلَامُ لِلَّهِ تَعَالَى

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيّد المرسلين، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد، فقد فتح الله عليّ وهداني إلى الموضوع الأساسي في سورة البقرة، بعد طول تدبّر لآياتها وتفكّر في معانيها، فهي أطول سور القرآن الكريم وأكبرها في مبانيها ومعانيها، وأكثرها أصولاً وفروعاً، أحصت الإسلام كله، فما تكاد تجد باباً من أبوابه إلا طرقة، ولا موضوعاً من موضوعاته إلا عرضته، فضلاً عما حوت من قصص وأخبار وأمثال، غنيّة بالمواعظ والعبر والدروس، المتّصلة بأفكارها، والمقرّبة لمعانيها.

فهي بحق سورة الإسلام، الإسلام لله تعالى والانقياد لأحكامه الشرعية والقدرية، الذي دعا إليه جميع الأنبياء والمرسلين، وسورة الإسلام الذي هو الدين الخالد الذي ختم الله به الوحي، وأنزله على خاتم النبيّين محمد عليه وعليهم أفضل الصلاة والتسليم، وتعبّد به جميع المكلفين من الإنس والجنّ إلى قيام الساعة.

وجاء موضوع السورة في هذا الكتاب التاسع عشر في ترتيب تأليف هذه السلسلة المباركة، وهو الأول في ترتيب سور المصحف الشريف، وإنّي لأستشعر فضل الله عليّ، أن وفّقني إلى كتابة هذا العدد من موضوعات سور القرآن الكريم، وأصبحت أرجو أن يتوالى عليّ فضله سبحانه وإحسانه، فيفتح عليّ بموضوعات سور أخرى، حتّى تصبح هذه السلسلة تفسيراً للقرآن الكريم من خلال موضوعات السور؛ ولهذا أضفت في أول هذا الكتاب تفسيراً لبعض معاني سورة الفاتحة.

وقد جاء الكتاب بفضل الله تعالى في تسع فصول، متوالية حسب تسلسل آيات السورة، كما يلي:

الفصل الأول	: القرآن والإنسان .
الفصل الثاني	: التوراة وبنو إسرائيل .
الفصل الثالث	: بنو إسرائيل: من السلف إلى الخلف .
الفصل الرابع	: التوحيد وإبراهيم والبيت الحرام .
الفصل الخامس	: العقيدة والشرعية .
الفصل السادس	: إسلام واستعلام (أسئلة الصحابة) .
الفصل السابع	: الأسرة وتشريع الطلاق .
الفصل الثامن	: أخبار وقصص من التاريخ .
الفصل التاسع	: مبادئ أساسية في الاقتصاد الإسلامي .

ولله تعالى الحمد بدءاً وختاماً، وأسأله جلّ وعلا أن يوفّقنا إلى ما يحبه ويرضاه،
وأن يهدينا صراطه المستقيم ويثبتنا عليه. اللهم آمين وصلّ اللهم على سيّدنا
محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان.

الفقير إلى الله تعالى
عبد الحميد محمود طه ماز
المعهد العالي للأئمة والدعاة

مكة المكرمة في ٢٩/١٠/١٤١١ هـ
١٣/٥/١٩٩١ م

مَوْضُوعُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ

موضوع سورة البقرة الإسلام لله تعالى، بمعنى الاستسلام الكامل لأحكامه القدريّة والشرعية، والانقياد والإذعان لها، هذا هو الموضوع الأساسي لسورة البقرة والذي دارت آياتها كلها في فلكه.

والإسلام بهذا المعنى هو دين الله الذي أنزله على جميع الأنبياء والمرسلين، فكلّهم دعوا أممهم إلى الإسلام لله تعالى والانقياد لأحكامه جلّ وعلا، وفي آيات السورة الأولى التي تبين أهم الصفات الأساسية الكبرى للمتقين، ذكرت أن أول صفة من صفاتهم أنهم يؤمنون بالغيب، والمراد به الغيب الذي أخبر الحق سبحانه عنه، وهذا يدلّ على استسلامهم الكامل له جلّ وعلا علماً وعملاً، قلباً وقالباً.

وركّزت الآيات حديثها بعد ذلك على الجاحدين المعاندين؛ إبرازاً لحقيقة الإسلام لله تعالى وكيفيته، فرسمت لهم هرمّاً للجحود والعناد، وضعت على قمته الكافرين جحوداً وعناداً، الذين لا يؤمنون سواء أُنذرتهم أم لم تنذرهم، ثم وضعت في وسطه المنافقين الذين يخادعون الله ورسوله، والذين مهما رأوا من الأدلة والبراهين لا ينتفعون بها، فهم الصمّ البكم العمي الذين لا يرجعون عمّا هم فيه من باطل وضلال، ثم وضعت في قاعدته أهل الكتاب، وخاصة بني إسرائيل، وأفاضت الآيات في ذكر مواقف جحودهم، وعنادهم، التي صدرت عنهم منذ زمن نبيهم موسى عليه السلام، إلى زمن التنزيل الحكيم للقرآن الكريم في عهد نبيّنا محمد ﷺ.

ثم تحوّلت الآيات فعرضت في مقابل مواقف الجاحدين والمعاندين، مواقف المسلمين المستسلمين لأحكام الله تعالى الشرعية والقدريّة، فذكرت في مقدمتهم إمام الموحدين إبراهيم عليه السلام، وأبرزت استسلامه الكامل لله تعالى عندما ابتلاه بما ابتلاه به من أنواع البلاء، وعندما قال له ربّه: أسلم، قال: أسلمت لربّ العالمين،

وعندما كان يرفع قواعد بيت الله الحرام مع ولده إسماعيل، وهما يرفعان إلى الله تعالى الدعوات المباركات، ليجعلهما من الأمة المسلمة.

ثم ذكرت الآيات وصية يعقوب عليه السلام لأولاده وقد حضره الموت، وهو يقول لهم: يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتنَّ إلّا وأنتم مسلمون.

ثم بيّنت الآيات فضل المستسلمين لأحكام الله تعالى القدريّة، والصابرين على البلايا والمصائب والمحن، والصابرين على نقص الأموال والأنفس والثمرات، ومهدت بذلك السبيل للشروع في عرض أحكام الشريعة التكليفية، شريعة الإسلام خاتمة الشرائع الإلهية وأعظمها وأكملها وأتمّها.

وسارت الآيات على طريق عرض الأحكام الشرعية في الشريعة الإسلامية، وهي تُبرز أسسها وخصائصها ومزاياها، فاستوفت كل الجوانب العملية التكليفية فيها، إما تأصيلاً أو تفريعاً، فالسورة بحق كما قال ﷺ: «سنام القرآن» وكادت أن تحصي القرآن كله.

وفي الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ بعثاً، وهم ذو عدد، فاستقرأهم، فقرأ كل رجل منهم ما معه من القرآن، فأتى على رجل من أحدثهم سنّاً، فقال: ما معك أنت يا فلان؟ فقال: معي كذا وكذا وسورة البقرة، قال: أمعك سورة البقرة؟ قال: نعم، قال: اذهب فأنت أميرهم، فإنها إن كادت لتستحصي الدين كله^(١).

وللسورة في أثناء عرضها لأحكام الشريعة بعض الوقفات والتعقيبات، شدّتنا فيها إلى موضوعها الأساسي، وهو موضوع الإسلام لله تعالى والاستسلام لأحكامه، كقوله تعالى: ﴿يا أيّها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدوٌ مبين﴾. واستمرت الآيات على هذا النهج إلى أن توجت خاتمتها بإبراز استسلام الصحابة رضي الله عنهم لأحكام دين الله، وبيّنت ارتباط ذلك بيسر الشريعة وسماحتها، كما سيأتي معنا في تقرير أساس مبدأ التكليف العظيم فيها ﴿لا يكلف الله نفساً إلّا وسعها﴾ وذلك في مقابل ما سبق عرضه في آياتها من تعنت بني إسرائيل وجحودهم، وخاصة في قصة موسى عندما أمر قومه بذبح البقرة، التي سُميت السورة كلها باسمها، إشارة إلى تعنتهم وتقاعسهم عن الانقياد لأحكام الله تعالى.

(١) أخرجه الترمذي كما في تيسير الوصول ٨٩/١.

ونظراً لما أبرزته السورة من مزايا الشريعة الإسلامية، وما فيها من أصول هذه الشريعة وكثير من فروعها، أوصى النبي ﷺ بالإكثار من قراءتها، وقرنها مع سورة آل عمران، ففي الحديث الشريف عن أبي أمامة الباهلي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرأوا الزهراوين: البقرة وسورة آل عمران فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيابتان، أو كأنهما فرقان من طير صواف، تحاجان عن أصحابهما، اقرأوا سورة البقرة فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة»^(١).

(١) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين (٤٠٨). وقوله: (كأنهما غمامتان، غيابتان) المراد ثوابهما، وهما كل شيء أظلل الإنسان فوق رأسه، فرقان من طير: قطيعان وجماعات. البطلة: السحرة.

الفصل الأول

القرآن والإنسان

الحُرُوفُ النُّورَانِيَّةُ

افتتح الله تعالى سورة البقرة بهذه الحروف الثلاثة: ألف، لام، ميم. وهي أكثر الحروف وروداً في فواتح السور، ويسمّيها العلماء الحروف المقطّعة، والحروف النورانية، والحروف الهجائية.

ومعانيها أسرار تحيّرت فيها الأفكار، فهي كما قال الإمام الشعبي: سرّ هذا القرآن، وفي هذا المعنى قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: إن لكل كتاب صفوة، وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي. وقول أبي بكر الصديق رضي الله عنه: في كل كتاب سرّ، وسرّه في القرآن أوائل السور^(١).

ويؤكد هذا قوله تعالى: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب فيه آيات مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^(٢).

فكلام العليم الحكيم لا تنتهي عجائبه ولا تُحدّ فرائده وفوائده، وهذا وجه من وجوه إعجازه ينفرد به عن سائر الكلام، ولهذا قالوا: إن الحروف المقطّعة التي في أوائل بعض سوره تدلّ على إعجازه، وعجز الخلق عن الإتيان بمثل سورة من سوره، وحروفه قريبة منهم وفي متناول أيديهم.

ولقد انتصر لهذا الرأي ابن كثير في تفسيره، فبعد أن ذكره وذكر العلماء الذين ذهبوا إليه، قال رحمه الله: ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بدّ أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء في تسع وعشرين سورة،

(١) انظر: مباحث في علوم القرآن عن الإتقان للسيوطي، ص ٢٣٦.

(٢) آل عمران: الآية ٧.

مثل: ﴿ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾... وغير ذلك من الآيات الدالة على صحة ما ذهب إليه هؤلاء لمن أمعن النظر^(١).

وقد اعترض بعضهم على استقراء ابن كثير بثلاث سور، افتتحت بالحروف المقطعة، ولم يذكر فيها الانتصار للقرآن، وهي سورة مريم وسورة العنكبوت وسورة القلم.

إلا أن هذا الاعتراض يسقط إذا تأملنا كل آيات هذه السور، ففي بعضها ذكر للقرآن الكريم وتأکید على أنه كلام الله تعالى، كقوله في سورة مريم: ﴿فإنما يسرناه بلسانك لتبشّر به المتقين وتنذر به قوماً لداً﴾^(٢) وقوله في سورة العنكبوت: ﴿أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾^(٣) وقوله تعالى في سورة القلم: ﴿وما هو إلا ذكر للعالمين﴾^(٤).

الكتاب الكامل

﴿ذلك الكتاب﴾ أي القرآن الكريم، هو الكتاب الكامل الحائز على كل كمال، فهو وحده المستحق أن يُوصف بالكتاب بالنسبة لما عداه، كما يقال: هو الرجل الكامل في الرجولية، الجامع لما يكون في الرجال من الخصال الحسنة، وعليه قول من قال: هم القوم كل القوم يا أم خالد^(٥). وأشير إليه بـ ﴿ذلك﴾ للدلالة على علو شأنه وكونه في الغاية القصوى من الفضل والشرف. ﴿لا ريب فيه﴾ أي: لا شك فيه مطلقاً، فـ ﴿لا﴾ نافية للجنس دلّت على نفي أي ريب عن صحة وصدق القرآن الكريم، وأنه نزل من الله تعالى، كما قال: ﴿تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين﴾^(٦).

فلا ينبغي لأحد أن يرتاب فيه، وسيمر معنا أن الذين ارتابوا فيه لا صحة لريبهم، وما ارتيابهم إلا عناد وجحود ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين﴾.

﴿هدى للمتقين﴾ [٢] أي: دلالة للمتقين، يدلهم على العقيدة والشرعة التي

(١) انظر تفسير ابن كثير، المقدمة.

(٢) مريم: الآية ٩٧.

(٣) العنكبوت: الآية ٥١.

(٤) القلم: الآية ٥٢.

(٥) انظر: تفسير أبي السعود ٢٤/١.

(٦) السجدة: الآية ٢.

كلّفهم الله تعالى بها، فهو مصدر من قولك: هديت فلاناً الطريق، إذا أرشدته إليه ودلّته عليه وبَيَّنّته له، أهديه هدىً وهدايةً^(١).

والمُتَّقِي اسم فاعل من الوقاية، وهي فرط الصيانة، فهو الذي يصون نفسه عمّا يضرّه، وأصل التقوى: التوقّي مما يكره، وسأل عمرُ أبيّ بن كعب عن التقوى، فقال له: أما سلكت طريقاً ذا شوكة؟ قال: بلى، قال: فما عملت؟ قال: شمّرت واجتهدت، قال: فذلك التقوى. وأخذ هذا المعنى ابن المعتز فقال:

خَلَّ الذنوب صغيرها وكبيرها ذاك التقى

واصنع كماشٍ فوق أرض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

وتدور أقوال العلماء في التقوى حول هذا المعنى، فعن علي رضي الله عنه: التقوى ترك الإصرار على المعصية، وترك الاغترار بالطاعة. وعن الواقدي: أن تزَيّن سرّك للحق كما زَيّنت ظاهرك للخلق. قال الإمام الطبري: إنهم الذين اتّقوا الله تبارك وتعالى في ركوب ما نهاهم عن ركوبه، فتجنبوا معاصيه، واتقوه فيما أمرهم به من فرائضه فأطاعوه بأدائها^(٢).

وتخصيص الهدى بالمتّقين لأنهم المتّفعون بالقرآن الكريم، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾^(٣).

ولاحظ الإمام الرازي التناسق بين هذه الجمل الأربعة: ألم، ذلك الكتب، لا ريب فيه، هدى للمتّقين، فقال: نَبّه أولاً على أنه الكلام المتحدّي به، ثم أُشير إليه بأنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال، فكان تقريراً لجهة التحدي، ثم نفى عنه أن يتشبّه به طرف من الريب، فكان شهادة بكماله، ثم أخبر عنه بأنه هدى للمتّقين، فقرّر بذلك كونه يقيناً لا يحوم الشكّ حوله^(٤).

والجدير بالذكر أن التقوى هي التعبير العملي عن حقيقة الإسلام لله تعالى

(١) جامع البيان ٧٦/١.

(٢) جامع البيان ٧٧/١.

(٣) فضّلت: الآية ٤٤.

(٤) تفسير الرازي ٢٥/٢.

والاستسلام لأحكامه، ولهذا سنجد الآيات الكريمة للسورة تربط بين الأحكام التشريعية وبين التقوى.

الإيمان بالغيب

ثم بيّنت الآيات الصفات الأساسية الكبرى للمؤمنين، وهي:

﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ أي: يصدّقون بكل ما أخبر الله تعالى به مما غاب عنهم.

فَالْغَيْبُ: كل ما غاب عن الإنسان، إذ هو مخلوق محدود، والحقيقة لا تعرف كلها به، ثمّة مصدر آخر أعظم وأجلّ من الإنسان، وهو الخبر الصادق عن الخالق العظيم جلّ وعلا، الذي وسّع كل شيء علماً، فهو سبحانه وحده عالم الغيب والشهادة، كما سيأتي معنا في قصة بدء خلق الإنسان عند قوله تعالى: ﴿قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾. وعالم الغيب أعظم بكثير من العالم المشاهد المنظور المحسوس، والإنسان لا يزال يجهل كثيراً من بنيته المادية والروحية، وسيبقى الجزء الهامّ في الإنسان غيباً عن الإنسان نفسه ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾^(١)، فضلاً عن العوامل الخارجة عنه.

وَالْإِيمَانُ بِالْغَيْبِ: التصديق بكل ما أخبر الله سبحانه عنه، ولا شك أنه تعالى أوثق مصدر لمعرفة الحقيقة، والمؤمنون بالغيب لا يبنون إيمانهم على مجرد التخمين والحدس والأوهام والتخيّلات، فهذه أمور لا تصلح أن تكون أساساً لإيمان وتصديق، ولهذا ندّد سبحانه بأولئك الذين يبنون عقائدهم على مجرد الظن والتخمين والتقليد: ﴿ألا إن لله من في السموات ومن في الأرض وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون﴾^(٢). وقال قبل ذلك في نفس السورة: ﴿وما يتبع أكثرهم إلا ظناً إن الظن لا يُغني عن الحق شيئاً إن الله عليم بما يفعلون﴾^(٣).

فالمراد من قوله تعالى: ﴿يؤمنون بالغيب﴾ الذي دلّ عليه الدليل حتى أصبح بمنزلة المشاهد المحسوس، والغيب إما أن يكون ممّا دلّ عليه الدليل، أو ممّا ليس عليه

(١) الإسراء: الآية ٨٥.

(٢) يونس: الآية ٦٦.

(٣) يونس: الآية ٣٦.

دليل، والمراد من هذه الآية مدح المتقين بأنهم يؤمنون بالغيب الذي دلّ عليه دليل، بأن يتفكروا ويستدلّوا فيؤمنوا به، وعلى هذا يدخل فيه العلم بالله تعالى وبصفاته، والعلم بالآخرة، والعلم بالنبوة^(١).

والإيمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها الإنسان، فيتجاوز مرتبة الحيوان الذي لا يدرك إلّا ما تدركه حواسه، إلى مرتبة الإنسان الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير المحدّد، الذي تدركه الحواس أو الأجهزة التي هي امتداد للحواس، وهي نقلة بعيدة الأثر في تصوّر الإنسان لحقيقة الوجود كله، ولحقيقة وجوده الذاتي، ولحقيقة القوى المنطلقة في كيان هذا الوجود، وفي إحساسه بالكون وما وراء الكون من قدرة وتدبير، كما أنها بعيدة الأثر في حياته على الأرض، فليس من يعيش في الحيز الصغير الذي تدركه حواسه كمن يعيش في الكون الكبير الذي تدركه بديهته وبصيرته... ولقد كان الإيمان بالغيب هو مفرق الطريق في ارتقاء الإنسان عن عالم البهيمة، ولكن جماعة الماديين في هذا الزمان، كجماعة الماديين في كل زمان، يريدون أن يعودوا بالإنسان القهقري إلى عالم البهيمة، الذي لا وجود فيه لغير المحسوس، ويسمّون هذا تقدّمية، وهو النكسة التي وقى الله المؤمنين إياها، فجعل صفتهم المميزة صفة الذين يؤمنون بالغيب^(٢).

والمراد من قوله ﴿يؤمنون﴾ يصدقون، فالتصديق هو المعنى اللغوي لكلمة الإيمان، قال ابن كثير: الإيمان في اللغة يطلق على التصديق المحض، كما قال تعالى: ﴿يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين﴾ وكما قال إخوة يوسف لأبيهم: ﴿وما أنت بمؤمن لنا ولو كنّا صادقين﴾، وكذلك إذا استعمل مقروناً مع الأعمال: ﴿إلّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾، فأما إذا استعمل مطلقاً، فالإيمان المطلوب لا يكون إلّا اعتقاداً وقولاً وعملًا، هكذا ذهب أكثر الأئمة، وحكاها الشافعي وأحمد إجماعاً، أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص^(٣).

وقال أبو السعود العمادي: وهو في الشرع لا يتحقّق بدون التصديق بما علم ضرورة أنه من دين نبينا عليه الصلاة والسلام، كالتوحيد والنبوة والبعث والجزاء ونظائرها، وهل هو كافٍ في ذلك أو لا بدّ من انضمام الإقرار إليه للمتمكن منه؟ والأول رأي

(١) انظر: تفسير الرازي ٣١/٢.

(٢) في ظلال القرآن ٣٩/١ - ٤٠.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٢٩/١.

الشيخ الأشعري ومَن شايعه، فإن الإقرار عنده منشأ لإجراء الأحكام، والثاني مذهب أبي حنيفة ومَن تابعه، وهو الحق، فإنه جعلهما جزئين له، خلا أن الإقرار ركن محتمل للسقوط بعذر، كما عند الإكراه، وهو مجموع ثلاثة أمور: اعتقاد الحق، والإقرار به، والعمل بموجبه، عند جمهور المحدثين والمعتزلة والخوارج، فمن أخلّ بالاعتقاد وحده فهو منافق، ومن أخلّ بالإقرار فهو كافر، ومن أخلّ بالعمل فهو فاسق اتفاقاً، وكافر عند الخوارج، وخارج عن الإيمان غير داخل في الكفر عند المعتزلة^(١).

والإيمان بالغيب الذي أخبر تعالى في كتابه أنه صفة المتقين، يدلّ على ثقتهم الكاملة بالله تعالى وبكل ما يخبرهم عنه جل وعلا، كما يدلّ على الإسلام والاستسلام والانقياد لدينه وشرعه سبحانه؛ ولهذا ذكره سبحانه في أول صفات المتقين، إذ هو أساس التقوى ومصدرها.

﴿ويقيمون الصلاة﴾ أي: يؤدّون الصلاة بشكل مستقيم على الوجه المشروع الذي كلفوا به.

والصلاة في الأصل الدعاء، وأي صلاة يؤدّيها العبد لا تخلو عن الدعاء، وهي أعظم العبادات البدنية الدالة على كمال الإسلام لله تعالى والخضوع له، ولهذا خصّها الله تعالى بالذكر هنا، كما ذكرت في آيات كثيرة في سورة البقرة وغيرها من السور.

﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ [٣] أي: ومما أعطيناهم من المال ينفقون في وجوه الإنفاق المشروعة. وإنفاق المال في الوجوه المشروعة عبادة يتقرّب بها الإنسان إلى الله تعالى، وهي العبادة المالية التي تدلّ على الإسلام لله تعالى والخضوع لدينه وشرعه.

وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين الصلاة وإنفاق المال، فإن الصلاة حق الله وعبادته، وهي مشتملة على توحيده والثناء عليه، وتمجيده والابتهال إليه، ودعائه والتوكّل عليه، والإنفاق هو الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدّي إليهم^(٢).

﴿والذين يؤمنون بما أنزل إليك﴾ وهو القرآن الكريم.

﴿وما أنزل من قبلك﴾ كالتوراة والإنجيل والזبور، وغيرها من الكتب التي أنزلها الله على الأنبياء السابقين.

(١) تفسير أبي السعود ٣٠/١. وانظر تفسير البضاوي ٤٤/١.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣٠/١.

وهي الصفة اللاتئة برسالة الإسلام، الخاتمة للرسالات الإلهية، وقيمة هذه الصفة تظهر في الشعور بوحدة البشرية، ووحدة دينها، ووحدة رسالات رسلها، التي هي رسالة الإسلام لله تعالى وحده، وهو موضوع السورة الأساسي كما ذكرنا.

فالمسلمون يؤمنون بجميع الأنبياء والمرسلين، الذين أخبر الله تعالى عنهم في القرآن الكريم، لا يفرقون بينهم، كما أخبر سبحانه في آخر سورة البقرة ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّٰهِ وَمَلَأَتْهُ وَكُتِبَ وَرَسُولُهُ لَا تَفَرَّقْ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾.

الإيمان بيوم القيامة

﴿وبالآخرة هم يوقنون﴾ [٤] أي: ويصدقون تصديقاً كاملاً لا شك فيه بالحياة الآخرة في يوم القيامة، وبما يكون فيها من إحياء للأموات، وبعثهم من قبورهم، وحشرهم وحسابهم، ودخولهم إما إلى الجنة وإما إلى النار. واليقين: العلم المسبوق بالشك، ولذلك لا يوصف به الله تعالى.

والإيمان بالآخرة مظهر عملي للإيمان بالغيب؛ لأن الله تعالى أخبر عنها، فالإيمان بها مبني على الخبر الصادق، وهو من أعظم قضايا الإيمان؛ لاتصاله اتصالاً وثيقاً بالإيمان بالله تعالى ووحدانته وكماله جلّ وعلا، ولا يعرف الإنسان قيمة وجوده، وحكمة الله تعالى من خلقه إلا إذا آمن بمسؤوليته أمام خالقه جلّ وعلا يوم القيامة، فهو مفرق الطريق بين من يعيش بين جدران الحسّ المغلقة، وبين من يعيش في الوجود المديد، ومن يشعر أن حياته على الأرض ابتلاء يمهد للجزاء، وأن الحياة الحقيقية إنما هي هنالك وراء هذا الحيز الصغير المحدود^(١).

هذه هي الصفات الأساسية الكبرى للمتقين، وهذه هي سمات عقيدتهم وعبادتهم وشريعتهم؛ ولهذا التفت الآيات بأسلوب التقرير إلى الشاء على المتصّفين بها بقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي أولئك المتصفون بهذه الصفات والتميزون بها عن غيرهم من الناس، على هدى من ربهم، لأنهم تمسكوا بتعاليم الكتاب المنزل عليهم من ربهم، الذي وصفه تعالى بقوله: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى

(١) انظر: في ظلال القرآن ٤١/١.

للمتقين ﴿١﴾. وأفاد معنى الاستعلاء في قوله: ﴿على هدى﴾ تمكّنهم من الهدى واستقرارهم عليه وتمسكهم به، بحيث شبّهت حالهم بحال مَنْ اعتلى الشيء، وركبه، ونحوه: هو على الحق أو على الباطل^(١). ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ [٥] أي: الناجون الفائزون، نجوا من عذاب الله تعالى، وفازوا برضوانه وجنته، وأفاد تكرير اسم الإشارة، وتوسيط ضمير الفصل، اختصاص المتقين بالهدى والفلاح، فهم وحدهم المهتدون الفائزون.

(١) تفسير النسفي ٤٨/١.

هرم الجحود والفساد

تبيّن لنا من خلال الصفات التي ذكرتها الآيات للمتّقين، أنهم المستسلمون لله تعالى، والخاضعون لجلاله علماً وعملاً، عقيدة وشريعة.

وشرعت الآيات في مقابل المستسلمين له تعالى، تتحدّث بأسلوب التقرير عن الذين لم يتصفوا بهذه الصفة، فقسمتهم إلى ثلاث فئات، الأولى: الكافرون جحوداً وعناداً، والثانية: المنافقون وهم نوع مخصوص من الفئة الأولى، والثالثة: أهل الكتاب، وهم أيضاً نوع مخصوص من الفئة الأولى.

ويلاحظ المتدبّر للآيات الكريمة أنها أوجزت الحديث عن الفئة الأولى، ثم فصلت بعض الشيء أحوال الفئة الثانية، ثم بعد ذلك فصلت وأفاضت في بيان أحوال ومواقف الفئة الثالثة، وكأن الآيات بهذا رسمت هرمًا، وضعت على قمته الكافرين ثم جعلت وسطه للمنافقين، وخصّصت قاعدته العريضة لأهل الكتاب.

﴿إن الذين كفروا﴾ أي جحدوا وأنكروا صحّة الكتاب الذي لا ريب فيه، وهو القرآن الكريم. وأصل الكُفْر في كلام العرب: السّتر والتغطية، ومنه قول الشاعر: في ليلة كفر النجوم غمائمها، أي: سترها، ومنه سُمّي الليل كافرًا؛ لأنه يغطّي كل شيء بسواده... والكافر: الزارع، والجمع كفّار، وقال تعالى: ﴿كمثل غيث أعجب الكفار نباته﴾^(١) يعني الزّراع، لأنهم يغطّون الحب^(٢).

﴿سواء عليهم﴾ أي متساوٍ لديهم.
﴿أنذرتهم﴾ أي: خوّفتهم وحذّرتهم، والإنذار: إعلام مع تخويف^(٣).
﴿أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ [٦] بسبب عنادهم وجحودهم.

(١) الفتح: الآية ٢٩.

(٢) انظر: تفسير القرطبي ١/١٨٣.

(٣) تفسير الخازن ١/٥٠.

وهذا يدلّ على كمال علم الله تعالى ، فهو سبحانه عليم بأحوال الناس ومدى استجابتهم لدعوة رُسله قبل أن يرسل إليهم رسله ، وينزل عليهم كتبه ، ولكنه سبحانه لا يعامل الناس بحسب علمه جلّ وعلا ، إنما يعاملهم بحسب أعمالهم ، وما يكون من اختيارهم وكسبهم ؛ ولهذا أرسل لهم الرُّسل ، وأنزل عليهم الكتب ويبيّن لهم الشرائع ، وجعل لهم مشيئة واختياراً ، وزوّدهم بوسائل التمييز والتمكين ، العقل والسمع والبصر ، فلا حجة لهم بعد كل ذلك إن أعرضوا عن الحق وجحدوا أدلّته وشواهدة التي لا ريب فيها ، ولم يوجّهوا عقولهم وأبصارهم وأسماعهم إليها .

ختم وطبع

ولهذا قال تعالى بعد ذلك :

﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ﴾ أي : طبع عليها وغطّاها ، فلا تعي خيراً ولا تفهمه .

والختم : مصدر ختمت الشيء ختماً فهو مختوم ، ومعناه : التغطية على الشيء والاستيثاق منه ، حتى لا يدخله شيء ، ومنه : ختم الكتاب والباب .

﴿ وعلى أبصارهم غشاوة ﴾ أي : وجعل على أبصارهم غشاوة ، وهي الغطاء .

والمراد بالختم والغشاوة هنا المعنويان لا الحسيّان ، أي : لما كانت قلوبهم غير واعية لما وصل إليها ، والأسماع غير مؤدية لما يطرّقها من الآيات البيّنات إلى العقل على وجه مفهوم ، والأبصار غير مهيّدة للنظر في مخلوقاته وعجائب مصنوعاته ، جُعِلت بمنزلة الأشياء المختوم عليها ختماً حسيّاً^(١) . فسبب الختم والتغطية نابع من داخل نفوسهم ، من كسبهم واختيارهم ، كما سيأتي عند قوله تعالى : ﴿ وما يضلّ به إلاّ الفاسقين ﴾ ، ومثله قوله تعالى : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾^(٢) ، وقوله تعالى : ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾^(٣) ، والآيات في هذا المعنى كثيرة .

قال ابن جرير الطبري : والحق عندي في ذلك ما صحّ بنظيره الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه ، فإن تاب ونزع

(١) انظر : فتح القدير ٣٩/١ .

(٢) الصفّ : الآية ٥ .

(٣) الأنعام : الآية ١١٠ .

واستغفر صقل قلبه، وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه، فذلك الران الذي قال الله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ^(١) فَأَخْبَرَ ﷺ أَنَّ الذُّنُوبَ إِذَا تَتَابَعَتْ عَلَى الْقُلُوبِ أَغْلَقَتْهَا، وَإِذَا أَغْلَقَتْهَا أَتَاهَا حَيْثُذَ الْخْتَمِ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ تَعَالَى وَالطَّبْعِ، فَلَا يَكُونُ لِلْإِيمَانِ إِلَيْهَا مَسْلَكٌ، وَلَا لِلْكَفْرِ عَنْهَا مَخْلَصٌ، فَذَلِكَ هُوَ الْخْتَمُ وَالطَّبْعُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ﴾ ^(٢). فَالْقَوْمُ هُمُ الَّذِينَ عَطَّلُوا أَسْمَاعَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ وَعَقُولَهُمْ عَنْ شَوَاهِدِ الْحَقِّ وَأَدْلَتِهِ، كَمَا صَرَّحَتِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ ^(٣).

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [٧] بسبب كفرهم وعنادهم وإعراضهم عن شواهد الحق وأدلته.

المنافقون

ونزلت الآيات من قمة هرم الجحود والعناد، إلى نوع مخصوص من أنواع الكفر جحوداً وعناداً، وهم المنافقون الذين يُبْطِنُونَ الْكُفْرَ وَيُظْهِرُونَ الْإِيمَانَ، ووقفت الآيات عندهم تفصل أحوالهم وتبين بعض مواقفهم، وتضرب لهم بعض الأمثال الكاشفة لحقائقهم، قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ ﴾ أي : وبعض الناس ﴿ مَن يَقُولُ ﴾ بلسانه ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ أي آمنا بالله الواحد الأحد، وبالمسؤولية والحساب والجزاء أمام يوم القيامة.

والإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر أعظم قضايا الإيمان وأهم أركانه، ولهذا خصّهما سبحانه بالذكر، وكان المنافقون يعلنون إيمانهم بالله وباليوم الآخر أمام المؤمنين، لأنهما يدلّان على صحّة الإيمان وتمامه.

﴿ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [٨] في الحقيقة والواقع، وبهذا نفى سبحانه عنهم الإيمان نفياً قاطعاً، وكذب ادّعاءهم، كما قال في موضع آخر : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ

(١) المطففين : الآية ١٤. والحديث رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة، وقال الترمذي : حسن صحيح.

(٢) جامع البيان ٨٧/١.

(٣) الأعراف : الآية ١٧٩.

إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴿١﴾ .
فلا يصحّ الإيمان إلّا إذا وافق القلب اللسان، وكان انقياد الإنسان قلباً وقالباً، علماً
وإذعاناً وسلوكاً.

﴿ يخادعون الله ﴾ في زعمهم، لأنهم يظنون أن الله سبحانه ممّن يصحّ خداعه،
وقرىء ﴿ يخدعون ﴾ والخديعة: الحيلة والمكر، وأصله في اللغة الإخفاء، والمخادع
يُظهر ضدّ ما يُضمّر (٢).

ومخادعة المنافقين ما أظهره من الإيمان خلاف ما أبطنوه من الكفر.

﴿ والذين آمنوا ﴾ أي: ويخادعون الذين آمنوا لكي يعاملوهم معاملة المسلمين.

﴿ وما يخدعون إلّا أنفسهم ﴾ وفي قراءة ﴿ وما يخادعون ﴾ لأن ضرر المخادعة
يعود عليهم، فمَنْ خدع مَنْ لا يُخدَع فإنما يخدع نفسه، لأن الخداع يكون مع مَنْ لا
يعلم البواطن، وأما مَنْ علم البواطن فمَنْ دخل معه في الخداع فإنما يخدع نفسه، ودلّ
هذا على أن المنافقين ما عرفوا الله تعالى، إذ لو عرفوه لعرفوا أنه لا يُخدَع (٣).

﴿ وما يشعرون ﴾ [٩] أن حاصل خداعهم يرجع عليهم، والشعور علم الشيء
علم حسّ، ومشاعر الإنسان حواسّه، لأنها آلات الشعور، فهم لتمادى غفلتهم كالذي لا
حسّ له (٤).

فما أشدّ غفلتهم، وما أقبح اغترارهم بأنفسهم!

مرض وفساد

﴿ في قلوبهم مرض ﴾ أي: في قلوب المنافقين شك ونفاق وحقد وحسد،
والمرض ضدّ الصحة، وهو اسم لكل فساد، وخلل، والمنافقون أصحاب القلوب
المريضة، ولا شك أن النفاق والشك والحقد والحسد أمراض معنوية، هي أشدّ خطراً
من الأمراض الحسيّة؛ لأنها تؤدّي إلى خلل واضطراب في دين الإنسان وسلوكه وخلقه.
﴿ فزادهم الله مرضاً ﴾ أي: زادهم شكّاً وكفراً ونفاقاً وضلالاً... إلخ، والجزاء

(١) المنافقون: الآية ١.

(٢) انظر تفسير الخازن ٥٦/١.

(٣) تفسير القرطبي ١٩٦/١.

(٤) تفسير النسفي ٥٧/١.

من جنس العمل، وهو كما قال تعالى: ﴿وَأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون﴾ (١).

وقد يكون المعنى المراد دعاء عليهم جزاء على نفاقهم.

﴿ولهم عذاب أليم﴾ يوم القيامة، فهم أشدّ أهل النار عذاباً، لقوله تعالى: ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً﴾ (٢).

﴿بما كانوا يكذبون﴾ [١٠] في قولهم: آمنا بالله وباليوم الآخر، وما هم بمؤمنين.

والنفاق من أخطر الآفات التي تصيب المجتمعات، فإذا ما انتشر في المجتمع أفسده، وأحدث فيه الخلل والاضطراب والفتن؛ لأنّ المنافقين يعملون على نشر الفساد وإحداث الفتن بين الناس، وإفشاء أسرار المجتمع إلى أعدائه.

وإذا ما نصّحهم ناصح بأن يتّقوا الله تعالى ويكفّوا عن الفساد والإفساد، ادّعوا لأنفسهم صفة الإخلاص والصلاح، قال تعالى:

﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون﴾ [١١] أي: لا ينبغي مخاطبتنا بذلك؛ لأنّ شأننا ليس إلّا الإصلاح.

وردّ الله تعالى دعوهم هذه أبلغ ردّ، مما يدلّ على شدّة سخطه سبحانه عليهم، فقال: ﴿ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾ [١٢] أنهم مفسدون، فما هم عليه هو مصدر الفساد وبؤرة الشر، ولكن لفرط جهلهم وحمافتهم لا يعلمون أنه شرّ وفساد.

سفه وجهل

﴿وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس﴾ أي آمنوا إيماناً خالصاً لا شك فيه ولا نفاق، كما آمن أصحاب النبي ﷺ، أجابوا بتكبر وعناد:

﴿قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء﴾ أي: لا نؤمن كما آمن السفهاء، فالاستفهام في كلامهم للإنكار، والسفهاء: الجهال الخرقاء المتّصفون بقلة العقل والخفة والاضطراب.

وأصل السفه في كلام العرب الخفة والرقّة، يقال: ثوب سفه، إذا كان رديء

(١) التوبة: الآية ١٢٥.

(٢) النساء: الآية ١٤٥.

النسج خفيفه، أو كان بالياً رقيقاً، وتسففت الريح الشجر: مالت به، وتسففت الشيء: استحقرته، والسفه ضدّ الحلم^(١).

ولا يخفى ما في كلامهم من تعريض بالمؤمنين، فلا بدّ أن يكون قد صدر عنهم سرّاً أو فيما بينهم، وقد ردّ سبحانه عليهم أبلغ ردّ فقال:

﴿ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون﴾ [١٣] أنهم هم السفهاء، وبهذا وصفهم الله تعالى بصفتي السفه والجهل.

ومما يدلّ على أنهم كانوا يقولون ذلك سرّاً لا جهراً، أنهم كانوا يتظاهرون بالإيمان أمام المؤمنين.

﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا﴾ أي: آمنا بما آمنتم به، أو آمنا إيماناً كإيمانكم.

﴿وإذا خلوا إلى شياطينهم﴾ أي: إذا انفردوا مع رؤسائهم بالكفر والنفاق، كعبد الله بن أبيّ ابن سلول، أو مع أحبار اليهود ورؤسائهم الذين تعلموا النفاق منهم.

وتدلّ الآية على أن الشياطين يكونون من الإنس كما يكونون من الجنّ، قال تعالى: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبيّ عدوّاً شياطين الإنس والجنّ يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربّك ما فعلوه فذرهم وما يفترون﴾^(٢).

وسمّوا بذلك لشدة تمردهم وكفرهم.

﴿قالوا إنّنا معكم﴾ في العقيدة الفاسدة والكفر والشرك فاطمئنوا، فنحن ثابتون على ما أنتم عليه، وما أعلنّا الإيمان إلا استهزاء وسخرية.

﴿إنما نحن مستهزئون﴾ [١٤] أي: مستخفون بالمؤمنين، والاستهزاء: السخرية والاستخفاف، ولا شك أن المستهزىء بالشيء منكر له.

﴿الله يستهزىء بهم﴾ أي يجازيهم على استهزائهم، ويعاملهم سبحانه معاملة المستهزىء بهم، وينزل بهم الهوان والحقارة ويتقمّ منهم.

وإنما جعل سبحانه ما وقع منه استهزاء مع كونه عقوبة ومكافأة، مشاكلة، وقد كانت العرب إذا وضعت لفظاً بإزاء لفظ جواباً له وجزاء، ذكرته بمثل ذلك اللفظ، وإن

(١) انظر: تفسير القرطبي ٢٠٥/١.

(٢) الأنعام: الآية ١١٢.

كان مخالفاً له في معناه، وورد ذلك في القرآن كثيراً، ومنه: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين﴾^(١)، وسيأتي معنا قوله تعالى: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾.

وبين تعالى كيف يستهزئ بهم فقال:

﴿ويمدّهم في طغيانهم يعمهون﴾ [١٥] أي: يتركهم ويمهلهم في ضلالهم يتحيرون ويرددون، فلا يعاجلهم سبحانه بالعقوبة كي يزدادوا ضلالاً وحيرة وقلقاً واضطراباً، كما قال في موضع آخر: ﴿قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدداً﴾^(٢) الآية.

﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾ أي: اختاروا الضلالة على الهدى، واستبدلوها به، وفضلوها عليه، فأخذوا الضلالة وأعرضوا عن الهدى.

﴿فما ربحت تجارتهم﴾ بل خسروا خسارة كبيرة لا تعوّض، شأنهم كشأن الذي قال تعالى فيه: ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين﴾^(٣).

﴿وما كانوا مهتدين﴾ [١٦] في تجارتهم، فقد يخسر التاجر ويكون على هدى في تجارته، غير مستحق للذم في تصرفه، فنفى الله تعالى عن المنافقين الأمرين، فما ربحوا ولا أحسنوا التصرف، مبالغة في ذمهم^(٤).

قلق وحيرة

واهتمام الآيات بالمنافقين وتفصيل أحوالهم، يدلّ على خطورة النفاق وعمق تأثيره بالمجتمع، وتأكيداً لهذا الخطر ضربت الآيات للمنافقين المثاليين التاليين:

﴿مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً﴾ أي: حالهم كحال الذي أوقد ناراً، ويبدو أنه كان في ظلمة ووحشة وخوف، وأنه أوقد النار لكي يستضيء بها ويأنس بنورها ويأمن.

﴿فلما أضاءت ما حوله﴾ أي: فلما أنارت النار ما حول موقدها، وبَدَدَت الظلمة المحيطة به، وزالت عنه الوحشة، وشعر بشيء من الأمن والأنس.

(١) الشورى: الآية ٤٠، وانظر: فتح القدير ٤٤/١.

(٢) مريم: الآية ٧٥.

(٣) الحج: الآية ١١.

(٤) انظر: زاد المسير ٣٨/١.

﴿ ذهب الله بنورهم ﴾ أي : أخذ الله تعالى نورهم ، وأمسكه ، وعادوا إلى الظلمات كما كانوا قبل ذلك .

وانتقلت الآية من صيغة المفرد إلى الجمع لتبين أن المنافقين وذواتهم لم يشبهوا بذات المستوقد ، حتى يلزم منه تشبيه الجماعة بالواحد . وإنما شُبِّهَتْ قَصَّتْهُمْ بقصة المستوقد^(١) .

﴿ وتركهم في ظلمات ﴾ الشك والكفر والنفاق والحيرة ، والظلمة الحادثة بعد الضوء أشدَّ على الإنسان من ظلمة لم يسبقها ضياء .

﴿ لا يبصرون ﴾ [١٧] ما حولهم ولا يهتدون إلى سبيل خير ورشاد .
والتشبيه هنا في نهاية الصحة ؛ لأنهم بإيمانهم أولاً اكتسبوا نوراً ، ثم بنفاقهم ثانياً أبطلوا ذلك النور ، ووقعوا في حيرة عظيمة ، فإنه لا حيرة أعظم من حيرة الدين^(٢) .
وإلى جانب ما هم فيه من ظلمات الكفر والنفاق والحيرة ، فهم متصفون بتعطل جوارحهم عن الانتفاع بها .

فهم ﴿ صُمُّ ﴾ عن استماع الحق ، والصم جمع أصم ، وهو الذي لا يسمع .
﴿ بُكْم ﴾ عن التكلم به ، جمع أبكم وهو الذي لا يتكلم .

﴿ عُمِّي ﴾ عن رؤية أدلة الهدى وشواهد الحق ، جمع أعمى ، وهو الذي لا يبصر .
فهم كالمختوم على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم كما مرَّ معنا في وصف حال الكافرين جحوداً وعناداً .

﴿ فهم لا يرجعون ﴾ [١٨] أي : لا يعودون إلى الهدى ما داموا متصفين بهذه الصفات .

وقد يكون المعنى أنهم بمنزلة المتحيرين المترددين ، يقفون في مكانهم لا يبرحون ، ولا يدرون أيتقدمون أم يتأخرون^(٣) .

(١) تفسير الرازي ٨٢/٢ .

(٢) تفسير الرازي ٨١/٢ .

(٣) انظر : تفسير الرازي ٨٤/٢ .

الخائفون من النور

وأما المثال الثاني ففي قوله تعالى:

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: مثل المنافقين مع الكتاب الذي لا ريب فيه كمطر من السحاب، فكلّ ما علاك فأظلك فهو سماء.

والصيّب: المطر الذي يصوّب، أي: ينزل ويقع، ويقال للسحاب صيّب أيضاً، ودلّ تنكيره على أنه مطر شديد هائل^(١).

﴿فِيهِ ظِلْمَاتٌ﴾ أي: معه ظلمات، ظلمة تكائفه، وظلمة سحابه، وظلمة الليل.

﴿وَرَعْدٌ﴾ وهو الصوت الذي يُسمَع من السحاب، لاصطكاك أجرامه.

﴿وَبَرْقٌ﴾ وهو الذي يلمع من السحاب، من: برق الشيء بريقاً إذا لمع.

هذا ما ذكره كثير من قدماء المفسرين، كالفخر الرازي والبيضاوي والنسفي، وهو قريب من النظرية العلمية المعاصرة في تفسير ظاهرة الصاعقة، وما يصاحبها من رعد وبرق، التي تقول: الصاعقة هي عملية تفريغ كهربائي، تحصل خلال طقس عاصف، بين غيوم مشحونة كهربائياً، بعضها موجب وبعضها سالب، فتنتج عن عملية التفريغ هذه ظاهرة مرئية مضيئة تُعرف بالبرق، وظاهرة أخرى صوتية تسببها موجات الضغط الناتجة عن عملية التفريغ، ويُعرف هذا الصوت بالرعد، والطقس العاصف هذا يسببه سوق الملك للسحاب وزجره كما ورد في الحديث الشريف عن ابن عباس أن النبي ﷺ سئل عن الرعد ما هو؟ فقال: «مَلَكٌ من الملائكة مُوَكَّل بالسحاب، معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله» فقالوا: فما هو الصوت الذي نسمع؟ فقال: «زجره بالسحاب إذا زجره حتى ينتهي إلى حيث أمر» رواه الترمذي وقال حسن صحيح^(٢).

لكن ظواهر الآيات القرآنية تدلّ على أن السحاب تسوقه الرياح، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثِيرَ سَحَاباً فَسَقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَاهُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾^(٣) وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي يَرْسِلُ الرِّيحَ فَثِيرَ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ

(١) انظر: تفسير النسفي ٦٩/١.

(٢) قرة العينين على تفسير الجلالين ٣٢٢.

(٣) فاطر: الآية ٩.

يشاء ويجعله كسفاً، فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ﴿١﴾.

ولا بدّ للتوفيق بين النصوص القرآنية وبين الحديث الشريف، أن نقول: إن الرياح تحمل بتقدير الله تعالى السحاب، من الآفاق البعيدة، إلى حيث يشاء الله تعالى نزول المطر، وأما اضطراب السحاب واحتكاكه المؤدي إلى ظاهرتي الرعد والبرق فيكون بفعل المَلَك المُوَكَّل بذلك، والكلّ بتقديره جلّ وعلا وتدبيره، أو نقول: إن للرياح أيضاً ملائكة موكلة بها، توجهها وتحركها كما يشاء الله تعالى العليم الحكيم، وما هذه النواميس والقوانين التي يفسر العلماء بها هذه الظواهر، إلا أسباب أبدعها خالق الأسباب والمسببات جلّ وعلا.

ثم وصفت الآيات حال هؤلاء الناس عند نزول المطر عليهم، ومعه الرعد والبرق، بقوله تعالى: ﴿يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق﴾ وهذا يدلّ على شدّة خوفهم من الصواعق، جمع صاعقة، وهي جسم ناري مع قصفة رعد هائل، يهلك من يُصاب بها، وتطلق أيضاً على صيحة العذاب، كما في قوله تعالى: ﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾ (٢)، وسيأتي معنا قوله تعالى: ﴿وإذ قلت يا موسى لنؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون﴾.

﴿حذر الموت﴾ أي: خوفاً من الموت والهلاك.

﴿والله محيط بالكافرين﴾ [١٩] فهم في قبضة قدرته سبحانه لا يفوتونه.

﴿يكاد البرق يخطف أبصارهم﴾ أي: يذهب بأبصارهم ويسلبها بسرعة.

﴿كلما أضاء لهم مشوا فيه﴾ أي: كلما لمع البرق مشوا في نوره.

﴿وإذا أظلم عليهم قاموا﴾ أي: وقفوا متحيرين، وهذا تمثيل لشدّة الأمر على المنافقين، كشدّته على أصحاب الصيّب، وما هم فيه من غاية التحير والجهل بما يأتون وما يذرون، إذا صادفوا من البرق خفقة، مع خوف أن يخطف أبصارهم، انتهزوا تلك الخفقة فرصة فخطوا خطوات يسيرة، فإذا خفي وفتّر لمعانه بقوا واقفين مقيدين عن الحركة (٣).

(١) الروم: الآية ٤٨.

(٢) فصلت: الآية ١٣.

(٣) تفسير الرازي ٨٨/٢.

ثم يبين تعالى كمال قدرته فقال:

﴿ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم﴾ أي: ولو شاء الله لزاد في قصف الرعد فأصمّهم، وفي ضوء الرعد فأعماهم.

﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ [٢٠].

ولعلّ هذا المثال يبيّن شدّة الصراع المحتدم في صدور المنافقين، بين أنوار الشواهد القرآنية الساطعة، وبين ظلمات الكفر والنفاق والعناد والجحود، التي تملأ قلوبهم ونفوسهم.

قضيةان هامتان

وبعد أن أنهت الآيات حديثها عن المنافقين، استطردت إلى بيان قضيتين هامتين، قبل أن تنزل إلى قاعدة هرم الجحود والعناد، وتشرع في الحديث عن مواقف أهل الكتاب. أولى القضيتين بيان عموم وشمول الرسالة الإسلامية، وعرض بعض مؤيدات صحتها وصدقها.

وثانيهما بيان نظرة الإسلام إلى الإنسان، ووحدة الأصل الإنساني، وكيف شرّفه الله تعالى باستخلافه في الأرض، وتكليفه وجعله مسؤولاً أمامه يوم القيامة.

استهلّت الآيات الحديث عن القضية الأولى، بهذا النداء الإلهي الموجّه إلى جميع الناس، وهو أول نداء في القرآن الكريم بحسب ترتيب المصحف:

﴿يا أيّها الناس﴾ والمراد منهم كل الناس الموجودين في عصر التنزيل، ومن يأتي بعدهم، فالخطاب متجدّد دائماً إلى كل جيل من أجيال الناس؛ لأن الله تعالى أنزل القرآن الكريم لكل الأجيال، وتكفل بحفظه وسيبقى هذا الكتاب الذي لا ريب فيه محفوظاً، يخاطب الناس بأسلوب الأمر الصريح الملزم قائلاً: ﴿اعبدوا ربكم﴾ أي: أطيعوا ربكم بتوحيده والتزام دينه وشريعته، والاستسلام لأمره، فهو ربكم الذي خلقكم ويربّيكم بما يمدّكم به من أسباب العيش والحياة، لا ربّ لكم سواه جلّ وعلا.

قال القرطبي رحمه الله: ﴿اعبدوا﴾ أمر بالعبادة، والعبادة هنا عبارة عن توحيده والتزام شرائع دينه، وأصل العبادة الخضوع والتذلّل، يقال: طريق معبّدة، إذا كانت موطوءة بالأقدام، والعبادة: الطاعة^(١).

(١) تفسير القرطبي ١/٢٢٦.

والربّ: المربّي بالإيجاد والإمداد، ولهذا قال تعالى:

﴿الذي خلقكم والذين من قبلكم﴾ أي: الذي أوجدكم وأنشأكم، والذين من قبلكم، فالخالق واحد لا شريك له جلّ وعلا.

﴿لعلكم تتقون﴾ [٢١] أي: اعبدوا ربكم راجين أن تكونوا من المتّقين، فكلمة (لعلّ) للترجيّ والإطماع، ولكنه إطماع من كريم، فيجري مجرى وعده المحتوم وفاؤه^(١).

وتشير الآية إلى أن العابد ينبغي ألاّ يغترّ بعبادته، بل يكون ذا خوف ورجاء في وقت واحد، كما في قوله تعالى: ﴿يرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً﴾^(٢).

ودلّت الآية على أن التقوى أعلى درجات العبادة، وقد مرّ معنا في أول السورة أنه تعالى أنزل القرآن الكريم هدًى للمتّقين، وذكرنا ثمة أن التقوى هي التعبير العملي عن إسلام الإنسان لله تعالى.

الإنسان والأرض والسماء

ثم بيّنت الآيات بعض الأدلّة الدالة على وجوده سبحانه وعلى جوده وفضله وإحسانه، وكيف أنه أمدّ الإنسان بكل الأسباب التي يحتاج إليها في حياته ومعيشته على الأرض: ﴿الذي جعل لكم الأرض فراشاً﴾ أي: الذي جعل لكم الأرض كالفراش، تتقلبون عليها وتنامون عليها كما تتقلبون وتنامون على الفراش.

والمراد أنه سبحانه جعلها ملائمة لحياتكم، ومسخرة ومذلّة لمعيشتكم عليها، وقد ذكر سبحانه مثل هذا المعنى في آيات كثيرة، منها: ﴿الذي جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى﴾^(٣) ومنها: ﴿والله جعل لكم الأرض بساطاً﴾^(٤).

﴿والسماء بناء﴾ أي وجعل السماء كالسقف للأرض، أو كالقبة المضروبة فوقها، ويقال لسقف البيت: بناء، وقد سمّي سبحانه السماء سقفاً في قوله: ﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون﴾^(٥).

(١) تفسير النسفي ٧٥/١.

(٢) الإسراء: الآية ٥٧.

(٣) طه: الآية ٥٣.

(٤) نوح: الآية ١٩.

(٥) الأنبياء: الآية ٣٢.

ويقال: بنى على أهله، والعامّة تقول بنى بأهله، وهو خطأ، وكأن الأصل فيه أن الداخل بأهله كان يضرب عليها قبة ليلة دخوله بها، فقليل لكل داخل بأهله بان^(١).
فالبناء فيه معنى الرفع، كما في قوله: ﴿أأنتم أشدّ خلقاً أم السماء بناها﴾ رفع سمكها فسواها^(٢).

﴿ وأنزل من السماء ماء﴾ أي: أنزل من السحاب الذي في جهة السماء ماء، فالمطر ينزله الله تعالى من السحاب، بصريح قوله تعالى: ﴿ ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار﴾^(٣).

وإنزال المطر من الظواهر الكونية الدالة على وحدانيته جلّ وعلا، وعلى فضله وإحسانه، فالمطر ضروري لحياة الإنسان، منه شرابه وغذاؤه، كما قال تعالى: ﴿ وهو الذي أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماءً طهوراً﴾ لنحيي به بلدة ميتاً ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسي كثيراً^(٤). ولم يستطع الإنسان في كل عصوره حتى عصرنا الحاضر أن يستغني عن ماء المطر، رغم ما أوتي من وسائل التمكين والقوة، فلم تغنه السدود التي أنشأها، والمياه الجوفية التي استخرجها عن ماء السماء، ولا يزال المطر أعظم وأهم مصادر المياه العذبة بالنسبة للإنسان، ولا تزال الآيات الكريمة تقرر مسامع البشر بأسلوب التحدي: ﴿ قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين﴾^(٥).

ويتوقف أيضاً طعام الإنسان على ماء المطر:

﴿ فأخرج به﴾ أي: بماء المطر.

﴿ من الثمرات﴾ أي: من ألوان الثمار وأصناف النبات.

﴿ رزقاً لكم﴾ فأنتم أيها الناس المنعم عليكم، والمطر أنزله الله تعالى من أجلكم، فعليكم أن تعبدوه وحده، وتستسلموا لأحكام دينه وشريعته.

(١) تفسير القرطبي ٢٢٩/١.

(٢) النازعات: الآيتان ٢٧ - ٢٨.

(٣) النور: الآية ٤٣.

(٤) الفرقان: الآية ٤٨ - ٤٩.

(٥) الملك، الآية: ٣٠.

﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً ﴾ أي: فلا تجعلوا لله تعالى أمثالاً وأكفاء ونظراء، فهو سبحانه وحده الخالق المنعم، المستحق للعبادة والطاعة.

والنّد: المثل، ولا يقال إلاّ للمخالف المماثل في الذات، من: ندّوداً إذا نفر، وناددت الرجل: خالفته، وقال حسن رضي الله عنه:

أتهجوه ولست له بندٌ فشرّكما لخيركما الفداء^(١)

﴿ وأنتم تعلمون ﴾ [٢٢] أنه سبحانه هو الخالق المنعم، فهو إذاً وحده المستحق للعبادة والطاعة، يتنزّه عن النّد والضدّ والشريك والولد.

ودلّت الآية أن على الإنسان أن ينظر ويفكّر، ويبنى إيمانه على الدليل والبرهان، لا على مجرد التقليد الأعمى الذي لا نظر معه ولا استدلال، وسيأتي مزيد بيان لهذا المعنى في آيات السورة.

التحدّي بالقرآن

وكما أنزل سبحانه المطر حياة لأبدانكم وغذاء لأجسامكم، أنزل القرآن الكريم حياة لقلوبكم وغذاء لأرواحكم، فهو الكتاب الذي لا ينبغي لأحد أن يرتاب في صدقه وصحته؛ لأنه كتاب عزيز، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، يحمل في كل سورة من سوره مؤيدات صدقه، وأدلة صحته.

﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا ﴾ أي: وإن جعلكم العناد والجحود في ريب من القرآن الكريم الذي نزلناه على عبدنا محمد - ﷺ - وهو الكتاب الذي لا ريب فيه.

﴿ فأتوا بسورة من مثله ﴾ أي: هاتوا مما يماثله مقدار سورة من سوره، وهو أمر تعجيز وتحّد. والسورة اسم مجموعة من آيات القرآن الكريم مقرونة ببعضها بشكل تستقل به عن غيرها، ويربطها موضوع واحد تدور في فلكه.

ولفظ السورة لغة منقول من سور المدينة، لأنها محيطة بطائفة من القرآن، أو من السورة بمعنى الرتبة والمنزلة الرفيعة، فسور القرآن منازل ومراتب، يترقى فيها القارئ، أو سُميت بذلك لكمالها وتمامها، فلكل سورة موضوعها الأساسي، ولها أيضاً أسلوبها المميز وجرسها الخاص بها. وفي القرآن الكريم مائة وأربع عشرة سورة، متفاوتة في الطول والقصر، وفي الألفاظ والمعاني، وفي الأساليب والنظم والجرس، أطولها سورة البقرة، وأقصرها سورة الكوثر.

(١) تفسير البياضوي ٧٧/١.

ويدلّ قوله تعالى: ﴿فَاءتُوا بسورة من مثله﴾ على أنه جلّ وعلا تحدّاهم بمقدار سورة الكوثر، وهو أدنى درجات التحدي. إذ تحدّاهم سبحانه أولاً بأن يأتوا بمثل القرآن الكريم، فقال: ﴿أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون. فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾^(١).

ثم تحدّاهم بمقدار عشر سور مثله، فقال: ﴿أم يقولون افتراه قل فاءتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾^(٢).

ثم نزل بهم إلى مقدار سورة من قصار سوره، كما في قوله هنا: ﴿ففاءتوا بسورة من مثله﴾.

قال ابن كثير: قوله تعالى: ﴿ففاءتوا بسورة من مثله﴾ وقوله في سورة يونس: ﴿بسورة مثله﴾ يعمّ كل سورة في القرآن، طويلة كانت أو قصيرة، لأنها نكرة في سياق الشرط فتعمّ، كما هي في سياق النفي، عند المحققين من الأصوليين، كما هو مقرر في موضعه، فالإعجاز حاصل في طوال السور وقصارها، وهذا ما لا أعلم فيه نزاعاً بين الناس سلفاً وخلفاً^(٣).

ولا يزال هذا التحدي قائماً يتردد صداه في جنبات الدنيا، يدلّ على أن القرآن كتاب لا ريب فيه، وأنه كلام الله تعالى، المنزل على سيّدنا محمد رسول الله ﷺ، خاتم الأنبياء والمرسلين.

ولوصف النبي ﷺ بصفة العبودية في هذا الموضع دلالات منوعة متكاملة، فهو أولاً تشريف للنبي ﷺ، وتقريب بإضافة عبوديته لله تعالى؛ دلالة على أن مقام العبودية لله هو أسمى مقام يدعى إليه بشر، ويدعن به كذلك، وهو ثانياً تقرير لمعنى العبودية في مقام دعوة الناس كافة إلى عبادة ربهم وحده، وأطراح الأنداد كلها من دونه، فهذا هو ذا النبي ﷺ في مقام الوحي، وهو أعلى مقام، يدعى بالعبودية لله، ويشرف بهذه النسبة في هذا المقام^(٤).

وفي ذكره ﷺ بعنوان العبودية مع الإضافة إلى ضمير الجلالة، تنبيه على عظيم قدره، واختصاصه به وانقياده لأوامره، وفي ذلك غاية التشريف والتنويه بقدره ﷺ.

(١) الطور: الآيتان ٣٣ - ٣٤.

(٢) هود: الآية ١٣.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٤٣/١.

(٤) في ظلال القرآن ٤٨/١.

لا تدعني إلا بعبادها فإنه أشرف أسمائي^(١)

ولم يقتصر التحدي على المعارضين المعاندين وحدهم، وإنما امتد إلى كل من يؤيدهم ويشهد معهم، فقال: ﴿وادعوا شهداءكم من دون الله﴾ أي: ادعوا إلى المعارضة من حضركم أو رجوتهم معونته من إنسكم وجنكم وآلهتكم غير الله سبحانه وتعالى^(٢).

فالشهداء: جمع شهيد، بمعنى الحاضر أو القائم بالشهادة أو الناصر أو الإمام، وكأنه سُمي به لأنه يحضر النوادي، وتبرم بمحضره الأمور، ومنه قيل للمقتول في سبيل الله شهيد؛ لأنه حضر ما كان يرجوه، أو الملائكة حضروه^(٣).

﴿إن كنتم صادقين﴾ [٢٣] أن القرآن الكريم من كلام البشر، وأن محمداً ﷺ تقوله من نفسه.

ترهيب وترغيب

﴿فإن لم تفعلوا﴾ وعجزتم عن معارضته بمثل سورة من سورة.

﴿ولن تفعلوا﴾ مع شدة حرصكم على معارضته وإطفاء نوره، و﴿لن﴾ لنفي المستقبل نفياً مؤكداً، وهو غيب لا يعلمه إلا الله تعالى.

وما أكثر أعداء الإسلام، وما أشد حرصهم على إطفاء نور القرآن، ومن المعلوم أن الكافرين بالقرآن أكثر بكثير من المؤمنين به، ولو أنهم جاؤوا بما ينقض هذا التقرير القاطع لانهارت حجة القرآن الكريم، ولكنهم عجزوا حتى الآن عن معارضته، ولن يتمكنوا من ذلك، وفي عجزهم هذا الذي استمر حتى الآن أربعة عشر قرناً دليل واضح على أنه كلام الله تعالى علام الغيوب.

ورحم الله سيد قطب عندما قال: والتحدي هنا عجيب، والجزم بعدم إمكانه أعجب، ولو كان في الطاقة تكذيبه ما توانوا عنه لحظة، وما من شك أن تقرير القرآن الكريم أنهم لن يفعلوا، وتحقق هذا كما قرره، هو بذاته معجزة لا سبيل إلى المماراة فيها^(٤).

﴿فاتقوا النار﴾ أي: فآمنوا به، واتقوا العذاب المعد لمن كذب به وأعرض عنه.

(١) روح المعاني ١/١٩٣.

(٢) انظر: تفسير البياضوي ١/٨٠.

(٣) انظر: تفسير البياضوي ١/٨٠.

(٤) في ظلال القرآن ١/٤٨.

﴿ التي وقودها الناس والحجارة ﴾ أي : حطبتها الناس المكذبين برسالة القرآن الكريم، والأصنام المصنوعة من الحجارة، التي عُبدت من دون الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾^(١).

ولا شك أن النار التي وقودها الناس والحجارة نار عظيمة هائلة.

﴿ أعدت للكافرين ﴾ [٢٤] أي : هُيئت لهم، وهذا دليل على أن النار مخلوقة ومهيأة لاستقبال الجاحدين والمعاندين.

ومن أساليب القرآن الكريم التربوية أنه يقرن التهيب بالترغيب، فكلما ذكر سبحانه آيات رهبة أتبعها بآيات رغبة، لعل الذي لا تربيه الرهبة أن تربيه الرغبة، ولهذا قال تعالى في سياق التهيب الذي مر معنا:

﴿ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ وهم الذين أسلموا أنفسهم لله تعالى، قلباً وقالباً، وعلماً وعملاً.

﴿ أن لهم جنات ﴾ في الجنة، التي هي دار النعيم والثواب.

والجنة: البستان ذات الظلال الكثيفة الممتدة.

﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي : تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار، وهذا وصف للجنة بأقصى ما يتصوره الإنسان من الجمال، وإلا فنعيم الجنة لا يُقاس بشيء من جمال الدنيا وزينتها، كما قال تعالى: ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾^(٢). ويكفي لنعلم أن أنهار الجنة ليست كأنهار الدنيا أن نقرأ قوله تعالى: ﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم كمن هو خالد في النار وسقوا ماءً حميماً فقطع أمعاءهم ﴾^(٣).

وتختلف أيضاً ثمار الجنة عن ثمار الدنيا؛ ولهذا قال تعالى:

﴿ كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل ﴾ أي : قال أهل الجنة: هذا مثل الذي رزقنا من قبل في الدنيا؛ لأنه سبحانه جعل ثمر الجنة يشبه ثمر الدنيا في الصورة لتميل النفس إليه أول ما تراه.

(١) الأنبياء: الآية ٩٨.

(٢) السجدة: الآية ١٧.

(٣) محمد: الآية ١٥.

﴿وَأَتُوا بِهِ مِثَابَهَا﴾ أي: يشبه ثمر الجنة ثمر الدنيا بالاسم والصورة فقط، ويمكن أن يكون المعنى: وأتوا بثمر الجنة يشبه بعضه بعضاً في الصورة، ولكنهم يفاجؤون عند تناوله باختلاف في طعمه ورائحته، فتكون اللذة المفاجئة أحلى وقعاً على قلوبهم.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ من أي عيب ونقص في خَلْقِهِمْ وَخُلُقِهِمْ، ففساء الجنة كاملات في جمالهن وأخلاقهن، وفوق كل هذا النعيم:

﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [٢٥] أي باقون فيها أبداً، لا يخرجون منها ولا يموتون، كما قال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصُفْحَاتٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهُهُ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(١).

الأمثال في القرآن الكريم

ويبدو أن المشركين بدل أن يستجيبوا لتحدي القرآن الكريم، أثاروا بعض الشبهات حول بعض أمثاله، وذكر المفسرون أن بعضهم اعترض على بعض الأمثال الواردة في القرآن الكريم، فأنزله الله تعالى رداً على اعتراضهم قوله الكريم:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا﴾ أي: إنه سبحانه لا يترك ضرب أي مثل إذا كان محكماً مفيداً، فالأمثال القرآنية تقرب للناس المعاني، وتساعد على تفهمها، فهي تدل على رحمته سبحانه بعباده، قال تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٢)، وقد ضرب تعالى مثلين بالذباب والعنكبوت، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبُ مَثَلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾^(٣)، مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون^(٤).

ومع أن هذين المثلين في غاية الإحكام والبلاغة والفصاحة والإتقان، إلا أن بعض أهل الكتاب من اليهود بسبب جهلهم وعنادهم، اعترضوا عليهما وقالوا: ما هذا من الأمثال، ولهذا قال تعالى في معرض الرد عليهم:

(١) الزخرف: الآية ٧١.

(٢) الحشر: الآية ٢١.

(٣) الحج: الآية ٧٣.

(٤) العنكبوت: الآية ٤١.

﴿بعوضة فما فوقها﴾ أي بعوضة وما هو أعظم منها في الجثة، أو بعوضة وما دونها وأصغر منها، وهذا القول أقرب إلى المعنى المراد من الآية، وهو أنه تعالى لا يمتنع عن التمثيل بالشيء الصغير الحقير^(١).

والبعوضة واحدة البعوض، وهو صغار البق أو الناموس، حشرات صغيرة مضرّة، لا يمتنع منها الصغير والكبير، وكم امتاحت من أجسام الأحياء الدماء، وزرعت فيها مسببات الهلاك والفناء، وقد اكتشف الإنسان في العصور المتأخرة وجود عوالم كثيرة لمخلوقات صغيرة، لا تُرى إلا بواسطة المناظير المكبرة، تدلّ على عظمة صانعيها ومكوّننها جلّ وعلا، مما يجعلنا نميل إلى أن المراد من قوله تعالى: ﴿فما فوقها﴾ أي: فما دونها في الصغر.

والجدير بالذكر أن النبي ﷺ ضرب مثلاً بجناح البعوضة للدنيا فقال: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء»^(٢).

عقول منفتحة وعقول منغلقة

ثم بيّن تعالى ما يترتب على ضرب المثل من الحكّم والمواعظ فقال: ﴿فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم﴾ أي: يعلمون أن المثل حق ثابت لا سبيل إلى إنكاره أو الاعتراض عليه؛ لأنه من الله تعالى، وأن له حكماً وفوائد يفهمونها ويستفيدون منها، ولهذا قال تعالى بعد المثل الذي ضربه بالعنكبوت: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلاّ العالمون﴾^(٣). ودلّت الآية على أن المؤمنين هم المستفيدون من ضرب الأمثال، فهم أصحاب الفهم والتعلّل الذين يتدبرون آيات الله تعالى، ويتفهّمون ما فيها من حكّم وأحكام ومواعظ، فهم أصحاب العقول المنفتحة، المتطلّعة إلى اكتساب المعارف النافعة، والمتشوّفة لإدراك الحقائق المفيدة.

وسجّلت الآية على الكافرين عنادهم ومكابرتهم، وإغلاق عقولهم عن إدراك الحقائق، بقوله تعالى: ﴿وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾ أي: أي شيء أراد الله تعالى بهذا المثل؟ يقولون ذلك بأسلوب الإنكار والاعتراض على الله تعالى، مما يدلّ على جحودهم وعنادهم؛ ولهذا عدل تعالى في الردّ عليهم عن قسيم

(١) انظر: تفسير الخازن ٩٠/١.

(٢) رواه ابن ماجه والترمذي وقال: حسن صحيح كما في الترييب ١٧٣/٤.

(٣) العنكبوت: الآية ٤٣.

قوله الأول ﴿ فَأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق ﴾ ولم يقل: وأما الذين كفروا فلا يعلمون، بل بين تعالى جهلهم الناشئ عن عنادهم ومكابرتهم فقال: ﴿ يضلّ به كثيراً ويهدي به كثيراً ﴾ أي: أراد سبحانه بضرب المثل إضلال كثير من الناس، وهداية كثير من الناس.

وبيّنت الآية سبب إضلالهم، وأنه نابع من كسبهم واختيارهم، بقوله تعالى: ﴿ وما يضلّ به إلاّ الفاسقين ﴾ [٢٦] أي: الخارجين عن طاعته تعالى، والمُعْرِضِينَ عن دينه وشرعه. والفسق أصله في كلام العرب الخروج عن الشيء، يقال: فسقت الرطبة إذا خرجت عن قشرها^(١).

ومنه قوله تعالى في إبليس عندما خرج عن أمر ربه: ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس كان من الجنّ ففسق عن أمر ربه ﴾ الآية^(٢).

ومن صفات هؤلاء الفاسقين وقبائحهم:

﴿ الذين ينقضون ﴾ أي: يخالفون ويتركون، وأصل النقض الفسخ وفكّ المركب، كما في قوله تعالى:

﴿ ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً ﴾ الآية^(٣).

﴿ عهد الله ﴾ أي: أمر الله الذي ألزمهم به.

﴿ من بعد ميثاقه ﴾ أي: من بعد عقده وتوكيده وبيانه في كتابه المُنزَل.

وللعلماء أقوال في العهد المُراد، أولها: العهد الذي أخذه سبحانه على أهل الكتاب باتباع محمد ﷺ إن أدركوا زمنه.

وثانيها: عهد الفطرة التي فطر الناس عليها، وهي معرفة الله تعالى وتوحيده، والذي ذكره تعالى في قوله: ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريّتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ﴾^(٤).

(١) تفسير القرطبي ٢٤٥/١.

(٢) الكهف: الآية ٥٠.

(٣) النحل: الآية ٩٢.

(٤) الأعراف: الآية ١٧٢.

وثالثها: العهد المأخوذ على الناس بالعقل، وهو حججه سبحانه على عباده، الدالة على توحيده وصدق رسله.

ورابعها: دينه سبحانه وشرعه في كتابه الذي لا ريب فيه، المؤيد بالدلائل والبراهين.

ولعل آخرها هو المراد؛ إذ هو أعمّها وأشملها، فأَيّ خروج على دين الله وشريعته يُعدّ نقضاً للعهد، ويؤكد هذا المعنى صيغة ﴿ينقضون﴾ الدالة على التجدد والاستمرار، ولا شك أن شأن الفاسقين وديدنهم مخالفة دين الله تعالى، والخروج على أحكام شريعته.

تقطيع الروابط الإنسانية

﴿يقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾ أي: يقطعون كل ما أمر الله تعالى بصلته وفعله، كصلة الأرحام، والمحافظة على حقوق الجيران وأهل الإيمان.

فالمسلم لا يعيش لنفسه فقط، إنما يعيش في ظل عقيدة الله وشريعته، التي نظّمت علاقة الناس مع بعضهم، وأقامت بينهم روابط ووشائج لا ينبغي قطعها أو إهمالها، فمن صفات المؤمنين التي وصفهم الله تعالى بها: ﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربّهم ويخافون سوء الحساب﴾^(١). ومن صفات الكافرين التي وصفهم الله تعالى بها: ﴿والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾^(٢).

وعندما تتغلب الأنانية والأثرة على الناس ينتشر الفساد في الأرض، ولهذا قال سبحانه هنا: ﴿يفسدون في الأرض﴾ أي: ينشرون الفساد في الأرض بسبب خروجهم على دين الله وشريعته وخضوعهم لأهوائهم ومصالحهم، مما يؤدي إلى الاضطراب والفساد في حياة الناس الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية، وهو الواقع المشاهد في المجتمعات البشرية المعاصرة، وصدق الله تعالى في قوله: ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾^(٣)، وسيأتي مزيد بيان لهذا المعنى عند قوله تعالى: ﴿وإذا تولّى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد﴾.

(١) الرعد: الآية ٢١.

(٢) الرعد: الآية ٢٥.

(٣) محمد: الآية ٢٢.

﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾ [٢٧] الخسارة الحقيقية التي لا تعوّض، أفسدوا دنياهم وخربوا آخرتهم.

ميتان وحياتان

وتساءلت الآيات بأسلوب التعجب والإنكار وهي تخاطب الكفار ﴿ كيف تكفرون بالله ﴾ أي كيف تجحدون وجوده سبحانه، وكل الأدلة والبراهين تدلّ عليه؟! أو: كيف تعبدون غيره وهو وحده المستحقّ للعبادة والطاعة!.

﴿ وكنتم أمواتاً فأحياكم ﴾ وكنتم عند بدء تكوينكم أجساداً لا حياة فيها، فخلق فيكم الحياة، وبثّ فيكم الأرواح.

﴿ ثم يميتكم ﴾ عندما تنتهي حياتكم وتحين آجالكم المقدّرة لكم.

﴿ ثم يحييكم ﴾ يوم القيامة ويبعثكم من قبوركم.

فدلّت الآيات على أن الإنسان يميتة الله مرتين، ويحييه مرتين أيضاً، وهو ما حكاه سبحانه عن الناس يوم القيامة بقوله: ﴿ قالوا ربّنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل ﴾ (١).

﴿ ثم إليه ترجعون ﴾ [٢٨] للحساب والجزاء.

ثم بيّنت الآيات فضله تعالى على الإنسان، وأنه خلق له كل ما يحتاج إليه في حياته على الأرض، قبل أن يوجده عليها، فقال:

﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾ فكلّ ما في الأرض مخلوق من أجلكم، لمنافعكم ومصالحكم، فالأرض هي البيئة المناسبة لحياة الناس ومعيشتهم، وقد أدرك الناس في العصر الحاضر هذه الحقيقة، وأخذوا يستشعرون الخطر الداهم الذي يهدّد حياتهم ووجودهم على الأرض، بما يطرأ على الأرض من تلوث وخلل، وذلك بسبب سوء استغلال الناس لموارد الأرض الطبيعية، وغلبة الطمع والجشع عليهم، وقيام الحروب المدمّرة بينهم.

﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾ أي: قصد وعمد سبحانه إلى خلق السماء، مما يدلّ على أنه تعالى خلق الأرض قبل خلق السماء، وهو ما أخبر عنه تعالى أيضاً في قوله: ﴿ قل أنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك ربّ

(١) غافر: الآية ١١.

العالمين، وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقَدَّر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين .
ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين ﴿١﴾ .
﴿ فسواهن سبع سموات ﴾ أي : خلقهن سبع سموات مستويات ، لا خلل فيهن ولا نقص .

﴿ وهو بكل شيء عليم ﴾ [٢٩] فخلقه سبحانه خلق تام مُحْكَم ؛ لأنه أتى على حسب علمه الكامل جلّ وعلا .

بهذه الآيات الكريمة ، التي بين سبحانه فيها عموم الرسالة الإسلامية ، رسالة الكتاب الذي لا ريب فيه ، والتي عرض فيها بعض أدلة وجوده ووحدانيته ، وتمايم مشيئته وكمال علمه ، مهّد سبحانه للقضية الثانية ، وهي وحدة الأصل الإنساني لعامة البشر ، وكرامة الإنسان ومكانته في الشريعة الإسلامية ، ومكانته التي أنزله فيها من مخلوقاته جلّ وعلا ، وحكمة خلقه ووجوده على الأرض ، وكيف جعل وجوده على الأرض اختباراً وابتلاءً ، فشرفه بالتكليف ، وابتلاه بعداوة الشيطان ، وجعل له حرية واختياراً في الطريق الذي يسلكه . ويظهر لنا من خلال كل هذا مدى التناسق والاحتباك بين آيات السورة ، فكل آية تتصل بما قبلها ، وتمهّد لما يأتي بعدها .

مكان الإنسان ومكانته

﴿ وإذ قال ربّك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ أخبر سبحانه الملائكة بما سبق به علمه ، وتعلّقت به إرادته ، أنه سيجعل في الأرض مخلوقاً جديداً ، يستخلفه فيها ، وبهذا بين تعالى مكان هذا المخلوق الجديد ومكانته .

فمكان هذا المخلوق الجديد في الأرض ، وأشارت كلمة (جاعل) إلى أن ابتداء خلقه وتكوينه لم يكن في الأرض ، فمآله بعد خلقه إلى الأرض ، ودلّ ظاهر الحديث الشريف الصحيح الآتي أن خلق الإنسان الأول تمّ في الجنة ، فعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «لَمَّا صَوَّرَ اللَّهُ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ تَرَكَهُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَتْرَكَهُ ، فَجَعَلَ إِبْلِيسَ يُطِيفُ بِهِ ، يَنْظُرُ مَا هُوَ ، فَلَمَّا رَأَاهُ أَجُوفَ عَرَفَ أَنَّهُ خُلِقَ خُلُقًا لَا يَتِمَّاكَ» (٢) .

ويؤكد هذا المعنى أنه تعالى أسكنه بعد أن أتمّ خلقه في الجنة ، ثم أهبطه منها إلى الأرض ، كما سيأتي معنا . ولا شك أن بنية الإنسان الجسدية المادية ، خلقها تعالى من

(١) فصلت : الآية ٩ - ١١ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب البرّ (٢٦١١) .

تراب الأرض، كما صرّحت بذلك آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾^(١)، وقوله أيضاً: ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب﴾ الآية^(٢).

فالبنية المادية للإنسان من تراب هذه الأرض، وهي موطن حياته ومعيشته الأولى. ودلت كلمة ﴿خليفة﴾ على مكانة الإنسان، فللإنسان مكانة الخلافة في الأرض، وقد تفضّل الله تعالى عليه بهذه المكانة؛ تشريفاً له وتكريماً، لا لحاجته جلّ وعلا إلى مَنْ يخلفه في الأرض وينوب عنه، وهو معنى الكلمة اللغوي، فاستخلافه سبحانه للإنسان محض تكريم له، تفضّل به عليه، ألا ترى كيف نوّه سبحانه بتكريم نبيه داود عليه السلام، في قوله له: ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله﴾ الآية^(٣).

ولكلمة ﴿خليفة﴾ معنى آخر ذكره ابن كثير رحمه الله فقال: أي قوماً يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل، كما قال تعالى: ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾ الآية^(٤).

ودلت الآية على أن عالم الملائكة أسبق في الخلق والوجود من عالم الإنسان.

استفهام واستعلام

﴿قالوا﴾ أي: الملائكة.

﴿أتجعل فيها مَنْ يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ وقولهم هذا لمحض الاستفهام والاستعلام، لا للاعتراض على الله سبحانه، إذ الاعتراض على الحق تعالى سوء أدب، لا يصدر مثله عن الملائكة، الذين لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، كأنهم قالوا: يا ربنا ما الحكمة في خلق هؤلاء، مع أن منهم مَنْ يفسد في الأرض ويسفك الدماء^(٥).

ويكون الإفساد في الأرض بعبادة غير الله تعالى، والخروج على طاعته وأحكام

(١) طه: الآية ٥٥.

(٢) الحج: الآية ٥.

(٣) ص ٢٦.

(٤) الأنعام: الآية ١٦٥.

(٥) انظر: مختصر تفسير ابن كثير ٤٩/١.

شريعته، كما مرّ معنا، وأما سفك الدماء فيكون نتيجة التنازع والاقتيال، والسفك:
الصبّ والإراقة، ولا يستعمل إلّا في الدم، أو فيه وفي الدمع^(١).

وبعد أن وصفوا الإنسان بالإنسان بالإنسان في الأرض وسفك الدماء، قالوا على سبيل
المقارنة:

﴿ ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾ أي: ونحن ننزهك عن كل ما لا يليق بك،
مع إقرارنا بكمالك وإحسانك وإنعامك، ونقدسك تقديساً يليق بجلالك وعلوّك وعزّتك.
فالتسبيح: نفي ما لا يليق به تعالى، والتقديس: إثبات ما يليق به^(٢).

وقد يكون معنى ﴿ ونقدس لك ﴾ أي، ونظهر أنفسنا لك^(٣)، بمعنى أننا لا نعبد
سواك، ولا نتوجّه إلّا إليك، وينسجم هذا المعنى مع الأصل اللغوي لكلمة
﴿ نقدس ﴾، فالتقديس معناه التطهير، ومنه قوله تعالى: ﴿ ادخلوا الأرض المقدسة ﴾
أي المطهرة، وقال: ﴿ الملك القدوس ﴾ أي: الطاهر^(٤).

ولا بدّ أن نتساءل كما تساءل علماء التفسير: كيف علم الملائكة ما يكون من أمر
هذا المخلوق الجديد، وأنه سيفسد في الأرض ويسفك الدماء؟.

أجاب ابن كثير على هذا التساؤل بقوله: كأنهم علموا ذلك بعلم خاص، أو بما
فهموه من الطبيعة البشرية، فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من ﴿ صلصال من حمأ
مسنون ﴾، أو فهموا من الخليفة، أنه الذي يفصل بين الناس ما يقع بينهم من المظالم
ويردعهم عن المحارم والمآثم^(٥).

وذكر بعض المفسّرين جواباً آخر، وهو أن الملائكة قاسوا المخلوق الجديد على
الجنّ، الذين خلقهم سبحانه قبل خلق الإنس، وأسكنهم في الأرض، فأفسدوا فيها
واقْتتلوا، وسفك بعضهم دماء بعض، فبعث الله إليهم إبليس في جند من الملائكة،
فقتلهم وألحقهم بالبحار ورؤوس الجبال^(٦).

ولعلّ القول الثاني الذي ذكره ابن كثير أقواها؛ إذ يعضده ما مرّ معنا في الحديث

(١) انظر: روح المعاني ٢٢١/١.

(٢) انظر: تنوير الأذهان ٤٨/١.

(٣) انظر: تفسير النسفي ٩٩/١.

(٤) انظر: تفسير القرطبي ٢٧٧/١.

(٥) مختصر تفسير ابن كثير ٤٩/١.

(٦) انظر: تفسير القرطبي ٢٧٤/١.

الشریف السابق، فما دام إبليس قد عرف طبيعة هذا المخلوق ونقاط الضعف فيه، عندما أخذ يطيف فيه ويتأمل بنيته المادية، لا بد أن يكون الملائكة أيضاً عرفوا عن هذا المخلوق مثلما عرف إبليس عنه.

﴿ قال إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ [٣٠] أي: أعلم من الحكيم في خلق آدم وذريته ما لا تعلمون، ففيهم الأنبياء والصديقون والعلماء والصالحون، والذين يجاهدون في سبيلي، ويذبلون أرواحهم وحياتهم لإعلاء كلمتي.

قابلية الإنسان للتعلم

ثم أظهر تعالى للملائكة فضل الإنسان وشرفه، بأسلوب واقعي عملي، وأخبر تعالى عن ذلك بقوله:

﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ أي علمه سبحانه أسماء الأشياء كلها؛ لأن الأسماء لا تطلق إلا على المسميات، قال ابن كثير رحمه الله: والصحيح أنه علمه أسماء الأشياء كلها، ذواتها وصفاتها وأفعالها، ولهذا قال البخاري في تفسير هذه الآية: عن أنس عن النبي ﷺ قال: «يجتمع المؤمنون يوم القيامة، فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا، فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس، خلقتك الله بيديه وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء، فاشفع لنا عند ربك، حتى يُريحنا من مكاننا هذا...»^(١)، فدل هذا على أنه علمه أسماء جميع المخلوقات^(٢).

وقال العلامة البيضاوي رحمه الله: ألهمة معرفة ذوات الأشياء وخواصها وأسمائها، وأصول العلوم، وقوانين الصناعات، وكيفية آلاتها^(٣).

ويفيد هذا الكلام أن آدم عليه السلام علمه الله تعالى كل العلوم التي سيهتدي إليها أبنائه وذريته من بعده.

وقد يقول قائل: ما دام ربنا سبحانه هو الذي علمه كل هذه العلوم، فأني فضل وشرف لآدم في هذا؟ وأقول: إن فضل آدم عليه السلام يظهر في قابليته للتعلم، وفي استيعابه لكل هذه العلوم، وهذا أعظم ما يميز به الإنسان عن الحيوان، وهي خصوصية من أجل الخصائص التي أنعم الله بها على الإنسان؛ إذ جعله قابلاً للتعلم، وهده إلى

(١) انظر الحديث كاملاً في صحيح البخاري، كتاب التفسير، رقم (٤٤٧٦).

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٥١/١.

(٣) تفسير البيضاوي ١٠٢/١.

الوسائل التي يستعين بها على اكتساب العلوم والمعارف، كما قال تعالى في أول آيات التنزيل الحكيم: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علّم بالقلم. علّم الإنسان ما لم يعلم﴾^(١).

﴿ثم عرضهم على الملائكة﴾ أي: عرض المسميات التي علّم آدم أسماءها على الملائكة، ولا ينبغي الخوض في تفصيل كيفية العرض، يكفي أن نقول: عرضها تعالى على الملائكة كما أخبرنا، وقد توصل الإنسان المعاصر إلى وسائل متعددة لعرض الأشياء، سواء كانت حاضرة بذواتها أم كانت غائبة بعرض صورها.

﴿فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين﴾ [٣١] في زعمكم أنني أستخلف في الأرض مفسدين سفاكين للدماء، وفيه ردّ عليهم، وبيان أن فيمن يستخلفه من الفوائد العلمية، التي هي أصول الفوائد كلها، ما يستأهلون لأجله أن يُستخلفوا^(٢).

﴿قالوا سبحانك﴾ أي: تتنزه عن أن يخفى عليك شيء، أو عن الاعتراض عليك في تدبيرك وتقديرك. ﴿لا علم لنا إلا ما علّمتنا﴾ وهو اعتراف بعجزهم وقصورهم، وفضله سبحانه عليهم، ودلّ اعترافهم هذا على أن سؤالهم ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ كان استفساراً ولم يكن اعتراضاً.

﴿إنك أنت العليم﴾ الذي وسع علمه كل شيء، ما كان وما هو كائن وما سيكون.

﴿الحكيم﴾ [٣٢] الذي لا يفعل ولا يأمر إلا بما فيه حكمة بالغة.

﴿قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم﴾ أي: أعلمهم بأسماء هذه الأشياء، التي عرضها سبحانه على الملائكة، وفعل آدم عليه السلام ما أمر به، وأظهر الله بذلك ميزة هذا المخلوق، التي خصّه تعالى بها بالنسبة للمخلوقات الأرضية وهي قابليته للتعلّم واستيعاب العلوم.

﴿فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض﴾ فهو سبحانه وحده المتّصف بالعلم الكامل، فلا غيب بالنسبة لعلمه، وإنما الغيب بالنسبة لعلم المخلوق المحدود، فإنه مهما تعلّم يبقى علمه محدوداً، ويبقى محتاجاً إلى مصدر علوي، يعلمه ما غاب عنه من العلوم؛ ولهذا لا بدّ للإنسان أن يؤمن ويصدّق بكل ما أخبر عنه الحق سبحانه، في الكتاب الذي لا ريب فيه، وعلى لسان النبي الذي لا ينطق عن

(١) العلق: الآية ١ - ٥.

(٢) تفسير النسفي ١/١٠٢.

الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وهذا الإيمان هو الصفة الأساسية الأولى للمتقين، التي ذكرتها الآيات في أول السورة، عند قوله تعالى: ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ فارجع إليها لتعرف سر الاتساق والاحتباك بين الآيات.

﴿وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾ [٣٣] أي: وأعلم ما تظهرون وما كنتم تسرون، فالخواطر والهواجس في القلوب، يعلمها الحق سبحانه علام الغيوب.

لقد عُرضت قصة بدء خلق الإنسان في عدة مواضع من القرآن الكريم، وتبرز الآيات في كل موضع الجانب الذي يتصل بسياقها وسباقها، وقد بينت هذا عندما تحدثت عن موضوع كل من سورة الأعراف والحجر وطه، فارجع إليها ليتبين لك حكمة تكرير بعض قصص القرآن الكريم، بأسلوب واقعي واضح. وها هي الآيات هنا في سورة البقرة، تركز في عرضها لقصة بدء خلق الإنسان، على بيان كمال علم الله تعالى وعلى محدودية علم المخلوق، ولو كان من الملائكة، لتبين حاجة الإنسان إلى الإيمان بالغيب، الذي غاب عنه وقام الدليل على وجوده بالخبر الصادق من عالم الغيب والشهادة جلّ وعلا، وهو مظهر عملي لإسلام الإنسان المؤمن بالغيب لله تعالى، وانقياده لأمره وشرعه.

سجود التحية والتكريم

ثم أمر تعالى الملائكة بالسجود لآدم سجود تحية وتكريم، بعد أن أظهر لهم كرامته وشرفه، فقال: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ اعترافاً بفضله وأداء لحقه.

والسجود في اللغة التذلل والخضوع، مع التطامن، وفي الشرع: وضع الجبهة على الأرض بقصد العبادة. والسجود الذي أمرت به الملائكة سجود تحية وتكريم، لا سجود عبادة، كسجود إخوة يوسف في قوله تعالى: ﴿ورفع أبويه على العرش وخروا له سُجْدًا﴾ الآية^(١)، وكان هذا جائزاً في شريعتهم، وقد حرّمه الإسلام؛ لقوله ﷺ: «لو كنت أمراً أحداً أن يسجد لأحدٍ لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها»^(٢).

﴿فسجدوا﴾ أي: الملائكة، امتثالاً لأمر الله تعالى وخضوعاً له، كما قال: ﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون﴾^(٣).

﴿إلا إبليس أبى واستكبر﴾ أي: امتنع عن السجود لآدم استكباراً؛ إذ كان يرى

(١) يوسف: الآية ١٠٠.

(٢) رواه الترمذي وقال حسن صحيح، كما في الترغيب والترهيب ٥٦/٣.

(٣) الحجر: الآية ٣٠.

نفسه أفضل من آدم عليه السلام، قال تعالى: ﴿قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾^(١).

وهذا دليل على أنه لم يكن من الملائكة؛ إذ الملائكة خلقهم الله من نور، كما في الحديث الشريف عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وُصف لكم»^(٢).

وشمله الأمر الإلهي بالسجود مع الملائكة؛ لأنه كان يعيش بينهم، بسبب كثرة عبادته لله تعالى.

﴿وكان من الكافرين﴾ [٣٤] أي: وصار من الكافرين؛ لأنه رفض الإذعان لأمر الله تعالى وتكبر.

ومن رحمته تعالى بالإنسان وعنايته به، أن قدّر له قبل هبوطه إلى الأرض واستقراره فيها، أن يمرّ بتجربة يزوّد فيها بذخيرة من العبر والدروس والمواعظ، يمكن أن ينتفع بها في حياته الدنيوية الأرضية، ويظهر له من خلالها بشكل عملي شدة عداوة الشيطان له، وسعيه الحثيث لإضلاله وإبعاده عن عبادة ربّه وطاعته، كما تسبّب في إبعاده عن جنّته، فأسكنه تعالى أولاً الجنة مع زوجته.

الهبوط إلى الأرض

﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة﴾ أسكنهما الله فيها، وأباح لهما أن يتمتعا بكل ما فيها من طعام وشراب.

﴿وكلّا منها رغداً حيث شئتما﴾ أي: كُلّا منها أكلاً واسعاً من أيّ مكان فيها، بدون جهد وتعب، فالرغد: العيش الطيب الهنيء الذي لا عناء فيه.

وحذّرها سبحانه من الاقتراب من شجرة معينة، حظر عليهما أن يأكلا منها، فقال: ﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾ أي: لا تدنوا من هذه الشجرة، نهاهما تعالى عن الاقتراب منها حتى لا يقعا في المحذور المحرّم عليهما، وهو الأكل منها، ولهذا قال النبي ﷺ: «إن الحلال بيّن، وإن الحرام بيّن، وبينهما مشبهات لا يعلمهنّ كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى، يوشك أن يرتع فيه، وألا وإن لكلّ ملك حمى،

(١) الأعراف: الآية ١٢.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الزهد، رقم (٢٩٩٦).

ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»^(١).

﴿فتكونا من الظالمين﴾ [٣٥] لأنفسهم بمخالفة أمره سبحانه ومعصيته.

﴿فأزلهما الشيطان عنها﴾ أي: جعلهما الشيطان يقعان في الزلّة، بسبب الأكل من الشجرة، والزلّة: الخطيئة، ومنه قوله تعالى: ﴿إن الذين تولّوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حلِيم﴾^(٢).

وفي قراءة: ﴿أزالهما﴾ أي: صرفهما عمّا كانا عليه من الطاعة إلى المعصية.

وتمكّن الخبيث من تزوين المعصية لهما، بوسوسته التي ألقاها إليهما من خارج الجنة، وأتاها من أكبر نقاط الضعف عند الإنسان، وهي حبّ السيطرة والقوة والبقاء، وقد فصلّ تعالى ذلك في موضع آخر، فقال: ﴿فوسوس لهما الشيطان ليُبدِي لهما ما وُورِيَ عنهما من سواتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين﴾^(٣). وبهذا تمكّن من التغرير بهما وخداعهما، حتى وقعا في المحذور، كما قال تعالى: ﴿فدلّاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سواتهما وطفقا يخسفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربّهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدوٌّ مبين﴾^(٤).

﴿فأخرجهما ممّا كانا فيه﴾ من النعيم والعيش الكريم في الجنة.

﴿وقلنا اهبطوا﴾ أي: انزلوا إلى الأرض، والخطاب لأدم وحواء، وخوطبا بصيغة الجمع لأنهما أصل العنصر البشري كله^(٥)، ودلّ عليه قوله تعالى في موضع آخر: ﴿قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدوٌّ﴾ الآية^(٦).

﴿بعضكم لبعض عدوٌّ﴾ أي: متعادين يبغي بعضكم على بعض في الأرض، وهو إخبار من الله تعالى عمّا يقع بين البشر من عداوة واختلاف وصراع.

(١) متفق عليه واللفظ لمسلم، كتاب المساقاة، (١٥٩٩).

(٢) آل عمران: الآية ١٥٥.

(٣) الأعراف: الآية ٢٠.

(٤) الأعراف: الآية ٢٢. وانظر: أسباب هلاك الأمم وسقوط الحضارات في سورة الأعراف.

(٥) انظر: تفسير النسفي ١٠٨/١.

(٦) طه: الآية ١٢٣.

﴿ولكم في الأرض مستقر﴾ أي: لكم في الأرض موضع قرار يلائمكم ويناسبكم، كما مرّ معنا في قوله: ﴿الذي جعل لكم الأرض فراشاً﴾.

﴿ومتاع﴾ أي: ولكم فيها متاع، بما خلق تعالى لكم فيها من أرزاق.

﴿إلى حين﴾ [٣٦] أي: إلى أن تحين آجالكم التي تنتهي بها حياتكم.

هكذا بين الله تعالى للإنسان الأول، السمات الكبرى لحياته على الأرض، عندما أهبطه إليها، فالصراع فيما بينهم، وبينهم وبين الشيطان أبرز هذه السمات، وهو من أهم أسباب الابتلاء والاختبار في حياة الإنسان على هذه الأرض.

التوبة والتكليف والمسؤولية

ومن رحمته تعالى بالإنسان أنه فتح له باب التوبة والإنابة، ومكّنه من الرجوع عن المعصية بتركها والندم على فعلها، والاستغفار، وكانت توبة آدم عليه السلام أول توبة بشرية رفعت إلى الله تعالى؛ إذ فتح الله تعالى له باب التوبة، وعلمه كيف يتوب إليه ويستغفره، وأوحى إليه بالكلمات التي يعلن فيها توبته، ويرجو بها مغفرة ربه، فما أعظم رحمته سبحانه بالإنسان!.

﴿فتلقى آدم من ربه كلمات﴾ استقبلها عليه السلام بلهفة وشوق، بعد أن أحسّ بشؤم المعصية وآثارها السيئة، وكان أول آثارها أن الله نزع عنهما لباس أهل الجنة، وكرامة أهلها، كما مرّ معنا في قوله تعالى: ﴿فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سواتهما﴾.

وبادر عليه السلام هو وزوجته إلى إعلان توبتهما وندمهما، والإقرار بخطئهما، بالكلمات التي أوحاها له ﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾^(١).

﴿فتاب عليه﴾ أي: قبل سبحانه توبته.

﴿إنه هو التواب الرحيم﴾ [٣٧] أي: إنه هو الذي يقبل التوبة عن عباده، كلما تابوا واستغفروا، مهما كانت ذنوبهم ومعاصيهم، الرحيم بهم، والمُحْسِن المتفضل عليهم، جلّ وعلا.

وأصل التوبة الرجوع، فإذا وصف بها العبد كان رجوعاً عن المعصية، وإذا وصف

(١) الأعراف: الآية ٢٣.

بها الباري تعالى أريد بها الرجوع عن العقوبة إلى المغفرة^(١).
ثم كرّر تعالى أمره بالهبوط إلى الأرض، ولكنه جاء في المرة الثانية مقروناً
بالتكليف: ﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً﴾ أي: اهبطوا إلى الأرض مجتمعين.
ثم بيّن سبحانه لهم أن حياتهم على الأرض لن تكون عابثة فارغة عن المسؤولية
والتكليف، بل سيكلفون بعقيدة وشرعية، ويكونون مسؤولين عنهما:
﴿فإِذَا يَأْتِيَنكُم مِّنِي هَدًى﴾ أي: إن جاءكم مني هدى رسول أرسله إليكم، وكتاب
أنزله عليكم. وأفاد الإخبار بصيغة الشك وعدم الجزم، أن إرسال الرُّسل وإنزال الكتب
غير واجب على الله تعالى، وإنما هو بمحض رحمته وإحسانه وفضله على الناس.
﴿فَمَن تَبِعْ هَدَايَ﴾ أي: تمسك به واستسلم له بإذعان وانقياد.
﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ بعد الموت وفي يوم القيامة.
﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [٣٨] على ما فاتهم من الدنيا بعد مفارقتها.
وأما المُعْرِضُونَ عن دين الله تعالى وشريعته، والجاحدون المعاندون لها:
﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [٣٩].

(١) تفسير البضاوي ١١٠/١.

الفصل الثاني

التَّوْرَةُ وَبَنُو إِسْرَائِيلَ

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ

عادت الآيات إلى قاعدة هرم الكفر والجحود، إلى كفّار أهل الكتاب، واستهلّت حديثها عنهم بدعوتهم إلى الإسلام لله تعالى، والإذعان لرسالة الكتاب الذي لا ريب فيه، ولما كان اليهود أشدّ أهل الكتاب معارضة لدعوة النبي ﷺ، توجّهت الآيات تخاطبهم بنداء الله تعالى لهم: ﴿يا بني إسرائيل﴾ أي: يا أبناء يعقوب، وهو نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، وإسرائيل لقبه، ومعناه في لغة اليهود صفوة الله أو عبد الله، فإسرا هو العبد، وإيل هو الله^(١). خاطبهم الله تعالى بالخطاب الذي يحبّونه ويعتزون به، وهو انتسابهم العرقي إلى إسرائيل، وهو الاسم الذي أطلقوه على دولتهم، التي تمكّنوا في عصرنا الحاضر من إقامتها في أرض فلسطين.

وفي هذا إشارة إلى أن على الداعية أن يدعو الناس إلى الإسلام بما يحبّون كي يقربهم إلى الدعوة ويحبّهم بها، ولا ينفرهم عنها.

ثم ذكّره تعالى بنعمه التي أنعم بها عليهم على وجه الإجمال فقال:

﴿اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ أي: اشكروا نعمتي، وعبر عن الشكر بالذكر؛ لأن من ذكر النعمة فقد شكرها، ومن جحدّها فقد كفرها^(٢).

ويستدعي شكر المنعم الوفاء بعهده:

﴿وأوفوا بعهدي﴾ الذي أخذته عليكم، بطاعتي وامثال أمري، فثمة عهود مخصوصة بهم أخذها الله تعالى عليهم، سيأتي تفصيلها، عند قوله تعالى: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور﴾ الآية، وعند قوله أيضاً: ﴿وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلّا الله﴾ وغيرها من الآيات.

(١) تفسير النسفي ١/١٢٢.

(٢) تفسير الخازن ١/١١٢.

﴿أوف بعهدكم﴾ الذي عاهدتكم عليه، وهو التوفيق والنصر في الدنيا، والثواب الجزيل في العقبى، كما في قوله تعالى: ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لا كفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنّات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضلّ سواء السبيل﴾ (١).

﴿وإياي فارهبون﴾ [٤٠] أي: خافوني واحذروا غضبي وعذابي، فالهبة: الخوف مع الحذر.

هكذا جمع الله تعالى في آية الخطاب الأول لبني إسرائيل الوعد والوعيد، وبين لهم وجوب الشكر والوفاء بالعهد وآلاً يخافوا أحداً غيره سبحانه، وأن يكونوا على حذر من غضبه وانتقامه.

ثم دعاهم إلى الإيمان برسالة القرآن الكريم:

﴿وآمنوا بما أنزلت مصداً لما معكم﴾ أي: يصدّق التوراة، ويشهد أنها منزلة على موسى عليه السلام، وأن كل ما أنزل الله فيها حق وصدق، فدعوة القرآن الكريم توافق دعوة التوراة، فكلاهما يدعو إلى توحيد الله تعالى وعبادته، والاستسلام لأمره وشرعه، كما قال تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصداً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً﴾ الآية (٢).

فبنو إسرائيل أولى بالمسارعة إلى الإسلام من غيرهم، فعندهم من الدلائل التي تدلّ على صدق النبي ﷺ، وصحة رسالته، ما لا يوجد عند غيرهم من الأمم، ولهذا قال تعالى لهم بأسلوب التعريض: ﴿ولا تكونوا أول كافر به﴾ أي: بالقرآن الكريم، بل الواجب أن تكونوا أول من آمن به.

﴿ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً﴾ أي: لا تستبدلوا بآيات الله عوضاً يسيراً، وهو الدنيا وما فيها من شهوات، وهو مهما كان عوض يسير وقليل بالنسبة لما عند الله تعالى في دار النعيم. ولا يخفى ما في الآية من تعريض كبير بهم، وبيان سبب كفرهم برسالة القرآن الكريم الذي لا ريب فيه؛ ولعلّ الآية بدأت بالتعريض قبل التصريح، كأسلوب من أساليب الدعوة إلى الله تعالى، لكسب المدعويين وعدم تنفيرهم.

(١) المائدة: الآية ١٢.

(٢) المائدة: الآية ٤٨.

﴿وَأَيَّاهِ فَاتَّقُوا﴾ [٤١] أي: اتقوا الله وحده بطاعته والاستسلام لحكمه وأمره.

﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل﴾ أي: لا تخلطوا الحق بالباطل، وهذه الصفة من أبرز صفات بني إسرائيل قديماً وحديثاً، فشأنهم الخداع والتزوير والغش، يخلطون الحق ببركाम من الباطل، حتى يضع ويذوب فيه.

﴿وتكتموا الحق﴾ بإخفائه وطمس معالمه، والمراد ما يتعلق بصفات النبي ﷺ وأسمائه، التي صرح بها أنبياءهم، وذكرها تعالى في الكتب التي نزلت عليهم، والتي أخذ الله تعالى عليهم العهد ببيانها للناس، وإظهارها لهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُشِ مَا يَشْتَرُونَ﴾^(١).

فكتمان الحق جريمة كبرى، سيأتي معنا شدة الوعيد عليها عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يَكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿وأنتم تعلمون﴾ [٤٢] أي: وأنتم عالمون بفضاعة وقبح ما تفعلون.

إنها مواجهة كبيرة وصريحة، واجههم الله تعالى بها مواجهة القاضي للمجرم بجريمته، التي ضبط متلبساً بها، بحيث لا يستطيع إنكارها، ولا يمكنه أن يتملص من مسؤوليتها.

الأمر بالمعروف وفعله

وبعد أن دعاهم إلى الإيمان، وحذّره من الكفر وكتمان الحق، دعاهم أيضاً إلى الانقياد لأحكام الإسلام وشرعه، وأداء أركانه الأساسية الكبرى، التي سبق ذكرها في الصفات الأساسية للمتقين، في أول آيات السورة.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [٤٣] أي: صلّوا مع المصلّين من أمة محمد ﷺ، فالإسلام دين المساواة، والناس أمام شرع الله سواء، لا امتياز لأحد على أحد، كما يزعم اليهود لأنفسهم.

وأريد بالأمر بالركوع الصلاة كلها؛ إذ يطلق الجزء ويراد به الكل، وقيل: إنما خصّ الركوع بالذكر لأن بني إسرائيل لم يكن في صلاتهم ركوع^(٢).

(١) آل عمران: الآية ١٨٧.

(٢) انظر: تفسير القرطبي ٣٤٥/١.

والركوع هو الانحناء حتى تصل اليدين إلى الركبتين، وهو ركن من أركان الصلاة، لا تصح بدونه. ثم اتجه الخطاب إلى توبيخ أحبارهم ورجال دينهم، الذين يخالف قولهم فعلهم، بأسلوب التقرير والتعجيب من حالهم:

﴿أُتَأْمَرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ أي: بفعل الخير والطاعة والعمل الصالح.

﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: تتركون أنفسكم، فلا تفعلون البرّ الذي تأمرون الناس به، فقد كانوا يأمرُونَ الناس بالصدقة ولا يتصدقون.

﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ أي: وأنتم تتلون التوراة، فأنتم أولى بالمبادرة إلى فعل البرّ.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [٤٤] قبح وشناعة ما تفعلون، وهو مخالفة أفعالكم لأقوالكم.

فآية تذكّرهم على ترك البرّ لا على الأمر به، فإن الأمر بالمعروف معروف، وهو واجب على العالم، ولكن الواجب والأولى بالعالم أن يفعله مع مَنْ أمرهم به، ولا يتخلف عنهم، كما قال شعيب عليه السلام: ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾^(١)، فكل من الأمر بالمعروف وفعله واجب، لا يسقط أحدهما بترك الآخر، على أصحّ قولي العلماء من الخلف والسلف^(٢).

قال القرطبي رحمه الله: اعلم وفّقك الله تعالى أن التوبيخ في الآية بسبب ترك فعل البرّ، لا بسبب الأمر به؛ ولهذا ذمّ الله تعالى في كتابه قوماً كانوا يأمرُونَ بأعمال البرّ ولا يعملون بها، ويؤخّرون به توبيخاً يتلى على طول الدهر إلى يوم القيامة فقال: ﴿أُتَأْمَرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ الآية... وقال أبو عمرو بن مطر: حضرت مجلس أبي عثمان الحيري الزاهد، فخرج وقعد على موضعه الذي كان يقعد عليه للتذكير، فسكت حتى طال سكوته، فناداه رجل كان يُعرّف بأبي العباس: ترى أن تقول في سكوتك شيئاً؟ فأنشأ يقول:

وغير تقي يأمر الناس بالتقى طبيب يداوي والطبيب مريض

قال: فارتفعت الأصوات بالبكاء والضجيج^(٣).

(١) هود: الآية ٨٨.

(٢) انظر: مختصر تفسير ابن كثير ٥٩/١.

(٣) تفسير القرطبي ٣٦٦/١ - ٣٦٧.

وسائل في التربية والتهذيب

ولمّا كانت نفوسهم قد أدمنت على الشهوات، وألفت اتباع الأهواء والنزوات، بيّن لهم تعالى الوسائل الناجعة لتهذيب نفوسهم، وتخليصها من آثامها ومعاصيها، فقال:

﴿واستعينوا بالصبر﴾ أي: استعينوا على تربية نفوسكم وتهذيبها بالصبر، وهو حبس النفس عن الشهوات المحرّمة.

ومعنى الصبر في اللغة: الحبس، يقال: قتل فلاناً صبراً، أي: قتل وهو محبوس مقيد، وصبرت نفسي على الشيء، أي: حبستها.

﴿والصلاة﴾ أي: واستعينوا أيضاً بالصلاة، لأن الصلاة تمدّ الإنسان بقوة روحية تساعد على القيام بالتكاليف والأعباء الشاقة، وقد تكرر مثل هذا في السورة عند قوله تعالى الذي سيأتي: ﴿يا أيّها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين﴾.

وقد كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر صلى^(١)، ومن بواكير الآيات التي نزلت على النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿يا أيّها المزمل. قم الليل إلا قليلاً. نصفه أو انقص منه قليلاً. أو زد عليه ورتّل القرآن ترتيلاً. إنا سنلقي عليك قولاً ثقیلاً﴾^(٢).

ونادت الملائكة السيدة مريم، وهي في محراب عبادتها، تأمرها بمضاعفة صلاتها؛ استعداداً للمهمّة الثقيلة التي اختيرت لها، ﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين. يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين﴾^(٣).

ومن رحمته تعالى بنا تكليفنا بالصلاة، فهي تساعدنا على طاعته، والتزام أحكام شريعته. ﴿وانها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾ [٤٥] أي: وإن الصلاة لثقيلة شاقة، إلا على الخاشعين، الذين يخافون الله تعالى، وتهتزّ قلوبهم من خشيته، وهم يناجونه في صلاتهم. والخشوع من أعمال القلب، يظهر أثره في سكون الجوارح والتواضع.

ودلت الآية على أهمية الخشوع في الصلاة، فهو روح الصلاة؛ لأنه يروّض النفس ويهذبها، ويجعلها تذوق لذّة مناجاة الله تعالى وذكره، فتقبل على الصلاة بهمة ونشاط، وشوق إلى حلاوتها ولذتها؛ ولهذا كان ﷺ يقول: «حَبَّبَ إلي النساء والطيب،

(١) رواه أبو داود من حديث حذيفة.

(٢) المزمل: الآية ١ - ٥.

(٣) آل عمران: الآية ٤٢ - ٤٣.

وجعلت قرّة عيني في الصلاة»^(١). فشأن الصلاة عظيم، ومن عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل.

ومن صفات الخاشعين :

﴿ الذين يظنون أنهم مُلاقوا ربّهم وأنهم إليه راجعون ﴾ [٤٦] أي : الذين يتوقعون لقاء الله تعالى ويرجون ثوابه يوم القيامة، فيكون نشاطهم إلى الصلاة وخشوعهم فيها على حسب ذلك، وأما الذين لا يؤمنون بالجزاء ولا يرجون الثواب، فإنهم يستثقلون التكليف الشرعية، ولا يقومون بها، وإذا قاموا إليها قاموا متثاقلين، كما قال تعالى في المنافقين: ﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلّا قليلاً ﴾^(٢).

وعادت الآيات إلى تذكير بني إسرائيل بنعم الله تعالى عليهم، مما يدلّ على كثرة هذه النعم، كما سيأتي، وشدة جحودهم لها:

﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين ﴾ [٤٧] بالنعم التي أنعمت بها عليكم دون غيركم من الناس، كما جاء في قول موسى عليه السلام لهم: ﴿ وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين ﴾^(٣) وذلك في الزمن الذي أنعم الله تعالى عليهم بهذه النعم، ولما قابلوا نعم الله تعالى عليهم بالجحود والعناد، نزع الله تعالى عنهم هذه النعم وغضب عليهم، كما سيأتي عند قوله تعالى: ﴿ وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾.

واختار سبحانه للنبوة والرسالة أمة غيرهم، وهي الأمة المسلمة المستسلمة لأمر الله وحكمه.

﴿ واتقوا يوماً ﴾ وهو يوم القيامة.

﴿ لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ﴾ لأن المسؤولية فيه مسؤولية شخصية، فلا تزر نفس وزر أخرى، ولا ينفعكم انتسابكم إلى الأنبياء، لأن الحساب والجزاء على حسب العمل، لا على النسب.

(١) رواه النسائي من حديث أنس.

(٢) النساء: الآية ١٤٢.

(٣) المائدة: الآية ٢٠.

﴿ ولا يقبل منها شفاعة ﴾ ما دامت كافرة بالله تعالى ، جاحدة لدينه وشريعته ، كما قال تعالى : ﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ (١).

﴿ ولا يؤخذ منها عدل ﴾ أي : فدية ؛ لأنها عادة تكون معادلة للمفدى ، وهذا إن قدرت على الفدية يوم القيامة ، والحقيقة أنها لا تقدر على فدية ، والمراد تعظيم وتهويل شأن هذا اليوم ، كما قال تعالى : ﴿ وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ﴾ (٢).

﴿ ولا هم ينصرون ﴾ [٤٨] أي : لا يمنعون من العذاب ، فالخطب يوم القيامة شديد ، إذ ليس فيه شفاعة ولا فدية ولا نصرة ، إلا لمن أذن الله له بالشفاعة ، وهي للمؤمنين ، ولا ينتفع بها الكافرون.

النجاة من الظالمين وإهلاكهم

وجاء بعد التذكير الإجمالي بالنعم ، التفصيل لها ، مع بيان مواقف بني إسرائيل منها :

﴿ وإذ نجيناكم من آل فرعون ﴾ أي : اذكروا إذ نجيناكم من ظلم فرعون وقومه ، وقد فصل الله تعالى قصة نجاة بني إسرائيل من ظلم فرعون في عدد من السور الكريمة ، واكتفت الآيات هنا بتذكير بني إسرائيل بهذه النعمة الكبيرة .

﴿ يسومونكم سوء العذاب ﴾ أي : ينزلون بكم أشد العذاب وأسوأه ، ومن صور هذا العذاب : ﴿ يذبحون أبناءكم ﴾ الذكور صغاراً .

﴿ ويستحيون نساءكم ﴾ أي : يتركونهن أحياء لكي يخدمن في قصور فرعون وحاشيته ، وتذكر بعض الروايات أن فرعون أمر بذلك بسبب رؤيا رآها ، عبّرها له الكهنة والمعبّرون بأن هلاكه سيكون على يد غلام يولد في بني إسرائيل .

﴿ وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ [٤٩] أي : وفي نجاتكم من هذا الظلم نعمة عظيمة ، ويختبركم الله تعالى بها ، هل تشكرونه عليها أم تكفرون وتجددون فضله سبحانه عليكم ؟ .

ويمكن أن يكون المعنى ، وفي ظلم آل فرعون لكم اختبار عظيم من الله تعالى ،

(١) المذثر : الآية ٤٨ .

(٢) الأنعام : الآية ٧٠ .

والبلاء يطلق على النعمة العظيمة، وعلى المحنة الشديدة؛ ليختبر الله العبد على النعمة بالشكر، وعلى الشدة بالصبر^(١).

ولكن المعنى الأول أليق بسياق التذكير بالنعم، ومواقف بني إسرائيل منها، فهي تشبه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ. وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾^(٢).

ومن نعمة تعالى على بني إسرائيل أيضاً، أنه أهلك عدوهم فرعون وجنوده أمامهم، إذ أغرقهم الله تعالى في البحر، وهم ينظرون إليهم، وذلك أشفى لصدورهم وأذهب لغيط قلوبهم، قال سبحانه في معرض الامتنان عليهم:

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ أي: اذكروا عندما فلقنا البحر، وفصلنا بين أمواجه لأجلكم، لتسلكوا طريق النجاة بين أمواجه العاتية، التي أمسكتها قدرة الله تعالى، وهي معجزة عظيمة جليلة أجزاها تعالى على يد موسى عليه السلام، وشاهدها بنو إسرائيل بأم أعينهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى. فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ. وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾^(٣)، وقال أيضاً: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَدْرُكُونَ. قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ. فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ. وَأَزْلَفْنَا ثَمَ الْآخِرِينَ. وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾^(٤).

﴿فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: أغرقنا فرعون وجنوده، واقتصرت الآية على ذكر آل فرعون، لأنهم إذا أغرقوا، وهم رؤوس الضلال والعناد، فغيرهم أولى بذلك، وقد صرح سبحانه بغرق فرعون وجنوده في غير هذا الموضع، فقال: ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾^(٥)، وقال أيضاً: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانَظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ. وَجَعَلْنَاهُمْ أَثْمَةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَنْصُرُونَ﴾^(٦).

(١) انظر: تفسير البضاوي ١/ ١٢٢.

(٢) إبراهيم: الآية ٦ - ٧.

(٣) طه: الآية ٧٧ - ٧٩.

(٤) الشعراء: الآية ٦١ - ٦٥.

(٥) الإسراء: الآية ١٠٣.

(٦) القصص: الآية ٤٠ - ٤١.

وهذا يدحض قول مَنْ يقول بنجاة فرعون، فهو قول باطل، يصادم صريح الآيات القرآنية الكريمة، ولا متمسك لهم بقوله تعالى: ﴿فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون﴾^(١)؛ لأن المراد: ننجي بدنك بعد موتك وغرقك، ونلقيه على ساحل البحر؛ ليراك الناس هالكا صريعاً^(٢).
﴿وأنتم تنظرون﴾ [٥٠] أي: تنظرون إلى فرعون وجنوده، وهم في لجة البحر يغرقون.

عبادة العجل الذهبي

ويلاحظ أن الآيات كلما ذكّرتهم ببعض نعم الله عليهم، ذكّرتهم بعدها ببعض مواقف عنادهم وجحودهم؛ ولهذا قال تعالى في سياق ما تقدم:

﴿وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة﴾ وفي قراءة ﴿وعدنا﴾ أي: اذكروا إذ وعدنا موسى بعد تمام أربعين ليلة، ليأتي إلى موضع المناجاة عند جبل الطور؛ لإنزال التوراة عليه، وقد وعده تعالى أولاً ثلاثين يوماً يهتئ نفسه في أثنائها لمناجاة الله تعالى، ثم أمره أن يزيدها عشراً، قال تعالى: ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة وقال موسى لأخيه هرون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين﴾^(٣).

﴿ثم اتخذتم العجل من بعده﴾ أي: اتخذتم العجل الذهبي إلهاً عبدتموه من دون الله تعالى في غياب موسى، وقد فصلت الآيات في غير هذا الموضع قصة عبادتهم العجل، بقوله تعالى: ﴿واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين﴾^(٤)، وقوله أيضاً: ﴿فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحلّ عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي. قالوا ما أخلفنا موعداً بملكنا ولكنّا حُمِّلنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامري. فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي﴾^(٥).

(١) يونس: الآية ٩٢.

(٢) انظر: الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس.

(٣) الأعراف: الآية ١٤٢.

(٤) الأعراف: الآية ١٤٨.

(٥) طه: الآية ٨٦ - ٨٨. انظر: تفصيل قصة العجل في: سبيل السعادة في سورة طه.

وعبادة بني إسرائيل للعجل من أقبح وأشنع جرائمهم ومواقف عنادهم وجحودهم؛ ولهذا تكرر ذكر الآيات لها في عدة مواضع، كما سيأتي.

﴿ وأنتم ظالمون ﴾ [٥١] لأنفسكم بعبادة غير الله تعالى، فالشرك بالله تعالى أعظم أنواع الظلم، وأي ظلم أعظم من هذا الظلم، فبعد أن نجاهم الله تعالى من ظلم فرعون، وأراهم مصرعه بأم أعينهم، أعرضوا عن عبادته تعالى وشكره، وعبدوا عجلاً مصنوعاً من ذهب، في غياب نبيهم موسى عليه السلام، ومع ذلك فتح الله تعالى لهم باب التوبة والمغفرة، فقال:

﴿ ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون ﴾ [٥٢] والعفو: محو الذنب والتجاوز عنه، والمعنى: عفونا عن ذنوبكم وتجاوزنا عنها بعد توبتكم، كما سيأتي.

شريعة التوراة

ومن نعمه سبحانه الجليلة عليهم، إنزال التوراة على موسى عليه السلام؛ ليهتدي بها بنو إسرائيل، ويحتكموا إلى شريعتها:

﴿ وإذ آتينا موسى الكتاب ﴾ أي: التوراة التي أنزلها تعالى على موسى مكتوبة في ألواح، دلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿ ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال بشما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابن أمّ إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين ﴾^(١)، وقوله بعد ذلك: ﴿ ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدىً ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ﴾^(٢).

﴿ والفرقان ﴾ أي: آتيته التوراة التي هي الفرقان، فهو وصف للتوراة، عطف على الكتاب عطف الصفة على الموصوف، ومعناه: الفارق بين الحق والباطل، قال تعالى: ﴿ ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياءً وذكرًا للمتقين ﴾^(٣).

وقد وصف القرآن أيضاً بهذه الصفة في عدد من الآيات، منها قوله تعالى: ﴿ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾^(٤).

(١) الأعراف: الآية ١٥٠.

(٢) الأعراف: الآية ١٥٤.

(٣) الأنبياء: الآية ٤٨.

(٤) الفرقان: الآية ١.

﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [٥٣] أي: لكي تهتدوا بما فيها، وتنتفعوا بأحكامها ومواعظها.

والجدير بالذكر أن شريعة التوراة لم تكن كالشريعة الإسلامية، سهلة سمحة ميسرة، فقد شدد الله تعالى على بني إسرائيل فيها؛ لأنهم ما كانوا يبادرون إلى تنفيذ أوامره؛ ولهذا شدد الله تعالى عليهم، ولقد اهتمت آيات سورة البقرة بإبراز هذا الموضوع في كثير من آياتها، كما سيأتي.

ومن أحكام التوراة التي شدد الله تعالى فيها على بني إسرائيل، أنه لا تقبل توبة المرتد منهم حتى تطبق عليه عقوبة الردة في الدنيا، وهي القتل، فإذا تاب المرتد منهم وسلم نفسه للقتل قبل الله توبته، بينما الحكم في الشريعة الإسلامية أيسر وأسهل، فالمرتد إن تاب ورجع إلى الإسلام، قبلت توبته ونجا من القتل.

ولهذا قال تعالى بعد أن أخبر عن إنزال التوراة، يبين حكم المرتدين عبدة العجل الذهبي:

﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم﴾ أي: ارجعوا إلى خالقكم الذي أحدثكم وأبدعكم وأخرجكم من العدم.

وأصل برأ من تبرئ الشيء من الشيء، وهو انفصاله منه، فالخلق قد فصلوا من العدم إلى الوجود^(١). ومن معاني الباري أيضاً: الخالق الذي خلق الخلق محكماً، بريئاً من التفاوت والنقص، ومميزاً المخلوقات بعضها عن بعض بصور وهيئات مختلفة^(٢).

﴿فاقتلوا أنفسكم﴾ بتسليم أنفسكم للقتل، والصبر عليه.

ويبدو أن الذين عبدوا العجل كانوا أكثر بكثير من الذين لم يعبدوه، بحيث لا يمكن تطبيق عقوبة القتل عليهم إلا إذا سلموا أنفسهم للقتل، قال القرطبي رحمه الله: وأجمعوا على أنه لم يؤمر كل واحد من عبدة العجل بأن يقتل نفسه بيده^(٣).

﴿ذلكم خير لكم عند بارئكم﴾ أي: الصبر على القتل خير لكم من الإصرار على الكفر، فلا توبة لكم إلا بذلك. ﴿فتاب عليكم﴾ أي: قبل سبحانه توبتكم بعد أن فعلتم ما أمرتم به، وأسلمتم أنفسكم لحكمه.

(١) القرطبي ٤٠٣/١.

(٢) انظر: تفسير البيضاوي، وتفسير النسفي ١٢٦/١.

(٣) تفسير القرطبي ٤٠١/١.

هذه العقوبة الصارمة الشديدة التي أنزلها الله بهم، تدلّ على شدّة قسوة طباعهم، فلا بدّ منها حتى تلين نفوسهم الغليظة الجافية.

﴿إنه هو التّوَاب الرحيم﴾ [٥٤] أي: إنه سبحانه هو الذي يتفضل بقبول التوبة والعفو عن الذنوب، الرحيم بعباده جلّ وعلا.

سؤال التعنّت والعناد

وإلى موقف آخر من مواقف تعنّتهم وعنادهم:

﴿وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾ أي: عياناً، هكذا واجهوا نبيّهم موسى عليه السلام وقابلوا الخير الذي أجراه الله تعالى على يديه لهم، والذين قالوا هذا القول هم خيارهم، اختارهم موسى من صالح بني إسرائيل الذين لم يعبدوا العجل، ليذهبوا معه إلى موضع المناجاة، ويتضرعوا إلى الله تعالى ويستغفروه، ويسألوه أن يتوب على عبدة العجل من بني إسرائيل.

ولما شرع موسى بمناجاة ربّه، وتلقّى وحيه، قالوا له: لن نصدقك بأنك تناجي ربك حتى نرى الله جهرة.

﴿فأخذتكم الصّاعقة﴾ أي: استولت عليكم وأحاطت بكم، وهي الزلزلة الشديدة، فصعقوا بها وماتوا. كما قال تعالى: ﴿واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال ربّ لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي...﴾ الآية^(١).

﴿وأنتم تنظرون﴾ [٥٥] أي ينظر بعضكم إلى بعض، كيف يصعقون ويموتون.

وسؤالهم هذا سؤال تعنّت وعناد، وليس سؤال استرشاد، إذ أجرى الله تعالى على يدي موسى كثيراً من المعجزات الدالة على صدقه، وإنزال الصاعقة عليهم ليس لمجرد الطلب، ولكن لما انضمّ إليه من التعنّت وفرط العناد^(٢).

ولهذا حذّر الله تعالى أصحاب نبيّنا عليه الصلاة والسلام من مثل هذا السؤال المتعنّت، كما سيأتي في قوله تعالى: ﴿أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضلّ سواء السبيل﴾.

ومثل هذه المواقف هي التي أدّت إلى التشديد عليهم في شريعة التوراة.

(١) الأعراف: الآية ١٥٥.

(٢) انظر: روح المعاني ٢٦٣/١.

وشعر موسى عليه السلام بالحرَج بعد أن صُعبوا وماتوا، كيف يرجع إلى بني إسرائيل بدونهم؟ وماذا يقول لهم؟ فتوجه إلى الله تعالى ضارعاً، فأحياهم الله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [٥٦] أي: تشكرون الله تعالى على نعمه بعد كفرانها وجحودها.

وتابعت الآيات تذكيرهم ببعض هذه النعم، وبمواقف العناد والجحود والكفران التي صدرت عنهم: ﴿وَوَضَعْنَا عَلَى كَيْفِكَ الْغَمَامَ﴾ أي: جعلنا الغمام يظللکم لِيَقِيَكُمْ حَرَّ الشَّمْسِ، وذلك عندما ضرب الله عليهم التيه في صحراء سيناء، بعد أن خذلوا نبيهم موسى، ورفضوا الجهاد معه لدخول الأرض المقدسة وقالوا له كما حكى الله عنهم: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا فِيهَا قَوْمٌ جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموها فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين. قالوا يا موسى إِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿١﴾، فحرّمهم الله تعالى من دخول الأرض المقدسة أربعين سنة، وجعلهم يتيهون في الصحراء، في أثناء هذه المدة: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيَهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (٢).

ومن نعمه تعالى عليهم أيضاً في فترة التيه هذه أنه يسّر لهم الحصول على الطعام، وأغناهم عن عناء طلبه والبحث عنه في الصحراء، وأنزل عليهم المن والسلوى: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى﴾ والمن: طعام يشبه الكمأة، دلّ على ذلك الحديث الشريف عن سعيد بن زيد رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «الكمأة من المنّ وماؤها شفاء للعين» (٣). وأما السلوى فطائر معروف.

﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي: كلوا من هذا الطعام اللذيذ النافع، الذي يسّره الله لكم بدون عناء وتعب، وهو أمر إباحة وامتنان وإرشاد، ومع ذلك لم يشكروا الله تعالى على هذه النعم، بل قابلوها بالجحود والكفران؛ ولهذا قال تعالى:

﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ أي: لم يصل إلينا من معاصيهم وآثامهم نقص ولا ضرر، فالله تعالى غني عن طاعة عباده، ولا تضرّه معاصيهم.

(١) المائدة: الآية ٢٢ - ٢٤.

(٢) المائدة: الآية ٢٦.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الأشربة، رقم (٢٠٤٩).

﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ [٥٧] لأن عاقبة ظلمهم تعود عليهم .
والجمع بين صيغتي الماضي ﴿ كانوا ﴾ والمستقبل ﴿ يظلمون ﴾ للدلالة على
تماديهم في الظلم واستمرارهم عليه^(١) .

الزاحفون على مقاعدهم

ومن صور ظلمهم وعنادهم ، ما فعلوه عندما أمرهم سبحانه أن يدخلوا إحدى
القرى التي مروا بها :

﴿ وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية ﴾ أمرهم الله أن يدخلوها ، وأباح لهم ما فيها من
طعام :

﴿ فكلوا منها حيث شئتم رغداً ﴾ أي : كلوا منها كما تشاؤون أكلاً موسعاً عليكم .
وأمرهم سبحانه عندما يدخلون باب القرية أن يدخلوه خاضعين خاشعين
متواضعين ، لا متكبرين متجبرين ، كما يفعل المعتدون الغاصبون :
﴿ وادخلوا الباب سُجَّداً ﴾ أي : خضعاً متواضعين ، أو لعلهم أمروا بالسجود عند
الانتهاء إلى الباب شكراً لله تعالى .

﴿ وقولوا حطة ﴾ أي : حُطَّ عنا ذنوبنا وخطايانا ، ويؤيده قراءة النصب ، ولهذا قال
تعالى بعدها : ﴿ نغفر لكم خطاياكم ﴾ أي : نسترها عليكم ونتجاوز عنها ، بسبب
طاعتكم لله تعالى وانقيادكم لأمره . ﴿ وسنزيد المحسنين ﴾ [٥٨] الذين أحسنوا في
عبادتهم وطاعتهم ؛ لأنهم يشعرون برقابة الله عليهم ، كما ورد في الحديث الشريف :
قال : ما الإحسان ؟ قال : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »^(٢) .
هكذا أطمعهم سبحانه بالمغفرة إن انقادوا لأمره وخضعوا لحكمه ، ووعد المحسنين
منهم المزيد من فضله وثوابه ، ولكن بني إسرائيل هم بنو إسرائيل في جحودهم
وعنادهم وفجورهم :

﴿ فبدّل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم ﴾ أي : قالوا قولاً غير الذي كُلِّفوا به ،
وقد جاء في الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :
« قيل لبني إسرائيل : ادخلوا الباب سُجَّداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم ، فبدّلوا ،

(١) انظر : روح المعاني ١/ ٢٦٤ .

(٢) انظر الحديث كاملاً في صحيح البخاري ، كتاب الإيمان ، رقم (٥٠) .

فدخلوا يزحفون على أستاههم - أي مقاعدهم - وقالوا: حبة في شعرة^(١).

ودلّ الحديث على أنهم لم يعصوا الله تعالى بتبديل الكلمات فقط، بل أضافوا إليها تبديل الهيئات، فبدل أن يدخلوا خاضعين ساجدين لله تعالى، دخلوا يزحفون على مقاعدهم، ووجوههم وصدورهم إلى الأعلى، وبهذا استحقوا غضب الله عليهم وعذابه:

﴿فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون﴾ [٥٩] أي: أنزلنا عليهم عذاباً من السماء، بسبب خروجهم على طاعة الله تعالى، والرجز الذي أنزله الله تعالى عليهم، هو وباء الطاعون، فعن أسامة بن زيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الطاعون رجز أو عذاب أرسل على بني إسرائيل، أو على من كان قبلكم، فإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه»^(٢).

عيون الماء في الصحراء

الماء في الصحراء قليل نادر، والحصول عليه من أصعب الأمور، ومن نعم الله على بني إسرائيل، وهم في الصحراء، أن يسّر لهم الحصول على الماء من غير تعب ولا عناء:

﴿وإذ استسقى موسى لقومه﴾ أي: دعا الله تعالى طالباً السقيا لقومه.

﴿فقلنا اضرب بعصاك الحجر﴾ أي: الحجر المعهود المعروف، ففعل عليه السلام.

﴿فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا﴾ أي: سال الماء بقوة من اثني عشر موضعاً في الحجر على عدد قبائلهم.

﴿قد علم كل أناس مشربهم﴾ أي: المكان المخصص لشربهم، وهكذا يسّر الله تعالى لهم ما يحتاجون من الماء في الصحراء، كما يسّر لهم الطعام، وقال لهم ممتناً عليهم:

﴿كلوا واشربوا من رزق الله﴾ وحذّره من العصيان والفساد، الذي يمكن أن يحدث بسبب الترف والتوسع في المآكل والمشرب، وقال:

﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ [٦٠] أي: لا تنشروا الفساد في الأرض،

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير (٤٦٤١).

(٢) رواه مسلم، كتاب السلام (٢٢١٨).

والعشي: أشدّ الفساد، والمعنى: لا تتمادوا في الفساد حال إفسادكم^(١).

وكانه تعالى قال لهم: يكفي ما أنتم عليه من الفساد، فلا تعملوا على نشره في الأرض، والعجيب أن المستقرىء لأسباب الفساد في الأرض كلها، يجدها تتصل بهم وتنتهي إليهم.

وأضافت الآيات موقفاً آخر من مواقف جحودهم وعنادهم، يدلّ على وقاحتهم وسوء أدبهم مع الله تعالى ومع نبيّه موسى عليه السلام.

﴿ وإذ قلت يا موسى ﴿ هكذا بكل وقاحة ينادون نبيّ الله موسى عليه السلام باسمه، مجرداً عن أيّ كلمة تدلّ على احترامهم له وتقديرهم لمكانته:

﴿ لن نصبر على طعام واحد ﴿ أي: لن نحبس أنفسنا على لون واحد من الطعام، لا يتغيّر ولا يتبدّل.

﴿ فادع لنا ربك ﴿ كأنه تعالى ربّ موسى وحده في نظرهم.

﴿ يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها ﴿ وهو نبات معروف لا ساق له كالكراث والنعناع والبقدونس.

﴿ وقثائها وفومها ﴿ أي: وثومها.

﴿ وعدسها وبصلها ﴿ ويبدو أنها الأطعمة التي ألفوها واعتادوا عليها، عندما كانوا في مصر، ولهذا تشوّفت نفوسهم إليها، دون أن يبذلوا أيّ جهد في مقاومة نفوسهم، وتعويدها على الحياة الجديدة في الصحراء، ولا خير في أمة تنقاد لشهواتها، وتضعف أمام نفوسها.

وردّ عليهم موسى عليه السلام بأسلوب يدلّ على ضجره منهم:

﴿ قال أتستبدلون الذي هو أدنى ﴿ أي: أدون، من الدنو أي قليل الثمن، وفي قراءة ﴿ أدناً ﴿ من الدناءة والخسّة. ﴿ بالذي هو خير ﴿ أي: بمقابلة ما هو خير، فإن حرف الباء تصحب الذهاب الزائل، كما في قوله سبحانه: ﴿ ومن يتبدّل الكفر بالإيمان ﴿.

﴿ اهبطوا مصرّاً فإن لكم ما سألتم ﴿ أي: انزلوا أيّ قرية أو بلد لتجدوا فيها ما

(١) انظر: روح المعاني ٢٧٢/١.

تريدون من هذه الأطعمة، وقد يكون مراد موسى عليه السلام مصر، البلد الذي كانوا فيه، ونُونٌ لسكون وسطه^(١).

فما تطلبونه هين زهيد موفور في أيّ مِصر من الأمصار، أو عودوا إذن إلى مصر التي خرجتم منها، عودوا إلى حياتكم الدارجة المألوفة، إلى حياتكم الخانعة الذليلة، حيث تجدون العدس والبصل والثوم والقثاء، ودعوا الأمور الكبار التي تُدبتم لها. ويكون هذا من موسى عليه السلام تأنيباً لهم وتوبيخاً.

الذلة والمسكنة والغضب

وابتلاهم الله تعالى بسبب مواقف العناد والجحود والتعنت، بالشتات والذلة والصغار، وجعلها ملازمة لهم وملاصقة بهم، مهما امتد الزمان وتقلب الدهور والعصور، عدا فترات قليلة لا تعدّ شيئاً بالنسبة لأعمار الأمم والشعوب، وأخبر تعالى علام الغيوب عن ذلك فقال:

﴿ وضربت عليهم الذلة ﴾ أي: جعلت الذلة محيطة بهم، مشتملة عليهم، كما تكون القبة محيطة بمن تضرب عليهم، أو ألصقت الذلة بهم كما يلصق الطين عندما يُضرب على الحائط.

﴿ والمسكنة ﴾ أي: الفقر والفاقة، وسُمّي الفقير مسكيناً لأن الفقر أسكنه وأقعده عن الحركة، فترى اليهود وإن كانوا أغنياء مياسير، كأنهم فقراء، لشدة حرصهم على المال، ولتفاقرهم وتظاقرهم بالفقر؛ حماية لأموالهم وخوفاً عليها، ولا يزالون يتظاهرون بالفقر، حتى بعد أن أصبحت لهم قوة ومنعة في عصرنا الحاضر، بتأييد الدول الكافرة لهم، ولا يزالون يطلبون المساعدات ويستجدون المعونات من الدول والمؤسسات والأفراد، وقوتهم ليست نابعة منهم، بل هي مستمدة من الناس الذين يؤيدونهم ويقفون وراءهم، كيداً بالمسلمين، ومكراً بهم واستنزافاً لخيراتهم وقوتهم، كما قال تعالى: ﴿ ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾^(٢).

(١) انظر: البضاوي والنسفي والهازم ١/١٣٣.

(٢) آل عمران: الآية ١١٢. وانظر: التوراة والإنجيل والقرآن في سورة آل عمران.

﴿وباءوا بغضب من الله﴾ أي صاروا مستحقين لغضب الله تعالى ، مَنْ بَاء فلان بفلان ، إذا كان حقيقاً بأن يقتل به لمساواته له^(١).

﴿ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله﴾ التي أنزلها في كتبه: التوراة والإنجيل والقرآن.

﴿ويقتلون النبيين بغير الحق﴾ فما من أمة أقدمت على قتل أنبيائها كما فعل اليهود بأنبيائهم ، وقوله: ﴿بغير الحق﴾ تأكيد لضخامة جريمتهم وشناعتها ، وإلا فقتل النبيين لا يكون بحق أبداً.

﴿ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ [٦١] أي: جرّهم العصيان والتمادي والاعتداء فيه إلى الكفر بالآيات وقتل النبيين ، فإن صغار الذنوب سبب يؤدي إلى كبارها^(٢) ، ولهذا قال العلماء: الصغائر بريد الكفر، إذ الإدمان عليها يؤدي بصاحبها إلى الكبائر فالكفر.

وأبواب الرحمة لا زالت مفتوحة أمامهم ، ودعوة الخير لا زالت تدعوهم وتناديهم ، رغم كل ما تقدّم من مواقف العناد والكفران ، وما أعقبها من ضرب الذلّة عليهم والهوان ، فرسالة الإسلام رسالة الرحمة العامّة الشاملة لجميع الناس ، فلا ينبغي اليأس والقنوط والاستسلام للذلّة والهوان ، فهذه الصفات تُلازمهم ما داموا متمسكين بعنادهم وباطلهم ، أما إذا فتحوا قلوبهم لدعوة الحق ، وأسلموا نفوسهم لله تعالى ، فطريق الحق مفتوح أمامهم ، يمكنهم السير فيه ، كما سار غيرهم ، وقد استجاب لدعوة الحق بعض أفراد منهم ، أسلموا وأصبحوا من خيار أصحاب رسول الله ﷺ ، كعبد الله بن سلام وزيد بن سعة وغيرهما رضي الله عنهما ، وهذا ما دلّ عليه قوله تعالى:

﴿إن الذين آمنوا﴾ أي: آمنوا بالله تعالى وحده قبل بعثة النبي ﷺ ، أو المراد آمنوا بألسنتهم قولاً ، وهم المنافقون.

﴿والذين هادوا﴾ أي: تهوّدوا ودخلوا في اليهودية.

﴿والنصارى﴾ أي: الذين دخلوا في النصرانية ، مفردها نصران ، كندمان ، ولحقت به الياء للمبالغة.

﴿والصابئين﴾ أي: الخارجين على جميع الملل والعقائد ، من صبا ، إذا خرج من الدين.

(١) انظر: النسفي ١٣٤/١.

(٢) انظر: تفسير البضاوي ١٣٤/١.

﴿ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ ﴾ الواحد الأحد المنزه عن الشريك والصاحبة والولد.
 ﴿ واليوم الآخر ﴾ أي: وصدق بيوم القيامة وما فيه من حساب وجزاء.
 والإيمان بالله واليوم الآخر - كما مر معنا - الركنان الأساسيان في عقيدة الإسلام.
 ﴿ وعمل صالحاً ﴾ بالتزام شريعة الإسلام، وتطبيق أحكامها.
 ﴿ فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ [٦٢].
 فالرسالة الإسلامية عامة شاملة، والطريق مفتوح للجميع، وما على الذين يريدون
 النجاة إلا السلوك فيه.

ميثاق الطور

وهو ميثاق مشهور، من المواثيق التي أخذها الله تعالى على بني إسرائيل، وطالبهم
 تعالى بالوفاء به في أول الآيات، عندما قال: ﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت
 عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم ﴾ وكأن الآيات تعود مرة ثانية - بعد أن بيّنت مواقف
 الجحود والعناد التاريخية - تجدد دعوة الأجيال المتعاقبة منهم.
 فالميثاق ليس للجيل الأول من اليهود، الذي شهده، وإنما هو ميثاق متجدد لكل
 أجيالهم.

﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ﴾ بالإسلام لله تعالى، والانقياد لدينه وأحكام شرعه.
 ﴿ ورفعنا فوقكم الطور ﴾ أي: جبل الطور، رفعه الله تعالى بمشيئته وقدرته فوق
 رؤوسهم، حتى يدعوا للميثاق ويرضوا به، وهذا يدل على أنهم في أول الأمر لم يدعوا
 له، ولم يقبلوا به، فأكبرها على ذلك، ورفع الجبل فوقهم، حتى صار بمثابة المظلة
 فوقهم، كما في قوله تعالى: ﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا
 ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾ (١).
 ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾ أي: تمسكوا بالشريعة التي كلّفناكم بها بجِدٍّ وعزيمة،
 لا بكسل واسترخاء، فالتكليف يحتاج إلى عزم وجدّ واجتهاد.

﴿ واذكروا ما فيه ﴾ أي: تذكروا ما يترتب على هذه التكاليف من مسؤولية وحساب
 وعقاب وثواب. ﴿ لعلكم تتقون ﴾ [٦٣] أي: لعل هذا يجعلكم تتقون الله تعالى
 وتخشونه، أو تتقون عذابه وانتقامه.

(١) الأعراف: الآية ١٧١.

ولا يزال اليهود، كما يقول العلماء، يسجدون على جانب من وجوههم، ونظرهم إلى الأعلى، منذ أخذ عليهم الميثاق ورفع الجبل فوقهم، ومع ذلك أعرضوا عن طاعة الله تعالى، وهجروا أحكام التوراة، وبدّلوا فيها وغيروا، كما سيأتي، ولهذا قال تعالى:

﴿ثم تولّيتم من بعد ذلك﴾ أي: أعرضتم عن الوفاء بهذا الميثاق.
﴿فلولا فضل الله عليكم ورحمته﴾ بياهمالكُم وتأخير العقاب عنكم.
﴿لكنتم من الخاسرين﴾ [٦٤] أي: الهالكين.

ثم ذكّرتهم الآيات بحادثة تاريخية مشهورة من حوادث نقض الميثاق وما ترتب عليه:

﴿ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت﴾ أي: ولقد علمتم العذاب الذي أنزله الله تعالى بالخارجين على طاعته في يوم السبت، إذ أمرهم الله تعالى أن يتفرغوا للعبادة في هذا اليوم، وحرّم عليكم الاشتغال بأي عمل دنيوي فيه، فخالف بعضهم أمره، وضعفوا أمام الكسب المادي الذي لاح لهم في هذا اليوم، فكانت الأسماك بتقدير الله تعالى تأتي إلى شواطئ بلدكم أيلة قرب العقبة، في يوم السبت، وتغيب مبتعدة في أعماق البحر في الأيام الأخرى، وقد فصلّ تعالى خبرهم في موضع آخر فقال:
﴿واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبّتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون﴾^(١).

ويدلّ قوله تعالى: ﴿ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت﴾ وقوله: ﴿واسألهم عن القرية﴾ على أن حادثة أصحاب السبت مشهورة ومعروفة عند اليهود.

ولما طال بهم أمد المعصية، وأصروا عليها، ولم يتعظوا بمواعظ الصالحين فيهم، كما قال تعالى: ﴿وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة إلى ربكم ولعلّهم يتّقون﴾^(٢) أنزل الله تعالى بهم عذابه الأليم، الذي ما أنزل مثله على غيرهم قبلهم:

﴿فقلنا لهم كونوا قردة﴾ وهو أمر تحويل وتكوين، كما قال تعالى: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾^(٣).

فكانوا كما قال سبحانه، وتحولوا إلى قردة من غير امتناع ولا تأخير.

(١) الأعراف: الآية ١٦٣.

(٢) الأعراف: الآية ١٦٤.

(٣) يس: الآية ٨٢.

﴿خاسئين﴾ [٦٥] أي: مبعدين، أو صاغرين ذليلين، وظلّوا على ذلك ثلاثة أيام ثم هلكوا، قال ابن عباس رضي الله عنه: لم يعيش مَسْخٌ قطّ فوق ثلاثة أيام، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل^(١). وفي الحديث الشريف عن عبد الله بن مسعود أن رجلاً قال: يا رسول الله القردة والخنازير هي مما مُسَخ؟ فقال النبي ﷺ: «إن الله عزّ وجلّ لم يهلك قوماً أو يعذب قوماً فيجعل لهم نسلًا، وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك»^(٢).

مسخهم الله مسخاً حقيقياً لا معنوياً، كما زعم بعضهم، منهم سيّد قطب رحمه الله، حيث قال: وليس من الضروري أن يستحيلوا قردة بأجسامهم، فقد استحالوا إليها بأرواحهم وأفكارهم، وانطباعات الشعور والتفكير تعكس على الوجه والملامح سمات تؤثر في السحنة، وتلقي ظلها العميق^(٣). ولو كان المسخ معنوياً كما زعموا ما كان فيه عبرة لمعتبر، وموعظة لمتّعظ، ولما قال تعالى بعد ذلك: ﴿فجعلناها نكالاً﴾ أي: جعلنا هذه العقوبة عبرة تنكل المعتبر بها، أي: تمنعه، ومنه النكل للقيّد^(٤).

﴿لما بين يديها وما خلفها﴾ أي: لما حولها من المدن والقرى الذين شاهدوا وعانوا الممسوخين. ﴿وموعظة للمتقين﴾ [٦٦] أي: وجعلناها موعظة يتّعظ بها المتّقون وينتفعون بها على مدى العصور.

بنو إسرائيل والبقرة

ثم ساقّت الآيات قصة بني إسرائيل مع البقرة التي أمروا بذبحها، لتبيّن مدى تعنتهم وتقاعسهم في تنفيذ أمر الله تعالى، الذي قال لهم عندما أخذ عليهم الميثاق ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾، وكشفت القصة سبب التشديد في شريعة التوراة، فالله سبحانه عليم حكيم في كل ما يشرع، وما شدّد تعالى عليهم إلّا بسبب نابع من نفوسهم، فالقوم كما سنرى في القصة، لم يبادروا إلى تنفيذ أمر الله تعالى، وشدّدوا على أنفسهم فشّد الله تعالى عليهم، بينما كان أصحاب النبي ﷺ على العكس من ذلك، كانوا يبادرون إلى تنفيذ أمر الله تعالى قائلين: سمعنا وأطعنا، فأكرمهم الله تعالى بالشريعة الإسلامية السمحة الميسّرة، كما سيأتي في آخر السورة.

(١) تفسير القرطبي ٤٤١/١.

(٢) رواه مسلم، كتاب القدر (٢٦٦٣).

(٣) في ظلال القرآن ٧٧/١.

(٤) البيضاوي ١٣٨/١.

﴿ وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴾ فالأمر من الله تعالى، وهو صريح وواضح، ومع ذلك لم يبادروا إلى تنفيذه، و: ﴿ قالوا أتتخذنا هزواً ﴾ أي: أتستهزئ بنا، وجاء قولهم بصيغة الاستفهام الإنكاري، فجمعوا به سوء الأدب مع نبي الله موسى عليه السلام، وعدم الثقة به، كأنه عليه السلام يتقول على الله تعالى، وحاشا لنبي كريم أن يفعل هذا.

فقولهم دليل على سوء اعتقادهم بنبيهم وتكذيبهم له، أو جرى على نحو ما هم عليه من غلظ الطبع والجفاء والمعصية^(١).

وبادر عليه السلام إلى تبرئة نفسه مما اتهموه به:

﴿ قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾ [٦٧] لأن الهزء في مثل ذلك جهل وسفه^(٢)، فهو رسول كريم، يؤدي رسالة الله تعالى، ويبلغهم أمره، فالموقف خطير جداً، فكيف يكون مستهزئاً به؟! ولهذا نفاه عليه السلام بأسلوب الاستعاذة بالله تعالى من الاتصاف بصفة المستهزئ.

وكان عليهم بعد هذا البيان أن يشعروا بخطئهم، ويدركوا سوء أدبهم، ويعتذروا من موسى عليه السلام، ويبادروا إلى تنفيذ أمر الله تعالى تائبين مستغفرين، ولكن بني إسرائيل هم بنو إسرائيل، كما مر معنا، ظلوا متمسكين بعنادهم، مستمرين على سوء أدبهم، وطلبوا من موسى عليه السلام أن يبين لهم حقيقة البقرة وصفتها:

﴿ قالوا ادع لنا ربك ﴾ وهي وقاحة ثانية، وسوء أدب آخر، سبق الإشارة إليهما من قبل، كأنه تعالى رب موسى وحده.

﴿ يبين لنا ما هي ﴾ أي: ما حالها وما صفتها، قال ابن عباس رضي الله عنه: فلو اعترضوا بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم، ولكن شددوا وتعتوا على موسى فشدد الله عليهم^(٣).

﴿ قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر ﴾ أي: لا كبيرة ولا صغيرة لم تلد.

﴿ عوان بين ذلك ﴾ أي: نصف، بين الكبيرة والصغيرة، وهي التي قد ولدت بطناً أو بطنين، وهي أقوى ما تكون من البقر وأحسنه^(٤).

(١) انظر: روح المعاني ٢٨٦/١.

(٢) انظر: تفسير البضاوي ١٣١/١.

(٣) جامع البيان ٢٦٨/١.

(٤) انظر: تفسير القرطبي ٤٤٩/١.

وأضاف عليه السلام إلى البيان تكرير الأمر:

﴿ فافعلوا ما تؤمرون ﴾ [٦٨] وكأنه عليه السلام قال لهم: نفذوا الأمر ولا تكثرُوا من السؤال، ولكنهم عادوا مرة ثانية إلى السؤال:

﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها ﴾ واضطر موسى عليه السلام مرة ثانية إلى دعاء ربه، وجاءهم الجواب يشدد عليهم، ويفرض قيوداً وشروطاً ما كانوا مكلّفين بها:

﴿ قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها ﴾ أي شديدة الصُفرة، أو صافية اللون. ﴿ تسرّ الناظرين ﴾ [٦٩] أي: يعجبهم حسنُها وصفاء لونها.

ولم يفتنوا إلى أن هذه التشديدات تسوءهم وفي غير مصلحتهم، فما أغياهم! وعادوا مرة ثالثة يسألون:

﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ﴾ كرروا السؤال الأول نفسه، وأضافوا هذه المرة اعتذاراً عنه قائلين:

﴿ إن البقر تشابه علينا ﴾ أي: التبس واشتبه أمره علينا؛ لكثرة وجود هذه الصفات فيه.

﴿ وإنا إن شاء الله لَمَهْتَدُونَ ﴾ [٧٠] إلى البقرة المطلوبة.

والاستقصاء في مثل هذه الأحوال شؤم؛ إذ هو تكلف وتنطع، حذر تعالى منه المؤمنين بقوله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها والله غفور حلِيم ﴾ (١).

وأثاهم الجواب بشروط وقيود وأوصاف لا تجتمع إلا في بقرة واحدة:

﴿ قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث ﴾ أي: إنها بقرة غير مذلّلة ومدربة على العمل، فهي لا تثير الأرض، أي: لا تفلحها، ولا تسقي الزرع.

﴿ مسلمة ﴾ أي: خالية عن العيوب وآثار العمل.

﴿ لا شية فيها ﴾ أي: لا يخالط لونها لون آخر.

وأخيراً عرفوا البقرة المطلوبة، و: ﴿ قالوا الآن جئت بالحق ﴾ أي: الثابت الواضح الذي لا لبس فيه ولا غموض، وشرعوا يبحثون عنها، ولا بدّ أنهم تعبوا كثيراً حتى وجدوها، واستغلّ صاحبها الفرصة، وهو شأن بني إسرائيل، يستغلّون المواقف

(١) المائدة: آية ١٠١.

وينتهزون الفُرص، فغلا في ثمنها غلوّاً فاحشاً، حتى إن الروايات تذكر أنه طلب ملء جلدها ذهباً، واضطروا إلى الاستجابة إلى طلبه مُكرهين، ولهذا قال تعالى :

﴿ فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴾ [٧١] يعني أنهم مع هذا البيان وهذه الأسئلة والأجوبة والإيضاح، ما ذبحوها إلا بعد الجهد، وفي هذا ذمّ لهم، وذلك أنه لم يكن غرضهم إلاّ التعت، فلهذا ما كادوا يذبحونها^(١).

قلوب قاسية

ثم كشفت الآيات سرّ تكليفهم بذبح البقرة، وقد أخره سبحانه ليبيّن أن على العباد أن ينقادوا لأمره، ويستسلموا لشرعه، سواء عرفوا حكمته فيه أم لم يعرفوا، فلا يكون الانقياد والاستسلام كاملاً إلاّ بهذا، فالواجب أن تكون العبادة خالصة لله تعالى، لا من أجل ما يترتب عليها من حِكم وفوائد، وعلينا أن نبادر إلى تنفيذ أمر مولانا جلّ وعلا، عرفنا فائدة الأمر أم لم نعرف، حتى نحقق معنى العبودية الكاملة الخالصة له جلّ وعلا، وعلينا أيضاً أن نؤمن أنه تعالى يتّصف بكل صفات الكمال، ومن صفات كماله تعالى الحكمة، فهو حكيم في كل أفعاله وأوامره ونواهيه، لا يشرع إلاّ ما فيه حكمة وفائدة تعود على المكلفين، إذ هو سبحانه وتعالى غنيّ عن عباداتنا وطاعاتنا، يظهر لنا سبحانه بفضلِهِ أحياناً حكمة التكليف، وتقصر عقولنا عن إدراكها أحياناً أخرى، فالقصور والنقص فينا لا في ما شرع الحق لنا، وهذا ما جعلني أسير مع نسق الآيات، ولا أستبق كشف الأحداث، كما فعل جمهور المفسّرين، ففي ترتيب الآيات وتنسيقها حِكم وأسرار:

﴿ وإذ قتلتم نفساً ﴾ أي: اذكروا عندما حدثت جريمة قتل في مجتمعكم، وإما أن يكون القاتل واحداً أو جماعة منهم، وخوطف الجميع به لحدوثه بينهم.

﴿ فادّارأتم فيها ﴾ أي: اختلفتم واختصمتم في شأنها، من الدراء، وهو الدفع، فكلّ منهم يدفع التهمة عن نفسه، وي طرحها على غيره.

﴿ والله مُخرج ما كنتم تكتمون ﴾ [٧٢] من أمر القاتل، ويبدو أن كثيراً منهم كانوا يعلمون القاتل، ويستترون عليه، إما لوجهته وماله، أو خوفاً من شرّه.

﴿ فقلنا اضربوه ببعضها ﴾ أي: اضربوا جسد القاتل بجزء من البقرة المذبوحة،

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير ٧٨/١.

ففعّلوا، فأحيا الله تعالى القتيّل، وأخبر بنفسه عن قاتله، فكان ذلك معجزة باهرة دلّت على كمال قدرته سبحانه.

﴿ كذلك يحيي الله الموتى ﴾ يوم القيامة.

﴿ ويُرِيكم آياته ﴾ الدالّة على كمال قدرته.

﴿ لعلّكم تعقلون ﴾ [٧٣] يا بني إسرائيل ما في هذه الواقعة من دروس وعظات وعبر، فالله سبحانه قادر على أن يحيي القتيّل بدون ذبح البقرة وضربه بجزء من أجزائها، ولكنه سبحانه أراد أن يبيّن لهم تّعنتهم وعنادهم، وتقاعسهم عن تنفيذ أمره والاستسلام لشرعه، ويكشف لهم سرّ التشديد في شريعة التوراة التي كلّفهم بها، فالتشديد في الحقيقة نابع من نفوسهم ومن طبائعهم الغليظة الجافية، فهو تعالى حكيم بكل ما شرع، عليم بدخائل النفوس ومكونات القلوب.

تُرى هل عقلوا الدرس، وفهموا عظاته وعبره؟ الجواب ظاهر في قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك ﴾ أي: ازدادت قلوبكم قسوة وغلظة بعد كل ما حدث، والمفروض أن ترقّ وتلين وتخضع لجلال الله تعالى وعظمته، بعد أن رأت وشاهدت معجزة إحياء القتيّل الباهرة.

وقسوة القلوب من أخطر أمراضها، سببها كثرة المعاصي والإدمان عليها، دلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون ﴾ (١)، وقوله ﷺ: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأَيُّ قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأَيُّ قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا، فلا تضرّه فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مرباداً، كالكوز مجحياً، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكراً، إلا ما أشرب من هواه» (٢).

ومعنى «مجحياً»: مائلاً منكوساً.

ودواء قسوة القلب بالتوبة عن المعاصي، والخشوع لله تعالى واستغفاره والإكثار من ذكره، قال تعالى: ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين. الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً

(١) الحديد: الآية ١٦.

(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان (١٤٤).

مثنائي تقشعرّ منه جلود الذين يخشون ربّهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يَضِللِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿١﴾.

وقسوة قلوب بني إسرائيل قسوة شديدة خاصة، لا لين معها، إذ وصفها سبحانه بقوله:

﴿فهي كالحجارة أو أشدّ قسوة﴾ أي: من الحجارة، فقد يكون في الحجارة خير.

﴿وإن من الحجارة لما يتفجرّ منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء﴾ كالحجر الذي ضربه موسى عليه السلام في الصحراء فانفجرت منه عيون الماء، كما مرّ معنا.

﴿وإن منها لما يهبط من خشية الله﴾ أي: يخزّ ويهوي من الأعلى إلى الأسفل، من عظمة الله تعالى، فالحجارة تتأثّر وتتفعل وتنقاد لأمر الله تعالى، وتخضع لجلاله جلّ وعلا، كما قال: ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيت خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلّهم يتفكّرون﴾ (٢)، أما قلوب بني إسرائيل فلا تلين ولا تخضع، ولا تنقاد لأمر الله تعالى وشرعه.

﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ [٧٤] من جرائم وخبائث وفتن وفجور، ولا شك أنه وعيد شديد لهم ولأمثالهم من ذوي القلوب القاسية الغليظة الجافية.

(١) الزمر: الآية ٢٢ - ٢٣.

(٢) الحشر: الآية ٢١.

الفصل الثالث

بَنُو إِسْرَائِيلَ
مِنَ السَّلَفِ إِلَى الْخَلْفِ

تَحْرِيفُ الْكِتَابِ

ولَمَّا انتهت الآيات من مواجهة بني إسرائيل، وتذكيرهم بمواقفهم التاريخية السابقة، من كتابهم المنزل عليهم، ونبئهم المرسل إليهم، وختمت حديثها عنهم ببيان شدة قسوة قلوبهم، وغلظة طباعهم ونفوسهم، التفتت إلى المسلمين من أصحاب النبي ﷺ تخاطبهم، وتبين لهم مواقف اليهود المعاصرين لهم، من القرآن الكريم، ومن النبي ﷺ، وكأنه تعالى أراد أن يبين أن اليهود المعاصرين لنزول القرآن الكريم، يسرون على سنن آبائهم وأجدادهم، وتكون الآيات بهذا قد انتقلت من الحديث عن السلف إلى الحديث عن الخلف:

﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم﴾ أي: أبعد كل ما تقدم من مواقفهم وصفاتهم، تطمعون بإسلامهم واستجابتهم لدعوتكم، والاستفهام لاستبعاد إيمان اليهود واستجابتهم للدعوة الإسلامية، ويتضمن أيضاً تحذيراً للمسلمين من كيدهم ومكرهم.

﴿وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله﴾ المنزل عليهم في التوراة.

﴿ثم يحرفونه﴾ بتغييره وتبديله، كما فعلوا في صفات نبينا ﷺ، الموجودة في التوراة، فقد غيروها واستبدلوا ما يخالفها بها، وكما فعلوا بآية رجم الزاني، أخفوها ووضعوا في مكانها التسخيم وتسويد الوجه، وكذلك افتروا على كثير من الأنبياء، ووصفوه بصفات لا تليق بمكانتهم التي أكرمهم الله تعالى بها.

﴿من بعد ما عقلوه﴾ أي: من بعد ما ضبطوه وفهموه، فلم يحرفوه بسبب التباس واشتباه، بل عن سابق علم وقصد وإصرار، ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

﴿وهم يعلمون﴾ [٧٥] أنهم مبطلون كاذبون.

ودلت الآية على أن العالم بالحق المعاند فيه بعيد عن الرشد^(١).

(١) تفسير القرطبي ٣/٢.

فهم الذين ابتدعوا النفاق وعلموه غيرهم، فكان بعضهم يعلن الإسلام بلسانه أمام المسلمين: ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ﴾ بأنكم على الحق، وأن رسولكم هو الذي بشرت به التوراة، ويبدو أنهم كانوا يفعلون ذلك ليفتنوا ضعاف المسلمين عن دينهم، قال تعالى: ﴿ وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون ﴾^(١).

﴿ وإذا خلا بعضهم إلى بعض ﴾ أي: إذا اجتمع اليهود وحدهم مع بعضهم. ﴿ قالوا ﴾ أي: الذين لم ينافقوا للذين نافقوا.

﴿ أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ﴾ أي: كيف تخبرون المسلمين بما بين الله لكم في التوراة؟

﴿ ليحاجوكم به عند ربكم ﴾ أي: ليحتجوا عليكم بما أنزل عليكم ربكم في التوراة، أو: ليجادلوكم به في الآخرة. ﴿ أفلا تعقلون ﴾ [٧٦] أن ما تفعلونه حجة عليكم؟!

ويلاحظ أنه تعالى قال في المنافقين في الآيات السابقة: ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ﴾ بينما قال في اليهود هنا: ﴿ وإذا خلا بعضهم إلى بعض ﴾ فكأن اليهود جميعاً شياطين؛ ولهذا لم يخص بعضهم بهذا الوصف.

﴿ أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ [٧٧] فلا تخفى عليه سبحانه خافية، فإن أخفوا صفات النبي ﷺ التي في التوراة عن المسلمين، فلا بد أن يظهرها الله تعالى، وهو الذي يعلم ما يسرون وما يعلنون.

ومما سهل على المحرفين تحريف التوراة والإنجيل، أنهما كانا بلغة لا يفهما عامة اليهود، وهي اللغة السريانية أو الآرامية القديمة، التي كانت لغة أكثر شعوب شرق البحر الأبيض المتوسط، ولا يعلم هذه اللغة إلا كبار علمائهم وأخبارهم، وكان تداول التوراة قاصراً عليهم، وأما العامة فكانوا يكتفون بسماع تلاوتها منهم، قال تعالى: ﴿ ومنهم أميون ﴾ أي: من اليهود أميون لا يعرفون الكتابة والقراءة.

﴿ لا يعلمون الكتاب ﴾ أي: التوراة.

﴿ إلا أمانى ﴾ أي: إلا ما يسمعون من قراءات الأخبار، دون فهم لمعاني ما يسمعون.

(١) آل عمران: الآية ٧٢.

فالأمانى جمع أمانة، وهي التلاوة والقراءة، وهي في الأصل ما يقدره الإنسان في نفسه من منى يتمناها؛ ولذلك تطلق على الكذب، وعلى ما يُتمنى وما يُقرأ، وعلى هذا يمكن أن يكون المعنى: ولكن يعتقدون أكاذيب، أخذوها تقليداً من المحرّفين، أو مواعيد فارغة سمعوها منهم، من أن الجنة لا يدخلها إلا مَنْ كان هوداً، وأن النار لن تمسّهم إلا أياماً معدودة^(١)، كما سيأتي.

﴿وإن هم إلا يظنون﴾ [٧٨] أي: وما هم إلا يظنون، قصارى أمرهم الحدس والتخمين، من غير أن يصلوا إلى العلم القائم على النظر والبرهان، ومَرَّ معنا أنه لا ينبغي بناء الإيمان على مجرد الظن.

واتجهت الآيات تهذد وتتوعد أولئك المحرّفين لكتاب الله، من الأحبار والرهبان، الذين استغلّوا مكانتهم الدينية، وجهل العامة بكتاب الله تعالى، فحرّفوه من أجل بعض المكاسب الدنيوية المادية:

﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم﴾ أي: هلاك وعذاب للمحرّفين، الذين يكتبون الكتاب المحرّف بأيديهم، من تلقاء أنفسهم.

والويل كلمة تقولها العرب لكل مَنْ وقع في هلكة، وأصلها في اللغة الهلاك والعذاب، وساغ الابتداء به مع أنه نكرة لأنه دعاء^(٢).

﴿ثم يقولون هذا من عند الله﴾ أي: ثم يرتكبون ما هو أشنع وأفظع من التحريف، وهو نسبة المحرّف إلى الله تعالى.

﴿ليشتروا به ثمناً قليلاً﴾ أي: ليحصلوا بهذا العمل الشنيع غرضاً من أغراض الدنيا الدنيئة، وهو مهما كان قليل بالنسبة لما استوجبه من العذاب الدائم، وحرموه من الثواب المقيم^(٣).

﴿فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾ [٧٩] أي: من حطام الدنيا، أو مما يكسبون من المعاصي والآثام، وكرّر الوعيد لتأكيدهِ وتشديده.

وفي الآية تحذير من التبديل والتغيير والزيادة في الشرع، فكلّ مَنْ بدّل وغير، أو

(١) انظر: تفسير البيضاوي ١/١٤٩.

(٢) انظر: تفسير الخازن ١/١٤٩.

(٣) انظر: روح المعاني ١/٣٠٧.

ابتدع في دين الله ما ليس منه ولا يجوز فيه، فهو داخل تحت هذا الوعيد الشديد والعذاب الأليم^(١).

أمانى خادعة

وذكر تعالى بعض التحريفات التي أدخلوها على كتابهم، والأكاذيب التي نشروها بين العامة من أتباعهم، فقال:

﴿وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة﴾ أي: محدودة قليلة، وهي فكرة رائجة عند اليهود، حكاها سبحانه عنهم في غير هذا الموضع فقال: ﴿ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون﴾^(٢).

وجاء في الحديث الشريف أن النبي ﷺ، عندما فتح خيبر، سأل اليهود، قائلاً: «من أهل النار؟» قالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها، فقال النبي ﷺ: «اخسثوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبداً»^(٣). وردّ تعالى عليهم فقال:

﴿قل أتخذتم عند الله عهداً﴾ أي: أعهد الله إليكم أنه لا يعذبكم إلا هذه المدة؟ وهو استفهام يفيد الإنكار والتوبيخ.

﴿فلن يخلف الله عهده﴾ إذ لا خلف في عهده ووعدته سبحانه. ﴿أم تقولون على الله ما لا تعلمون﴾ [٨٠] أي: بل تقولون على الله قولاً لا صحة له، ولا علم لكم به، ثم نفى سبحانه قولهم، فقال: ﴿بلى﴾ أي: ليس الأمر كما تقولون وتشتهون وتمنون، فهي أمانى خادعة، وستعذبون في النار كما يعذب أمثالكم من الكفار والفجار، حسب المبدأ الذي شرعه الله تعالى، وهو:

﴿من كسب سيئة﴾ أي: فعل أمراً محظوراً باختياره وإرادته. والسيئة: اسم يتناول جميع المعاصي الكبيرة والصغيرة، والمراد منها هنا الشرك في قول ابن عباس رضي الله عنهما^(٤).

(١) تفسير القرطبي ٩/٢.

(٢) آل عمران: الآية ٢٤.

(٣) رواه البخاري، كتاب الجزية (٣١٦٩).

(٤) انظر: تفسير الخازن ١٥٠/١.

﴿ وأحاطت به خطيئته ﴾ أي: استولت عليه وشملت جميع أحواله، كمن أذنب ذنباً ولم يقلع عنه، وأصرّ عليه، فإن ذلك يجزّره إلى معاودة مثله والانهماك فيه، وارتكاب ما هو أكبر منه، حتى تستولي عليه الذنوب، وتأخذ بمجامع قلبه، فيصير بطبعه مائلاً إلى المعاصي، مستحسناً إياها، معتقداً أن لا لذة سواها، مبغضاً لمن يمنعه عنها، مكذباً لمن ينصحه فيها^(١)، كما مرّ معنا أن المعاصي يريد الكفر.

فالإصرار على الخطيئة يؤدي بصاحبها أن يصبح حبيس خطئه، يعيش - كما قال سيّد قطب رحمه الله - في إطارها، ويتنفس في جوّها، عندئذ عندما تغلق منافذ التوبة على النفس في سجن الخطيئة، عندئذ يحقّ ذلك الجزاء العادل الحاسم^(٢):

﴿ فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ [٨١] وهو كقوله تعالى: ﴿ ليس بآمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءً يُجزّ به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً ﴾^(٣).

وفي مقابل هؤلاء:

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ [٨٢].

مبادئ من شريعة القرآن وشريعة التوراة

ثم أبرزت الآيات مبادئ أساسية كبيرة في شريعة التوراة، كلّف الله تعالى بها بني إسرائيل، وأخذ عليهم الميثاق ليمسكوا بها، وتلتقي بهذه المبادئ شريعة التوراة مع الشريعة الإسلامية في القرآن، فهي أيضاً من مبادئها الأساسية الكبرى، وبهذا أكدّ تعالى أن مصدر الشريعتين واحد، وأنه تعالى كما أنزل التوراة، وشرع ما فيها من أحكام، أنزل أيضاً القرآن الكريم، وشرع ما فيه من أحكام، وجعل شريعة القرآن الكريم ناسخة لكل الشرائع السابقة عليها، وكلّف جميع الناس بالتزامها:

﴿ وإذا أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلّا الله ﴾ وعبادة الله وحده أهم المبادئ وأساسها، فهو أصلها الأصيل، وكل الشرائع الإلهية تنفّر عنه، وما من نبي إلّا دعا إليه، وهو معنى الكلمة التي نادى بها جميع الأنبياء والمرسلين: لا إلّه إلّا الله ﴿ وما

(١) تفسير البضاوي ١/١٥١.

(٢) في ظلال القرآن ١/٨٦.

(٣) النساء: الآية ١٢٣.

أرسلنا من قبلك من رسول إلّا نوحى إليه أنه لا إلّه إلّا أنا فاعبدون ﴿١﴾ .
هذا هو المبدأ الأساسي الأول في الشريعتين، وأما المبدأ الثاني فيهما، فهو
الاهتمام بالآخرين، وتقوية الروابط الاجتماعية معهم، وهو ما سبق معنا على وجه
الإجمال، عند قوله تعالى في صفات الفاسقين: ﴿ ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ﴾ ،
فصله سبحانه هنا فقال:

﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ أي: وأحسنوا للوالدين، بالتواضع لهما، وطاعتهما في
غير معصية، ومعاشرتهما بالمعروف، وخاصة عندما يتقدّم بهما العمر، ويدركهما
ضعف الشيخوخة، كما في قوله تعالى: ﴿ وقضى ربك ألاّ تعبدوا إلّا إياه وبالوالدين
إحساناً إمّا يبلغنّ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفّ ولا تنهرهما وقل
لهما قولاً كريماً ﴾ (٢).

فحقّ الوالدين من أهم الحقوق الواجبة على الإنسان في شريعة القرآن وشريعة
التوراة، ويكفي أنه تعالى قرن شكرهما بشكره فقال: ﴿ أن اشكر لي ولوالديك إليّ
المصير ﴾ (٣).

﴿ وذو القربى ﴾ أي: وأحسنوا إلى ذي القربى، فللقربى على قربه حقوق
واجبة، قال تعالى: ﴿ وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً ﴾ (٤)،
وصلة الأرحام في الشريعة الإسلامية عبادة من أعظم العبادات، ولها الأثر الطيب على
الإنسان في الدنيا والآخرة، قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ سَرّه أن يبسط عليه رزقه أو
ينسأ في أثره فليصل رحمه» (٥).

﴿ واليتامى ﴾ أي: وأحسنوا إلى اليتامى، وهم الصغار الذين فقدوا آباءهم، أمر
الله تعالى بالاهتمام بهم، وحفظ حقوقهم، وتربيتهم ورعايتهم، وشرع لهم سبحانه
أحكاماً كثيرة في عدد من الآيات الكريمة، سيأتي بعضها، تدلّ على كثرة اهتمام الشريعة
الإسلامية بالضعفاء في المجتمع، وقد توعّد الله تعالى الذين يأكلون شيئاً من أموال
اليتامى، أشدّ وعيد وأفظعه، فقال: ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون
في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً ﴾ (٦).

(١) الأنبياء: الآية ٢٥.

(٢) الإسراء: الآية ٢٣.

(٣) لقمان: الآية ١٤.

(٤) الإسراء: الآية ٢٦.

(٥) متفق عليه واللفظ لمسلم، كتاب البرّ (٢٥٥٧).

(٦) النساء: الآية ١٠.

وجعل النبي ﷺ كافل اليتيم في منزلة عالية يوم القيامة، قريبة من منزلته، فقال: «كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين في الجنة» وأشار مالك - من رواة الحديث - بالسبابة والوسطى^(١).

﴿والمساكين﴾ أي: وأحسنوا إلى المساكين، وهم الفقراء المحتاجون، الذين أسكتهم الحاجة، فلا ينبغي أن يهملوا ويتركوا إلى الفاقة والحرمان، فقد أوجب الله تعالى الاهتمام بهم ومساعدتهم، ليعيشوا الحياة اللائقة بكرامة الإنسان، وفرض عدة فروض مالية من أجل ذلك، كالزكاة والكفارات والنفقات الواجبة.

﴿وقولوا للناس حسناً﴾ أي: قولوا للناس قولاً حسناً طيباً، وكلموهم بأحسن ما يحبون، فالكلمة الطيبة صدقة، وخاصة في مجال الدعوة إلى الله تعالى، وتحبيب الناس بدينه، قال سبحانه: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾^(٢).

فما أرفع هذا التوجيه الذي أمر الله به بني إسرائيل في التوراة، وأخذ عليهم الميثاق به، وأين هذا من مواقف العناد والجحود وسوء الأدب التي كانوا عليها، كما مر معنا، بل أين هذه الأخلاق الكريمة، من الأثرة وحب الذات والجشع والتعصب العنصري المقيت، التي اشتهر بها اليهود في جميع العصور، وخاصة في عصرنا الحاضر.

﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ أي: أخذ الله تعالى عليهم الميثاق، أن يؤدوا الصلاة المفروضة بشكل صحيح مستقيم، وأن يعطوا زكاة أموالهم للمستحقين، فالصلاة والزكاة عبادتان فرضهما الله تعالى في كل الشرائع.

وماذا كانت نتيجة هذا الميثاق؟ بينها تعالى بقوله:

﴿ثم توليتم﴾ أي: أعرضتم يا بني إسرائيل عن الميثاق، ورفضتم تنفيذ أحكامه ومبادئه.

﴿إلا قليلاً منكم﴾ تمسك بالميثاق والتزم بأحكامه، ولا شك أن منهم أولئك الذين أدركوا زمن النبي ﷺ، وآمنوا برسائله، التي بشرت بها التوراة، وأمرت باتباعها. ودلّ قوله: ﴿إلا قليلاً منكم﴾ على دقة أخبار القرآن الكريم، وواقعيتها وموضوعيتها.

(١) رواه مسلم، كتاب الزهد (٢٩٨٣).

(٢) النحل: الآية ١٢٥.

﴿ وأنتم معرضون ﴾ [٨٣] أي : وأنتم عادتكم الإعراض وعدم الوفاء بالعهود والمواثيق.

تناقض في المواقف

وواجهتهم الآيات بوقائع وأحداث قائمة بينهم عند نزولها، لتؤكد لهم بأسلوب واقعي نقضهم للمواثيق والعهود وإعراضهم عنها، ولو كانت خاصة بهم.

﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ﴾ أي : لا يسفك بعضكم دم بعض، فالقتل وسفك الدماء بغير حق حرام في جميع الشرائع السماوية، ومن قتل غيره فكأنه قتل نفسه بتعريضها للقتل قصاصاً. ﴿ ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ﴾ أي : ولا يخرج بعضكم بعضاً من بيوتهم وأوطانهم عدواناً وظلماً، وهو من أشد أنواع الظلم.

﴿ ثم أقررتم ﴾ بهذا الميثاق وتعهدهم بتنفيذه، ويبدو أنه تفصيل لبعض أحكام ميثاق الطور الذي مر معنا.

﴿ وأنتم تشهدون ﴾ [٨٤] يا معشر يهود على صحة هذا الإقرار الذي صدر عن أجدادكم وأسلافكم.

﴿ ثم أنتم هؤلاء ﴾ أي : يا هؤلاء، تخالفون الميثاق. و﴿ تقتلون أنفسكم ﴾ أي : يقتل بعضكم بعضاً.

﴿ وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم ﴾ أي وتخرجون طائفة منكم من بيوتهم ومساكنهم.

﴿ تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان ﴾ أي : متعاونين على قتلهم وإخراجهم من بيوتهم بالمعصية والعدوان.

﴿ وإن يأتوكم أسارى تفادوهم ﴾ أي : تنقذوهم من الأسر بإعطاء الفدية.

﴿ وهو محرّم عليكم إخراجهم ﴾ أي : إخراجهم من ديارهم محرّم عليكم.

وهذا يدل على تناقض في مواقفهم، فكيف يستبيحون قتل بعضهم بعضاً، وإخراج فريق منهم من ديارهم، ثم إن وجدوهم أسرى دفعوا الفدية وأنقذوهم من الأسر؟! ولهذا قال سبحانه موبخاً لهم :

﴿ أفؤمنون ببعض الكتاب ﴾ أي : أتصدقون ببعض أحكام التوراة، وهي فداء

الأسرى؟

﴿ وتكفرون ببعض ﴾ أي : وتجحدون وتنكرون أحكاماً أخرى فيها، وهي تحريم

القتل والإخراج من الديار، قال ابن كثير رحمه الله : كانت يهود المدينة ثلاث قبائل، بنو

قينقاع وبنو النضير حلفاء الخزرج، وبنو قريظة حلفاء الأوس، فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه، فيقتل اليهودي أعداءه، وقد يقتل اليهودي الآخر من الفريق الآخر، وذلك حرام عليهم في دينهم ونص كتابهم، ويخرجونهم من بيوتهم، ويتتبعون ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها فكوا الأسارى من الفريق المغلوب، عملاً بحكم التوراة، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفْتُمْنُونَ بَعْضُ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بَعْضُ﴾^(١).

﴿فَمَا جَزَاء مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وهو عذاب الذلّة والمسكنة التي ضربت عليهم، كما مرّ.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَرْدُونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ في جهنم.

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [٨٥].

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ أي: آثروا الحياة الدنيا وشهواتها على نعيم الآخرة وثوابها.

﴿فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ بل هو في زيادة، كما في قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾^(٢).

﴿وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ﴾ [٨٦] أي: ولا يمنعون منه.

تكذيب الرُّسل وقتلهم

وانتقلت الآيات من بيان مواقف بعضهم من بعض، إلى بيان مواقفهم من رسلهم وأنبيائهم عليهم الصلاة والسلام:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة.

﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرَّسْلِ﴾ أي: وأرسلنا على أثره الرسل إلى بني إسرائيل. والتقفية: الإتيان والإرداف، مأخوذ من اتباع القفا، وهو مؤخر العنق، وهذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا﴾ الآية^(٣).

وكل رسول جاء بعد موسى فإنما جاء بإثبات التوراة والأمر بلزومها، إلى عيسى عليه السلام^(٤).

﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ أي: الأدلة التي تبين صدقه وصحة رسالته،

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٨٥/١.

(٢) النبأ: الآية ٣٠.

(٣) المؤمنون: الآية ٤٤.

(٤) انظر: القرطبي ٢٣/٢.

وهي المعجزات التي أجزاها الله على يده، والمذكورة في قوله سبحانه: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِأَظْفَارِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَبْرِءُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِأَظْفَارِي وَإِذْ تَخْرُجُ الْمَوْتَىٰ بِأَظْفَارِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِن هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (١).

﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أي: قَوَّيْنَاهُ وَأَعَنَّاَهُ بِجِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَام، وَالرُّوحَ مِنْ أَسْمَائِهِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ (٢).
وَالْقُدُسُ: الطَّاهِرُ، كَمَا مَرَّ، وَهِيَ صِفَةُ تَكْرِيمٍ لَجِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَام، تَدَلُّ عَلَى طَهَارَتِهِ مِنَ الْأَثَامِ وَالذُّنُوبِ، وَفِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِحَسَانِ بْنِ ثَابِتٍ: «أَجِبْ عَنِّي، اللَّهُمَّ آيِدْهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ» وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «أَهْجِهِمْ أَوْ: هَاجِهِمْ وَجِبْرِيلَ مَعَهُ» (٣).

وَتَتَابَعَ إِرْسَالُ الرَّسْلِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ زَمَنِ مُوسَى إِلَى زَمَنِ عِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، مِنْ نِعَمِ اللَّهِ الْكَبِيرِ عَلَيْهِمْ، وَبَدَلَ أَنْ يَشْكُرُوا اللَّهَ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ النِّعَمِ، وَيَعْرِفُوا لِلرَّسْلِ فَضْلَهُمْ وَمَكَانَتَهُمْ، جَحَدُوا وَكَفَرُوا وَافْتَرَوْا عَلَى الرَّسْلِ أَقْبَحَ الْفِرْيِ وَالْكَاذِبِ، وَقَتَلُوا بَعْضَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى، يَذْكُرُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَوَاقِفِهِمُ الْمُخْزِيَةِ مِنَ الرَّسْلِ، وَجَرَائِمِهِمْ فِي حَقِّهِمْ:

﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمْ﴾ أي: بِمَا لَا تَحِبُّ أَنْفُسُكُمْ، وَلَا يَتَّفَقُ مَعَ شَهْوَاتِكُمْ وَمَصَالِحِكُمْ، فَالْقَوْمُ يَرِيدُونَ أَنْ تَكُونَ رِسَالَةُ اللَّهِ تَعَالَى تَبْعًا لِأَهْوَائِهِمْ وَشَهْوَاتِهِمْ، وَيَرِيدُونَ مِنَ الرَّسْلِ أَنْ يَشَارِكُوهُمْ فِي مَعَاصِيهِمْ وَفُجُورِهِمْ، وَلَا يَنْكُرُوا عَلَيْهِمْ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ فَسُوقٍ وَطُغْيَانٍ، وَكَأَنَّهُمْ بِهَذَا لَا يَرُونَ أَنْفُسَهُمْ مُحْتَاجِينَ إِلَى الشَّرَائِعِ الْإِلَهِيَّةِ، يَكْفِيهِمْ أَنْ يَحْكُمُوا أَهْوَاءَهُمْ وَأَرَآءَهُمْ، الَّتِي تُوَدِّي إِلَى فُضُوزِ الْقَوَانِينِ الْوَضْعِيَّةِ وَتَضَارِبِهَا وَقُصُورِهَا.

﴿اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عَنِ الْإِسْلَامِ لِلَّهِ تَعَالَى، وَالْخُضُوعِ لِأَمْرِهِ، كَمَا فَعَلَ الشَّيْطَانُ عِنْدَمَا شَمَلَهُ الْأَمْرُ الْإِلَهِيُّ بِالسُّجُودِ لِأَدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ كَمَا مَرَّ.

(١) المائدة: الآية ١١٠.

(٢) الشعراء: الآيتان ١٩٣ - ١٩٤.

(٣) رواهما مسلم، كتاب الفضائل (٢٤٨٥) (٢٤٨٦).

﴿ففریقاً کذبتُمْ﴾ أي: کذبتُمْ رسالتهم وجحدتم نبوتهم، کعيسى عليه الصلاة والسلام. ﴿وفریقاً تقتلون﴾ [٨٧] کزکریا ويحيى عليهما السلام.

ولعلّ الآية عدلت عن صيغة الماضي ﴿کذبتُمْ﴾ إلى المضارع ﴿تقتلون﴾ لتفيد استمرارهم وإصرارهم على قتل المرسلين، وقد أراد يهود المدينة وخير قتل النبي ﷺ، وحاولوا ذلك عدة مرات، ولكنه تعالى عصمه من كيدهم ومكرهم.

تلك هي مواقفهم من رسلهم الذين بعثوا منهم، فكيف يكون موقفهم إذا كان الرسول من غيرهم، وبعث بالرسالة العامة الخاتمة الناسخة لجميع الرسائل السابقة؟ لا بدّ لمواقف الجحود والعناء والتكذيب والقتل أن تزداد شدّة وعمقاً، فثمة شعور جديد ينبع من أعماق نفوسهم، وهو الحسد وما يتولّد عنه من حقد وبغي، وهذا ما تظهره لنا الآيات الكريمة:

﴿وقالوا﴾ أي: يهود المدينة.

﴿قلوبنا غلف﴾ أي: مغلفة مغطاة، لا تفقه ما تسمع، قالوا ذلك للنبي ﷺ عندما كان يدعوهم إلى الإسلام، ويقرأ عليهم آيات القرآن الكريم، وهذا يدلّ على شدّة كراحتهم للقرآن الكريم، فالقوم لا يحبّون سماعه، كالمشركين من عبّاد الأوثان، الذين قالوا للرسول ﷺ: ﴿وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إنّنا عاملون﴾^(١).

وردّ تعالى عليهم فقال:

﴿بل لعنهم الله بكفرهم﴾ فقلوبهم كسائر قلوب بني آدم، تسمع وتفهم، ولكنه تعالى طردهم وأبعدهم، طردهم من رحمته وأبعدهم عن منابع الخير والهدى بسبب كفرهم، ونتيجة لهذا الطرد والإبعاد: ﴿فقليلاً ما يؤمنون﴾ [٨٨] أي: فالإيمان فيهم قليل، ولم يستجب لدعوة الرسول ﷺ إلّا عدد قليل منهم.

التعصّب والحسد

والعجيب أنهم كانوا ينتظرون بعثة النبي ﷺ، وكانوا أيضاً يستنصرون به على أعدائهم، ويقولون: سيبعث نبي في آخر الزمان، نقتلكم معه قتل عاد وإرم^(٢)، فلما

(١) فضّلت: الآية ٥.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٨٨/١.

بعث ﷺ من العرب كفروا به، وجحدوا رسالته ونبوته، وسجل عليهم تعالى تغير موقفهم فقال:

﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله﴾ وهو القرآن الكريم.

﴿مصدق لما معهم﴾ وهو التوراة، كما مر معنا.

﴿وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا﴾ أي: يستنصرون، والاستفتاح: الاستنصار. أي: كانوا من قبل يطلبون من الله النصر على أعدائهم بالنبي المبعوث في آخر الزمان، الذي يجدون صفته عندهم في التوراة^(١).

﴿فلما جاءهم ما عرفوا﴾ من الحق، وهو النبي ﷺ، فقد عرفه أحبار اليهود معرفة تامة بنعوته الموجودة في كتبهم، كما سيأتي عند قوله تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾.

﴿كفروا به﴾ أي: كفروا برسالته عليه الصلاة والسلام، وأعرضوا عن دعوته.

﴿فلعنة الله على الكافرين﴾ [٨٩].

وبين سبحانه سبب تغير موقفهم من النبي ﷺ، فقال:

﴿بئسما اشتروا به أنفسهم﴾ أي: بشئ الشيء الذي باعوا من أجله أنفسهم ومبادئهم.

وبئس في كلام العرب مستوفية للذم، كما أن نعم مستوفية للمدح^(٢).

فكلمة بئس تفيد أقبح ذم وأشنع، واشترى تأتي بمعنى ابتاع وباع، كما في قوله

تعالى: ﴿وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين﴾^(٣).

وأوصلتهم هذه الصفقة الخاسرة إلى الكفر:

﴿أن يكفروا بما أنزل الله﴾ على خاتم الأنبياء والمرسلين عليه الصلاة والسلام.

﴿بغياً أي ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده﴾ أي: حسداً لأجل إنزال

الله القرآن الكريم على غيرهم، فالأمر منوط بمشيئته تعالى لا بمشيئتهم، والله أعلم حيث يجعل رسالته.

والبغي: الظلم بسبب الحسد، والحاسد يطلب ما ليس له لنفسه، وأظهر تعالى

(١) فتح القدير ١/١١٢.

(٢) تفسير القرطبي ٢/٢٧.

(٣) يوسف: الآية ٢٠.

بهذا سبب حقد اليهود على النبي ﷺ، وكراحتهم الشديدة للقرآن ورسالة الإسلام، وكيدهم المستمر بالمسلمين.

﴿ فباؤوا بغضب على غضب ﴾ أي: استحقوا غضباً من الله تعالى متتابعاً مترادفاً؛ بسبب كفرهم السابق واللاحق، فعندما وصف تعالى مواقفهم السابقة من أنبيائهم قال: ﴿ وباؤوا بغضب من الله ﴾، وبعد أن وصف موقفهم اللاحق من رسول الله ﷺ قال: ﴿ فباؤوا بغضب على غضب ﴾، ومعه أيضاً الإهانة والذلة:

﴿ وللكافرين عذاب مهين ﴾ [٩٠].

إن التعصّب الأعمى البغيض الذي ملأ قلوبهم حسداً وحقداً وضغينة، هو الذي دفعهم إلى إنكار الحق الثابت في كتبهم، ومحاولة طمس معالمه، ولهذا تابعت الآيات تأكيد هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿ وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله ﴾ على الرسول الخاتم محمد ﷺ. ﴿ قالوا نؤمن بما أنزل علينا ﴾ كأن وحي الله حكر عليهم، ولا ينزل على غيرهم.

﴿ ويكفرون بما وراءه ﴾ أي: بما أنزل على غيرهم.

﴿ وهو الحق ﴾ أي: مع أنه حق ثابت، أنزله الله:

﴿ مصداقاً لما معهم ﴾ أي: التوراة، فلا منافاة بين القرآن الكريم وبين التوراة، كما مر معنا، والإيمان بالتوراة لا يمنع من الإيمان بالقرآن الكريم، بل على العكس، فقد أمرهم الله في التوراة أن يصدقوا بالقرآن الكريم إن أدركوا زمن نزوله.

﴿ قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ﴾ [٩١] أي: قل لهم يا محمد - ﷺ -: ما دمتم تتعصبون لأنبيائكم كل هذا التعصّب، وتؤمنون بهم وحدهم، فلم تقتلتموهم وسفكتم دماءهم؟! إنه إذا التعصّب للتعصّب فقط، لا للتابع، إنه التعصّب العنصري الأعمى الممقوت، فأنبياؤكم بريئون منكم ومن عنادكم وجحودكم، وإليكم الدليل على ذلك:

﴿ ولقد جاءكم موسى بالبينات ﴾ أي: بالمعجزات التي تبين صدقه، وتوجب عليكم طاعته واتباعه، كالعصا واليد وانفلاق البحر وتفجير الماء من الحجر، وإنزال المن والسلوى، وتظليل الغمام... وبعد كل هذه المعجزات:

﴿ ثم اتخذتم العجل من بعده ﴾ أي: عندما غاب عنكم وذهب لميقات ربّه، كما

تقدّم.

﴿ وأنتم ظالمون ﴾ [٩٢].

ثم لما أنزل الله عليكم التوراة، وأخذ عليكم الميثاق؛ للاستسلام لأحكامها،
والتمسك بها:

﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا﴾ سماع
الإسلام والاستسلام والطاعة.

﴿قالوا سمعنا وعصينا﴾ أي: سمعنا قولك وعصينا أمرك.

قلت: سمعنا، بألستكم فقط، خوفاً من الجبل الذي رفعه الله فوقكم عند أخذ
الميثاق، وأعرضتم بعد ذلك، وقلتم بلسان حالكم وأفعالكم وسلوككم: عصينا.

ويمكن أن يكونوا قالوا أيضاً بلسانهم: عصينا، فالتبجح بالكفر والفجور غير غريب
عنهم، وكل ذلك بسبب محبتهم للعجل الذهبي، وتعلق قلوبهم ونفوسهم بالذهب الذي
صنع منه، فهم عباد الذهب، وهو الوثن الذي يطيعونه ويعبدونه، ومن أجله هجروا كل
الشرائع التي أنزلها الله تعالى عليهم:

﴿وأشربوا في قلوبهم العجل﴾ أي: طغى حب العجل على قلوبهم، حتى رسخ
فيها وتشربته، وخالطته مخالطة تامة، كما يتشرب الثوب الصبغ ويتلون بلونه.

﴿بكفرهم﴾ أي: بسبب كفرهم بالله تعالى، فالإيمان والكفر لا يجتمعان في
قلب واحد، ولو كانوا مؤمنين بالله تعالى حق الإيمان، ما تشربت قلوبهم حب العجل
الذهبي.

وذمهم الله تعالى أقبح ذم مرة ثانية، بأسلوب التهكم والتوبيخ، فقال:

﴿قل بشما يأمركم به إيمانكم﴾ الذي تدعونه، وهو التصديق بالتوراة المنزلة
عليكم، كما مر معنا من قولهم: ﴿نؤمن بما أنزل علينا﴾.

﴿إن كنتم مؤمنين﴾ [٩٣] وأنى لهم الإيمان، وقد أشربت قلوبهم حب العجل
الذهبي، واستعمرت محبته نفوسهم.

حرصهم على الحياة

واستمرت الآيات تنقض أقوال اليهود، وترد مزاعمهم، بأسلوب المواجهة
والتحدي:

﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس﴾ أي: سالمة
لكم وحدكم، والمراد من الدار الآخرة الجنة، فاليهود يزعمون أن لهم مكانة خاصة عند

الله، فهم أبناء الله وأحباؤه، وأن الجنة أعدّها الله تعالى لهم وحدهم، ولن يدخلها غيرهم، وإن كان الأمر كذلك:

﴿فتمنّوا الموت﴾ أي: اطلبوا الموت واسألوه.

﴿إن كنتم صادقين﴾ [٩٤] فيما تدعون وترغمون.

ويمكن أن يكون في الآية دعوة إلى المباهلة، أي: ادعوا بالموت على الفريق الكاذب، ومن المعلوم أن النبي ﷺ دعا وفد نصارى نجران إلى المباهلة، بعد أن أصرّوا على اعتقادهم الباطل بعبسى عليه السلام، وأنزل سبحانه قوله الكريم: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (١).

قال ابن جرير الطبري رحمه الله: فامتنعت اليهود عن إجابة النبي ﷺ إلى ذلك؛ لعلمها أنها إن تمتّ الموت هلكت، فذهبت دنياها، وصارت إلى خزي الأبد في آخرتها، كما امتنع فريق النصارى، الذين جادلوا النبي ﷺ في عيسى، إذ دعوا إلى المباهلة، من المباهلة، فبلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن اليهود تمنّوا الموت لماتوا، ولرأوا مقاعدهم من النار ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً» (٢).

ثم أخبر تعالى عن شدة تعلّقهم بالحياة الدنيا وحرصهم عليها، فقال:

﴿ولن يتمنّوه أبداً بما قدّمت أيديهم والله عليم بالظالمين﴾ [٩٥] أي: لن يتمنّوا الموت مهما عاشوا، بسبب ما صدر عنهم من كفر وجحود، وهذا خاص بالمعاصرين له ﷺ، لأن الآية تخاطب النبي ﷺ، وتأمّره أن يقول هذا الكلام لليهود، وقد أكد الله تعالى هذا المعنى في موضع آخر، فأمر النبي ﷺ أن يخاطب اليهود بقوله تعالى: ﴿قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنّوا الموت إن كنتم صادقين﴾ (٣).

واستمرت الآيات تبين شدة حرصهم على الدنيا وتعلّقهم بها، وهي تخاطب

النبي ﷺ:

﴿ولتجدنهم أحرص الناس على حياة﴾ مهما كانت، آية حياة، لا يهمّ أن تكون حياة كريمة، ولا حياة مميزة على الإطلاق، حياة فقط - كما قال سيّد قطب رحمه الله - حياة، بهذا التنكير والتحقيق، حياة ديدان أو حشرات، حياة والسلام، إنها يهود، في

(١) آل عمران: الآية ٦١.

(٢) جامع البيان ١/٣٣٦.

(٣) الجمعة: الآية ٦.

ماضيها وحاضرها ومستقبلها سواء، وما ترفع رأسها إلا حين تغيب المطرقة، فإذا وجدت المطرقة نكست الرؤوس، وعنت الجباه جبناً وحرصاً على الحياة، أي حياة^(١).

ولا شك أنهم قاطعون بأنه لا يخلو يوم من هذه الحياة عن كدر، فإنهم يعلمون أنها وإن كانت في غاية الكدر، خير لهم مما بعد الموت^(٢).

﴿ومن الذين أشركوا﴾ أي: وهم أحرص على الحياة من الذين أشركوا، وأفردهم بالذكر مع أنهم من جملة الناس، للإيذان بامتيازهم من بينهم بشدة الحرص، للمبالغة في توبيخ اليهود، فإن حرصهم وهم معترفون بالجزاء لما كان أشد من حرص المشركين المنكرين له، دلّ ذلك على جزمهم بمصيرهم إلى النار^(٣).

﴿يودّ أحدهم لو يعمّر ألف سنة﴾ أي: يتمنى اليهودي لو يطول عمره ألف سنة، والمراد من الألف الكثرة، ولن يخلصه طول العمر من العذاب يوم القيامة:

﴿وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمّر﴾ أي: ومهما طال عمره فلا نجاة له من العذاب، والمزحزحة: تحريك الشيء الثقيل، مما يدلّ على شدة استحقاقهم للعذاب، وكثرة الأسباب التي تجذبهم إليه.

﴿والله بصير بما يعملون﴾ [٩٦] أي: والله عليم بحقيقة أعمالهم، ومُجازيهم عليها، والبصير: العالم بكنه الشيء، الخبير به.

عداوتهم للملائكة

وامتدّ حقد اليهود وحسدهم إلى أمين الوحي جبريل عليه السلام؛ لأنه نزل بالرسالة على النبي ﷺ، قال تعالى:

﴿قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزّله على قلبك﴾ أي: فإن جبريل نزل القرآن الكريم على قلب النبي ﷺ.

﴿بإذن الله﴾ أي: بأمره سبحانه، فلم ينزل عليه السلام على النبي ﷺ باختياره، وإنما نزل بأمر الله تعالى.

﴿مصدقاً لما بين يديه وهدى لبشرى للمؤمنين﴾ [٩٧] فعداوة اليهود لجبريل

(١) في ظلال القرآن ٩٢/١.

(٢) انظر: نظم الدرر ٦٢/٢.

(٣) تفسير أبي السعود ١٣٢/١.

عليه السلام، عداوة في الحقيقة لله تعالى ولجميع الملائكة؛ لأنهم لا يتحركون إلا بأمره سبحانه: ﴿وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ (١).
 ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ وخصَّ تعالى جبريل وميكائيل بالذكر تشريفاً لهما، وتنوياً بمكانتهما بين الملائكة، فجبريل أمين الوحي ينزل به على الأنبياء والرسل، وينزل ميكائيل بالخصب والخير والمطر بأمره تعالى أيضاً، واليهود يحبونه، وعداوتهم لجبريل عداوة لله سبحانه ولجميع الملائكة، تمتد حتى لميكائيل الذي يحبونه، ويترتب عليها الكفر؛ ولهذا قال تعالى في ختام الآية:

﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [٩٨].

وقد روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا بَارَزَنِي بِالْحَرْبِ» ولهذا غضب الله لجبرائيل على مَنْ عاداه (٢).
 وقد نزل جبريل على النبي ﷺ بالآيات الواضحات الدلالة، على صدقه وصحة رسالته، فلا عذر في الإعراض عنها وجحودها.

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ [٩٩] أي: المتمردون المتمرسون بالفسق والفجور، الذين اعتادوا على نقض العهود.
 ﴿أَوْ كَلِمَاتٍ عَاهَدُوا عَهْدًا﴾ أيَّ عهد، هكذا على الإطلاق.

﴿نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ أي: طرحه ونقضه فريق منهم، وأصل النبذ: طرح ما لا يعتد به، وما من شأنه أن ينسى، فأَيَّ عهد مع اليهود لا بدَّ أن يقوم بعضهم بنقضه والإعراض عنه، وهذا الفريق هو الفريق الأكبر فيهم؛ إذ قال تعالى بعد ذلك:
 ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [١٠٠].

ولهذا لما جاءهم خاتم الأنبياء عليه السلام برسالة القرآن الكريم، الذي أخبرت عنه التوراة، نبذوه وطرحوه أكثرهم، كما فعلوا في الكتب السابقة:
 ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ وهو محمد ﷺ.

﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ من التوراة.
 ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ﴾ وهم أكثر اليهود كما مر معنا.

(١) مريم: الآية ٦٤.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٩٣/١. والحديث في البخاري رقم ٦٥٠٢ بلفظ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنَنِي بِالْحَرْبِ... الحديث.

﴿ من الذين أُوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم ﴾ أي : طرحوه وراء ظهورهم ، وهذا تمثيل لشدة إعراضهم عن القرآن الكريم .

﴿ كأنهم لا يعلمون ﴾ [١٠١] أنه كتاب الله تعالى ، الذي أخبرت عنه التوراة ، وأمرُوا بالتمسك به إن أدركوا زمن نزوله .

ودلّ قوله : ﴿ كأنهم لا يعلمون ﴾ على أنهم نبذوه وهم يعلمون أنه منزل من الله تعالى ، وأنهم رفضوا الانقياد له واتباع شريعته عن علم ومعرفة ، وما حملهم على ذلك إلا عداوتهم للنبي ﷺ وحسدهم وبغيتهم .

اتّباعهم للشياطين

ولقد نبذ القوم التوراة كما نبذوا القرآن الكريم ، وأعرضوا عن جميع الشرائع التي أنزلها الله تعالى ، واتبعوا ما تشرعه لهم شياطين الإنس والجن ، مما يوافق أهواءهم ويمكنهم من نشر الفساد بين العباد ، قال تعالى :

﴿ واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان ﴾ أي : واتبعوا ما تقوله الشياطين وما تنشره وتذيعه في ملك سليمان ، قال الراغب الأصفهاني : تتلو بمعنى تكذب وتختلق ، يقال : تلا عليه إذا كذب ، وتلا عنه إذا صدق ، نحو : ﴿ ويقولون على الله الكذب ﴾ (١) .

وفي الآية توبيخ من الله تعالى لأخبار اليهود ، الذين أدركوا رسول الله ﷺ وجحدوا نبوته ورسالته ، وهم يعلمون أنه الله رسول مُرسل ، وتأنيب منه لهم في رفضهم تنزيله ، وهجرهم العمل به ، وهو في أيديهم يعلمونه ويعرفون أنه كتاب الله ، واتباعهم واتباع أوائلهم وأسلافهم ما تلتته الشياطين في عهد سليمان (٢) .

وقد كان عليه السلام نبياً من أنبياء بني إسرائيل ، جمع له تعالى النبوة والمُلْك ، واستجاب دعوته التي قال فيها : ﴿ رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب ﴾ (٣) ، فمكّن له تعالى في الأرض ، وسخر له من القوى والطاقات فيها ما لم يسخره لغيره من البشر ، ومن جملة هذه القوى والطاقات المسخرة له مَرَدَةُ الجن والشياطين ، سخرهم تعالى له ، حتى كانوا يأترون بأمره ، ويعملون له ما يشاء من

(١) انظر : هامش المحرّر الوجيز ٤١٣/١ .

(٢) جامع البيان ٣٥٤/١ .

(٣) ص ٣٥ .

الأعمال الكبيرة، والمنشآت الضخمة الهائلة؛ معجزة له عليه السلام، وبرهاناً على صحة نبوته وصدق رسالته، قال تعالى: ﴿فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب. والشياطين كل بناء وغواص. وآخرين مقرنين في الأصفاد. هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب﴾^(١)، وقال أيضاً: ﴿ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير. يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور﴾^(٢).

وبعد موته عليه السلام أشاع الشياطين بين الناس أنه كان ساحراً، وأنه ما أخضعهم إلا بقوة سحره، وانتشرت هذه الشائعات بين اليهود على وجه الخصوص؛ بسبب شدة عداوتهم للأنبياء عليهم السلام - كما مرّ - وتناقلها الخلف منهم عن السلف؛ ولهذا أنزل الله تعالى هذه الآيات تبرئ سليمان من تهمة السحر، وترد ما أذاعته الشياطين عنه، وتبين في الوقت نفسه حقيقة السحر ومصدره:

﴿وما كفر سليمان﴾ كما زعمت الشياطين، وما عمل بالسحر، واستدل بهذه الآية من يرى أن السحر كفر، وسليمان نبي كريم معصوم من ذلك.

﴿ولكن الشياطين كفروا﴾ باستعمال السحر وتعليمه للناس.

﴿يعلمون الناس السحر﴾ فالشياطين هم الذين يعلمون الناس السحر، فهم مصادره الأساسية، ومصادر كل شرّ، والسحر موجود قبل عهد سليمان، وشأن سحر فرعون وقصتهم مع نبي الله موسى عليه السلام، مشهورة ومذكورة في آيات قرآنية كثيرة. وكما برأت الآية النبي الكريم سليمان من تهمة السحر ونفته عنه، كذلك نفته الآية الكريمة عن الملائكة، وبرأت ساحتهم منه:

﴿وما أنزل على الملكين﴾ أي: وما أنزل الله السحر على الملكين كما زعم اليهود فيما يتناقلونه من أخبار، وقد سرى بعض هذه الأخبار - مع الأسف الشديد - إلى بعض المفسرين، فأثبتوها في كتبهم، وقد أخبرنا سبحانه أنه ما أنزل الملائكة ليعلموا الناس شيئاً غير الوحي الذي أراد إنزاله إلى الأنبياء والمرسلين، قال تعالى: ﴿وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾^(٣)، وقال منكرراً على

(١) ص ٣٦ - ٣٩.

(٢) سبأ: الآيتان ١٢ - ١٣. انظر: المعجزة والإعجاز في سورة النمل.

(٣) النحل: الآية ٤٣.

مَنْ طلب إنزال الملائكة: ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه مَلَكٌ ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون ﴾ (١).

فالملائكة ما أنزلهم الله تعالى إلا على الأنبياء عليهم السلام، ولعلّ مراد الآية تبرئة جبريل وميكائيل، اللذين سبق ذكرهما في الآية السابقة؛ لأن سَحَرَةَ اليهود فيما ذكر، كانت تزعم أن الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود، فأكذبها الله بذلك، وأخبر نبيّه محمداً ﷺ، أن جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر قط، وبرأ سليمان مما نحلوه من السحر، فأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين (٢).

﴿ بابل ﴾ أي: يعلم الشياطين الناس السحر ببابل، وهي بلدة في العراق، كان لها شهرة كبيرة في الحضارة القديمة التي عُرفت بحضارة ما بين النهرين، وكانت حينئذ أكبر المدن وأشهرها، ويبدو أن اليهود تعلموا السحر في بابل، عندما سلط الله تعالى عليهم البابليين في عهد ملكهم بختنصر، في القرن السادس قبل الميلاد، فقد قتل منهم مقتلة عظيمة، وأخذ عدداً كبيراً منهم أسرى إلى بابل، وفي أثناء أسرهم اختلطوا بأهل بابل، وتعرفوا على السحرة فيها، وتعلموا منهم فنون السحر.

﴿ هاروت وماروت ﴾ وهما اسمان أعجميان، يبدو - والله أعلم - أنهما كانا أشهر سَحَرَةَ بابل، الذين تعلّم بنو إسرائيل السحر منهم، وأنهما كانا معروفين مشهورين بين اليهود في زمن نزول القرآن الكريم؛ ولهذا خصّهما الله تعالى بالذكر، وما نقل عن أحد من يهود المدينة أنه أنكر ذلك، مع حرصهم الشديد على تكذيب النبي ﷺ، والاعتراض على التنزيل الحكيم، وأنهما كانا يتظاهران بالصلاح والتدين لكي يخدعا السذج والبسطاء من الناس، ولهذا كانا ينصحان كل من يعلمانه السحر ألا يكفر، قال تعالى: ﴿ وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة ﴾ أي: اختبار وابتلاء.

﴿ فلا تكفر ﴾ باستعمال السحر.

وحكى المهدوي (٣) أنه استهزاء، لأنهما إنما يقولانه لمن قد تحقّقاً ضلاله (٤)، ونقل ذلك عنه القرطبي في تفسيره مؤيداً له (٥).

(١) الأنعام: الآية ٨.

(٢) جامع البيان ٣٥٩/١.

(٣) هو أبو العباس أحمد بن عامر المهدوي، صاحب كتاب التحصيل لفوائد التفصيل الجامع لعلوم التنزيل.

(٤) المحرر الوجيز ٤٢٢/١.

(٥) انظر: تفسير القرطبي ٥٤/٢.

وبعضد هذا القول الذي حكاه المهدي، أن النبي ﷺ حذرنا من أئمة الضلال، الذين يتظاهرون بالصلاح والتقوى؛ لكي ينشروا بين الناس الفساد والضلال، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يخرج في آخر الزمان رجال يختلسون الدنيا بالدين، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين، ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم قلوب الذئاب، يقول عز وجل: أبي يغترون، أم عليّ يجترئون؟ في حلفت لأبعثن على أولئك منهم فتنة تدع الحليم حيران»^(١).

ولكن هذا المعنى لا يتفق مع ترتيب كلمات الآية، ولا بدّ - كما قال القرطبي رحمه الله - من تقديم وتأخير، والتقدير: وما كفر سليمان وما أنزل على الملكين، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت، فهاروت وماروت بدل من الشياطين، في قوله تعالى: ﴿ولكن الشياطين كفروا﴾، هذا أولى ما حملت عليه الآية من التأويل، وأصح ما قيل فيها، ولا يلتفت إلى ما سواه^(٢).

وبهذا المعنى تتفق الآية تماماً مع سياقها من الآيات، وللتقديم والتأخير نظائر في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مستمى﴾^(٣) أي: ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مستمى لكان عذابهم لزاماً.

﴿فيتعلمون منهما﴾ أي: فيتعلم الناس من هاروت وماروت:

﴿ما يفرقون به بين المرء وزوجه﴾ أي: ما يكون سبب خصام وخلاف وإحداث الفقرة بين الزوجين، وهو من كبائر الذنوب، ومن أعمال شياطين الإنس والجنّ، تنتزه الملائكة عن فعله وتعليمه للناس، وقد جاء في الحديث الشريف عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن إبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئاً، قال: ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته، قال: فيدنيه منه ويقول: نعم أنت»^(٤).

وقد تبرأ النبي ﷺ ممّن يفعل ذلك، فعن بريدة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ

(١) رواه الترمذي من رواية يحيى بن عبيد، ورواه مختصراً من حديث ابن عمر، وقال: حديث حسن،

انظر: الترغيب والترهيب ٦٦/١.

(٢) تفسير القرطبي ٥٠/٢.

(٣) طه: الآية ١٢٩.

(٤) صحيح مسلم، كتاب صفات المنافقين (٢٨١٣).

قال: «ليس منا من حلف بالأمانة، ومن خب على امرئ زوجته أو مملوكه فليس منا»^(١).

وتدل الآية على أن للسحر تأثيراً على النفوس والقلوب والعواطف، فلا خير فيه أبداً، وهو سبب للشر والفساد والإفساد، ولهذا حرمت الشريعة الإسلامية تعلّمه وتعليمه، وعده النبي ﷺ من كبائر الذنوب، فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات» قيل: يا رسول الله وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»^(٢).

﴿وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله﴾ أي: إلا بقضائه سبحانه وقدره، فالسحر لا يؤثر بنفسه، إلا إذا وافق قدر الله تعالى.

﴿ويتعلمون ما يضرهم﴾ في الآخرة؛ لأن العمل بالسحر كفر أو كبيرة من الكبائر.

﴿ولا ينفعهم﴾ فيها أيضاً، وإن نفعهم في الدنيا ببعض المكاسب، فهي كسب حرام لا يبارك الله فيه، فالسحر شرٌ بحت وضرر محض، غير نافع في الدارين، لا تعلق له بانتظام المعاش ولا المعاد، وفي الحكم عليه بأنه ضارٌ غير نافع تحذير بليغ من تعاطيه، وتحريض على التحرز عنه^(٣).

﴿ولقد علموا﴾ أي: اليهود الذين تعلّموا السحر وأعرضوا عن الكتاب المنزل عليهم.

﴿لمن اشتراه﴾ أي: اختاره وهجر من أجله كتاب ربه.

﴿ما له في الآخرة من خلاق﴾ أي: ما له يوم القيامة نصيب في رحمته تعالى وجنته.

ويعد أن قبّحت الآية عملهم ذمّتهم عليه:

﴿ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون﴾ [١٠٢] شدة العقوبة عليه والعذاب بسببه. وتبدو شدة خسارتهم إذا قورنت بثواب الله تعالى وطاعته، ولهذا قال تعالى بأسلوب يغلب عليه التحسر على ما يفوتهم يوم القيامة من الثواب الجزيل:

(١) رواه أحمد بإسناد صحيح واللفظ له، والبخاري وابن حبان، انظر: الترغيب والترهيب ٨٢/١. ومعنى خيب: خدع وأفسد.

(٢) صحيح مسلم: كتاب الإيمان (٨٩).

(٣) انظر: روح المعاني ٣٤٥/١.

﴿ولو أنهم آمنوا﴾ بما أنزل الله تعالى .
﴿واتقوا﴾ عذابه بطاعته والاستسلام لأحكام دينه وشرعه .
﴿لمثوبة من عند الله خير﴾ مما اختاروه لأنفسهم، وتنكير المثوبة للتقليل، فأدنى
ثواب يتفضل به الله تعالى على عباده، خير من الدنيا وما فيها .
﴿لو كانوا يعلمون﴾ [١٠٣] أن ثوابه سبحانه خير .

تأديب وتحذير

هكذا أظهرت الآيات، بعرضها لمواقف العناد والجحود عند بني إسرائيل، واستقرائها لها، ضخامة قاعدة هرم الجحود والعناد، الذي وضعت في قمته الكافرين، وفي وسطه المنافقين، وفي قاعدته أهل الكتاب.

وأظهرت أيضاً بأسلوب التحذير والمواجهة، صدق القرآن الكريم، وأنه حقاً الكتاب الذي لا ريب فيه، وصحة نبوة النبي ﷺ الخاتم، الذي بشرت به الكتب السابقة. وبهذا مهدت لإبراز ميزة الشريعة الإسلامية على غيرها من الشرائع، وهي ميزة السماحة واليسر والمرونة في أحكامها، وبيّنت صلة ذلك برضا المكلفين بها ومسايرتهم إلى تنفيذ أحكامها، إذ كان من حصيلة مواقف العناد والجحود، وعدم الانقياد والاستسلام والتباطؤ في تنفيذ التكاليف والأحكام، التشديد في أحكام الشريعة ومضاعفة التكاليف، كما سبق بيانه في قصة بني إسرائيل مع موسى عندما كلفوا بذبح البقرة.

ولهذا جاء تعقيب الآيات الكريمة على جميع ما سبق، في أول نداء لها في السورة توجهه إلى المؤمنين، يجمع بين التأديب والتحذير، تأديب لهم بالآداب الطيبة الحسنة اللائقة بالمؤمنين، وتحذير لهم من مثل مواقف العناد والجحود التي سبق ذكرها:

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ ناداهم الله تعالى بأعظم ما يمتازون به على غيرهم، وبأحب الصفات إليهم، وهي صفة الإيمان به تعالى وحده، وبرسالة القرآن الكريم الذي لا ريب فيه، وبصدق نبوة النبي ﷺ.

﴿لا تقولوا راعنا﴾ أي: لا تقولوا للنبي ﷺ هذه الكلمة ﴿راعنا﴾؛ لأنها تحتمل معنى سيئاً، وكان اليهود يقصدونه عندما يقولونها للنبي ﷺ، كما قال تعالى: ﴿من الذين هادوا يحرّفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعناً في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾^(١).

(١) النساء: الآية ٤٦.

فيمكن أن تحمل على معنى الرعونة، وهي الحمق، فقولهم: ﴿راعنا﴾ أي فعلت رعونة، أو صرت ذا رعونة، ويمكن أن تكون مفاعلة من الرعي بين اثنين، فكان هذا اللفظ موهماً للمساواة بين المخاطبين، كأنهم قالوا: أرعنا سمعك لنزعك أسمعنا، فنهاهم الله تعالى، وبيّن أنه لا بدّ من تعظيم الرسول ﷺ في المخاطبة^(١)، قال تعالى: ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً﴾^(٢).

﴿وقولوا انظرونا﴾ أي: انتظرونا وتأنّ علينا، أو انظر إلينا.

والمراد أنه ينبغي عليكم أيها المؤمنون أن تتأدّبوا مع رسول الله ﷺ، وتختاروا عند مخاطبته الكلمات اللاتقة بمقامه العالي الرفيع عليه الصلاة والسلام، والتي لا تحتمل أي معنى فيه إساءة أدب معه عليه الصلاة والسلام، وتدلّ على الاستسلام والخضوع لأوامره وتوجيهاته، ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

﴿واسمعوا﴾ أي: اسمعوا ما يأمركم به النبي ﷺ سماع قبول وانقياد وإجابة، لا سماع عناد وجحود، كما فعل اليهود مع نبيهم موسى عليه السلام، عندما قالوا: ﴿سمعنا وعصينا﴾.

﴿ولللكافرين عذاب أليم﴾ [١٠٤] بسبب عنادهم وعدم انقيادهم وإسلامهم.

وكشفت الآيات للمؤمنين شدّة بغض الكفار لهم، وما تحمله قلوبهم من ضغينة وحسد، بقوله تعالى: ﴿ما يؤدّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم﴾ أي: ما يحبّ الكفار، سواء كانوا من أهل الكتاب أم من المشركين، أن ينزل الله تعالى عليكم الخير، الذي أنزله عليكم في القرآن الكريم، وبعثة النبي الأمين عليه أفضل الصلاة وأتمّ التسليم، فالقوم يحسدونكم على إسلامكم واتباعكم للنبي ﷺ، ويعلمون أن خيراً كثيراً من الله تعالى به عليكم، فاعرفوا قدر هذه النعمة العظيمة، التي أنعم الله بها عليكم، فخصّكم بها واصطفاكم لها. ﴿والله يختصّ برحمته من يشاء﴾ وهو سبحانه العليم الحكيم، فهو أعلم حيث يجعل رسالته، حيث يجعل هدايته أيضاً.

﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ [١٠٥] فله سبحانه الفضل والمنة على خلقه، وليس لأحد سابقة استحقاق عليه جلّ وعلا، فالفضل له أولاً وآخراً، فإحسانه على بعض عباده من محض فضله، وحرمان بعضهم ليس لضيق فضله، بل لمشيئته وحكمته تعالى.

(١) تفسير الرازي ٢٤٢/٣.

(٢) النور: الآية ٦٣.

التدرّج في التشريع والنسخ

ومن فضله تعالى أنه جعل الشريعة الإسلامية شريعة سمحة ميسرة لا عُسر فيها ولا حرج، ومن رحمته تعالى بخلقه وحكمته أنه ما أنزل القرآن الكريم جملة واحدة، وما كلّفهم بأحكامه دفعة واحدة، بل أنزله سبحانه على نجوم فرقها على زمن التنزيل، الذي امتدّ ثلاثاً وعشرين سنة، فما تمّ الدين واكتمل البناء التشريعي لأحكامه إلّا في آخر حياة النبي ﷺ، عندما أنزل الله عليه قوله الكريم، عشية يوم عرفة، من العام العاشر من الهجرة: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾^(١).

وقد استدعى التدرّج في الأحكام في أثناء فترة التنزيل هذه، تشريع بعض الأحكام لفترة معينة ثم نسخها، وهو مظهر يدلّ على سماحة الشريعة وُسرّها، وأنها شريعة الرحمة حقّاً، كما قال تعالى: ﴿وما أرسلناك إلّا رحمة للعالمين﴾^(٢).

وحاول يهود المدينة المنورة الذين أنزلت عليهم التوراة جملة واحدة، وشدّد الله عليهم في أحكامها - كما مرّ معنا - أن يستغلوا ميزة الشريعة الإسلامية هذه، ووقع النسخ في بعض أحكامها، لكي يشكّكوا في صحة نبوّته عليه الصلاة والسلام، ويطعنوا في صدق رسالته، فأنزل سبحانه ردّاً عليهم، وتحذيراً للمؤمنين من التأثير باعتراضاتهم ومطاعنهم، وتعزيزاً لثقتهم بكتابهم وشريعتهم، قوله الكريم:

﴿ما نسخ من آية﴾ أي: ما نرفع من آية ونزيلها، والنسخ يمكن أن يكون لحكم الآية فقط مع بقاء تلاوتها، ويمكن أن يكون لحكمها وتلاوتها.

﴿أو ننسها﴾ أي: نذهبها من القلوب، من النسيان، ويكون هذا عند نسخ التلاوة والحكم جميعاً.

وفي قراءة ﴿نسأها﴾ أي: نوّخرها، من النساء، وهو التأخير، والمعنى: نوّخر نزولها، كآيات تحريم الخمر، إذ أّخر سبحانه تحريمها مع أنهم سألوا رسول الله ﷺ عنها، كما سيأتي عند قوله تعالى: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر...﴾.

﴿نأتٍ بخير منها﴾ أي: بآية هي خير للعباد وأصلح لهم من الآية المنسوخة، فالخيرية في نفعها للعباد ومراعاتها لمصلحتهم، لا أن آية خير من آية؛ فكلامه تعالى كله في الخير والفضل سواء.

(١) المائدة: الآية ٣.

(٢) الأنبياء: الآية ١٠٧.

﴿ أو مثلها ﴾ في الصلاح والثواب.

ثم اتجهت الآية بالخطاب إلى النبي ﷺ بأسلوب التقرير والتأكيد:

﴿ ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾ [١٠٦] فهو سبحانه قادر على النسخ، والإتيان بمثل المنسوخ، أو بما هو أكثر ملائمة وصلاً للعباد من الحكم المنسوخ، فالتشريع منوط بمحض مشيئته تعالى وحكمته، لا يشاركه فيه أحد، فهو وحده سبحانه الخالق والمالك والمدبر ﴿ ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾^(١).

﴿ ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض ﴾ ولهذا ينبغي أن يكون له وحده حق التشريع والحاكمة؛ لأنه وحده مالك السموات والأرض، يشرع في ملكه ما يشاء، وينسخ من الأحكام والشرائع ما يشاء سبحانه.

وجاء بعد تقرير هذه الحقائق التحذير؛ ولهذا التفت الخطاب إلى المؤمنين:

﴿ وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ﴾ [١٠٧] فلا تتولوا غيره، ولا تستنصروا بسواه، ولا تتأثروا بافتراءات المغرضين، واعتراضات المعاندين، واستسلموا لحكمه، وتمسكوا بشريعته. وتابعت الآيات تحذير المؤمنين من مثل مواقف بني إسرائيل من نبيهم موسى:

﴿ أم تريدون أن تسألوا رسولكم ﴾ أي: أبعد أن علمتم أن الله مالك الملك، وأنه صاحب الأمر والنهي، تريدون أن تسألوا رسولكم محمداً ﷺ.

﴿ كما سئل موسى من قبل ﴾ عندما قال له بنو إسرائيل: ﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ وعندما سأله عن أوصاف البقرة، ولم يبادروا إلى طاعته وتنفيذ أمره، كما مر. فالاستفهام في الآية يفيد الإنكار، واستبعاد اتصاف المؤمنين بمثل ما اتصف به اليهود.

﴿ ومن يتبدل الكفر بالإيمان ﴾ بسبب إعراضه عن طاعة نبيه عليه الصلاة والسلام، أو اعتراضه عليه، وإساءة الأدب معه، وعدم المسارعة إلى تنفيذ أوامره. ﴿ فقد ضلّ سواء السبيل ﴾ [١٠٨] أي: أخطأ الطريق المستقيم، وابتعد عن الشرع القويم.

(١) الأعراف: الآية ٥٤.

من أخلاق الإسلام

ويتمنى الحاسد زوال النعمة عن المحسود، ولهذا تمنى أهل الكتاب زوال نعمة الإيمان عن المؤمنين، وانتكاسهم إلى حماة الكفر، وهو ما كشفت عنه الآيات الكريمة بقوله تعالى:

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: حسداً نابعاً من أعماق أنفسهم، وودادتهم هذه ليست نابعة من حبهم لدينهم وتعصبهم له، وإنما مصدرها الحسد الذي يملأ نفوسهم، فلا يهتمهم أن تدخلوا في دينهم، بقدر ما يهتمهم أن يُخْرِجوكم من دينكم، ويجعلوكم تنبذون كتابكم وتعرضون عن شريعتكم، هذا الذي يتمنونه، ومن أجله يرسمون الخطط، ويعقدون المؤتمرات، ويرصدون له الأموال الكثيرة، وتستهدف جهود التنصير الموجهة إلى الشعوب المسلمة، تكفير المسلمين وإبعادهم عن دينهم أكثر من تنصيرهم.

﴿من بعد ما تبين لهم الحق﴾ أي: من بعد علمهم أنكم على الحق، فحرصهم على تكفيركم معاندة للحق وجحود له، لا جهل به، وفي هذا إشارة إلى أن معرفة الحق لا تكفي للإيمان به، لا بد أن يكون معها انقياد له ورضا به، ومعرفة الإيمان لا تمنع من الكفر أيضاً، وما أكثر الكفار جحوداً وعناداً.

وفي مقابل حسدهم للمؤمنين وبغيهم عليهم، أمر تعالى المؤمنين أن يقابلوهم بالعفو والصفح، ودفع السيئة بالحسنة، فقال:

﴿فاعفوا واصفحوا﴾ أي: تجاوزوا عن حسدهم وبغيهم، وارتفعوا إلى المستوى السامي الرفيع للأخلاق الإسلامية، ما دام حسدهم حبيس صدورهم فقط، أما إذا دفعهم الحسد إلى البغي والظلم والعدوان، فحينئذ شرع الله لكم قتالهم وأمركم بجهادهم؛ لدفع شرهم وفسادهم، وهو ما دلّ عليه قوله سبحانه: ﴿حتى يأتي الله بأمره﴾ أي: حتى يشرع الله لكم حكمه، وهو الإذن بقتالهم، وضرب الجزية عليهم، وقد شرع لهم تعالى قتالهم بعد ذلك بقوله الكريم: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون﴾^(١).

ورأى أكثر المفسرين أن آية القتال هذه قد نسخت آية العفو والصفح، مع أن العفو

(١) التوبة: الآية ٢٩.

والصفح في الآية مقيد بحالة معينة، ويمكن أن تتكرر هذه الحالة بتوالي العصور وتغير الأحوال والظروف، والإسلام شرع الأحكام الملائمة لكل الحالات والظروف، فلا ينبغي المسارعة إلى القول بالنسخ كما فعل كثير من المفسرين، فالأمر بالقتال، ومسالمة الأمم والشعوب، أمران مشروعان في الإسلام، وقد قال العلامة البيضاوي: الأمر بالقتال غير مطلق^(١). فهو منوط بما يراه وليّ أمر المسلمين، فإذا ما رأى أن المصلحة تقتضي مسالمتهم سالمهم، وإذا رأى أن المصلحة تقتضي قتالهم قاتلهم، قال تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٢).

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [١٠٩] فهو سبحانه يقدر على الانتقام منهم، وينصرهم عليهم عندما يأمرهم بقتالهم، ففيه بشرى للمؤمنين بنصره سبحانه لهم. ولا ينبغي لحقد أهل الكتاب عليكم وحسدهم لكم، أن يعوقكم عن طاعة ربكم وعبادته، دعوا قلوبهم تحترق بنار الحسد والغم والكمد: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ واستكثروا من فعل الخيرات والطاعات، فإنكم ستجدون ثوابها عند الله تعالى يوم القيامة:

﴿وَمَا تَقْدُمُوا لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [١١٠] فلا يضيع عنده تعالى عمل عامل، ولا ينقص منه شيئاً، بل يزيده سبحانه بفضلته وكرمه، كما قال: ﴿وَمَا تَقْدُمُوا لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٣).

تناكر وتجاهد

ثم وسّعت الآيات دائرة تحذير المؤمنين وتنبههم إلى مصادر الخطر، ببيان ما يدّعيه أهل الكتاب من يهود ونصارى، بأنهم وحدهم الفائزون الناجون يوم القيامة، وأنه لن يدخل الجنة أحد غيرهم:

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً﴾ وهذا قول اليهود.
﴿أَوْ نَصَارَى﴾ وهذا قول النصارى أيضاً.

(١) تفسير البيضاوي ١/١٧٩.

(٢) الأنفال: الآية ٦١.

(٣) المزمل: الآية ٢٠.

فقد ادّعت كل طائفة أنه لن يدخل الجنة إلا مَنْ كان على ملتها، فأكذبهم الله تعالى وردّ دعوى الفريقين، كما ردّ دعوى اليهود من قبل، أن النار لن تمسّهم إلا أياماً معدودة، ثم بعد ذلك يدخلون الجنة، فقال: ﴿تلك أمانيتهم﴾ التي تمنوها على الله بغير حق ومن غير دليل ولهذا أمر سبحانه النبي ﷺ أن يطالبهم بالدليل على هذه الدعوى:

﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ [١١١].
فالفوز بالجنة لا يكون بمجرد الأمانى، بل بالاستسلام لله والخضوع لأحكام شريعته:

﴿بلى﴾ أي: ليس الأمر كما زعمتم وتمنيتم، ولكن:
﴿مَنْ أسلم وجهه لله﴾ أي: خضع واستسلم لله تعالى وحده، فأصل الإسلام الاستسلام، وهو الخضوع، وخصّ الوجه بالذكر لأنه أشرف الأعضاء^(١)؛ ولهذا كان وضع الوجه على الأرض في السجود لله تعالى، دليل على كمال الاستسلام والخضوع له جل وعلا.

﴿وهو محسن﴾ في قوله وعمله وسلوكه، والإحسان: إتقان العمل نتيجة الشعور بمراقبة الله تعالى، كما مرّ معنا في الحديث الشريف، عندما سُئِلَ ﷺ عن الإحسان فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

﴿فله أجره عند ربّه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ [١١٢].

ويلاحظ أنه تعالى في معرض الردّ على اليهود والنصارى، بيّن أن دخول الجنة لا يقتصر على نوع أو جنس معين من الناس، فلم يقل: الجنة للمسلمين فقط، بل بيّن سبحانه أن دخول الجنة مرتبط بمبدأ عام شامل كل الناس، وكل مَنْ التزم بهذا المبدأ دخل الجنة بفضل الله تعالى، فأبواب الجنة مفتوحة للجميع، وعلى طلابها أن يسلكوا الطريق المؤدّي إليها، فالإسلام حريص على نفي التعصّب عن الناس، ويربّي المسلمين على أن يكونوا مسلمين اعتقاداً وعملاً، بالتزامهم بمبادئه وأحكام شريعته، لا أن يكونوا مسلمين بمجرد الانتماء الفارغ المجرد عن أيّ تطبيق عملي وسلوكي، كما هو - مع الأسف - حال كثير من المنتسبين إلى الإسلام في العصر الحاضر. وقد أدّى التعصّب الممقوت بالمنتسبين إلى الملل الإلهية ذات الأصل الواحد، إلى الاختلاف والافتراق، وإنكار كل فريق ما عند الفريق الآخر، وجحد نبوة ورسله أنبياء الآخرين، وهو ما حكاه سبحانه عنهم بقوله:

(١) تفسير الخازن ١/ ١٨٠.

﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء﴾ أي: ليسوا على شيء يصح ويعتد به، وبهذا جحدوا نبوة عيسى عليه السلام وكفروا برسالته.

﴿وقالت النصارى ليست اليهود على شيء﴾ وبهذا كفروا بموسى وبالتوراة التي أنزلها الله عليه.

﴿وهم يتلون الكتاب﴾ أي: وكلا الفريقين يقرؤون الكتاب المنزل عليهم، يقرأ اليهود التوراة، ويقرأ النصارى الإنجيل، ولا خلاف بين الكتابين في أصول الاعتقاد، فالإنجيل يشهد بصحته وصدق التوراة، كما يشهد القرآن الكريم بصحة وصدق التوراة والإنجيل، وعيسى عليه السلام أرسل إلى بني إسرائيل كما أرسل إليهم موسى، وعلمه الله تعالى التوراة كما علمه الإنجيل، وأقر عليه السلام برسالة موسى وصدق بالتوراة، بين سبحانه كل ذلك في القرآن الكريم فقال: ﴿ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل. ورسولاً إلى بني إسرائيل أتني قد جئتكم بآية من ربكم أتني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بأذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين. ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون﴾^(١). فلم هذا التناكر والتجاحد؟! إنه التعصب الممقوت، هو الذي دفعهم إليه، وهو الذي دفع أيضاً المشركين وعبداء الأصنام إلى أن يجحدوا رسالة النبي ﷺ ويعرضوا عنها:

﴿كذلك قال الذين لا يعلمون﴾ أي: الذين لا علم عندهم، ولا كتاب نزل عليهم.

﴿مثل قولهم﴾ أي: مثل قول اليهود والنصارى، فقد أنكروا رسالة القرآن الكريم، وجحدوا رسالة النبي ﷺ، وزعموا أن ما هم عليه من عبادة الأصنام والأوثان، في حرم الله تعالى، ويجوار بيته الحرام، هو الحق، ولهذا منعوا المسلمين الموحدين من عبادة الله تعالى فيه، وآذوهم واضطهدوهم حتى اضطروهم إلى الهجرة.

﴿فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ [١١٣] وهو - ولا شك - وعيد شديد، أتبعته الآيات بوعيد خاص بالمشركين؛ لمنعهم المسلمين من عبادة الله تعالى وحده في المسجد الحرام:

﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه﴾ أي: لا أحد أظلم من هؤلاء الذين منعوا المؤمنين من عبادة الله تعالى وحده، وذكره بالدعاء والاستغفار

(١) آل عمران: الآيات ٤٨ - ٥٠.

والتسبيح، في المساجد التي بنيت لهذا الأمر، فمنع المؤمنين عن المسجد الحرام، وهو أفضل المساجد وأعظمها حرمة، منع عن كل المساجد، وصد عنها.

﴿وسعى في خرابها﴾ بتعطيلها عن عبادة الله تعالى فيها، فالخراب ذهاب العمارة، والعمارة إحياء المكان وإشغاله بما وُضِعَ له^(١).

فعمارة المساجد الحقيقية في عبادة الله وحده في رحابها، وإقامة الصلاة فيها، ولا قيمة لتشييد بنائها ورفع جدرانها دون أن تعمر بذكر الله وعبادته وحده فيها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾^(٢).

﴿أولئك﴾ أي: المانعون.

﴿ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين﴾ أي: لا ينبغي لهم أن يدخلوا المساجد إلا خائفين من المؤمنين.

وقد حدث كما شرع سبحانه وأخبر، فعندما فتح النبي ﷺ مكة المكرمة بعد عدة سنوات من نزول هذه الآية، أرسل من ينادي بين المشركين قائلاً: «من دخل المسجد الحرام فهو آمن» فدخلوه خائفين، خوفاً من بطش المؤمنين وانتقامهم، بعد أن كانوا متسلطين عليه، متجبرين متكبرين فيه، يعبدون فيه الأصنام والأوثان.

ودلت الآية على أن من عمل في مساجد الله بغير ما وُضِعَتْ له من ذكر الله، كان ساعياً في خرابها، وناله الخوف في محل الأمن^(٣).

﴿لهم في الدنيا خزي﴾ أي: ذلة ومهانة إن أصروا على كفرهم وشركهم حتى ماتوا عليه.

﴿ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ [١١٤].

تنزيه الحق عن الولد

ولا يخفى ما في الآيات من بشارة للمؤمنين بالنصر على المشركين، فقد نزلت هذه الآيات في أوائل الهجرة إلى المدينة المنورة، وفي أول معارك الإسلام مع الشرك؛ ولهذا

(١) نظم الدرر ١١٩/٢.

(٢) التوبة: الآية ١٨.

(٣) نظم الدرر ١٢١/٢.

التفتت الآيات إلى المؤمنين تواسيهم عن منع المشركين لهم عن المسجد الحرام وعبادة الله تعالى فيه بقوله سبحانه:

﴿ولله المشرق والمغرب﴾ أي: له جلّ وعلا ملك الأرض كلها، مشرقها ومغربها، وقد جعلها سبحانه كلها بفضلِهِ ورحمته مسجداً لكم، يمكنكم أن تصلوا في أيّ مكان منها.

﴿فأينما تولّوا فثمّ وجه الله﴾ أي: ففي أيّ مكان استقبلتم جهة الصلاة وصليتم، فإن صلاتكم مرضية ومقبولة عند الله تعالى، فقد جعلت لكم الأرض مسجداً، فصلّوا في أيّ بقعة شئتم من بقاعها؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «أعطيت خمسا لم يُعطهن أحد قبلي، كان كل نبي يُبعث إلى قومه خاصة ويُبعث إلى كل أحمر وأسود، وأجلّت لي الغنائم ولم تحلّ لأحد قبلي، وجُعِلت لي الأرض طيبة طهوراً ومسجداً، فأَيُّما رجل أدركته الصلاة صلّى حيث كان، ونصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر، وأعطيت الشفاعة»^(١). ويحتمل أن يكون المعنى: فأَيّ جهة تستقبلون في صلاتكم إذا تعذّر عليكم معرفة القبلة صحت صلاتكم.

﴿إن الله واسع﴾ أي: واسع الرحمة، يوسع على عباده ولا يضيق عليهم. ﴿عليم﴾ [١١٥] بما يصلحهم ويوافقهم.

وتتفق الآية مع سياقها من الآيات، وتمهّد في الوقت نفسه لموضوع قبلة الصلاة، الآتي قريباً في سياقها.

وكشفت الآيات ما استحدثه هؤلاء المتعصبون الجاحدون في أصل عقائدهم، من انحراف عن التوحيد وشرك وكفر.

﴿وقالوا اتخذ الله ولداً﴾ فاليهود قالوا عزيز ابن الله، والنصارى قالوا: المسيح ابن الله، ومشركو العرب قالوا: الملائكة بنات الله.

تنزه الله تبارك وتعالى عن كل ذلك، حكى الله سبحانه ذلك عنهم في قوله الكريم: ﴿وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أني يؤفكون﴾^(٢)، وفي قوله سبحانه: ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم سكتب شهدتهم ويسألون﴾^(٣).

(١) متفق عليه واللفظ لمسلم، كتاب المساجد (٥٢١).

(٢) التوبة: الآية ٣٠.

(٣) الزخرف: الآية ١٩.

﴿سبحانه﴾ أي: ينتزّه تعالى عن الولد، فهو الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد.

﴿بل له ما في السموات والأرض﴾ فكيف ينسبون الولد إليه وهو خالقه ومالكه؟!.

﴿كلّ له قانتون﴾ [١١٦] أي: جميع هؤلاء الذين وصفتموهم بصفة البنوة لله تعالى، خاضعون له وحده، ومقرون له بالعبودية، كما في قوله تعالى: ﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً﴾^(١).

وبهذا أبطلت الآية بأسلوبها البليغ المعجّز عقائدهم، وبيّنت فسادها من ثلاثة وجوه:

الأول: ببيان كماله تعالى وغناه، وتفردّه بالكمال المطلق، وتنزّهه عن الاتّصاف بصفة الولادة والولد.

الثاني: ببيان تمام ملكه وسلطانه سبحانه، فالكل مملوك له جلّ وعلا، والمملوكية تنافي الألوهية.

الثالث: ببيان أن المسيح وعزير والملائكة بريئون عن هذه الدعوى، مقرون بوحدانيته تعالى، خاضعون لأمره، مستسلمون له وحده جلّ وعلا. وأضافت الآيات بعدها وجهاً آخر يدلّ أيضاً على وحدانيته تعالى، وأنه مُنَزّه عن اتخاذ الولد:

﴿بديع السموات والأرض﴾ أي: هو خالق ومنشئ السموات والأرض على غير مثال سبق، ومُحدّثها من العدم، وكل الأشياء حادثة بقدرته تعالى، مسبوقة بالعدم، فهو وحده المتفرد بالقدّم والبقاء جلّ وعلا.

﴿وإذا قضى أمراً﴾ أي: إذا تعلقت إرادته ومشئته بوجود شيء.

﴿فإنما يقول له كن﴾ بأمره التكويني القدري.

﴿فيكون﴾ [١١٧] كما قدّر وأراد جلّ وعلا، من غير امتناع ولا توقّف، ومن غير احتياج إلى آلات وأسباب.

(١) النساء: الآية ١٧٢.

ودلت الآية على كمال قدرته تعالى، كما أشارت إلى حدوث عيسى عليه السلام، وخلقه بالكلمة التكوينية، دون تقدّم أسباب، كما قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾^(١). وكما بيّنت الآيات التشابه في الانحراف عن التوحيد، بين عقائد أهل الكتاب، وبين عقائد المشركين من العرب، بيّنت أيضاً التشابه بينهم في مواقف الجحود والعناد، بقوله تعالى:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿وَهُمْ مُشْرِكُوا بِالْعَرَبِ﴾

﴿لَوْلَا يَكْلَمُنَا اللَّهُ ﴿أَي: هَلَّا يَكْلَمُنَا اللَّهُ مباشرة، ويخبرنا أنه أرسلك إلينا.

﴿أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ﴿أَي: معجزة كما نطلب ونشتهي، فالقوم يريدون أن تأتي الآيات والمعجزات على حسب إرادتهم وشهواتهم، وهم يتغافلون عن آيات الكتاب الكريم، وما فيها من إعجاز وتحذّر لهم.

﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ﴿أَي: كذلك قال اليهود والنصارى لأنبيائهم مثل قول المشركين للنبي ﷺ.

﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴿فِي الْفُسَادِ وَالْجَحُودِ.

﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ ﴿الدَّالَّةَ عَلَىٰ صَدَقِ النَّبِيِّ ﷺ وَصَحَّةِ رِسَالَتِهِ، وَهِيَ آيَاتُ تَكْفِي مَرِيدِ الْحَقِّ عَنْ غَيْرِهَا مِنَ الْآيَاتِ وَالْمَعْجَزَاتِ.

﴿لَقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿[١١٨] أَي: لقوم يريدون الحق الذي لا شبهة فيه، من غير عناد ولا جحود، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ. أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَا أُنْزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابُ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(٢).

تَشْيِيتٌ وَمَوَاسَاةٌ

وقد عوّدنا تعالى أنه كلما بيّن موقفاً من مواقف الجحود والعناد، من دعوة الرسول ﷺ، وجّه إليه الخطاب مواسياً ومثبتاً، ولهذا قال تعالى هنا:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴿الوَاضِحِ الثَّابِتِ الْمُؤَيَّدِ بِالْبَرَاهِينِ الْقَاطِعَةِ، وَدَلَّتْ صِيغَةُ الْجَمْعِ ﴿إِنَّا ﴿عَلَىٰ عِظْمَةِ الْمُرْسَلِ وَالْمُرْسَلِ إِلَيْهِ.

(١) آل عمران: الآية ٤٧.

(٢) العنكبوت: الآيتان ٥٠-٥١.

﴿ بشيراً ونذيراً ﴾ أي: تبشّر المؤمنين بفضل الله تعالى ورحمته، وتنذر المُعْرِضِينَ الجاحدين بنعمته وعذابه.

﴿ ولا تُسأل عن أصحاب الجحيم ﴾ [١١٩] أي: ولست مسؤولاً عن كفر وجحود الكافرين، بعد أن بلغتهم رسالة ربّهم، وأنذرتهم من عذابه وانتقامه.

وفي قراءة ﴿ ولا تُسأل ﴾ بالنهي والجزم، أي: لا تُسأل عنهم سؤال المتهم به، وقد كان عليه الصلاة والسلام حريصاً على إيمانهم، يحزنه إعراضهم، وجحودهم، كما قال تعالى: ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً ﴾ ^(١)، وقال أيضاً: ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون ﴾ ^(٢).

ثم حذّره سبحانه من كيد أهل الكتاب ومكرهم، وهو في الحقيقة تحذير لأُمته عليه الصلاة والسلام، إذ أخبره الله تعالى أنه عصمه من كيدهم ومكرهم:

﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملّتهم ﴾ أي: لن ترضى عنك اليهود إلّا بالتّهود، ولا النصارى إلّا بالتّنصّر، فلا تنخدع بمظاهر الرياء والخداع التي يتظاهرون بها أمامك، فالحقد والتعصّب يملآن صدورهم ونفوسهم، والتعامل مع أمثال هؤلاء لا يكون إلّا بالتمسك بالحق ومواجهتهم به:

﴿ قل إن هدى الله هو الهدى ﴾ وما عداه ليس هدى بل هوى.

﴿ ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ﴾ في الكتاب المنزل عليك، الذي لا ريب فيه.

﴿ ما لك من الله من وليّ ﴾ أي: ما لك غير الله تعالى من وليّ يتولّاك.

﴿ ولا نصير ﴾ [١٢٠] ينصرك ويؤيدك.

وحاشاه ﷺ أن يتبع أهواءهم، أو يميل أدنى ميل إليهم، ولكنه تعالى أراد أن يُظهر عزّ ربوبيته وتفرّده بالغنّى والوحدانية، أمام خيرته من عباده ومخلوقاته، كما أراد تعالى تحذير المؤمنين وتثبيتهم وتأديبهم، فكأنه تعالى يقول لهم: إذا كان هذا حال الرسول إن اتبع أهواء اليهود والنصارى، فكيف يكون حالكم؟

ولهذه الآية نظائر في القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل. لأخذنا منه باليمين. ثم لقطعنا منه الوتين. فما منكم من أحد عنه

(١) الكهف: الآية ٦.

(٢) فاطر: الآية ٨.

حاجزين ﴿١﴾، وقوله أيضاً: ﴿ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً. إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً﴾ ﴿٢﴾. والجدير بالذكر أن النبي ﷺ، سلك في تأديب وتهذيب أصحابه مثل هذا المسلك، عندما قال في حادثة المرأة المخزومية التي سرقت: «والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» ﴿٣﴾.

ثم بعد هذا التحذير الصريح من الانخداع بأهل الكتاب، وجهت الآيات النبي ﷺ لكي ينصرف إلى أصحابه ويهتم بهم، بأسلوب رفيق رقيق غير مباشر: ﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾ وهو القرآن الكريم، فالكتاب إذا أطلق ينصرف إلى الكتاب المعهود الذي لا ريب فيه، كما تقدم في أول السورة. ﴿يتلون حقّ تلاوته﴾ كما تلقوه من النبي ﷺ، لا يغيرون فيه ولا يبدّلون، يتدبرون معانيه، ويعملون بما فيه.

﴿أولئك﴾ المتصفون بهذه الصفة.

﴿يؤمنون به﴾ أي يؤمنون بالكتاب المنزل عليهم بالإيمان الحق، كما يتلونهم التلاوة الحقّة.

وهي شهادة ربّانية رفيعة لأصحاب النبي ﷺ، حملة الكتاب وأمنته وحفظته بعده ﷺ ولا يخفى ما في هذه الشهادة من تعريض بأحبار اليهود والنصارى، الذين حرّفوا كتابهم ولم يحافظوا عليه ولم يتلوه حقّ تلاوته؛ ولهذا قال تعالى بعد ذلك يتوعدّهم ويتهدّدهم: ﴿ومن يكفر به﴾ أي: بالكتاب المنزل.

﴿فأولئك هم الخاسرون﴾ [١٢١] لأنهم اشتروا الكفر بالإيمان، والضلالة بالهدى.

وعادت الآيات مرة ثانية، في ختام حديثها عن أهل الكتاب، وفي سياق تحذير المؤمنين من التشبه بهم، إلى تكرير ندائها السابق الذي وجهته إلى بني إسرائيل، وكأنّها بهذا التكرير تخاطب الخلف منهم كما خاطبت السلف، وفي هذا إشارة إلى استمرارهم على مواقف الفساد والجحود، التي كان عليها أسلافهم: ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين [١٢٢] واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون﴾ [١٢٣].

(١) الحاقة: الآيات ٤٤ - ٤٧.

(٢) الإسراء: الآيتان ٧٤ - ٧٥.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الحدود (١٦٨٨).

وبهذا ختمت الآيات حديثها عن هرم الجحود والفساد، وبيان مواقف الجاحدين المعاندين.

وتوجّهت الآيات بعد ذلك في سورة البقرة وجهة جديدة، إلى الحديث عن المسلمين لله تعالى، والمستسلمين لأحكامه وشريعته، وبيان مواقفهم من التكاليفات التي كلفهم الله تعالى بها؛ ولهذا عرضت في أثناء ذلك عدداً من التشريعات، فصلت بعضها وأجملت بعضاً آخر، تاركة تفصيل فروعها إلى السنة النبوية الشريفة، واجتهاد الأئمة المجتهدين من فقهاء الأمة.

الفصل الرابع
التَّوْحِيدُ وَإِبْرَاهِيمُ
وَالْبَيْتُ الْحَرَامُ

إِبْرَاهِيمَ وَمَقَامُ الْإِمَامَةِ

لا بدّ بعد أن أظهرت الآيات ما أحدثه أهل الكتاب من شرك في عقائدهم، وما فعله مشركو العرب من صدّ عن المسجد الحرام، ومنع المسلمين الموحدين عن عبادة الله تعالى فيه، أن تلتفت الآيات الكريمة إلى الحديث عن البيت الحرام، وصلة المسلمين الموحدين به، وعن رافع قواعد إبراهيم عليه السلام، الذي ينتسب كل من أهل الكتاب والمشركين إليه، ويدّعي كل فريق منهم أنه كان على ملته، فتبين حقيقة دعوته عليه السلام، وأنه كان يدعو إلى التوحيد، وأنه إمام الموحدين، وأنه هو الذي رفع قواعد بيت الله الحرام، لعبادة الله الواحد الأحد فيه، وليكون قبلة المسلمين الموحدين في صلاتهم، وموضع حجّهم، وأداء مناسكهم.

وأبرزت الآيات في مستهل حديثها عن إبراهيم عليه السلام، استسلامه الكامل لأمر الله تعالى، ومبادرته إلى تنفيذ ما كلفه به الحق تعالى مهما كان شاقاً عليه:

﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات ﴿أي: اذكر يا محمد - ﷺ - لهؤلاء الجاحدين المعاندين، إسلام إبراهيم لله تعالى، وانقياده لأمره، وخضوعه لحكمه، عندما كلفه ببعض التكاليف. فالابتلاء: الاختبار والامتحان، والكلمات: جمع كلمة، وهي اللفظ الموضوع لمعنى مفرد، لكنها قد تطلق على المعاني التي تحتها﴾^(١).

وتدلّ كلمة ﴿ابتلى﴾ على أنه تعالى كلف إبراهيم عليه السلام بتكاليف شاقة صعبة.

﴿فأتمهن﴾ أي: قام بهنّ حق القيام، وأداهنّ أحسن أداء، من غير تفريطٍ وتوانٍ، حتى شهد له الحق سبحانه بذلك في قوله هنا: ﴿فأتمهن﴾، وفي قوله أيضاً: ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾^(٢).

(١) تنوير الأذهان ١٠٢/١.

(٢) النجم: الآية ٣٧.

كلّفه تعالى بدعوة أبيه وقومه إلى عبادته سبحانه وحده، وترك عبادة الأصنام، فقام بذلك خير قيام، حتى إنه كسر أصنام قومه، وعرض نفسه لانتقامهم، وإلحاقهم إياه في النار، فصبر على ذلك، كما جاء في الآيات الكريمة في أكثر من موضع من التنزيل الحكيم، ثم كلّفه تعالى بالهجرة عن وطنه وأرض قومه، فهاجر إلى بلاد الشام، وأمره تعالى أن يضع ولده وأمه هاجر في وادي مكة من أرض الحجاز، وكان حينئذٍ وادياً مقفراً، فامثل لأمره تعالى واستسلم لحكمه، وتركهما وحدهما ثمّة، وقفل عائداً إلى بلاد الشام، كما سيأتي، ثم كلّفه تعالى بذبح ولده إسماعيل عندما بلغ سنّ السعي، فعزم على تنفيذ أمره تعالى، وأسلم أمره مع ولده إليه جلّ وعلا، ففداه الحق سبحانه بذبح عظيم، وخلد تعالى ذلك في قوله الكريم: ﴿فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين. فلما أسلما وتله للجبين. وناديناه أن يا إبراهيم. قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين. إن هذا لهو البلاء المبين. وفديناه بذبح عظيم﴾^(١).

وغير ذلك من الابتلاءات والتكليفات التي كلّفه الحق بها، فبادر عليه السلام إلى القيام بها، بخضوع واستسلام كاملين لله جلّ وعلا؛ ولهذا أكرمه الله تعالى بمقام الإمامة بين الناس:

﴿قال إني جاعلك للناس إماماً﴾ أي: إماماً يأتّم به الناس، فالإمام: اسم لمن يؤتمّ به، وكلّ نبيٍّ إمام لأمتّه، وإمامته عليه السلام عامّة مؤكّدة؛ إذ لم يبعث بعده نبي إلا كان من ذريته، مأموراً باتباع ملّته^(٢).

فالإسلام لله تعالى ملّة إبراهيم عليه السلام، ومعناه - كما مرّ معنا - الاستسلام الكامل لله تعالى وحده؛ ولهذا قال تعالى: ﴿هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملّة أبيكم إبراهيم هو سمّاكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير﴾^(٣)، وقال أيضاً: ﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾^(٤).

(١) الصّافات: الآيات ١٠٢-١٠٧.

(٢) تفسير أبي السعود ١٥٦/١.

(٣) الحجّ: الآية ٧٨.

(٤) النحل: الآية ١٢٣.

فلإبراهيم عليه السلام مكانة عند جميع أتباع الديانات السماوية، ويدّعي كل فريق منهم أنه كان على ملّته، وأنه أولى به من غيره، حتى قال تعالى: ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾. إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتّبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله وليّ المؤمنين ﴿^(١)﴾.

﴿قال ومن ذريتي﴾ أي: قال إبراهيم: واجعل من ذريتي أئمة يقتدى بهم، وذرية الرجل: أولاده ونسله.

﴿قال لا ينال عهدي الظالمين﴾ [١٢٤] أي: لا ينال ما أعطيتك من الكرامة والإمامة، الظالمين من ذريتك، فالظالم لا يصلح أن يكون إماماً، وهو الذي يظلم نفسه بالكفر والفجور، أو يظلم غيره بالبغي والعدوان.

وقوله تعالى: ﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾ ليس ردّاً لدعوته عليه السلام، بل إجابة خفية لها، وعدة اجمالية منه تعالى بتشريف بعض ذريته عليه السلام بنيل عهد الإمامة ^(٢).

البيت الحرام

ومن ذكر إبراهيم عليه السلام، وإمامته الكبرى، انتقلت الآيات إلى ذكر بيت الله الحرام:

﴿واذ جعلنا البيت﴾ أي: الكعبة المشرفة، قال تعالى: ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم﴾ ^(٣). ويدخل فيه الحرم، فإن الله وصفه بكونه آمناً، وهذه صفة جميع الحرم ^(٤).

﴿مثابة للناس﴾ أي: مرجعاً يرجع الناس إليه، فكلما تفرقوا عنه اشتاقوا إليه، وهوت إليه قلوبهم، ببركة دعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿ربنا إنني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكروا﴾ ^(٥).

(١) آل عمران: الآيتان ٦٧ - ٦٨.

(٢) تفسير أبي السعود ١/١٥٦.

(٣) المائدة: الآية ٩٧.

(٤) تفسير الخازن ١/١٩٢.

(٥) إبراهيم: الآية ٣٧.

أو مجتمعاً للناس، يجتمعون فيه كل عام لأداء مناسك الحج، أو معاذاً وملجأً، إذ جعله تعالى موضع أمن أيضاً فقال:

﴿وَأَمَّا أَي: وجعلناه موضع أمن وسلام، قال تعالى ﴿إِنْ أُولَ بَيْتٍ وَضَعُ لِلنَّاسِ لِلَّذِي بَيْكَةً مَبَارَكًا وَهَدًى لِلْعَالَمِينَ. فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^(١)؛ ولهذا قال تعالى يَذْكُرُ قَرِيشًا بِفَضْلِهِ عَلَيْهِمُ بِالسَّكْنَى فِي حَرَمِهِ وَمَجَاوِرَةَ بَيْتِهِ: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾^(٢).

فمكة - كما قال ابن حجر رحمه الله - بلد الأمن والسلام، وأرضها أرض حرام، حرّمها الله تعالى يوم خلق السموات والأرض^(٣)، وفي الحديث الشريف عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ يوم افتتح مكة: «إِنْ هَذَا بِلَدٍ حَرَّمَ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَهُوَ حَرَامٌ بِحَرَمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّهُ لَمْ يَحْلَلْ الْقِتَالُ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَمْ يَحْلَلْ لِي إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحَرَمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٤).

ولما كان إبراهيم عليه السلام هو باني البيت ورافع قواعده، وهو أول من دعا الناس إلى الحج إليه، أكرمه تعالى فأمر المسلمين على سبيل النذب والاستحباب، أن يصلّوا عند الحجر الذي بقيت فيه آثار قدميه، عندما قام عليه السلام عليه، وهو يرفع بناء البيت، فقال سبحانه:

﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ وقد صلى النبي ﷺ عند المقام، عندما حجّ حجة الوداع، ففي حديث جابر الذي وصف حجّته عليه الصلاة والسلام: «حَتَّى إِذَا أَتَيْنَا الْبَيْتَ مَعَهُ اسْتَلِمَ الرُّكْنَ فَرَمَلَ ثَلَاثًا، وَمَشَى أَرْبَعًا، ثُمَّ نَفَذَ إِلَى مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَرَأَ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ فَجَعَلَ الْمَقَامَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ...»^(٥).

قال ابن كثير رحمه الله: هذا كله مما يدل على أن المراد بالمقام، إنما هو الحجر الذي كان إبراهيم عليه السلام يقوم عليه لبناء الكعبة، لما ارتفع الجدار أتاه إسماعيل عليه السلام به ليقوم فوقه، ويناوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار... وكانت آثار قدميه ظاهرة فيه، ولم يزل هذا معروفًا، تعرفه العرب في جاهليتها؛ ولهذا قال

(٤) رواه البخاري، كتاب جزاء الصيد (١٨٣٤).

(٥) رواه مسلم، كتاب الحج (١٢١٨).

(١) آل عمران: الآيتان ٩٦ - ٩٧.

(٢) العنكبوت: الآية ٦٧.

(٣) فتح الباري ٤/٤٦.

أبو طالب في قصيدته المعروفة اللامية:

وموطىء إبراهيم في الصخر رطبة على قدميه حافياً غير ناعل

وقد كان هذا المقام ملصقاً بجدار الكعبة قديماً، ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب، مما يلي الحجر، يمتد الداخل من الباب... وإنما أخره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أحد الأئمة المهديين، والخلفاء الراشدين، الذين أمرنا باتباعهم^(١).

﴿وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل﴾ أي: أمرنا إبراهيم وولده إسماعيل.

﴿أن طهراً بيتي﴾ أي: طهراً الكعبة المشرفة من الشرك والأوثان، وأضاف سبحانه البيت إلى نفسه إضافة تشريف وتفضيل.

﴿للطائفين﴾ أي: للذين يعبدون الله تعالى وحده بالطواف حول البيت.

﴿والعاكفين﴾ أي: المقيمين عنده والمعتكفين.

﴿والرُّكع السجود﴾ [١٢٥] جمع: راع وساجد، أي المصلين.

وقال ابن كثير: أي طهّراه من الشرك والريب، وبنياه خالصاً لله، معقلاً للطائفين والعاكفين والرُّكع السجود، وتطهير المساجد مأخوذ من هذه الآية الكريمة، ومن قوله تعالى: ﴿في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه﴾ ومن السنة من أحاديث كثيرة، من الأمر بتطهيرها وتطيبها^(٢). ثم بين تعالى بعض الخصائص التي خصّ بها أرض الحرم، ببركة دعوات إبراهيم عليه السلام، ويبدو أنها من الدعوات التي دعا بها عندما وضع فيه ولده إسماعيل مع أمه، وتركهما وانصرف كما سيأتي.

﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا﴾ المكان الذي وضع فيه ولده إسماعيل وأمّه هاجر، والذي كان حينئذ مقفراً.

﴿بلداً آمناً﴾ وقد أصبح بعد ذلك بلداً عامراً أهلاً، هو مكة المكرمة، أم القرى، ففي الحديث الشريف عن ابن عباس قال: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقاً لتعفي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبانها إسماعيل، وهي ترضعه، حتى وضعها عند البيت، عند دوحه فوق زمزم في أعلى

(١) مختصر تفسير ابن كثير ١١٨/١.

(٢) المرجع نفسه ١٢٠/١.

المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء، فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذا لا يضيئنا. ثم رجعت فانطلق إبراهيم، حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الكلمات، ورفع يديه فقال: ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع﴾ حتى بلغ ﴿يشكرون﴾ وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً، فلم تر أحداً، فهبطت من الصفا، حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود، حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحداً، فلم تر أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فذلك سعي الناس بينهما» فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صه - تريد نفسها - ثم تسمعت أيضاً فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه، أو قال بجناحه، حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها، وهو ينفور بعدما تغرف، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم - أو قال: لو لم تغرف من الماء - لكانت زمزم عيناً معيناً» قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافوا الضيعة، فإن ها هنا بيت الله، بيني هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله، وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله^(١).

﴿وارزق أهله من الثمرات﴾ أي: من أنواع الثمار، وقد فعل سبحانه ذلك، فالثمار تأتي إلى مكة من مختلف بقاع الأرض القريبة والبعيدة، كما قال تعالى: ﴿أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾^(٢).

(١) انظر الحديث كاملاً في صحيح البخاري، كتاب الأنبياء (٣٣٦٤).

(٢) القصص: الآية ٥٧.

﴿ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ أي: أرزق المؤمنين منهم خاصة، ولكنه تعالى قَدَّرَ أن يكون الرزق في الدنيا لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم، كما في قوله تعالى: ﴿ كَلَّا نَمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ (١)، ولهذا قال تعالى تعقيماً على دعوة إبراهيم: ﴿ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ﴾ بما قَدَّرت له من رزق في الدنيا، ومهما كان هذا الرزق فهو في الحقيقة شيء يسير وقليل؛ لأنه زائل وفاني.

﴿ ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ ﴾ أي: ثم بعد ذلك ألجئه وأدفعه إلى عذاب النار يوم القيامة بسبب كفره.

﴿ وَبُشِّرِ الْمَصِيرِ ﴾ [١٢٦] أي: وبشِّر المكان الذي يصير إليه في نار جهنم.

الأمة المسلمة

المسجد الحرام بني لعبادة الله تعالى وحده، لا لعبادة الأصنام والأوثان، وعمَّاره المسلمون المستسلمون لله تعالى، المتمسكون بدينه وشرعه، لا المشركون الجاحدون المعاندون، رفع قواعده نبيان كريمان، هما إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وكلما ارتفع البناء رُفِعَ إلى الله دعوات خاشعات، تدلُّ على مدى خضوعهما لله تعالى، واستسلامهما لأمره ومشيتته جلَّ وعلا:

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ﴾ أي: اذكر عندما كان إبراهيم وإسماعيل بينان البيت الحرام على قواعده وأساسه.

فالقواعد: جمع قاعدة، وهي الأساس، ورفع القواعد: البناء عليها.

وليس في الآية تصريح بمن وضع القواعد، هل كان إبراهيم وإسماعيل، أم كانت موجودة قبلهما، الله سبحانه أعلم، لكن الحديث الشريف الآتي يشير إلى إبراهيم عليه السلام، فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «ألم تري أن قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم؟» فقلت: يا رسول الله أفلا تردّها إلى قواعد إبراهيم؟ فقال رسول الله ﷺ: «لولا حدثان قومك بالكفر لفعلت» (٢).

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [١٢٧] أي: ربَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا عملنا لك وطاعتنا وعبادتنا، إنك تسمع دعاءنا وتعلم أحوالنا، وهذا يدل على أنهما كانا يعملان، وهما في حالة خشوع وخضوع لله عزَّ وجلَّ، ويستشعران أنهما يقومان بعبادة من أعظم العبادات، ويتقربان إليه تعالى بقربة من أجلِّ القربات، ومع ذلك فخشية الله تعالى تملأ

(١) الإسراء: الآية ٢٠.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الحج (١٣٣٣).

قلييهما، حتى إنهما يسألانه أن يتفضل بقبول عبادتهما، فما أعظم خشوعهما وخضوعهما عليهما الصلاة والسلام!.

ومع كل هذا الخضوع والخشوع يسألانه سبحانه المزيد منه، فكمال الإنسان بكمال عبوديته لله تعالى، واستسلامه لأمره وحكمه:

﴿رَبَّنَا واجعلنا مسلمين لك﴾ أي: اجعلنا مستسلمين لأمرك، خاضعين لطاعتك، لا نشرك معك في الطاعة أحداً سواك، ولا في العبادة غيرك^(١).

ولم ينسِ عليهما السلام ذريتهما، فالصالحون يرغبون أن يكون أولادهم وأحفادهم صالحين أيضاً، كما جاء في قوله تعالى: ﴿والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً﴾^(٢). ولهذا ضمّا في دعائهما بعض ذريتهما قائلين:

﴿ومن ذريتنا أمة مسلمة لك﴾ أي: واجعل من ذريتنا أمة مستسلمة لأمرك، خاضعة لطاعتك وشرعك، ولعلهما اقتصرّا على البعض ولم يعمّما أدباً مع الله تعالى، الذي سبق أن قال لإبراهيم: ﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾ ولا شك أن العرب هم الأمة التي تفرّعت عن إبراهيم من جهة ولده إسماعيل، والسياق - كما قال ابن كثير - إنما هو في العرب؛ ولهذا قال بعده: ﴿رَبَّنَا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم﴾ والمراد بذلك محمد ﷺ، وقد بعث فيهم كما قال تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم﴾^(٣) وهذا لا ينفي رسالته إلى الأحمر والأسود، لقوله تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾^(٤) وغير ذلك من الأدلة القاطعة^(٥).

﴿وأرنا مناسكنا﴾ أي: علّمنا عبادتنا التي نتقرّب بها إليك عند هذا البيت، فالعبادة لا تكون بالرأي والاجتهاد، والمراد بها أعمال الحج والعمرة، كالإحرام والطواف والسعي...

﴿وتب علينا﴾ من التقصير في طاعتك وعبادتك، وهذا من كمالهما عليهما

(١) جامع البيان ٤٣٣/١.

(٢) الفرقان ٧٤.

(٣) الجمعة: الآية ٢.

(٤) الأعراف: الآية ١٥٨.

(٥) مختصر تفسير ابن كثير ١٢٨/١.

السلام، يريان أن فضل الله عليهما أعظم بكثير من الطاعات التي يتقربان بها إليه، ولهذا يسألانه سبحانه أن يتوب عليهما من تقصيرهما في عبادته وشكره، وهو الحال الذي كان عليه نبينا ﷺ، فقد جاء في الحديث الشريف عن المغيرة رضي الله عنه يقول: إن كان النبي ﷺ يقوم - أو يصلي - حتى ترم قدماه - أو ساقاه - فيقال له، فيقول: «أفلا أكون عبداً شكوراً»^(١).

﴿ إنك أنت التَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴾ [١٢٨] تقبل توبة التائبين وترحمهم.

﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم ﴾ وهو محمد ﷺ بإجماع المفسرين؛ لأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام إنما دعا لذريته وهو بمكة، ولم يبعث من ذريته بمكة غير محمد ﷺ^(٢).

وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قدر الله السابق في تعيين محمد صلوات الله عليه وسلامه رسولاً في الأميين، إليهم وإلى سائر الأعجميين من الإنس والجن، كما روى الإمام أحمد عن العرياض بن سارية قال: قال رسول الله ﷺ: «إني عند الله لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طيته، وسأنبئكم بأول ذلك، دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي، ورؤيا أمي التي رأيت، وكذلك أمهات النبيين يرين» وقال أبو أمامة: قلت: يا رسول الله ما كان أول بدء أمرك؟ قال: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى بي، ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام» والمراد أن أول من نوه بذكره وشهره في الناس إبراهيم عليه السلام، ولم يزل ذكره في الناس مذكوراً مشهوراً سائراً حتى أفصح باسمه خاتم أنبياء بني إسرائيل عيسى ابن مريم عليه السلام، حيث قام في بني إسرائيل خطيباً وقال: ﴿ إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾^(٣).

﴿ يتلو عليهم آياتك ﴾ أي: يقرأ عليهم ويبلغهم ما يوحى إليه من آيات القرآن الكريم.

﴿ ويعلمهم الكتاب ﴾ أي: يعلمهم أحكام القرآن الكريم، ويبين لهم شريعته.

﴿ والحكمة ﴾ أي: ويعلمهم وضع الأشياء في مواضعها الصحيحة، والإصابة في الأقوال والأفعال، أو يعلمهم أحكام السنة المطهرة، المبيّنة والشارحة لما في الكتاب،

(١) صحيح البخاري، كتاب التهجد (١١٣٠).

(٢) تفسير الخازن ٢٠٠/١.

(٣) الصف: الآية ٦. انظر: مختصر تفسير ابن كثير ١٢٩/١.

وسَيَأْتِي أَنْ فِي الْحِكْمَةِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ .
 ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ أي : يطهرهم من دنس الشرك والردائل والنقائص .
 ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ ﴾ أي : الغالب الذي لا مثل له .
 ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ [١٢٩] في جميع أقواله وأفعاله جلّ جلاله .

مِلَّةُ التَّوْحِيدِ وَوَصِيَّةُ الْأَنْبِيَاءِ بِهَا

هكذا ارتفع البيت، وجلجلت في الأرض دعوة التوحيد وملّته، وهي مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام، الذي جعله سبحانه إمام الموحدين، فما بُعث نبي بعده إلّا من ذريته، داعياً إلى ملّته، كما مرّ معنا .

فلا ينبغي لأحد أن يرغب عن هذه المِلَّةِ :

﴿ وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مِنْ سَفَهٍ نَفْسُهُ ﴾ أي : لا أحد يرغب عن مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ ويتركها مُعْرِضاً عنها، إِلَّا مَنْ اسْتَخَفَّ بِنَفْسِهِ وَأَذْلَهَا، فَالِاسْتِفْهَامُ لِلِاسْتِبْعَادِ وَالْإِنْكَارِ، وَفِيهِ تَوْبِيخٌ وَتَقْرِيعٌ لِلَّذِينَ انْحَرَفُوا عَنْ مِلَّةِ التَّوْحِيدِ، كَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمُشْرِكِينَ، كَمَا مَرَّ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ﴾ .

وفي مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام خير الدنيا والآخرة، دلّ على ذلك قوله سبحانه بعد ذلك .

﴿ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ﴾ أي : اخترناه من بين سائر الناس في الدنيا، وأكرمناه بحمل رسالة التوحيد ودعوته وملّته .

﴿ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [١٣٠] مما يدلّ على أنه عليه السلام ظل متمسكاً بالحق، مستقيماً على طريقه، إلى آخر حياته، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . شَاكِرًا لَأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ^(١) ، ولا شك أنه تعالى عليم حكيم، يعلم أين يجعل رسالته، ومَنْ يصطفي لحمل أمانته، وقد بادر إِبْرَاهِيمَ عليه السلام، عندما اختاره تعالى لحمل رسالته، إلى حملها دون تردّد وتباطؤ، معلناً إسلامه الكامل لله تعالى .

(١) النحل : الآيات ١١٩ - ١٢١ .

﴿ إذ قال له ربّه أسلم ﴾ أي: أسلم نفسك لله تعالى، وللقيام بأعباء رسالته التي كلفك بها.

﴿ قال أسلمت لربّ العالمين ﴾ [١٣١] أي: أسلمت نفسي وقلبي وجوارحي كلها لرب العالمين، الذي لا ربّ سواه جلّ وعلا.

هكذا يكون الاستسلام والخضوع لله تعالى ولدينه وشرعه، فأين منه جحود الجاحدين وعناد المعاندين، الذين سبق الحديث عن مواقف عنادهم وجحودهم.

وحرص الأنبياء على ملة التوحيد جعلهم يوصون بها أبناءهم، فهي وصية الأنبياء وميراثهم لأبنائهم، ومن خصائص الأنبياء التي خصّهم الله تعالى بها، أنه جعل رسالتهم ودعوتهم هي ميراثهم، فالأنبياء لا يورثون ديناراً ولا درهماً؛ إذ هم أعظم وأجلّ من ذلك، ولهذا قال النبي ﷺ: «لا نورث، ما تركنا صدقة»^(١).

﴿ ووصى بها ﴾ أي: بملة التوحيد.

﴿ إبراهيم بنه ويعقوب ﴾ أي: ووصى نبيّ الله يعقوب أولاده بمثل ما وصى به إبراهيم، فقال كل منهما: ﴿ يا بني إن الله اصطفى لكم الدين ﴾ أي: اختار لكم دين الإسلام، ووفّقكم للأخذ به.

﴿ فلا تموتنّ إلّا وأنتم مسلمون ﴾ [١٣٢] أي: فاثبتوا عليه وتمسكوا به حتى الموت، فهو كقوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حقّ تقاته ولا تموتنّ إلّا وأنتم مسلمون ﴾^(٢).

ويبدو أن اليهود في زمن النبي ﷺ، كانوا يدّعون أن يعقوب عليه السلام أوصى أولاده قبل موته بالتمسك باليهودية، فردّ تعالى عليهم، وبَيّن وصية يعقوب لأولاده، فقال:

﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت ﴾ أي: أكنتم شهداء عندما دنا أجل يعقوب وحضره الموت؟ والاستفهام للإنكار، أي: إنكم لم تكونوا حاضرين حينئذ، فلا تفتروا على يعقوب.

﴿ إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي ﴾ أي: ما صفة المعبود الذي تعبدونه بعدي، وكأنه عليه السلام أراد أن يطمئن على إسلام أولاده لله تعالى وطاعتهم له وحده.

(١) متفق عليه واللفظ للبخاري، كتاب الفرائض (٦٧٢٧).

(٢) آل عمران: الآية ١٠٢.

﴿ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ﴾ قَدَّمُوا إِسْمَاعِيلَ عَلَى إِسْحَاقَ؛ لَأنَّهُ أَكْبَرُ مِنْهُ، وَجَعَلُوهُ مِنْ جَمَلَةِ آبَائِهِ وَهُوَ عَمُّهُ؛ لِأَنَّ الْعَمَّ بِمَنْزِلَةِ الْأَبِ. ﴿ إِلَهِهَا وَاحِدًا ﴾ أَي: مُعْبُودًا وَاحِدًا لَا يَسْتَحِقُّ غَيْرَهُ الْعِبَادَةَ وَالطَّاعَةَ.

﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [١٣٣] أَي: وَنَحْنُ مُسْتَسْلِمُونَ خَاضِعُونَ لَهُ وَحْدَهُ.

وهذا يدلُّ أن على الوالد أن يثبت من عقيدة أولاده وعبادتهم، وأن يوصيهم بالثبات على عقيدة التوحيد، والتمسك بدين الله وشريعته، وإخلاص العبادة له وحده، فهذه أفضل وصية يوصي بها والد أولاده قبل موته، وخير ميراث يتركه لهم، ورحم الله سيد قطب عندما قال: إن هذا المشهد بين يعقوب وبنيه، في لحظة الموت والاحتضار، لمشهد عظيم الدلالة، قوي الإيحاء، عميق التأثير، ميت يحتضر، فما هي القضية التي تشغل باله في ساعة الاحتضار؟... ما هي التركة التي يريد أن يخلفها لأبنائه، ويحرص على سلامة وصولها إليهم، فيسلمها لهم في محضر يسجل فيه كل التفاصيل؟ إنها العقيدة، هي التركة، وهي الذخر، وهي الشغل الشاغل، الذي لا تشغل عنه سكرات الموت وصرعته^(١).

إِذَا ثَمَّةُ فَرْقٍ كَبِيرٍ بَيْنَ عَامَّةِ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ غَيَّرُوا وَبَدَّلُوا وَجَعَدُوا وَعَانَدُوا، وَبَيْنَ مَا كَانَ عَلَيْهِ آبَاؤُهُمْ مِنَ الْإِسْتِسْلَامِ وَالْإِنْقِيَادِ لِلَّهِ تَعَالَى وَأَحْكَامِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ أَي: مَضَتْ.

﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ أَي: فَلَ كُلٍّ أَجْرُهُ وَجَزَاؤُهُ عَلَى عَمَلِهِ، وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ انْتِسَابُكُمْ إِلَيْهِمْ إِذَا لَمْ تَسِيرُوا عَلَى طَرِيقِهِمْ، فَمَنْ بَطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يَسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ. ﴿ وَلَا تَسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [١٣٤] أَي: لَا تَتَوَخَّذُونَ بِسَيِّئَاتِهِمْ، كَمَا لَا تُثَابُونَ بِحَسَنَاتِهِمْ.

الإسلام ملة جميع الأنبياء

فَمِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ هِيَ مِلَّةُ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا ﴾ أَي: إِذَا مَا دَعَا الْيَهُودَ إِلَى يَهُودِيَّتِهِمْ، وَالنَّصَارَى إِلَى نَصْرَانِيَّتِهِمْ ﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ أَي: قُلْ لَهُمْ: بَلْ نَتَمَسَّكُ بِمِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ، الْمَائِلِ عَنْ كُلِّ دِينٍ بَاطِلٍ إِلَى الدِّينِ الْحَقِّ، وَهُوَ دِينُ التَّوْحِيدِ.

(١) فِي ظِلَالِ الْقُرْآنِ ١١٦/١.

﴿ وما كان من المشركين ﴾ [١٣٥] أي: وما كان إبراهيم عليه السلام أبداً من المشركين، وهذا تعريض باليهود والنصارى وغيرهم، من الذين يدعون اتباع إبراهيم، وهم مشركون.

ثم انتقلت الآيات من تخصيص الخطاب بالنبي عليه الصلاة والسلام، إلى خطاب عامة المؤمنين: ﴿ قولوا آمنا بالله ﴾ أي: أعلنوا إيمانكم بالله الواحد الأحد المنزه عن الشريك والولد.

﴿ وما أنزل إلينا ﴾ في القرآن الكريم.

﴿ وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ﴾ والأسباط جمع سبط، والسبط في بني إسرائيل كالقبيلة في العرب، والمراد عامة أنبياء بني إسرائيل، الذين اختارهم الله من أسباطهم.

﴿ وما أوتي موسى وعيسى ﴾ أي: وآمنا بالتوراة التي أنزلت على موسى، وبالإنجيل الذي أنزل على عيسى.

﴿ وما أوتي النبيون من ربهم ﴾ أي: وآمنا بما أنزله الله تعالى وأوحاه إلى جميع النبيين.

﴿ لا نفرّق بين أحد منهم ﴾ أي: لا نفرّق بين الأنبياء بالإيمان، فنؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعل اليهود.

﴿ ونحن له مسلمون ﴾ [١٣٦] أي: ونحن لله تعالى مستسلمون خاضعون مخلصون.

فالإسلام لا يفرّق بين نبي ونبي؛ لأنه رسالة جميع الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، والتفريق بين الأنبياء في الإيمان كفر، قال تعالى: ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرّقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً، أولئك هم الكافرون حقاً وأعدنا للكافرين عذاباً مهيناً، والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرّقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ (١).

﴿ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به ﴾ أي: فإن آمنوا إيماناً مثل إيمانكم، أساسه التصديق برسالة الإسلام، الذي هو دعوة جميع الأنبياء.

(١) النساء: الآيات ١٥٠-١٥٢.

﴿ فقد اهتدوا ﴾ أي: فقد أصابوا الحق وساروا في طريق الهداية والرشاد.

﴿ وإن تولّوا ﴾ أي: وإن أعرضوا عن الإسلام لله تعالى، وكفروا ببعض الأنبياء.

﴿ فإنما هم في شقاق ﴾ أي: فإنما هم في عداوة ومحاربة، ولا بدّ أن يترتب على عداوتهم للإسلام كيد ومكر نبّيه عليه الصلاة والسلام؛ ولهذا وعده تعالى أن يكفيه شرّهم ومكرهم فقال:

﴿ فسيكفيكم الله ﴾ أي: فسيكفيك الله عداوتهم وكيدهم، ولقد أنجز الله وعده لرسوله، فعصمه منهم وردّ عنه كيدهم ومكرهم.

﴿ وهو السميع العليم ﴾ [١٣٧] يسمع أقوالهم ويعلم أحوالهم.

وملّة الإسلام أيضاً هي صبغة الله تعالى، فالتزموا بها:

﴿ صبغة الله ﴾ أي: اتّبِعُوا دين الله، فالصبغة: الدين، وأصل ذلك أن النصارى يصبغون أولادهم في ماء مخصوص، ويسمّون ذلك المعمودية، ويقولون: هذا تطهير لهم، فردّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿ صبغة الله ﴾، أي: صبغة الله أحسن صبغة، وهي الإسلام، فسَمِيَ الدين صبغة استعارةً ومجازاً، من حيث تظهر أعماله وسِمته على المتدين، كما يظهر أثر الصبغ في الثوب^(١).

﴿ ومَن أحسن من الله صبغة ﴾ أي: لا أحسن من صبغة الله تعالى.

﴿ ونحن له عابدون ﴾ [١٣٨] أي: خاضعون مطيعون.

ثم أمر الله تعالى النبي ﷺ أن يقول لليهود والنصارى، الذين زعموا أن لهم مكانة خاصة عند الله تعالى، كما حكّاها عنهم سبحانه في قوله: ﴿ وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾^(٢).

﴿ قل أتحاجوننا في الله ﴾ أي: أتجادلوننا في الله تعالى، وتدعون أن لكم مكانة خاصة عنده.

﴿ وهو ربّنا وربكم ﴾ أي: ونحن وأنتم بالنسبة إليه تعالى سواء، تجمعنا جميعاً صفة العبودية والافتقار له جلّ جلاله، فهو مالكنّا وخالقنا ومالككم وخالقكم.

(١) تفسير القرطبي ١٤٤/٢.

(٢) المائدة: الآية ١٨.

﴿ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾ أي: ولنا أعمالنا التي سيسألنا الله عنها، ولكم أعمالكم التي سيسألكم الله عنها. فجميعنا مسؤولون أمامه تعالى يوم القيامة، ونمتاز عليكم بالنسبة له جلّ وعلا بأننا مخلصون في عبادته وطاعته.

﴿ونحن له مخلصون﴾ [١٣٩] أي: موحدون لا نعبد سواه، أما أنتم فتشركون في عبادته وتجددون وحدانيته.

﴿أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى قل أنتم أعلم أم الله﴾ أي: ليس الأمر كما تدعون، فهؤلاء الأنبياء ما كانوا هوداً ولا نصارى، بل كانوا مسلمين موحدين، كما مرّ معنا، ورسالة الإسلام هي دعوتهم ووصيتهم التي أوصوا بها أبناءهم، والتي ذكرها سبحانه في الكتب المنزلة عليكم، فأخفيتموها، وكنتم الشهاداة التي ائتمنكم الله عليها: ﴿ومن أظلم ممّن كنتم شهادة عنده من الله﴾ أي: لا أظلم من علماء أهل الكتاب، الذين كنتموا هذه الشهادة، وهم عالمون بها.

﴿وما الله بغافل عمّا تعملون﴾ [١٤٠] وهو وعيد شديد توعدهم الله تعالى به.

وبمناسبة زعمهم أنهم يتمسكون بما كان عليه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأنبياء السابقين، قال سبحانه مرة ثانية لهم:

﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عمّا كانوا يعملون﴾ [١٤١] فلا تحتجّوا بهم، فكل إنسان يسأل عن كسبه وعمله، وانتسابكم إليهم لن ينفعكم ما دامت عقائدكم وأعمالكم مخالفة لعقائدهم وأعمالهم.

وبهذا جرّدت الآيات الكريمة أهل الكتاب من جميع الحجج التي يحتجّون بها، وبيّنت أن صلتهم بالأنبياء السابقين مقطوعة، فلا صلة بهم البتّة، لا في العقيدة ولا في العبادة ولا في الشريعة، لا سبيل إلى الاتصال بهم إلّا بالقرآن الكريم، الكتاب الذي لا ريب فيه، فهو رسالة النبي الخاتم، رسالة الإسلام، دعوة جميع الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام.

الأمة الوسط والقبلة الوسط

وليس البيت الحرام رمز عقيدة التوحيد عند المسلمين فقط، بل هو رمز وحدتهم، فهو قبلتهم في الصلاة، يتوجهون إليه عند كل صلاة من مشارق الأرض ومغاربها، وكان

النبي ﷺ قبل الهجرة في مكة، يستقبل في صلاته البيت الحرام وبيت المقدس، فيقف بين الركنين الأسود واليماني، فتصبح القبلتان بين يديه، ولما هاجر إلى المدينة المنورة تعذر الجمع بينهما، فأمره تعالى أن يتوجه أولاً إلى بيت المقدس، واستمر على ذلك بضعة عشر شهراً، وكان عليه الصلاة والسلام يرغب أن يوجه إلى بيت الله الحرام قبله إبراهيم عليه السلام، فأجيب إلى ذلك، وأمر بالتوجه إلى الكعبة المشرفة، وساء ذلك اليهود ومن يواليهم من المنافقين، واعترضوا على النبي ﷺ، وكانت الآيات قد نزلت قبل ذلك، تخبر النبي ﷺ باعتراضهم وأقوالهم التي سيردونها، وترد عليهم:

﴿سيقول السفهاء من الناس﴾ وهم أhabar اليهود والمنافقون، وفي الآية إخبار عن غيب مستقبل لم يقع بعد؛ ولهذا جاء بصيغة الاستقبال، وقد وصفتهم الآية بالسفه، وهي الخفة والطيش والجهل، كما وصفت المعرضين عن ملة إبراهيم في الآية التي مرت: ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه﴾.

﴿ما ولأهم عن قبلتهم التي كانوا عليها﴾ أي: أي شيء صرفهم عن التوجه في الصلاة إلى بيت المقدس؟

والقبلة: هي الجهة التي يستقبلها الإنسان، وإنما سُميت قبلة لأن المصلي يقابلها وتقبله^(١). وسؤالهم سؤال إنكار واعتراض على التحول إلى استقبال بيت الله الحرام، فأمر عليه الصلاة والسلام بأن يرد عليهم بقوله تعالى:

﴿قل لله المشرق والمغرب﴾ فهو سبحانه المالك لجميع الجهات والأقطار، ولا يستحق شيء منها أن يكون لذاته قبلة، وإنما تصير قبلة بأمره تعالى، فالعبرة في الاستسلام لأمره تعالى وتنفيذ شرعه، وهو سبحانه ﴿يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ [١٤٢] فالهداية والرشاد في اتباع أمره جلّ وعلا، وأمره وشرعه هو الطريق المستقيم الموصل إلى رحمته ورضوانه، وهو أوسط الطرق وأعدلها؛ ولهذا اختاره الله تعالى طريقاً للأمة المسلمة الموحدة، فقال:

﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾ أي: وكما وجهناكم إلى القبلة الوسط، وهي بيت الله الحرام، جعلناكم أمة وسطاً بين الأمم.

والوسط في الأصل: المكان المتوسط الذي تستوي إليه المساحة من الجوانب، ثم استعير للخصال المحمودة، لوقوعها بين طرفي إفراط وتفریط، كالجود بين الإسراف

(١) تفسير الخازن ٢١٢/١.

والبخل، والشجاعة بين التهؤور والجبن^(١). ووسط الوادي خير موضع فيه وأكثره كلاً وماءً، ولما كان الوسط مُجانِباً للغلو والتقصير كان محموداً، أي: هذه الأمة لم تغل غلو النصراري في أنبيائهم، ولا قصرُوا تقصير اليهود في أنبيائهم، فهي أوسط الأمم، أي: أفضل الأمم وأعدلها، ولهذا يقال: فلان من وسط قومه، أي: من خيارهم وأهل الحسب منهم، وفي التنزيل: ﴿قال أوسطهم﴾ أي: أعدلهم^(٢).

والجدير بالذكر هنا أن مكة المكرمة التي جعل الله فيها قبلة المسلمين، أفضل بقاع الأرض وأشرفها وأوسطها، فهي سرّة الأرض ومركزها، وقد ثبت علمياً أنها تقع في وسط الأرض اليابسة على سطح الكرة الأرضية، فقد ذكرت مجلة البحوث الإسلامية في عددها السادس، تحت عنوان: الإسقاط المكي العام «وعندما تمّ توقيع حدود القارّات السبعة على خريطة الإسقاط، وجدنا أن الحدود الخارجية لهذه القارّات يجمعها محيط دائرة واحدة، مركزها عند مدينة مكة المكرمة، أي إن مكة تعتبر مركزاً وسطاً للأرض اليابسة على سطح الكرة الأرضية»^(٣).

والعجيب أن بعض قدماء المفسرين ذكروا هذه الحقيقة عند تفسير هذه الآية، فالقرطبي رحمه الله، وهو من علماء القرن السابع الهجري^(٤)، قال: قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾ المعنى: كما أن الكعبة وسط الأرض، كذلك جعلناكم أمة وسطاً^(٥).

وكذلك البقاعي، وهو من علماء القرن التاسع الهجري، المتوفى سنة ٨٨٥ هـ، قال: ومثل ما جعلنا قبلتكم وسطاً؛ لأنها إلى البيت العتيق، الذي هو وسط الأرض^(٦). ولما جعل الله الأمة المسلمة أمة وسطاً، كلّفها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج، فمن أعظم الميزات التي تمتاز بها الشريعة الإسلامية، ميزة الوسطية والاعتدال في أحكامها، فهي تلبي حاجات الإنسان كلها، سواء كان فرداً أم جماعة، وتوفّق بين متطلبات عقله وجسده وروحه، فلا إفراط فيها ولا تفريط، ولا غلو ولا تقصير.

(١) تفسير البيضاوي ٢١٣/١.

(٢) تفسير القرطبي ١٥٣/٢.

(٣) مجلة البحوث الإسلامية، العدد السادس «الإسقاط المكي العام» د. حسين كمال الدين أحمد.

(٤) توفي سنة ٦٧١.

(٥) تفسير القرطبي ١٥٣/٢.

(٦) نظم الدرر ٢٠٦/٢.

أمة الشهادة والإسلام

والآية تشهد بالخيرية والعدالة بشكل عامّ للأمة المسلمة، وتدلّ على أن إجماع علمائها حجة؛ إذ لو كان فيما اتفقوا عليه باطل لانتثمت به عدالتهم^(١).

ولهذا أكرم تعالى هذه الأمة بمنزلة الشهادة على الناس يوم القيامة، فقال:

﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾ أي: لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم، لأن الجميع يعترفون لكم بالفضل^(٢).

﴿ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ كما جاء في الحديث الشريف، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يُجاء بنوح يوم القيامة، فيقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم يا رب، فتسأل أمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما جاءنا من نذير، فيقول: من شهودك؟ فيقول: محمد وأمته، فيُجاء بكم فتشهدون» ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً﴾ - قال: عدلاً - ﴿لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾^(٣).

والحديث أخرجه أحمد والنسائي وابن ماجه والإسماعيلي، بزيادة: «فيقال: وما علمكم؟ فيقولون: أخبرنا نبيّنا أن الرّسل قد بلغوا، فصدّقناه»^(٤).

وشرط قبول الشهادة العدالة، وقد ثبتت لهم هذه الصفة بقوله: ﴿وسطاً﴾، والوسط: العدل - كما مرّ - ثم بين تعالى الحكمة من استقبال بيت المقدس أولاً، والتحوّل بعدها إلى بيت الله الحرام، فقال: ﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها﴾ وهي بيت المقدس ﴿إلاّ لنعلم من يتبع الرسول ممّن ينقلب على عقبيه﴾ أي: لنعلم الثابت على الإسلام ممّن ينكص على عقبيه ويرتدّ عن الإسلام بسبب ضعف إيمانه.

فالموضوع إذاً موضوع اختبار وامتحان للمؤمنين؛ لإظهار مدى انقيادهم واستسلامهم لأحكام الله وشرعه، وشأن المؤمن المبادرة إلى تنفيذ شرع الله مباشرة دون تأخر وتردد، سواء عرف حكمة التكليف أم خفيت عنه.

(١) تفسير البضاوي ٢١٣/١.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ١٣٦/١.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الاعتصام (٧٣٤٩).

(٤) انظر: فتح الباري ١٧٢/٨.

وقد نجح المسلمون نجاحاً كبيراً في هذا الامتحان، وأظهروا استسلاماً عجيباً لأحكام دين الله تعالى، حتى إنهم بادروا إلى تنفيذ أمره سبحانه وهم في الصلاة، فعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ صلى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يوجه إلى الكعبة، فأنزل الله ﷻ قد نرى تقلب وجهك في السماء ﴿ فتوجه نحو الكعبة، وقال السفهاء من الناس - وهم اليهود - ﴿ ما ولأهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴿ فصلّى مع النبي ﷺ رجل، ثم خرج بعدما صلى، فمرّ على قوم من الأنصار في صلاة العصر، نحو بيت المقدس، فقال: هو يشهد أنه صلى مع رسول الله ﷺ، وأنه توجه نحو الكعبة، فتحرف القوم حتى توجهوا نحو الكعبة^(١).

واختلفت الرواية في الصلاة التي تحوّلت القبلة عندها، وكذا في المسجد، وظاهر حديث البراء هذا أنها الظهر، وذكر ابن سعد في الطبقات، قال: يقال إنه صلى ركعتين من الظهر في مسجده بالمسلمين، ثم أمر أن يتوجه إلى المسجد الحرام، فاستدار إليه ودار معه المسلمون، ويقال زار النبي ﷺ أم بشر بن البراء بن معرور في بني سلمة، فصنعت لهم طعاماً، وحانت الظهر، فصلّى رسول الله ﷺ بأصحابه ركعتين، ثم أمر فاستدار إلى الكعبة، واستقبل الميزاب، فسُمّي مسجد القبلتين^(٢).

وتكررت هذه الواقعة أيضاً في مسجد قباء، فعن عبد الله بن عمر قال: بينا الناس بقباء في صلاة الصبح، إذ جاءهم آتٍ فقال: إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة، فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام، فاستداروا إلى الكعبة^(٣).

ودلّ كل ذلك على مدى استسلام الصحابة رضي الله عنهم، لأحكام دين الله تعالى، ومبادرتهم إلى تنفيذ ما يشرع تعالى لهم.

ووقع بيان كيفية التحوّل في حديث ثويلة بنت أسلم، عند ابن أبي حاتم، قالت فيه: فتحوّل النساء مكان الرجال، والرجال مكان النساء، فصلّينا السجدين الباقيتين إلى البيت الحرام، قال ابن حجر بعد أن ذكر هذا الحديث: وهذا يستدعي عملاً كثيراً في الصلاة، فيحتمل أن يكون ذلك وقع قبل تحريم العمل الكثير، كما كان قبل تحريم

(١) صحيح البخاري، كتاب الصلاة (٣٩٩).

(٢) فتح الباري ٥٠٣/١.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الصلاة (٤٠٣).

الكلام، ويحتمل أن يكون اغتفر العمل المذكور من أجل المصلحة المذكورة، أو لم تتوال الخطي عند التحويل، بل وقعت مفرقة^(١).

فأين هذا الاستسلام والانقياد عند الصحابة رضي الله عنهم، من مواقف العناد والجحود عند بني إسرائيل، التي سبق الحديث عنها؟!

ولا بد أن يكون القارئ قد لمس شدة الاحتباك والاتساق بين آيات السورة، فهذا الاستسلام الكامل لشرع الله تعالى، وهذه المبادرة إلى تنفيذ أمره، لا تتقبلهما النفوس عادة بهذه السهولة واليسر كما تقبلتهما نفوس الصحابة رضي الله عنهم، فالنفوس البشرية تتمسك بما اعتادت عليه وألفته، وقد صلى القوم إلى بيت المقدس، ستة عشر أو سبعة عشر شهراً، وهي مدة كافية لجعلهم يعتادون على هذه الصلاة وبألفونها، ومع ذلك بادروا إلى التحوّل عنها عندما أمروا بذلك، دون أدنى تردد واعتراض، ولم يؤخروا التنفيذ حتى ينتهوا من صلاتهم التي كانوا فيها، بل بادروا إلى تنفيذ ما أمروا به وهم في الصلاة مجتمعون بانتظام، دون حدوث خلل أو اضطراب، واستحقوا بذلك ثناء الله تعالى عليهم بقوله:

﴿وإن كانت لكبيرة﴾ أي: وإن كان التحوّل بهذا الاستسلام الكامل لأمر كبير وثقيل.

﴿إلا على الذين هدى الله﴾ أي: إلا على الذين هداهم الله إلى الحق، فعرفوه وانقادوا له، وحفظ الله تعالى قلوبهم من الاعتراض والفساد، فهو كقوله تعالى المتقدّم: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾، فالذين ملأت هداية الله تعالى قلوبهم لا يثقل عليهم اتباع الرسول ﷺ، واستسلامهم الكامل لأحكام شريعته.

ولا بد أن يثير تغيير القبلة التساؤل عند بعضهم عن حكم من مات قبل التحويل، فأنزل الله تعالى جواباً على هذا التساؤل قوله الكريم:

﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ أي: صلاتكم إلى بيت المقدس، سمّاها تعالى إيماناً؛ لأنها دليل عملي عليه.

﴿إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ [١٤٣] فهو تعالى لا يضيع أجورهم، ولا يشرع إلا ما فيه صلاحهم.

(١) فتح الباري ٥٠٧/١.

استقبال البيت الحرام

ثم بيّنت الآيات كيف كان النبي ﷺ يحب أن يحوله الله تعالى إلى قبلة إبراهيم عليه السلام، وأنه كان كثير النظر إلى جهة السماء، ينتظر نزول الوحي عليه، يأمره بالتحول إلى البيت الحرام، ولم يتحول ﷺ إلى استقبال بيت الله الحرام من عند نفسه، واستمر يصلي مستقبلاً بيت المقدس مستسلماً لأمره تعالى بضعة عشر شهراً، حتى أنزل عليه قوله الكريم:

﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء ﴾ أي: كثيراً ما نرى تردّد وجهك في السماء، متشوقاً لنزول الوحي، وكان ﷺ يتوقع من ربه أن يحوله إلى الكعبة، والظاهر أنه عليه الصلاة والسلام لم يسأل ربه ذلك، بل كان ينتظر فقط، مما يدلّ على كمال أدبه عليه الصلاة والسلام مع ربه جلّ وعلا.

﴿ فلنولينك قبلة ترضاها ﴾ أي: تحبّها وتميل إليها.

﴿ فولّ وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ أي: نحوه إلى جهته، ويدلّ ذكر المسجد الحرام دون الكعبة على أن الواجب مراعاة الجهة؛ ولهذا قال تعالى بعد ذلك: ﴿ وحيثما كنتم فولّوا وجوهكم شطره ﴾ أي: في أيّ مكان كنتم فعليكم أن تتوجهوا إلى جهة المسجد الحرام.

ولا خلاف بين العلماء على أن الكعبة قبلة في كل أفق، وأجمعوا على أن من شاهدها وعانيتها فرض عليه استقبالها... وأجمعوا أن على كلّ من غاب عنها أن يستقبل ناحيتها وشطرها وتلقاها، فإن خفيت عليه فعليه أن يستدلّ على ذلك بكل ما يمكنه، من النجوم والرياح والجبال وغير ذلك^(١).

﴿ وإن الذين أوتوا الكتاب ﴾ من اليهود والنصارى.

﴿ ليعلمون أنه الحق من ربهم ﴾ أي: أن التحول إلى استقبال بيت الله الحرام هو الحق الذي شرعه الله تعالى وأمر به؛ لأنهم يعلمون صدق النبي ﷺ، وأنه لا يستقبل بيت الله الحرام إلّا بأمر من الله تعالى.

﴿ وما الله بغافل عما يعملون ﴾ [١٤٤] وسيجازيهم على جحودهم للحق وإنكارهم له.

(١) تفسير القرطبي ١٦٠/٢.

ومما يدلّ على شدّة جحودهم وعنادهم :

﴿ ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ﴾ أي : بكل معجزة تدل على أن التوجّه إلى بيت الله الحرام هو الحق الذي يجب اتّباعه .

﴿ ما تبعوا قبلك ﴾ بسبب مكابرتهم وعنادهم .

﴿ وما أنت بتابع قبلكهم ﴾ لأنك نبي مرسل ، تتبع وحي الله تعالى ولا تتبع أهواءهم .

﴿ وما بعضهم بتابع قبله بعض ﴾ فاليهود يستقبلون بيت المقدس ، والنصارى يستقبلون المشرق ، ويتمسك كل فريق بقبلته ، فالزم قبلك التي وجّهك الله تعالى إليها ، ولا تتبع أهواءهم ، فالعبادة لله تعالى ، وبيان كيفيتها وتشريع أحكامها منه أيضاً جلّ وعلا .

﴿ ولئن اتّبع أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم ﴾ بأن القبلة هي الكعبة المشرفة .

﴿ إنك إذا لمن الظالمين ﴾ [١٤٥] والخطاب وإن كان للنبي ﷺ ، إنما المراد منه تثبيت المؤمنين في وجه الشغب الكبير الذي أثاره اليهود في المدينة ، عندما أمر الله تعالى بالتحول إلى استقبال البيت الحرام في الصلاة .

وموقف اليهود من شأن تحويل القبلة ، هو في الحقيقة فرع عن موقف أكثر عناداً وأعظم جحوداً ، وهو إنكارهم لنبوته عليه الصلاة والسلام ، وجحدهم لرسالته ، مع أنهم يعرفون صدقه أكمل المعرفة وأتمّها :

﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه ﴾ أي : الرسول ﷺ .

﴿ كما يعرفون أبناءهم ﴾ أي : كمعرفة الوالد لولده ، فهي معرفة تامة كاملة ، فأبى والد يتعرّف على ولده ويميزه من غيره من الأولاد المحيطين به مهما كان عددهم ، وكذلك علماء أهل الكتاب يعرفون النبي ﷺ ؛ بسبب كثرة نعوته وأوصافه وأسمائه الموجودة عندهم في التوراة والإنجيل ، ومع هذه المعرفة التامة :

﴿ وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾ [١٤٦] أي : يكتمون الحق حسداً وعناداً ، وهم يعلمون أن كتمان الحق جريمة كبيرة ، سيسألهم الله تعالى عنها ويجازيهم عليها .

ويلاحظ أنه تعالى في صدر الآية عمّم المعرفة ، وفي ذيلها خصّص الوعيد

بعضهم، مما يدلّ على دقّة وموضوعية الأخبار القرآنية؛ إذ أسلم بعض أحبار اليهود عندما رأوا النبي ﷺ، كعبد الله بن سلام وزيد بن سعة وغيرهما.

﴿الحق من ربك﴾ لا من غيره سبحانه، فما أمر به هو الحق الثابت.

﴿فلا تكوننّ من الممترين﴾ [١٤٧] أي: الشاكين.

وليس المراد نهى الرسول ﷺ عن ذلك، فالشك غير متوقع منه عليه الصلاة والسلام، بل المراد تأكيد وتحقيق أمر التوجّه إلى البيت الحرام، وأنه وحي من الله تعالى لا شك فيه، ويفيد هذا التأكيد أيضاً تثبيت المؤمنين في وجه حملات التضليل والتشكيك التي أثارها يهود المدينة حينئذ، كما أن توجيه الخطاب للنبي ﷺ بهذا الحزم، أفاد أنه عليه الصلاة والسلام لا يشرع شيئاً من عند نفسه، كما أشاع اليهود عنه عندما حوّل الله إلى البيت الحرام، وأنه ما تحوّل من نفسه، وإنما تحوّل بأمر الله تعالى ووحيه.

التنافس المحمود

﴿ولكلّ وجهة﴾ أي: لكل أهل ملة أو جماعة من المسلمين واليهود والنصارى، أو لكل قوم من المسلمين وجهة وجانب من الكعبة^(١).

﴿هو مولئها﴾ أي: مستقبلها.

ويتفق المعنى الثاني للآية مع الخطاب الموجّه فيها للمسلمين، الذي يحضّهم على التنافس في فعل الخيرات:

﴿فاستبقوا الخيرات﴾ أي: تسابقوا في فعل الطاعات والعبادات، التي تقتربون بها إلى الله تعالى، ولا تشغلوا أنفسكم بمعارضة المخالفين وشغبهم عليكم، فلا ينبغي أن يعوقوكم عن الاستكثار من الطاعات والقربات.

وتدلّ الآية على أن التنافس في فعل الطاعات أمر محمود ومطلوب شرعاً، قال تعالى: ﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾^(٢).

أما التنافس المذموم فهو التنافس على شهوات الدنيا، وما فيها من أنواع الزينة والمتاع.

(١) روح المعاني ١٤/٢.

(٢) المطففين: الآية ٢٦.

وطاعته تعالى وعبادته ليست مقيدة بأرض معينة، ولا جهة معينة، فيمكنك أن تطيع الله تعالى وتعبده في أي مكان:

﴿ أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً ﴾ يوم القيامة للحساب والجزاء والثواب.
﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ [١٤٨].

وعادت الآيات بعد أن دفعت شبهات المعترضين على تحويل القبلة، إلى تأكيد حكم التحويل وتعميمه، فوجهت أولاً الخطاب إلى النبي ﷺ:
﴿ ومن حيث خرجت ﴾ أي: من أي موضع خرجت إليه وكنت فيه، وأردت الصلاة:

﴿ فولّ وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ أي: اجعل وجهك إلى جهة المسجد الحرام.
﴿ وإنه للحق من ربك ﴾ أي: وإن هذا الحكم حق ثابت أمرك به ربك، فهو تكليف إلهي كلف به النبي ﷺ، وكلف به أيضاً جميع المسلمين؛ ولهذا اتجهت الآية بالخطاب إلى المسلمين، فذكرتهم في أوله برقابة الله تعالى الدائمة عليهم:
﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ [١٤٩].

ثم وجهت إليهم خطاب التكليف، مقروناً بتكليف النبي ﷺ مرة ثانية:
﴿ ومن حيث خرجت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولّوا وجوهكم شطره ﴾ فهذا الاستقبال لبيت الله الحرام تنقطع حجج المخالفين لكم:
﴿ لئلا يكون للناس عليكم حجة ﴾ فأهل الكتاب الذين اعترضوا عليكم في أول الأمر، يعلمون من صفاتكم في كتبهم أن قبلتكم بيت الله الحرام، وانقطعت أيضاً حجة مُشركي العرب، الذين كانوا يقولون: كيف يدّعي محمد أنه على ملة إبراهيم ويصلي إلى غير قبلته؟

وتكرار التكليف باستقبال بيت الله الحرام جاء مقترناً بما قبله أو بعده من السياق، فالأول جاء تحقيقاً لرغبته عليه الصلاة والسلام في التوجه إلى بيت الله الحرام، ومُظهراً مكانته عليه الصلاة والسلام عند الله تعالى.

والأمر الثاني زاد معنى آخر، وهو أن التحول وإن كان موافقاً لرغبة النبي ﷺ، إلا أنه تكليف ربّاني أمر الله تعالى به.

والأمر الثالث أظهر انقطاع حجج المخالفين من اليهود والمشرّكين.

تمام النعمة

ثم ربطت الآيات بشكل رائع مُعْجَز بين موضوع تحويل القبلة، وبين موضوع الصراع الكبير المستمر، القائم بين المسلمين وأعداء الإسلام، الذي اتخذ بعد الهجرة شكل الصراع المسلّح والمواجهة في ميادين القتال، إذ نزلت بعد الهجرة آيات الجهاد، تأمر به وتحض عليه، فالخلاف حول موضوع تحويل القبلة ليس سوى فرع من الخلاف الكبير الدائر بين الحق والباطل؛ ولهذا قال تعالى مباشرة في سياق ما ذكر حول موضوع تحويل القبلة:

﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ أي: لكن رغم انقطاع حجج المخالفين المعاندين في موضوع استقبال البيت الحرام، فإنهم لن يتوقفوا عن معارضتكم ومعاندتكم، وسيزداد الصراع بينكم وبينهم شدة، ويتحوّل من ميادين المجادلة والمناظرة باللسان، إلى ميادين المصاولة والمحاربة باللسان؛ ولهذا اتجهت الآيات إلى تثبيت المؤمنين:

﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ أي: لا تخافوهم وخافوني، ويستدعي الخوف من الله تعالى الاستسلام لأمره، والانقياد لدينه وشرعه، مما يؤدي إلى الفوز برضوانه وجنته يوم القيامة، وإلى تثبيت الله تعالى وتوفيقه على طريق الهداية في الدنيا؛ ولهذا قال سبحانه:

﴿وَلَأَتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ يوم القيامة بدخول الجنة والفوز بالرضوان.
﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [١٥٠] إلى طريق الهداية والرشاد في الدنيا، بتوفيق الله ورعايته.

وأتى سبحانه بكلمة: ﴿لَعَلَّ﴾ التي تدلّ على التّرجي؛ لأن هدايته في الدنيا منوطة بتقواه، كما قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾^(١)، وقال أيضاً - كما سيأتي -: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ والآيات في هذا المعنى كثيرة، ولا تتحقق التقوى إلا بالتزام أحكام شريعة الله تعالى، وهو ما صرّحت به أول الآيات في السورة: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

وقدّمت الآية تمام النعمة في الآخرة على الهداية في الدنيا؛ لأنها جاءت في

(١) الأنفال: الآية ٢٩.

معرض تثبيت المؤمنين في مواجهة أعدائهم، وتشويقهم إلى الفوز برضوان الله وجنته. وكما أن تمام النعمة في الآخرة بدخول الجنة والفوز بالرضوان، فإنه تعالى جعل تمامها في الدنيا ببعثة الرسول ﷺ برسالة الإسلام؛ ولهذا أنزل تعالى عندما اكتملت أحكام الشريعة في يوم عرفة، من السنة العاشرة للهجرة، على النبي ﷺ وهو في صعيد عرفات: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ (١).

وهذا المعنى ذكره سبحانه هنا في قوله الكريم:

﴿كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم﴾ أي: كما قدر تعالى تمام نعمته عليكم يوم القيامة بدخول الجنة والفوز برضوانه، أتمها عليكم في الدنيا ببعثة رسول الله ﷺ فيكم. ﴿يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة﴾ كما جاء في دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام - التي مرت معنا - وهما يرفعان قواعد بيت الله الحرام: ﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾.

وزادت الآيات هنا في صفات هذا النبي الكريم:

﴿ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ [١٥١] أي: يعلمكم علوماً ما كنتم تعلمونها من قبل، فقد نقلهم الإسلام من ظلمات الجهل إلى نور العلم والمدنية والحضارة، عرفوا من خلالها شتى أنواع العلوم والفنون، فبعثة النبي ﷺ من أعظم النعم عليهم، جاءتهم بخير الدنيا وخير الآخرة، كما قال تعالى: ﴿لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ (٢).

ورحم الله ابن كثير عندما قال: كانوا في الجاهلية الجهلاء يسفهون بالقول القراء، فانتقلوا ببركة رسالته، ويؤمن سفارته، إلى حال الأولياء، وسجاياء العلماء، فصاروا أعمق الناس علماً، وأبرهم قلوباً، وأقلهم تكلفاً، وأصدقهم لهجة (٣).

(١) المائدة: الآية ٣.

(٢) آل عمران: الآية ١٦٤.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ١٤١/٢.

الذكر والشكر

كَلَّفَ اللهُ تَعَالَى الْمُسْلِمِينَ فِي مَقَابِلِ هَذِهِ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ الْجَلِيلَةِ، بِأَمْرَيْنِ أَسَاسِيَيْنِ، هُمَا الذِّكْرُ وَالشُّكْرُ، فَقَالَ:

﴿ فَاذْكُرُونِي ﴾ بِأَسْمَائِي الْحَسَنَى الَّتِي عَلَّمْتُكُمْ إِيَّاهَا فِي كِتَابِي وَسُنَّةِ نَبِيِّ - ﷺ -، فَلَا يَجُوزُ ذِكْرُهُ تَعَالَى بِغَيْرِ أَسْمَائِهِ الْحَسَنَى التَّوْقِيفِيَّةِ ^(١)، ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذُرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ^(٢).

وَيَسْتَدْعِي ذِكْرَهُ تَعَالَى طَاعَتُهُ وَالِاسْتِسْلَامَ لِأَحْكَامِ شَرِيعَتِهِ، وَالْحَذَرَ مِنْ مَعْصِيَتِهِ، فَمَنْ شَأْنُ الذَّاكِرِ أَنْ يَخْشَى اللَّهَ تَعَالَى، وَيَهْتَرَّ قَلْبُهُ خَوْفًا مِنْهُ جَلَّ جَلَالُهُ، مِمَّا يَدْفَعُهُ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْإِقْلَاعِ عَنِ الْمَعَاصِي وَالْآثَامِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ^(٣).

وَقَالَ أَيْضًا: ﴿ وَإِنَّمَا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ ^(٤).

وَمَا أَمَرْنَا سُبْحَانَهُ بِالْإِكْثَارِ مِنْ شَيْءٍ كَمَا أَمَرْنَا بِالْإِكْثَارِ مِنْ ذِكْرِهِ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا. وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ ^(٥)؛ لِأَنَّ فِي ذِكْرِهِ تَعَالَى عَصْمَةً لَنَا مِنَ الْمَعَاصِي وَالْآثَامِ وَتَسَلُّطَ الشَّيْطَانِ، كَمَا أَنَّهُ يُؤَدِّي إِلَى اسْتِئْزَالِ مَعُونَتِهِ تَعَالَى وَفِيوضَاتِ فَضْلِهِ عَلَى الذَّاكِرِينَ، فَتَمْتَلِئُ قُلُوبُهُمْ خَشُوعًا وَسَكِينَةً، وَيَزُولُ عَنْهَا مَا يَعْتَرِيهَا مِنْ حَيْرَةٍ وَاضْطِرَابٍ، نَتِيجَةُ الْانْغِمَاسِ فِي حِمَاةِ الْمَعَاصِي وَالْآثَامِ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ ^(٦).

وَلَقَدْ شَرَعَ اللَّهُ تَعَالَى الصَّلَاةَ وَكَلَّفَنَا بِهَا كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، لِنَذْكُرَهُ فِيهَا وَنُسَبِّحَهُ وَنَمَجِّدَهُ عَزَّ وَجَلَّ، ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ ^(٧).

﴿ أَذْكُرْكُمْ ﴾ وَإِذَا ذَكَرْتُمْ أَكْرَمْتُكُمْ بِرَحْمَتِي وَمَعُونَتِي وَإِحْسَانِي ﴿ هَلْ جَزَاءُ

(١) أَيِ الَّتِي وَقَفْنَا الْوَحْيَ عَلَيْهَا.

(٢) الْأَعْرَافُ: الْآيَةُ ١٨٠.

(٣) الْأَنْفَالُ: الْآيَةُ ٢.

(٤) الْأَعْرَافُ: الْآيَتَانِ ٢٠٠ - ٢٠١.

(٥) الْأَحْزَابُ: الْآيَتَانِ ٤١ - ٤٢.

(٦) الرِّعْدُ: الْآيَةُ ٢٨.

(٧) طه: الْآيَةُ ١٤.

الإحسان إلّا الإحسان ﴿١﴾ وفي الحديث الشريف القدسي، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي، وأنا معه حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه، وإن اقترب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإن اقترب إلي ذراعاً اقتربت إليه باعاً، وإن اتاني يمشي أتيته هرولاً» ﴿٢﴾.

﴿واشكروا لي﴾ ما أنعمت به عليكم، بعبادتي واتباع رسولي، والاستسلام لأحكام شريعتي.

ومن المعلوم أن الشكر لا يكون إلا بالاعتراف بفضل المُنعم، وبالثناء عليه، واستعمال النعمة في التقرب إليه.

﴿ولا تكفروا﴾ [١٥٢] بجحد النعمة وإنكار فضل المُنعم، كما فعل المعاندون الجاحدون من أهل الكتاب، الذين ذكّروهم تعالى بفضله عليهم في أول نداء وجهته الآيات إليهم، كما مرّ ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون﴾.

ثم بيّنت الآيات أهم الوسائل التي يستعين بها المؤمن على ذكره تعالى وشكره، أي على طاعته وعبادته وتنفيذ أحكام شريعته:

﴿يا أيّها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة﴾ أي: استعينوا على القيام بالتكاليف الشرعية، التي كلفكم الله تعالى بها بالصبر والصلاة، ففي الصبر تحبسون أنفسكم على تحمّل مشقة التكليف، وتهذبون أنفسكم بحبسها عن الشهوات.

وبالصلاة تستمدّون القوة الروحية المعنوية، التي تشدّ عزائمكم وترفع هممكم، في مواجهة الصعاب وتحمل الأعباء، وتذكرون بها أيضاً ربكم خاشعين ضارعين، فيذكركم سبحانه كما ذكرتموه، فقد يضعف الإنسان حين يطول به الأمد، ويتضاعف الجهد إذا لم يكن هناك زاد ومدد، ومن ثمّ يقرن الصلاة إلى الصبر، فهي المعين الذي لا ينضب، والزاد الذي لا ينفد، المعين الذي يجدد الطاقة، والزاد الذي يزود القلب؛ فيمتدّ جبل الصبر ولا ينقطع ﴿٣﴾.

(١) الرحمن: الآية ٦٠.

(٢) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء (٢٦٧٥).

(٣) في ظلال القرآن ١/١٤١.

وقد مرّ أنه تعالى وجّه مثل هذا الخطاب إلى بني إسرائيل، عندما ذكّرهم بنعيمه عليهم، فقال: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾، إلّا أنه تعالى ختم الآية هناك بقوله: ﴿وإنها لكبيرة إلّا على الخاشعين﴾، بينما ختم الآية هنا بقوله:

﴿إن الله مع الصابرين﴾ [١٥٣] يؤيّدهم ويثبتهم وينصرهم، مما يدلّ على فضل هذه الأمة ومكانتها عنده تعالى، وفضل الصابرين على وجه الخصوص، ومن صبر على التكليف في أول الأمر يسّرّها الله تعالى عليه بعد ذلك، إذا قرن معها الذكر والشكر، ولهذا قالوا: بداية الدين صبر، وخاتمته يُسرّ، فإن من كان الله سبحانه وتعالى معه رفع عنه مرارة الصبر بوضع حلاوة الصحبة، التي تشعر بها كلمة (مع)^(١).

الاستسلام لحكم الله القدري

وحياة الإنسان في الدنيا حياة اختبار وابتلاء وتكليف، أساسه الصراع بين الحق والباطل، بين أتباع الأنبياء المستسلمين لله تعالى وأحكام شريعته من جهة، وبين أتباع الشيطان المخدوعين بوساوسه ونزغاته، كما مرّ فيما قصّه الله علينا من كيفية خلق آدم وتكريمه وعداوة الشيطان له، من جهة ثانية، فلا بدّ من تعبئة المؤمنين بتعبئة روحية عالية، لكي يتمكنوا من النهوض بأعباء الرسالة والتكليف، ويثبتوا في ميادين الصراع والجهاد، ولا بدّ أن أذكر القارئ هنا بأن هذه الآيات نزلت بعد الهجرة، عندما انتقلت الدعوة الإسلامية إلى مرحلة الجهاد والصراع المسلح مع قوى الكفر والشرك، فلا بدّ إذن أن تحثهم الآيات على الصبر، الصبر على الشدائد والمحن، والصبر على البلايا والمصائب، الذي يدلّ على الإسلام لله تعالى، والرضا بأحكامه القدريّة التكوينية، فكما أن طاعته تعالى وعبادته استسلام لأمره التشريعي، فالصبر عند الشدائد والمحن استسلام لحكمه القدري، فللآيات ارتباط وثيق بموضوع السورة عموماً، وارتباط بسباقها وسياقها على وجه الخصوص.

﴿ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات﴾ أي: هم أموات.
﴿بل أحياء﴾ حياة برزخية خاصّة، أكرمهم تعالى بها، بسبب بذلهم أنفسهم في سبيله.

﴿ولكن لا تشعرون﴾ [١٥٤] لأن حياتهم البرزخية لا تشبه حياتكم الدنيوية، فهي غيب عنكم، لا سبيل إلى العلم بها إلّا بالخبر الصادق؛ إذ هي من الغيب الذي

(١) نظم الدرر ٢/ ٢٤٨.

يجب علينا أن نؤمن به؛ لأن الله تعالى أخبرنا عنها، قال تعالى: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون. فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون. يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين﴾ (١).

والأحاديث النبوية الصحيحة التي دلت على حياة الشهداء كثيرة، منها ما رواه مسروق قال: سألنا عبد الله بن مسعود عن هذه الآية - التي تقدمت - قال: أما إننا قد سألنا عن ذلك، فقال: «أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم أطلاعة، فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: يا رب نريد أن تردّ أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا» (٢)، ومر معنا في أول السورة أن الإيمان بالغيب من الصفات الأساسية الكبرى للمؤمن.

ولا يقتصر الصبر على حبس النفس والثبات على مشقات القتال في الجهاد فقط، بل يتعدى إلى سائر شؤون الحياة، وهذا ما أخبر سبحانه عنه المؤمنين في الآية التالية؛ لكي يوطنوا أنفسهم على الاستسلام الكامل لحكمه القدري في مختلف شؤون الحياة: ﴿ولنبلوكنكم﴾ أي: ولنختبرنكم.

﴿بشيء من الخوف﴾ أي: بقليل من مكروه تعرضون له، كتسلط العدو عليكم، أو تسلط الظلمة والطغاة.

﴿والجوع﴾ أي: وبشيء قليل من الجوع، لقعط أو جوائح تفسد مواسمكم وأطعمتكم.

﴿ونقص من الأموال﴾ بالهلاك أو الخسارة.

﴿والأنفس﴾ أي: ونقص من الأنفس بموت بعض الأحباب والأقارب والأصحاب.

﴿والثمرات﴾ أي: ونقص من الثمرات والمحاصيل الزراعية، بالجوائح والآفات التي يسلطها الله تعالى عليها. وكل ذلك من أنواع الابتلاءات التي يمكن أن يتعرض لها

(١) آل عمران: الآيات ١٦٩ - ١٧١.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإمامة (١٨٨٧).

الإنسان المؤمن في حياته؛ ليُظهر تعالى مدى استسلامه لما قُدِّرَ عليه، ورضاه عن ربّه تعالى في جميع أحواله.

﴿وبشّر الصابرين﴾ [١٥٥] على هذه المصائب والبلايا، الراضين بما قُدِّرَ تعالى عليهم.

﴿الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله﴾ أي: إنا عبيد لله تعالى ومُلكٌ له جلّ جلاله، يفعل بنا ما يشاء ويريد.

﴿وإنا إليه راجعون﴾ [١٥٦] أي: وإنا أيضاً راجعون إلى حكمه ومشيتّه، فهو إقرار وإعلان بعبوديتهم الكاملة لله تعالى، واستسلام وتفويض كاملين لأمره ومشيتّه سبحانه.

﴿أولئك﴾ أي: المتّصفون بصفة الصبر والتسليم لله تعالى.

وأشار إليهم بأداة البعد ليدل على علو مقامهم.

﴿عليهم صلوات من ربّهم﴾ أي: عليهم تزكية لنفوسهم ومغفرة لذنوبهم.

والصلاة في الأصل الدعاء، ومن الله تعالى التزكية والمغفرة، وجمعها للتنبيه على كثرتها وتنوعها^(١). وقد يكون المراد من الصلوات أن يتولاهم سبحانه بالطفاف وهم في محنتهم، فيفرّج عنهم كربتهم، ويخرجهم من محنتهم، ويُستأنس لهذا المعنى بقوله تعالى: ﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليُخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً﴾^(٢).

وأتى بـ﴿على﴾ إشارة إلى أنهم منغمسون في ذلك، فصلوات الله تعالى تغمرهم وتحيط بهم.

﴿ورحمة﴾ أي: وعليهم أيضاً من الله تعالى رحمة، يتفضل بها عليهم بإنعامه وإحسانه.

﴿وأولئك هم المهتدون﴾ [١٥٧] إلى طريق الحق والصواب، فعندما صبر القوم وفوّضوا أمرهم إلى الله تعالى، ورضوا بما قُدِّرَ عليهم، هداهم سبحانه إلى الحق وثبّتهم عليه؛ ولهذا جاء في الحديث الشريف أن الصبر ضياء، لأن الله تعالى ينير للصابرين

(١) تفسير البضاوي ٢٢٨/١.

(٢) الأحزاب: الآية ٤٣.

الطريق، ويهديهم إلى معالم الحق، فلا يضلّون ولا يتيهون، فعن أبي مالك الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملأ ما بين السموات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبائع نفسه، فمعتقها أو موبقها»^(١) أي: مهلكها.

السعي بين الصفا والمروة

السعي بين الصفا والمروة من الأعمال المشروعة في الحجّ والعمرة، شرعه الله تعالى، وفعله النبي ﷺ عندما حجّ واعتمر، وهو عمل تعبدي يدلّ على استسلام العبد لله تعالى، ولعلّ هذا سبب إيراد الآيات له بعد آيات الصبر؛ إذ الصبر يدلّ على الاستسلام والرضا القلبي الوجداني لله تعالى، بينما السعي بين الصفا والمروة يدلّ على استسلام الساعي في ظاهره وجوارحه لله تعالى.

ولعلّ اختيار السعي بين الصفا والمروة من أعمال الحجّ والعمرة على وجه الخصوص، للدلالة على هذا المعنى، لكون بعض المسلمين في زمن التنزيل والتشريع، كانوا يرونه عملاً من أعمال الجاهلية، لا يجوز فعله في الإسلام، ولما أنزل الله تعالى هذه الآية، الدالة على أن السعي عبادة إسلامية وشعيرة من شعائر الحج والعمرة، انقادوا لحكم الله وشرعه، واستسلموا لأمره سبحانه، فسعوا بين الصفا والمروة. فسبب نزول الآية يكشف عن سرّ ارتباطها بما سبقها من آيات السورة.

ففي الحديث الصحيح عن عاصم بن سليمان قال: سألت أنس بن مالك رضي الله عنه عن الصفا والمروة فقال: كنّا نرى أنهما من أمر الجاهلية، فلما كان الإسلام أمسكنا عنهما، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الصفا والمروة من شعائر الله﴾ - إلى قوله - ﴿أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا﴾^(٢).

وفي رواية ثانية بلفظ: قلت لأنس بن مالك رضي الله عنه: أكنتم تكرهون السعي بين الصفا والمروة؟ قال: نعم؛ لأنها كانت من شعائر الجاهلية، حتى أنزل الله ﴿إِنَّ الصفا والمروة من شعائر الله﴾^(٣). ومرّ معنا في حديث بناء البيت ورفع قواعده، أن السيدة هاجر أم إسماعيل أول من سعى بين الصفا والمروة، فأراد الله تعالى أن يخلّد

(١) صحيح مسلم، كتاب الطهارة (٢٢٣).

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير (٤٤٩٦).

(٣) صحيح البخاري، كتاب الحج (١٦٤٨).

خطأ هذه المرأة، فشرع السعي بين الصفا والمروة للحجاج والمعتمرين، كما سعت، وجعله منسكاً من مناسك الحج التي بينها لإبراهيم وإسماعيل، عندما سألا الله تعالى ذلك قائلين: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

ولما دخلت الوثنية على العرب، وانحرفوا عن ملة التوحيد التي كانوا عليها، وجلبوا الأصنام ووضعوا بعضها حول الكعبة المشرفة، وضعوا أيضاً صنمين على الصفا والمروة، وكانوا عندما يسعون يتمسحون بهما، وقد أورد ابن حجر رحمه الله بعض الأحاديث المؤيدة لهذا فقال: وروى النسائي بإسناد قوي عن زيد بن حارثة قال: كان على الصفا والمروة صنمان من نحاس، يقال لهما أساف ونائلة، كان المشركون إذا طافوا تمسحوا بهما. وروى الطبراني وابن أبي حاتم في التفسير بإسناد حسن من حديث ابن عباس قال: قالت الأنصار: إن السعي بين الصفا والمروة من أمر الجاهلية، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾... وذكر الواحدي في أسبابه عن ابن عباس نحو هذا، وزاد فيه: يزعم أهل الكتاب أنهما زنيا في الكعبة فمسحا حجرتين، فوضعا على الصفا والمروة ليُعتبر بهما، فلما طالت المدة عبداً^(١).

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ أي: من أعلام دينه، فالشعائر جمع شعيرة، وهي العلامة، وأصلها من الإشعار، وهو الإعلام، وكل ما كان معلماً لعبادة مشروعة كالصلاة والدعاء والذبح تقرباً إلى الله، فهو شعيرة من شعائر الله.

ومشاعر الحج معالمه الظاهرة، ويقال: شعائر الحج، كالمطاف، والموقف في عرفة ومزدلفة، والمنحر ومواضع رمي الجمرات في منى، والصفا والمروة بجانب الكعبة المشرفة، ومطلوب في الإسلام تعظيمها واحترامها؛ لأنها أماكن عبادات كلّفنا الله تعالى بها، قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً﴾^(٢)، وقال أيضاً: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾^(٣).

﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ﴾ أي: فَمَنْ قصد بيت الله الحرام حاجاً أو معتمراً.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا﴾ أي: فلا إثم عليه أن يسعى بينهما؛ إذ كان بعضهم يرى الطواف بينهما إثمًا، كما تقدم.

(١) فتح الباري ٣/٥٠٠.

(٢) المائدة: الآية ٢.

(٣) الحج: الآية ٣١.

وقد شرعه النبي ﷺ في الحج والعمرة، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قَدِمَ النبي ﷺ مَكَّةَ، فطاف بالبيت، ثم صَلَّى ركعتين، ثم سعى بين الصفا والمروة، ثم تلا: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾^(١).

وفي حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه، الذي وصف به حجة النبي ﷺ قال: ثم خرج من الباب إلى الصفا، فلما دنا من الصفا قرأ ﴿إِنَّ الصفا والمروة من شعائر الله﴾ أبدأ بما بدأ الله به، فبدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت، فاستقبل القبلة فوحد الله وكبره وقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده» ثم دعا بين ذلك، قال مثل هذا ثلاث مرات، ثم نزل إلى المروة، حتى إذا انصبَّت قدماه في بطن الوادي سعى، حتى إذا صعدتا مشى حتى أتى المروة، ففعل على المروة كما فعل على الصفا^(٢).

ولهذا ذهب جمهور العلماء إلى القول بوجوب السعي بين الصفا والمروة في الحج والعمرة.

﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ أي: فعل عبادة من العبادات زيادة على ما فرض الله تعالى عليه.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [١٥٨] أي: فإنه تعالى يثيبه على طاعته وعبادته مهما كانت؛ إذ هو سبحانه عليم بها، لا يعزب عن علمه شيء جلّ وعلا.

كتمان العلم

ومن واجب العلماء أن يبينوا للناس أحكام دينهم؛ لكي يلتزموا بها، فإن فروع الأحكام الشرعية لا تُعرَف إلا بالتعلُّم والتعليم؛ ولهذا اتجه سياق الآيات يتوعّد العلماء الذين يكتُمون علمهم عن الناس، قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ﴾ أي: في جميع الكتب التي أنزلها الله تعالى، وجميع ما أنزل الله من شرائع وأحكام، وعلى هذا يكون المراد من قوله ﴿الناس﴾ العلماء كافة، فالآية تنسحب على علماء المسلمين، الذين لا يعلمون الناس أحكام دينهم وشريعتهم، وتنسحب أيضاً على

(١) صحيح البخاري، كتاب الحج (١٦٤٧).

(٢) انظر الحديث كاملاً في صحيح مسلم، كتاب الحج (١٢١٨).

علماء أهل الكتاب، الذين كتموا ما عندهم من صفات النبي ﷺ.

﴿ أولئك يلعنهم الله ﴾ أي: يبعدهم عن رحمته.

وأصل اللعن في اللغة: الطرد والإبعاد.

﴿ ويلعنهم اللاعنون ﴾ [١٥٩] من الناس والملائكة، كما سيأتي.

وفي الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ سُئِلَ عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار»^(١).

ثم استثنى تعالى التائبين عن كتمان العلم، فقال:

﴿ إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا ﴾ أي: رجعوا عما كانوا فيه، وأصلحوا

أعمالهم، وبينوا للناس ما كانوا يكتُمونه عنهم من العلم.

﴿ فأولئك أتوب عليهم وأنا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [١٦٠].

وفي هذا دليل على أن الداعية إلى كفر أو بدعة، إذا تاب إلى الله تعالى تاب الله

عليه^(٢)، ومن توبته أن يعلن تراجعَهُ عن كفره وبدعته، حتى يعلم الناس الذين تأثروا بكفره وضلاله، توبته عما كان عليه.

وبعد أن بينَ تعالى حكم التائبين، توعد المُصْرِّين على كتمان العلم وبينَ

مصيرهم، فقال: ﴿ إن الذين كفروا ﴾ بكتمان حقائق من الدين يؤدي كتمانها إلى

الكفر، كما فعل أحبار اليهود الذين كتموا ما يعرفون من صفات النبي ﷺ ونعوته، التي ذكرها سبحانه في التوراة.

﴿ وماتوا وهم كفَّار ﴾ أي: وماتوا وهم مُصْرِّون على الكفر.

﴿ أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ﴾ [١٦١] لأنهم بكتمانهم لهذه

الحقائق سعوا في إضلال الناس ونشر الكفر بينهم، كما سعوا في إشاعة الفساد في الأرض، لذلك يتعرَّضون للعنة الناس في الأرض.

﴿ خالدين فيها ﴾ أي: مُقيمين في اللعنة، تلازمهم آثارها، ومن آثارها:

﴿ لا يخفَّف عنهم العذاب ولا هم ينظرون ﴾ [١٦٢] أي: لا ينظر إليهم نظر

رحمة، أو لا يمهلون ولا يؤجلون.

(١) رواه أبو داود وابن ماجه والترمذي وحسنه.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ١/١٤٦.

الفَصْلُ الْخَامِسُ

العَقِيدَةُ وَالشَّرِيعَةُ

الإلهية والعبودية

ظهر لنا من خلال ما تقدم، أن الإسلام هو الاستسلام الكامل لله تعالى وحده، قلباً وقالباً، اعتقاداً وسلوكاً، علماً وعملاً، وهو المحور الأساسي لكل ما في السورة من مبادئ وأحكام وتشريعات. وقد أبرزت الآيات هذه الحقيقة من خلال ما عرضت من مواقف العناد والجحود للكافرين من المشركين وأهل الكتاب، ومن خلال ما عرضت أيضاً من مواقف الإسلام لله تعالى والخضوع له وحده، عند الأنبياء وأتباعهم، من لدن إمام الموحدين إبراهيم عليه السلام، إلى خاتمهم سيدنا محمد ﷺ. وتتجه الآيات الآن، في سبيل إبراز هذه الحقيقة، وجهة جديدة، وهي بيان الارتباط الوثيق بين العقيدة والشرعية في الإسلام، وبهذا الاتجاه الجديد تظهر الآيات أيضاً أن الإسلام هو الاستسلام الكامل لله تعالى وحده، علماً وعملاً، قلباً وقالباً، اعتقاداً وسلوكاً. ابتدأت الآيات توجهها الجديد بتقرير حقيقة التوحيد الكبرى، التي هي أساس التشريع، واتبعت أسلوب التقرير الملزم لجميع المخاطبين الذين يصح خطابهم، بقوله تعالى:

﴿وَالَهُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أي: معبودكم معبود واحد، لا نظير له ولا شبيه في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

ولم تصرح الآية باسمه سبحانه، وإنما اكتفت بصفته التي تبين علاقة المخاطبين به جلّ جلاله، فصفته تعالى أنه المستحق للعبادة والطاعة وحده، وأنتم أيها المخاطبون عبيد له وحده جلّ جلاله، فهو إذاً معبودكم وحده.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا يستحق أن يسمى إلهاً معبوداً إلا هو جلّ جلاله.

﴿الرحمن الرحيم﴾ [١٦٣] أي: إن معبودكم الذي يستحق العبادة وحده هو الرحمن الرحيم، وهما اسمان من أسمائه تعالى الحسنى، يدلّان على فضله وإحسانه، وعلى أنه وحده المستحق للعبادة، فإنه لما كان مولى النعم كلها، أصولها وفروعها، وما سواه إما نعمة أو منعم عليه، لم يستحق العبادة أحد غيره^(١).

(١) تفسير البضاوي ٢٣٤/١.

وخلق الإنسان أثر من آثار رحمته تعالى ، وإرسال الرّسل إليه ، وإنزال الكتب عليه ، من رحمته تعالى أيضاً ؛ إذ بيّن فيما شرع له كيف يعمر الأرض التي استخلفه فيها ، بعبادته وطاعته ، وكيف يتقرّب إليه ليفوز بجنته ورضوانه يوم القيامة .

ولا شك أن التزام الإنسان بشريعة الله تعالى ، تحقيق عملي لعبوديته له سبحانه ، يدلّ على استسلامه وإسلامه له سبحانه وحده ، كما مرّ عند قول إبراهيم عليه السلام :
(قال أسلمت لربّ العالمين) .

من أدلة التوحيد

ثم عرضت الآيات بعض البراهين الدالة على وحدانية الله تعالى ورحمته وإحسانه :

﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ﴾ أي : وفي تعاقب الليل والنهار حسب نظام دقيق لا يتغيّر .

﴿ والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ﴾ أي : والسفن التي تسير في البحر من أجل منافع الناس .

﴿ وما أنزل الله من السماء من ماء ﴾ أي : وفي ماء المطر الذي أنزله تعالى من جهة السماء .

﴿ فأحيا به الأرض بعد موتها ﴾ أي : بالنبات الذي أنبتته تعالى من الأرض ، بسبب المطر الذي أنزله عليها .

﴿ وبثّ فيها من كل دابة ﴾ أي : ونشر في الأرض من كل أنواع الحيوانات التي تدبّ عليها .

﴿ وتصريف الرياح والسحاب ﴾ أي : وفي تقليب الرياح وتحريكها مع السحاب من جهة إلى جهة .

﴿ المسخر بين السماء والأرض ﴾ أي : المسخر المذلّل في الفضاء بين السماء والأرض .

فمشيئته تعالى نافذة في كل المكوّنات السماوية والأرضية ، والبريّة والبحرية والفضائية ، وكلها خاضعة لإرادة خالقها ومالكها ، وهي في قبضة قدرته عزّ وجلّ ، تدلّ على وجوده تعالى وجوده ورحمته وإحسانه ؛ إذ هي مسخرة مذلّلة لفائدة الإنسان وحياته

ومعيشته، كما في قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّر لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُتَفَكَّرُونَ ﴾ (١). وقال أيضاً: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّر لَكُمْ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّر لَكُمْ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّر لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّر لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ. وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (٢). فكل هذه المكوّنات والمخلوقات شاهدة على وحدانيته تعالى ورحمته وإحسانه، وهي دلائل تدلّ على جوده ووجوده:

﴿ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [١٦٤] أي: لدلائل تدلّهم على أن لهذا الكون إلهاً واحداً، كما قرّرت الآية السابقة: ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾. ولو ألقى الإنسان عن عقله بلادة الألفة والغفلة، فاستقبل مشاهد الكون بحسّ متجدّد، ونظرة مستطلعة، وقلب نوره الإيمان، ولو سار في هذا الكون كالرائد الذي يهبط إليه أول مرة، تلفت عينه كل ومضة، وتلفت سمعه كل نامة، وتلفت حسّه كل حركة، وتهزّ كيانه تلك الأعاجيب التي لا تبيّ تتوالى على الأبصار والقلوب والمشاعر (٣)، لأدرك إدراكاً كاملاً لا ريب فيه أن لهذا الكون إلهاً واحداً أحداً، رحماناً رحيماً.

براءة وحسرة

ومع كل هذه الدلائل التي تدلّ على أنه تعالى وحده المستحقّ للعبادة والطاعة، فإن كثيراً من الناس يعرضون عن عبادته وطاعته: ﴿ وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَتَّخِذْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً ﴾ أي: نظراء وأمثالاً لله تعالى في استحقاق الطاعة.

﴿ يَحْبُونَهُمْ ﴾ أي: يطيعونهم ويعظمونهم ويميلون إليهم. ﴿ كَحَبِّ اللَّهِ ﴾ أي: كما يحبّ المؤمنون ربّهم، والتشبيه لا يدلّ على التماثل من كل الوجوه، فحبّ المؤمنين لله تعالى أعظم وأثبت؛ ولهذا قال: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدَّ حُبّاً لِلَّهِ ﴾ لأن محبتهم لا تنقطع ولا تنتهي؛ إذ هم مستسلمون

(١) الجاثية: الآية ١٣.

(٢) إبراهيم: الآية ٣٢ - ٣٤.

(٣) في ظلال القرآن ١٥٣/١.

لله تعالى ، راضون بأحكامه الشرعية والقدرية في جميع الأحوال ، في السراء والضراء ، والمنشط والمكره والشدة والرخاء ، بينما هؤلاء يطيعون رؤساءهم ويعظمونهم ما داموا يرجون منهم المنفعة في الدنيا ، وأما في الآخرة فإن محبتهم تنقطع وتحوّل إلى بغض وحقد .

﴿ ولو يرى الذين ظلموا ﴾ أي : ظلموا أنفسهم بعبادة غير الله تعالى .

﴿ إذ يرون العذاب ﴾ يوم القيامة .

﴿ أن القوة لله جميعاً ﴾ فلا قوة حينئذ ولا سلطان ولا ملك لغيره جلّ جلاله ، الذي يقول : ﴿ لَمَن المُلْكُ اليومَ الله الواحد القهار ﴾ (١) .

﴿ وأن الله شديد العذاب ﴾ [١٦٥] أي : ورأوا أيضاً شدة عذاب الله تعالى ، لكان منهم ما لا يدخل تحت الوصف من الندم والحسرة . فحذف الجواب لأن (لو) إذا جاء فيما يشوق إليه أو يخوف منه ، قلّما يوصل بجواب ؛ ليذهب القلب فيه كل مذهب (٢) .

﴿ إذ تبرأ الذين اتبعوا ﴾ أي : المتبوعون ، وهم الرؤساء والزعماء قادة الكفر والضلال .

﴿ من الذين اتبعوا ﴾ أي : من الأتباع الذين اتبعوهم في الدنيا ، وساروا وراءهم في طرق الكفر والضلال .

﴿ ورأوا العذاب ﴾ الذي لا مفرّ منه ولا نجاة .

﴿ وتقطعت بهم الأسباب ﴾ [١٦٦] أي : انقطعت صلات المودة والمحبة التي كانت بينهم في الدنيا .

وأصل السبب في اللغة : الحبل الذي يصعد به النخل ، وسُمّي كل ما يتوصل به إلى شيء من ذريعة أو قرابة أو مودة سبباً ، تشبيهاً بالحبل الذي يصعد به (٣) .

﴿ وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة ﴾ أي : رجعة إلى الدنيا .

﴿ ففتبرأ منهم ﴾ أي : من زعمائنا ورؤسائنا الذين كنّا نسير وراءهم في الدنيا .
﴿ كما تبرؤوا منّا ﴾ في هذا اليوم .

(١) غافر: الآية ١٦ .

(٢) تفسير النسفي ٢٣٨/١ .

(٣) تفسير الخازن ٢٣٨/١ .

﴿ كذلك يُريهم الله أعمالهم ﴾ التي عملوها باختيارهم وكسبهم.
﴿ حسرات عليهم ﴾ تملأ صدورهم وتحرق قلوبهم.
والحسرة أشدّ الأسف على الفأث.

﴿ وما هم بخارجين من النار ﴾ [١٦٧] فهم يعذبون بنارين، نار الحسرة والندم التي تحرق قلوبهم، ونار جهنم التي تشوي أجسامهم وجلودهم.

التحذير من اتباع الشيطان ومن التقليد الأعمى

بهذه الصورة المرعبة هيأت الآيات النفوس البشرية للإسلام لله تعالى، والانقياد لدينه وشرعه، فوجّهت إلى الناس نداءها الثاني في السورة، بعد ندائها الأول الذي سبق في أوائل السورة في قوله تعالى: ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾. أمرتهم به بعبادة الله تعالى وحده.

أما في هذا النداء فأظهرت الآية للناس فضله سبحانه عليهم، فيما خلق لهم في الأرض من المطاعم الطيبة النافعة المستلذة، وأمرتهم على سبيل الإباحة أن يأكلوا منها، وكأنه تعالى أراد بهذا النداء، أن يقرن الترغيب بالترهيب:
﴿ يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ﴾ أي: كلوا الطعام الحلال الطيب.

والحلال: المباح الذي أحله الله تعالى، وأما الطيب فهو المستلذ النافع، فليس كلّ ما في الأرض حلالاً طيباً، وعلى الإنسان أن يميّز بين الحلال الطيب، وبين الحرام الخبيث، وجاءت أحكام الشريعة الإسلامية تراعي مصلحة الإنسان، فما حرّمت عليه إلّا كل خبيث ضارّ بدينه وصحته، وما أحلت له إلّا كل طيب نافع.

ثم حذّرت الآية الناس من اتباع الشيطان، عدوّ الإنسان الأول:

﴿ ولا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾ أي: طرقه التي يسير فيها ويدعو إليها، فهي لا تؤدّي إلّا إلى الشقاء والتعاسة في الدنيا والآخرة.

﴿ إنه لكم عدوٌّ مبين ﴾ [١٦٨] أي: ظاهر العداوة، لا يريد بكم إلّا التعاسة والشقاء، فهو لا يأمركم بخير أبداً.

﴿ إنما يأمركم بالسوء والفحشاء ﴾ أي: لا يأمركم إلّا بما يجلب لكم السوء، وبما يجاوز الحدّ في القبح، كالكبائر من الذنوب.

﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [١٦٩] أي: ويأمركم أيضاً أن تخالفوا شريعة الله تعالى وتبعضوا شرائع وضعية مخالفة لأحكام دين الله تعالى، فتحلوا ما حرم الله، وتحرموا ما أحل، مما يؤدي إلى تحريم الطيبات واستحلال الخبائث، كما هو مع الأسف حال كثير من المجتمعات الإسلامية، هجرت شريعة الإسلام، وأتبع الشرائع الوضعية المستوردة من الأمم الكافرة؛ بسبب ما ابتلوا من تقليدهم تقليداً أعمى، فقد كان الناس في عصر التنزيل يتمسكون بعادات وتقاليد آبائهم وأجدادهم، ويرفضون من أجلها دعوة النبي ﷺ، والانقياد لشريعة الله تعالى، وأما في العصر الحاضر فقد فتن كثير من المسلمين بحضارة الغرب المادية وزخارفها وبهارجها، وأقبلوا على تقليدهم في كل شؤون حياتهم، دون تمييز بين ما يضرهم أو ينفعهم، وما يوافق دينهم أو يخالفه، بهرهم برق الحضارة المادية الخلب، فسلبت بصائرهم وأعشت أبصارهم، وأصبحوا كما قال تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أي: ما شرع الله تعالى في كتابه وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أي: ما وجدنا عليه آباءنا، فالتقليد الأعمى أكبر العقبات في وجه كل دعوة للإصلاح ومقاومة الفساد والظلم، ولم يكن للمشركون من حجة يحتجون بها سوى تقليد آبائهم وأجدادهم، كما قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ. وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ. قَالَ أُولَئِكَ جِئْتَكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (١).

ولا سبيل للتخلص من أسر التقاليد البالية والعادات الموروثة، إلا بالنظر والتفكير واستعمال العقل ووسائل التمييز بحرية وموضوعية؛ ولهذا قال تعالى يرد على المقلدين لأبائهم، والمتمسكين بعادات أجدادهم:

﴿أُولَئِكَ كَانَ أَبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [١٧٠] أي: لا ينبغي لكم أن تقلدوهم تقليداً أعمى من غير تفكير ونظر، إذ يمكن أن يكونوا على ضلال، لا يعقلون شيئاً من الدين الحق، ولا يهتدون إلى الشريعة الصحيحة، التي يجب التمسك بأحكامها، فكيف تعطلون عقولكم وأفكاركم وتسيرون وراءهم من غير تفكير ونظر.

فالإسلام يدعو إلى تحرير العقل البشري من أغلال التقاليد البالية والعادات القبيحة، ومن المعلوم أن العقل هو أعظم ما يميز به الإنسان عن غيره، ولا تتحقق كرامته

(١) الزخرف: الآية ٢٢ - ٢٤.

الإنسانية إلا إذا تحرّر عقله من التقاليد البالية؛ ولهذا شبه سبحانه وتعالى الذي يقلّدون غيرهم تقليداً أعمى بهذه الصورة المُزرية القبيحة، فقال:

﴿ومثل الذين كفروا﴾ بسبب تقليدهم الأعمى لأبائهم، وسيرهم وراءهم دون نظر واستبصار.

﴿كمثل الذي ينق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً﴾ أي: كمثل البهائم التي ينق بها راعيها، وهي لا تسمع منه إلا جرس النغمة ودويّ الصوت، فتسير وراءه وهي لا تعرف إلى أين تسير، وما يرادها، فقد يقودها هذا الصوت إلى حتفها وهلاكها وهي لا تدري.

والنعيق في الأصل: زجر الغنم والصياح بها.

﴿صُمُّ بَكْمٌ عَمِيٌّ﴾ عن الحق ودلائله وشواهد.

﴿فهم لا يعقلون﴾ [١٧١].

وقد سبق معنا مثل هذا الوصف في المنافقين، عند قوله تعالى: ﴿صُمُّ بَكْمٌ عَمِيٌّ﴾ فهم لا يرجعون.

ودلّت الآيات على أن للعقل منزلة كبيرة في نظر الإسلام، فإذا ما استعمله الإنسان بموضوعية وتجرّد عن الهوى والتعصّب والتقليد، أوصله إلى الإيمان بالله تعالى وتوحيده. كما دلّت أيضاً على ارتباط الشريعة بالعقيدة في الإسلام، فالله تعالى هو وحده الخالق الرازق، وله وحده الحاكمية والتشريع والتحليل والتحريم، وعلى الإنسان المؤمن أن يستسلم لحكمه تعالى ويذعن لشريعته.

العبادة والشكر

وتأكيداً لحقيقة الارتباط بين العقيدة والشريعة، اتجهت الآيات إلى مطالبة المؤمنين بأن يلتزموا بأحكام دين الله تعالى وشريعته، في مطاعمهم ومشاربهم وسائر شؤون حياتهم، وتبين لهم في الوقت نفسه أن في الحلال ما يُغني عن الحرام، وأن ما أحلّه تعالى من الطيبات أكثر بكثير مما حرّم عليهم، وأن الشريعة الإسلامية تمتاز باليسر والمرونة في أحكامها.

﴿يا أيّها الذين آمنوا كُلُوا من طيبات ما رزقناكم﴾ أي: تحرّوا عن الطعام الطيب النافع الذي أحلّه تعالى لكم، فكلّوا منه. وفي الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أيّها الناس إن الله طيّب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يا أيّها الرسل كُلُوا من الطيبات واعملوا صالحاً

إِنِّي بما تعملون عليم ﴿١﴾، وقال: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا كُلُوا من طيبات ما رزقناكم﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمدّ يديه إلى السماء: يا ربّ يا ربّ، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يُستجاب لذلك؟ ﴿٢﴾. ﴿واشكروا لله﴾ على ما رزقكم وأحلّ لكم.

﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾ [١٧٢] أي: إن كنتم حقاً تقرّون بأنه إلّهم ومعبودكم ولا معبود لكم سواه، ولا تتمّ عبادتكم له إلّا بشكره والاعتراف بفضله، وفي الحديث الشريف عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها» ﴿٣﴾.

وبعد أن رخصت لهم الآيات الحلال الطيّب، بيّنت أن ما حرّمت عليهم قليل بالنسبة لما أحلّت لهم، ﴿إنما حرّم عليكم الميتة﴾ أي: الحيوان الذي مات من غير ذبح شرعي، والذبح الشرعي أحسن وسيلة لإخراج الدم من عروق الحيوان وفصله عن لحمه، والدم كما هو معلوم الناقل الرئيسي لسموم البدن، ويتسارع الفساد إليه مباشرة بعد انفصاله عن موضعه من البدن؛ ولهذا حرّمه تعالى بقوله:

﴿والدم﴾ والمراد منه المسفوح الذي انفصل عن معدنه في الجسم، لقوله تعالى: ﴿قل لا أجد فيما أوحى إليّ محرّماً على طاعم يطعمه إلّا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به﴾ ﴿٤﴾.

﴿ولحم الخنزير﴾ أي: وحرّم عليكم لحم الخنزير، فإنه - كما مرّ في آية الأنعام - رجس، أي: خبيث ونجس، وقد أثبت العلم الحديث أن لحم الخنزير يحمل كثيراً من مسببات الأمراض ﴿٥﴾.

﴿وما أهلّ به لغير الله﴾ أي: وحرّم عليكم ما ذبح لغير الله تعالى.

وأصل الإهلال: رفع الصوت، وذلك أنهم كانوا يرفعون أصواتهم بذكر آلهم إذا ذبحوا لها، فجرى ذلك مجرى أمرهم وحالهم، حتى قيل لكل ذابح: مهل، وإن لم يجهر بالتسمية ﴿٦﴾.

(١) المؤمنون: الآية ٥١.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الزكاة (١٠١٥).

(٣) صحيح مسلم، كتاب الذكر (٢٧٣٤).

(٤) الأنعام: الآية ١٤٥.

(٥) وقد بيّنا بعضها في غير هذا الكتاب من كتب السلسلة.

(٦) تفسير الخازن ٢٤٢/١.

فالإسلام يحارب الوثنية بكل أشكالها ومظاهرها، والذبح لغيره تعالى مظهر من مظاهر الشرك والوثنية، فيه تعظيم لغيره تعالى، وجحود وكفران لِنِعْمه وفضله، فهو سبحانه وحده الخالق الرازق، وهو الذي أحلَّ هذا الحيوان وسَخَّرَه لنا، فلا يجوز أن نذبحه لغيره تعالى، أو نذكر عند ذبحه غير اسمه تعالى، قال سبحانه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكَّرْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفُسَقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيَجَادُلُوكُمْ وَإِنْ أُطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾^(١).

ثم بَيَّنَّت الآيات يُسِّر الشريعة الإسلامية ومرونة أحكامها؛ تأكيداً لما تقدَّم عند قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾، بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ﴾ أي: فَمَنْ أُلْجِئته الضرورة إلى الأكل من هذه المحرّمات، فيُباح له ذلك بشرط أن يأكل منها:

﴿غَيْرِ بَاغٍ﴾ أي: غير قاصد التلذُّذ بالأكل منها، بل يقصد دفع الضرورة وحفظ الحياة.

﴿وَلَا عَادٍ﴾ أي: وبشرط ألا يتعدَّى في مقدار ما يأكل حدَّ الضرورة، فالضرورات تقدَّر بقدرها، وهذا إذا كانت حال الضرورة مرجوة الزوال، أما إذا كانت مستمرة جاز الشبع منه؛ لا اضطراره إلى الأكل مرة ثانية^(٢).
﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي: لا ذنب عليه ولا مسؤولية فيما أكل.

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [١٧٣] يغفر ذنوب عباده ويرحمهم، ويرفع الحرج والمشقة عنهم، كما قال سبحانه: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٣).

هكذا تتابع مِنَّ الله تعالى على عباده المؤمنين؛ بتمسكهم بأحكام شريعته السمحة الميسرة، فبعد أن مَنَّ عليهم بإباحة الطيبات المستلذّات، مَنَّ عليهم بتحريم الخبائث المؤذيات، ثم مَنَّ عليهم أيضاً بترخيص المحرّمات عند الضرورات.

أَكَلُوا النَّارَ

وعادت الآيات مرة ثانية تتوعّد كَاتِمِي العلم، والمُتَاجِرِينَ بأحكام الدين، وتبين

(١) الأنعام: الآية ١٢١.

(٢) انظر: الحلال والحرام في سورة المائدة ص ٣٦.

(٣) المائدة: الآية ٣.

لهم حُرمة ما يأكلون من حطام الدنيا، بسبب كتمانهم لأحكام دين الله تعالى ومتاجرتهم بها، وتضيف بهذا طعاماً محرماً آخر إلى الأطعمة المحرمة في الآية السابقة، فتحریم ما يكسبون من هذا الطريق أشد من تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير.

﴿إن الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب﴾ كما فعل أحبار اليهود، الذين كتموا صفات النبي ﷺ، المنزل في التوراة؛ لكي تبقى لهم زعاماتهم الدينية ومكاسبهم الدنيوية.

﴿ويشترون به ثمناً قليلاً﴾ أي: ويأخذون في مقابل الكتمان عوضاً حقيراً، وهذا العوض مهما كان كبيراً فهو في حقيقته حقير وقليل، وقد مرَّ أنه تعالى حذرهم من هذا في أول نداء وجهه تعالى إلى بني إسرائيل، فقال: ﴿ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون﴾، وقد فصل تعالى حالهم في موضع آخر فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدّون عن سبيل الله والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم﴾^(١).

وقد بيّن سبحانه هنا صورة من صور هذا العذاب الأليم، فقال:

﴿أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار﴾ إما في الدنيا، ولكنهم لا يشعرون بها لتعطل حواسهم، فكانوا في ذلك كالخدير الذي يجعل يده في الماء الحار ولا يحس به^(٢)، أو بالمآل يوم القيامة، إذ يؤدي فعلهم هذا إلى عذابهم في النار، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيراً﴾^(٣).

ونظيرها في السنّة ما روته أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من شرب في إناء ذهب أو فضة فإنما يجرجر في بطنه نار جهنم»^(٤).

﴿ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم﴾ من ذنوبهم وآثامهم، فلا يغفرها لهم.

﴿ولهم عذاب أليم﴾ [١٧٤] وكل ذلك بسبب كسبهم واختيارهم، وتفضيلهم الضلال على الهدى: ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة﴾، كما

(١) التوبة: الآية ٣٤.

(٢) نظم الدرر ٢/٣٥٢.

(٣) النساء: الآية ١٠.

(٤) صحيح مسلم، كتاب اللباس (٢٠٦٥).

سبق في قوله تعالى: ﴿ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينعصرون ﴾.

﴿ فما أصبرهم على النار ﴾ [١٧٥] أي: ما أشدَّ صبرهم على النار! وهو تعجيب للمؤمنين، وتحذير لهم من التشبُّه بهم، وإلاَّ فأَيُّ صبر لهم، وأَيُّ لهم الصبر؟ وهم لا يستطيعون الصبر على نار الدنيا، حتى يصبروا على نار جهنم. وقد يكون المراد بيان شدة عنادهم وجحودهم، فهم يعلمون الحق ويجحدونه، ويعلمون أنهم معذبون بسبب جحوده وكنمائه.

﴿ ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق ﴾ أي: إنما استحقَّوا هذا العذاب الشديد؛ لأنه تعالى نزل القرآن الكريم على النبي ﷺ، بالحق الثابت الواضح، وهؤلاء أعرضوا عنه وكفروا به مع علمهم بأنه حق ثابت منزل من الله تعالى.

﴿ وإن الذين اختلفوا في الكتاب ﴾ أي: اختلفوا في الكتب المنزلة، فآمنوا ببعضها وكفروا ببعضها، فالمراد جنس الكتاب، ويشمل كل كتاب أنزله الله تعالى. ﴿ لفي شقاق بعيد ﴾ [١٧٦] أي: لفي خلاف بعيد عن الحق.

آية البرِّ

البرُّ اسم جامع لكل الخيرات والأعمال المرضية الصالحة؛ ولهذا ذكره سبحانه هنا، في سياق الآيات التي تبين الارتباط الوثيق والاحتباك القوي، بين العقيدة والشرعة في الإسلام.

وجاءت آية البرِّ هذه مشتملة على جمل عظيمة، وقواعد عميقة، وعقيدة مستقيمة^(١).

قال القرطبي رحمه الله: هذه آية عظيمة من أمهات الأحكام^(٢).

ويبدو أن أهل الكتاب أكثروا الخوض في أمر القبلة - كما مرَّ معنا - فأنزل الله تعالى ردًّا عليهم قوله الكريم: ﴿ ليس البرُّ أن تولُّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ﴾ أي: ليس البرُّ في التوجُّه إلى جهة المشرق والمغرب، ولكن البرُّ في الإسلام لله تعالى وحده،

(١) مختصر تفسير ابن كثير ١/١٥٣.

(٢) تفسير القرطبي ٢/٢٤١.

وفي الانقياد لأمره وشرعه، وفي التوجّه حيثما أمر سبحانه، كما قال في ذبائح الأضاحي والهدي: ﴿لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشّر المحسنين﴾ (١).

﴿ولكن البرّ من آمن بالله﴾ الواحد الأحد المنزّه عن الشريك والصاحبة والولد.
﴿واليوم الآخر﴾ أي: وصدق وأقرّ بيوم القيامة، وبما فيه من حساب وثواب وعقاب، كما أخبر سبحانه، فهو من الغيب الذي أثبتّه الدليل الصحيح الصادق.
﴿والملائكة﴾ أي: وصدق وأقرّ بوجود الملائكة، كما أخبر سبحانه عنهم، فالإيمان بهم أيضاً إيمان بالغيب الذي أثبتّه الدليل الصحيح الصادق، وهو من أسس الإيمان الكبرى، كما تقدّم في أول السورة ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾.
﴿والكتاب﴾ أي: وصدق بالكتب الإلهية المنزلة، فالمراد من الكتاب جنسه، ويشمل جميع الكتب المنزلة التي جاء القرآن الكريم مصدّقاً لها.

﴿والنبيّين﴾ أي: وآمن بجميع الأنبياء من غير تفريق بينهم، وأنهم جميعاً دعوا إلى الإسلام لله تعالى وحده وعبادته، وأن خاتمهم سيّدنا محمد ﷺ، الذي بعث برسالة الإسلام الشاملة العامّة، التي تعبّد الله بها الإنس والجنّ إلى يوم القيامة.

هذه أصول الإيمان وأركانه الكبرى التي لا يتمّ إلّا بها، كما في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر فقد ضلّ ضلالاً بعيداً﴾ (٢).

وفي حديث سؤال جبريل النبي ﷺ، قال: فأخبرني عن الإيمان. قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره» قال: صدقت (٣).

﴿وأتى المال على حبّه﴾ أي: وأعطى المال في سبيل الله، على الرغم من حبّه له، كما قال تعالى: ﴿لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم﴾ (٤)، وفي الحديث الشريف، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى رسول الله ﷺ رجل فقال: يا رسول الله، أيّ الصدقة أعظم؟ فقال: «أن تصدّق وأنت

(١) الحج: الآية ٣٧.

(٢) النساء: الآية ١٣٦.

(٣) انظر الحديث كاملاً في صحيح مسلم، كتاب الإيمان (٨).

(٤) آل عمران: الآية ٩٢.

صحيح صحيح، تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا ولفلان كذا، ألا وقد كان لفلان»^(١).

﴿ذوي القربى﴾ أي: الأقارب المحتاجين، فهم مقدّمون على غيرهم في استحقاق الصدقة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا﴾^(٢)، ولقوله عليه الصلاة والسلام: «أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح»^(٣).

﴿واليتمى﴾ جمع يتيم، وهو الصغير الذي مات والده، وتقدّم أن مساعدة اليتامى ورعايتهم من أعظم العبادات في الإسلام، وسيأتي لهذا مزيد تفصيل في آيات السورة.

﴿والمساكين﴾ جمع مسكين، وهو المحتاج الذي لا يسأل الناس، كما سيأتي.

﴿وابن السبيل﴾ هو المسافر المنقطع في الطريق، سُمّي بذلك لملازمته الطريق في السفر، أو لأن الطريق تُبرزه فكأنها ولدته، وكأن أفرادها لانفرادها عن أحبابه ووطنه وأصحابه^(٤).

﴿والسائلين﴾ أي: المحتاجين الذين يسألون.

﴿وفي الرقاب﴾ أي: أعطى المال في تخليص الرقاب من ذلّ العبودية أو الأسر، فالإسلام دين الحرية، حثّ على تحرير الأرقاء ومساعدتهم، وتخليص الأسرى، وعدّ ذلك عبادة لله تعالى.

﴿وأقام الصلاة﴾ أي: أداها كاملة مستقيمة، كما شرعها الله تعالى.

﴿وآتى الزكاة﴾ أي: أعطى الزكاة المفروضة عليه في ماله للمستحقين لها.

وأما قوله المتقدّم في الآية ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَىٰ حَبَّةٍ...﴾ فالمراد منه إنفاق آخر غير الزكاة، وهو دليل على أن في المال حقاً سوى الزكاة، وورد في ذلك حديث، في سنده مقال، عن فاطمة بنت قيس أن رسول الله ﷺ قال: «إِن فِي الْمَالِ حَقًّا سِوَى الزَّكَاةِ» ثم تلا هذه الآية^(٥).

ففي الإسلام نفقات واجبة في مال الإنسان غير الزكاة، كالنفقات الواجبة على

(١) صحيح مسلم، كتاب الزكاة (١٠٣٢).

(٢) الإسراء: الآية ٢٦.

(٣) رواه أحمد والترمذي.

(٤) روح المعاني ٤٦/٢.

(٥) أخرجه ابن ماجه والترمذي، وقال: هذا حديث ليس إسناده بذلك.

الأقارب، والنفقات الواجبة وقت الأزمات، عندما لا تكفي أموال الزكاة لسدّها، قال القرطبي رحمه الله: واتفق العلماء على أنه إذا نزلت بالمسلمين حاجة بعد أداء الزكاة، فإنه يجب صرف المال إليها، قال مالك رحمه الله: يجب على الناس فداء أسراهم وإن استغرق ذلك أموالهم، وهذا إجماع أيضاً^(١).

﴿والموفون بعهدهم إذا عاهدوا﴾ أي: عاهدوا الله تعالى أو عاهدوا الناس، فالإنسان في الإسلام مسؤول عن عهوده والتزاماته المشروعة، قال تعالى: ﴿وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً﴾^(٢).

وقال في معرض وصف المؤمنين والثناء عليهم: ﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾^(٣).

وقوله تعالى: ﴿والموفون بعهدهم﴾ عطف على قوله ﴿مَنْ آمَنَ﴾، ولم يقل: وأوفى، كما قبله؛ إشارة إلى وجوب استقرار الوفاء^(٤)، وفيه أيضاً تعريض بالناقضين لعهودهم، كما تقدّم عن بني إسرائيل، ونقضهم للمواثيق والعهود.

﴿والصابرين في البأساء﴾ أي: في الشدة والفقر.

﴿والضراء﴾ أي: وفي المرض والضعف والعجز.

﴿وحين البأس﴾ أي: وقت قتال العدو وجهاده.

وقد جاء قوله: ﴿والصابرين﴾ منصوباً على الاختصاص والمدح؛ تنبيهاً على امتياز الصبر؛ إذ فيه دلالة على كمال الاستسلام لله تعالى والرضا بقدره، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿يا أيّها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين﴾.

﴿أولئك﴾ المتّصفون بهذه الصفات، وأشار إليهم بالبعد تفخيماً لهم وتشريفاً.

﴿الذين صدقوا﴾ في إسلامهم لله تعالى وانقيادهم لأحكام دينه وشرعه.

﴿وأولئك هم المتّقون﴾ [١٧٧] أي: هم وحدهم المتحقّقون بحقيقة التقوى،

والذين ذكرهم سبحانه في مطلع السورة، في قوله: ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتّقين﴾.

(١) تفسير القرطبي ٢/٢٤٢.

(٢) الإسراء: الآية ٣٤.

(٣) المؤمنون: الآية ٨.

(٤) روح المعاني ٢/٤٧.

القصاص والحياة

ثم شرعت الآيات في عرض أحكام الشريعة، وبيان ارتباطها بالعقيدة، وكيف أن الالتزام بها يوصل إلى التقوى، وبدأت ببيان تشريع القصاص في القتل، فقررت بذلك حرمة الحياة الإنسانية، ولعلّ الابتداء به للإشارة إلى ضرورة الأمن في المجتمع وحماية حياة أبنائه، فلا بقاء لأيّ مجتمع بدون أمن، ولا قيام لأي نظام تشريعي بدون قوة تحميه.

ولا شك أن فرض نظام القصاص على مجتمع كانت تسود فيه عادات الأخذ بالثأر، من أقوى المظاهر الدالة على انقياد واستسلام أفراد هذا المجتمع لشريعة الله تعالى.

وقد وجّهت الآية خطاب التكليف بتشريع القصاص للمؤمنين، بأسلوب الفرض والإلزام: ﴿يا أيّها الذين آمنوا كُتِبَ عليكم القصاص في القتلى﴾ أي: فُرِضَ عليكم تشريع القصاص في القتلى، ومعناه المماثلة والمساواة في القتل، ومعاقة القاتل المتعمّد بمثل جنايته، أي: بقتله.

ولا خلاف أن القصاص في القتلى لا يقيمه إلّا أولو الأمر، فهم الذين فرض عليهم النهوض بالقصاص وإقامة الحدود وغير ذلك، لأن الله سبحانه خاطب جميع المؤمنين بالقصاص^(١).

﴿الحرّ بالحرّ والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى﴾ أي: القاتل الحرّ يُقتل بالحرّ، والقاتل العبد يُقتل بالمقتول العبد، والقاتلة الأنثى تُقتل بالمقتولة الأنثى.

ويبدو أن الآية اقتضت هنا على بيان حكم النوع إذا قتل نوعه؛ إبطالاً لما كان عليه العرب في الجاهلية، فكان إذا حدث بين قبيلتين أو حيّين قتال، تطاول الأقوى منهما على الأضعف، ولم يرضَ حتى يقتل الحرّ بالعبد والرجل بالمرأة، فأنزل الله هذه الآية يلزمهم فيها بالتساوي في القصاص؛ ولهذا أخذ بعض العلماء بعموم قوله تعالى في صدر الآية: ﴿كُتِبَ عليكم القصاص في القتلى﴾، وبعموم قوله تعالى أيضاً: ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس﴾^(٢)، فلم يشترطوا التساوي بين القاتل والمقتول لتطبيق القصاص. بينما اشترطه آخرون، لكنهم أجمعوا على قتل الرجل بالمرأة، والمرأة بالرجل، كما ذهب جمهورهم إلى قتل الواحد بالجماعة والجماعة بالواحد.

(١) تفسير القرطبي ٢/٢٤٥.

(٢) المائدة: الآية ٤٥.

ثم بيّن تعالى ما امتازت به الشريعة الإسلامية من يُسرٍ ومرونة في أحكامها، عندما شرع لأولياء المقتول أن يأخذوا الدية ويعفوا عن القصاص من القاتل، فقال:

﴿فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ أي: فَمَنْ تَرَكَ لَهُ وَصَفَحَ عَنْهُ مِنَ الْقَصَاصِ، مِنْ جِهَةِ أَخِيهِ وَلِيَ الْمَقْتُولِ، فَإِذَا عَفَا بَعْضُ أَوْلِيَاءِ الْمَقْتُولِ عَنِ الْقَصَاصِ، سَقَطَ وَثَبَتَ الدِّيَةُ. وذكره تعالى بلفظ الأخوة في الدين والجنس ليعطف عليه ويرقّ له، فيعفو عن القصاص ويرضى بالدية.

﴿فَاتَّبَاعَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: فليتبع وليّ الدم القاتل بالمعروف، فلا يأخذ منه أكثر من حقه، ولا يعنّفه، فقد جعل الله تعالى لوليّ المقتول حقّاً في القصاص أو الدية في حال العفو عن القصاص، وليس له أكثر من ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَاناً فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً﴾^(١).

﴿وَأَدَاءَ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ أي: وعلى القاتل أداء الدية إلى أولياء المقتول من غير مماطلة.

﴿ذَلِكَ﴾ أي: تشريع الدية وحثّ أولياء المقتول على العفو عن القصاص.

﴿تَخْفِيفٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٍ﴾ تميّزت بها الشريعة الإسلامية، فلم تكن الدية مشروعة في التوراة، بل كان القصاص حتماً لازماً فيها، فخفف الله تعالى هذا الحكم في الشريعة الإسلامية؛ لأنها تمتاز بالسماحة والرحمة.

ثم ختم الله تعالى الآية بوعيد شديد للذين لا يرضون بهذه الأحكام، ويصرّون على ما كان شائعاً بينهم من عادات جاهلية، كعادة الأخذ بالثأر، فقال:

﴿فَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: مَنْ تَجَاوَزَ مَا شَرَعَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ، فَقَتَلَ غَيْرَ الْقَاتِلِ، أَوْ قَتَلَ بَعْدَ أَنْ أَخَذَ الدِّيَةَ.

﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [١٧٨].

ثم بيّن تعالى فائدة الإسلام له والانقياد لأحكام شريعته، وما يترتب على تطبيق أحكام القصاص من آثار طيبة، تؤدّي إلى إشاعة الأمن والطمأنينة في ربوع المجتمع، فقال:

﴿وَلَكُمْ فِي انْقِصَاصِ حَيَاةٍ﴾ أي: وَلَكُمْ فِي تَطْبِيقِ أَحْكَامِ الْقَصَاصِ حَيَاةٌ أَمَنَةٌ

(١) الإسراء: الآية ٣٣.

مطمئنة، خالية عن الخوف والقلق والاضطراب والتهديد بالقتل، كما هو حال المجتمعات التي لا تلتزم بأحكام القصاص، والتي تسود فيها عادات الأخذ بالثأر.

وهو كلام في غاية الفصاحة والبلاغة، من حيث جعل الشيء محل ضده، وعرف القصاص ونكر الحياة؛ ليدلّ على أن في هذا الجنس من الحكم نوعاً من الحياة عظيماً؛ وذلك لأن العلم به يردع القاتل عن القتل، فيكون سبب حياة نفسين؛ ولأنهم كانوا يقتلون غير القاتل، والجماعة بالواحد، فتثور الفتنة بينهم، فإذا اقتصر من القاتل سلم الباقون، ويصير ذلك سبباً لحياتهم^(١).

﴿ يا أولي الألباب ﴾ أي: يا أصحاب العقول، فالعاقل لا بدّ أن يرى محاسن القصاص في إشاعة الأمن وحفظ الحياة.

﴿ لعلكم تتقون ﴾ [١٧٩] أي: تتقون الله تعالى في الاستسلام لأمره والتزام شرعه.

تشريع الوصية

ما كان العرب في الجاهلية يعرفون شيئاً عن نظام الإرث والوصية، الذي ينظم توزيع الأموال بعد موت أصحابها، وكان أقوى أقارب المتوفى يستولي على ماله ويحرم الآخرين منه، حتى جاءت الشريعة الإسلامية بنظامها الاقتصادي الكامل، ومن جملته نظام الإرث والوصية.

شرع الله تعالى الوصية، التي تسمح للإنسان بالتصرف بجزء من ماله بعد موته، وهي تدلّ على أن الإسلام يكرم الإنسان ويحترم إرادته في التصرف بماله بعد موته، ويحفظ في الوقت نفسه حقوق أقاربه في ماله.

وشرع سبحانه الوصية هنا مطلقة، ثم قيّدتها آيات الموارث والسنة النبوية ببعض القيود والشروط، قال تعالى:

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ أي: حضرت أسبابه وظهرت أماراته.

﴿ إن ترك خيراً ﴾ أي: مالاً كثيراً، وحدّ الكثرة أن يستغني به الورثة، فلا يحتاجون إلى غيرهم، وفي الحديث الشريف عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: جاء النبي ﷺ يعودني وأنا بمكة... قلت: يا رسول الله أوصي بمالي كله؟ قال: «لا»،

(١) تفسير البضاوي ٢٥٣/١.

قلت: فالشطر؟ قال: «لا»، قلت: الثلث؟ قال: «فالثلث والثلث كثير، إنك أن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس في أيديهم، وإنك مهما أنفقت من نفقة فإنها صدقة، حتى اللقمة التي ترفعها إلى في امرأتك»^(١).

﴿الوصية للوالدين والأقربين﴾ أي: أوجب الله عليكم أن توصوا للوالدين والأقربين ببعض أموالكم.

قال جمهور العلماء: كانت هذه الوصية في أول الإسلام واجبة لوالدي الميت وأقاربه، على ما يراه من المساواة والتفضيل، ثم نسخ ذلك بأية الفرائض^(٢).

وبوّب الإمام البخاري في صحيحه باباً في كتاب الوصايا، قال فيه: باب لا وصية لوارث، ثم رُوِيَ عن ابن عباس قال: كان المال للولد، وكانت الوصية للوالدين، فنسخ الله من ذلك ما أحبّ، فجعل للذكر مثل حظّ الأنثيين، وجعل للأبوين لكل واحد منهما السُدس، وجعل للمرأة الثمن والرُّبع، وللزوج الشطر والرُّبع^(٣).

وقال ابن حجر: قوله: باب لا وصية لوارث، هذه الترجمة لفظ حديث مرفوع، كأنه لم يثبت على شرط البخاري فترجم به كعادته واستغنى بما يعطي حكمه، وقد أخرجه أبو داود والترمذي وغيرهما من حديث أبي أمامة: سمعت رسول الله ﷺ يقول في خطبته في حجة الوداع: «إن الله قد أعطى كلّ ذي حقّ حقه فلا وصية لوارث»^(٤) فالآية منسوخة الحكم، ورأى بعضهم أنها محكمة، ظاهرها العموم ومعناها الخصوص في الوالدين اللذين لا يرثان، كالكافرين والعبدین، وفي القرابة غير الورثة، قاله الضحاك وطاووس والحسن، واختاره الطبري^(٥).

﴿بالمعروف﴾ أي: بالعدل، فلا يوصي للغني ويدع الفقير، ولا يزيد على

الثلث.

﴿حقاً على المتقين﴾ [١٨٠] أي: حقاً ثابتاً على المتقين، الذين يتقون الآثام والمعاصي، ودلّ هذا على أن الإيضاء مندوب لا واجب؛ لأنه لو كان فرضاً لكان على جميع المسلمين^(٦)، نعم يجب الإيضاء على من عليه ديون وحقوق وعنده ودائع، لتؤدى عنه الديون والحقوق من ماله، وترد الودائع إلى أصحابها.

(١) صحيح البخاري، كتاب الوصايا (٢٧٤٢).

(٢) فتح الباري ٣٧٣/٥.

(٣) صحيح البخاري (٢٧٤٧).

(٤) فتح الباري ٣٧٢/٥.

(٥) تفسير القرطبي ٢٦٢/٢.

(٦) تفسير القرطبي ٢٦٧/٢.

ثم تَوَعَّد سبحانه الأوصياء والشهود الذين ائتمنوا على تنفيذ الوصية، كي لا يغيروا فيها ولا يبدّلوا ما دام الموصي قد راعى فيها الأحكام الشرعية، فقال:

﴿ فَمَنْ بَدَّلَهُ ۙ أَي: فَمَنْ غَيَّرَ فِي الوصية وبَدَّلَ ما فيها.

﴿ بعد ما سمعه ۙ من الموصي وتحقّق منه.

﴿ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ ۙ لا على الموصي ولا على الموصى له، إنما الإثم يعود على الذين بدّلوا وغيّروا في الوصية.

﴿ إِنْ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۙ [١٨١] يسمع أقوالكم ويعلم أحوالكم وأعمالكم.

﴿ فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا ۙ أَي: جوراً وميلاً عن الحق بالخطأ.

﴿ أَوْ إِثْمًا ۙ أَي: ذنباً بسبب تعمّد مخالفة أحكام الشريعة.

﴿ فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ ۙ أَي: بين الورثة وبين الموصى لهم، بحسب شرع الله تعالى.

﴿ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۙ أَي: لا ذنب عليه في هذا؛ لأنه إزالة لمنكر ومنع للظلم.

﴿ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۙ [١٨٢].

وهذا يدلّ على أن تحكيم شريعة الله تعالى أولى من تنفيذ رغبة الموصي المخالفة لأحكامها، فلا تحترم إرادة الإنسان وتنفّذ رغباته، إلّا إذا كانت موافقة لشريعة الله تعالى، فالاستسلام لله تعالى يقتضي أن تكون أحكام الشريعة هي الأولى في حياتنا، والمقدمة على رغباتنا وإرادتنا، وهذه نقطة الخلاف الرئيسية بين الشريعة الإسلامية والشرائع الوضعية، التي قدّمت رغبات الناس، حتى أصبح بعضهم يوصي بماله كله لكلب أو هرّ، ويحرم منه أولاده وأقاربه، ولعلّ هذا سرّ إيراد آيات الصيام بعد آيات الوصية مباشرة، لأنه من أعظم وسائل تربية النفس وتهذيبها وجعلها تستسلم وتنقاد لأحكام دين الله تعالى وشرعه.

تشريع الصيام

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ۙ أَي: فرض عليكم الصيام كما فرض على الذين من قبلكم، فالصيام عبادة قديمة، كلّف الله تعالى به جميع الأنبياء السابقين وأتباعهم.

﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۙ [١٨٣] أَي: لعلكم تتصفون بصفة التقوى، فالصوم يربّي النفس ويهذبها، ويقوّي الإرادة على العبادة والاستسلام لله تعالى والخضوع لأحكامه، إذ هو إمساك عن المُفْطِرَات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس مع نيّة العبادة؛ ولهذا قال

النبي ﷺ: «الصيام جنة، فلا يرفث ولا يجهل، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل: إني صائم - مرتين - والذي نفسي بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلي، الصيام لي وأنا أجزي به، والحسنة بعشر أمثالها»^(١).

وقال أيضاً: «مَنْ لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»^(٢).

﴿أياماً معدودات﴾ أي: كُتِبَ عليكم الصيام في أيام معدودات، والمراد بها أيام شهر رمضان، كما بيّنه في الآية التالية.

وقد رخص تعالى للمريض والمسافر في هذه الأيام المعدودات بالفطر، مما يدلّ على يُسرّ الشريعة الإسلامية وسماحة أحكامها، فقال:

﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً﴾ مرضاً يضرّ معه الصوم، بأن يتسبب بزيادته أو تأخير شفائه، بتجربة أو بإخبار طبيب مسلم غير ظاهر الفسق، فلا يُباح الفطر لأي مريض، فقد يكون الصيام سبباً للشفاء بتقدير الله تعالى، وقد ثبت علمياً أن الصيام يفيد في شفاء كثير من الأمراض.

﴿أو على سفر﴾ أي: أو كنتم مسافرين. وأفاد قوله: ﴿على﴾ التمكن من السفر والاستمرار فيه، والمراد السفر الذي تقصر فيه الصلاة، وكان ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهم يقصران ويفطران في أربعة برد، وهي ستة عشر فرسخاً^(٣)، وقدّرهما كثير من العلماء المعاصرين باثنين وثمانين كيلومتراً.

﴿فعدة من أيام أخرى﴾ أي: فعليه إن أفطر صوم عدّة أيام المرض والسفر، من أيام آخر غير رمضان.

﴿وعلى الذين يطيقونه﴾ أي: وعلى المطيقين للصيام إن أفطروا بلا عذر.

﴿فدية﴾ بدل الصوم، ومقدارها كل يوم ﴿طعام مسكين﴾ أي: قدر ما يأكل الفقير المحتاج كل يوم من أوسط طعام الناس، كما في كفارة الحاث في يمينه، وقدّرهما العلماء بمقدار زكاة الفطر.

(١) صحيح البخاري، كتاب الصوم (١٨٩٤).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الصوم (١٩٠٣).

(٣) ذكره البخاري تعليقاً، ووصله ابن المنذر.

﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ فأطعم عن كل يوم أكثر من مسكين، أو جمع بين الصيام والإطعام.

﴿فهو خير له﴾ لأنه تعالى يُثَبِّتُهُ عَلَى تَطَوُّعِهِ.

﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ من الفدية.

﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [١٨٤] ما في الصوم في رمضان من الفضل الكبير والثواب العظيم.

وَدَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّهُمْ مَا كَانُوا مُلْزَمِينَ بِالصَّوْمِ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ، بَلْ كَانُوا مُخَيَّرِينَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْفَدْيَةِ، فَعَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يَطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ﴾ كَانَ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَفْطُرَ وَيَفْتَدِيَ، حَتَّى نَزَلَتْ الْآيَةُ الَّتِي بَعْدَهَا فَنَسَخَتْهَا^(١).

وهذا يدل على أنه تعالى شرع الصيام بالتدريج؛ رحمة بالمسلمين في زمن التشريع، فخيرهم سبحانه وتعالى في أول الأمر بين الصيام والفدية، لئلا يشق عليهم؛ لأنهم لم يتعودوا الصوم، ثم نسخ التخيير وتعين عليهم الصوم، بقوله تعالى بعد ذلك: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾.

هذا رأي أكثر العلماء، وذهب جماعة، منهم ابن عباس رضي الله عنه، إلى أن الآية محكمة غير منسوخة، وأنها في الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة، لا يستطيعان أن يصوما، فيطعمان مكان كل يوم مسكيناً، فعن عطاء أنه سمع ابن عباس يقرأ: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يَطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ﴾ قال ابن عباس: ليست بمنسوخة، هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة، لا يستطيعان أن يصوما، فيطعمان مكان كل يوم مسكيناً^(٢).

نزول القرآن في رمضان

ثم بيّنت الآيات زمن الصيام المفروض على وجه التحديد، بقوله تعالى:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ أي: وقت الصيام شهر رمضان، ورمضان مأخوذ من رمض الصائم يرمض، إذا حرّ جوفه من شدة العطش... يقال: إنهم لمّا نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة، سمّوها بالأزمنة التي وقعت فيها، فوافق هذا الشهر أيام رمض الحرّ،

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير (٤٥٠٧).

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير (٤٥٠٥).

فُسِّمِي بذلك، وقيل إنما سُمِّي بذلك لأنه يرمض الذنوب، أي: يحرقها بالأعمال الصالحة^(١).
والحكمة من تخصيص شهر رمضان بعبادة الصيام، أنه تعالى أنزل فيه القرآن الكريم، وهو أعظم الأحداث التي مرّت على الإنسانية، وكان له أعظم الآثار في تاريخها، فكأن الصيام في هذا الشهر، فيه شكر الله تعالى على النعمة الجليلة التي تفضل بها عليهم فيه، وهي نعمة إنزال القرآن الكريم.

قال ابن كثير رحمه الله: يمدح تعالى شهر الصيام من بين سائر الشهور، بأن اختاره من بينهنّ لإنزال القرآن العظيم، فإنه الشهر الذي كانت الكتب الإلهية تنزل فيه على الأنبياء، فقد روى الإمام أحمد: عن واثلة بن الأسقع أن رسول الله ﷺ قال: «أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان، والإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان، وأنزل الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان»^(٢).

﴿الذي أنزل فيه القرآن﴾ في ليلة القدر المباركة، كما قال تعالى: ﴿حَمِّمُوا﴾ والكتاب المبين. إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين. فيها يفرق كل أمر حكيم^(٣)، وقال أيضاً: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾^(٤).

ومن المعلوم أن القرآن نزل على النبي ﷺ مفزقاً، كما في قوله تعالى: ﴿وقرآنًا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً﴾^(٥)، وردّ الله على المشركين المعترضين على نزول القرآن الكريم مفزقاً بقوله: ﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبتّ به فؤادك ورتلناه ترتيلاً﴾^(٦).

ولما سُئِلَ ابن عباس عن ذلك قال: إنه أنزل في رمضان في ليلة القدر وفي ليلة مباركة، جملة واحدة، ثم أنزل على مواقع النجوم ترتيلاً في الشهور والأيام^(٧).

وذهب بعض العلماء إلى أنه ابتدئ نزوله في شهر رمضان. ويمكن الجمع بين القولين بأنه أنزل إلى السماء الدنيا من اللوح المحفوظ، في ليلة القدر جملة واحدة،

(١) تفسير القرطبي ٢/٢٩١.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ١/١٦١.

(٣) الدخان: الآية ١ - ٤.

(٤) القدر: الآية ١.

(٥) الإسراء: الآية ١٠٦.

(٦) الفرقان: الآية ٣٢.

(٧) مختصر تفسير ابن كثير ١/١٦١.

وابتدىء نزوله أيضاً على النبي ﷺ في شهر رمضان، وهذا ما أشار إليه ابن حجر رحمه الله في تعليقه على قول ابن عباس رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة^(١). قال ابن حجر: وفيه إشارة إلى أن ابتداء نزول القرآن كان في شهر رمضان؛ لأن نزوله إلى السماء الدنيا جملة واحدة كان في رمضان، كما ثبت من حديث ابن عباس، وكان جبريل يتعاهده في كل سنة فيعارضه بما نزل عليه من رمضان إلى رمضان، فلما كان العام الذي توفي فيه عارضه به مرتين، كما ثبت في الصحيح عن فاطمة رضي الله عنها^(٢).

﴿هَدَى لِلنَّاسِ﴾ أي أنزله سبحانه لأجل هداية الناس إلى أقوم دين وأفضل تشريع، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾^(٣).

والمراد من الناس: المتفجعون به، وهم المتّقون، كما مرّ في أول السورة: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ أي: وهو أيضاً دلائل واضحة تهدي إلى الحق وتفرّق بينه وبين الباطل.

﴿فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ أي: فَمَن علم حلول شهر رمضان فليصمه، وهو أمر للوجوب، دلّ على فرض الصيام في شهر رمضان على جميع المكلفين، إذا علموا بحلوله برؤية هلاله، قال ابن كثير رحمه الله: قوله ﴿فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ هذا إيجاب حتم على مَن شهد استهلال الشهر^(٤)، ولهذا قال ﷺ: «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن غُبي عليكم فأكملوا عدّة شعبان ثلاثين»^(٥).

وعادت الآيات تذكّر مرة ثانية الترخيص بالفطر للمسافر وللمريض؛ لتأكيد الحكم، ولنفي التوهّم بأن الترخيص لهما نسخ كما نسخ التخيير بين الصيام والفدية في الآية السابقة، وأضافت الآية هنا بيان سبب الترخيص:

﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ

(١) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي (٥).

(٢) فتح الباري ٣١/١.

(٣) الإسراء: الآية ٩.

(٤) مختصر ابن كثير ١٦١/١.

(٥) صحيح البخاري، كتاب الصوم (١٩٠٩).

العُسْر ﴿ وهذا يدلُّ على رأفته ورحمته تعالى بالمؤمنين، الذين أسلموا له وانقادوا لأحكام شريعته، وقرر العلماء بناءً على هذه الآية الكريمة، عدداً من قواعد الفقه الكلية الدالة على سماحة الشريعة الإسلامية ويُسرّها، كقولهم: المشقة تجلب التيسير، إذا ضاق الأمر اتسع، الضرورات تُبيح المحظورات.

﴿ ولتكمّلوا العدة ﴾ أي: وأمركم بالقضاء لتكمّلوا عدة شهر الصيام.

﴿ ولتكبّروا الله على ما هداكم ﴾ أي: ولكي تعظّموا الله تعالى، على هدايته لكم إلى الإسلام، وشريعته السمحة الميسرة. ومن السنة التكبير عند انتهاء شهر رمضان، حتى تصلّي صلاة عيد الفطر.

﴿ ولعلّكم تشكرون ﴾ [١٨٥] الله تعالى على ما أنعم عليكم، وبهذا تكونون قد جمعتم بين الذكر والشكر، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾.

الصيام والدعاء

الصيام عبادة خالصة لله تعالى، لا يدخلها رياء، كما جاء في الحديث الشريف «كل عمل ابن آدم يضاعف له، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله عز وجل: إلّا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، يدع شهوته وطعامه من أجلي، للصائم فرحتان، فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربّه»^(١).

ولهذا فإن الصوم يجعل الصائم مُستجاب الدعوة، فعليه أن يقبل على الله تعالى بالدعاء والضراعة، ولعلّ هذا سبب مجيء آية الدعاء في سياق آيات الصيام، قال تعالى:

﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب ﴾ أي: أخبرهم بأنّي قريب، أعلم أحوالهم وأسمع كلامهم، وفي الحديث الشريف عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كنّا مع النبي ﷺ في سفر، فجعل الناس يجهرّون بالتكبير، فقال النبي ﷺ: «أيها الناس اربعوا على أنفسكم»^(٢)، إنكم ليس تدعون أصمّ ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً، وهو معكم»^(٣).

﴿ أجب دعوة الداع إذا دعان ﴾ أي: أسمع دعاءه وأستجيب له، كما أشاء

(١) صحيح مسلم، كتاب الصيام (١١٥١).

(٢) أي: ارفقوا بأنفسكم وخفضوا أصواتكم.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الذكر (٢٧٠٤).

وأريد، قال سبحانه: ﴿بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون﴾^(١).

ودلت الآية على أن الله تعالى تكفل بالإجابة، في الوقت الذي يشاء وكما يشاء سبحانه، وفي الحديث الشريف عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوة إلا آتاه الله إياها، أو صرف عنه من السوء مثلها، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم»^(٢).

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لا يزال يُستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم، ما لم يستعجل» قيل: يا رسول الله، ما الاستعجال؟ قال: «يقول: قد دعوت، وقد دعوت، فلم أرَ يستجيب لي، فيستحسر - أي ينقطع - عند ذلك ويدع الدعاء»^(٣).

ودلت الآية على أن الدعاء أمر مطلوب، ويحرم تركه، كما قال تعالى: ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾^(٤).

فالدعاء عبادة وقربة يتقرب بها الإنسان إلى الله تعالى، وقد أكد هذا المعنى قوله تعالى بعد ذلك: ﴿فليستجبوا لي﴾ أي: بعبادتي وطاعتي.

﴿وليؤمنوا بي﴾ الإيمان الصحيح الواجب عليهم، وذلك بالثبات والدوام عليه.

﴿لعلهم يرشدون﴾ [١٨٦] أي: يصيبون الحق ويهتدون إليه.

إنها آية عجيبة، آية تسكب في قلب المؤمن الندوة الحلوة، والودّ المؤنس، والرضى المطمئن، والثقة واليقين، فلم يقل تعالى في الردّ عليهم: فقل لهم. إنما تولّى تعالى بذاته الجواب على عباده بمجرد السؤال، ولم يقل: أسمع الدعاء. إنما عبّج بالإخبار عن إجابة الدعاء ﴿أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾، وفي ظلّ هذا الأنس الحبيب يوجّه تعالى عباده إلى الاستجابة له والإيمان به، لعلّ هذا أن يقودهم إلى الهداية والرشد والصلاح، فالثمرة الأخيرة من الاستجابة والإيمان هي لهم كذلك، والله غنيّ عن العالمين^(٥).

(١) الأنعام: الآية ٤١.

(٢) رواه الترمذي.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الذكر (٢٧٣٥).

(٤) غافر: الآية ٦٠.

(٥) انظر: في ظلال القرآن ١/ ١٧٣.

تخفيف وتيسير في أحكام الصيام

وأضافت الآيات وجهاً آخر من وجوه التيسير والتخفيف في أحكام الصيام؛ تأكيداً لما أخبر عنه تعالى في قوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾، وإبرازاً لِيُسْرَ أحكام الشريعة الإسلامية وسماحتها، وامتيازها على غيرها من الشرائع، قال تعالى: ﴿أَجَلٌ لَّكُمْ لَيْلَةُ الصِّيَامِ الرِّفْثِ إِلَى نَسَائِكُمْ﴾ أي: أَجَلٌ لَّكُمْ لَيْلَةُ الصِّيَامِ مُجَامَعَةِ نَسَائِكُمْ، وكان الاتصال الجنسي بالنساء محرماً على الصائمين في ليالي الصيام بعد النوم، كذلك الحكم في الأكل والشرب.

ويبدو أن الصيام الذي كلف الله به أهل الكتاب كان هكذا - كما سيأتي - وكان أيضاً هكذا في أول ما شرع الصيام على المسلمين، ثم خفف سبحانه على المسلمين بهذه الآية الكريمة.

والرفث في الفعل: الجماع، وفي القول: الكلام الفاحش، وعُدِّي بـ (إلى) للدلالة على أن المراد به الفعل والاتصال بالنساء، وأكدته قوله تعالى بعد ذلك:

﴿هَنَ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ وهو كناية عن شدة الاقتراب والملابسة بين الزوجين، وقوة الاتصال بينهما، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١).

وفي الآية إشارة إلى أن كل واحد من الزوجين يستر الآخر ويمنعه من الفواحش والفجور.

وجاءت كالبيان لسبب الإحلال، وهو أنه: إذا كان بينكم وبينهنّ مثل هذه المخالطة والملابسة، قلّ صبركم عنهنّ، وصعب عليكم اجتنابهنّ؛ فلذا رخص لكم في مباشرتهنّ (٢).

ثم واجهتهم الآية بحقيقة ضعف الإنسان أمام شهوته:

﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: تظلمونها بفعل المخالفة والمعصية، والاختيان أبلغ من الخيانة، كالاكتساب من الكسب، وأصل الخيانة أن يؤتمن الرجل على شيء فلا يؤدّي فيه الأمانة، والإنسان مؤتمن على ما كلفه الله تعالى

(١) الروم: الآية ٢١.

(٢) تفسير النسفي ٢٦٧/١.

به؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون﴾^(١).

وفي الحديث الشريف عن البراء رضي الله عنه: لما نزل صوم رمضان، كانوا لا يقربون النساء رمضان كله، وكان رجال يخونون أنفسهم، فأنزل الله: ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم﴾^(٢).

وقوله: «لا يقربون النساء رمضان كله» أي: بعد النوم، كما ورد في عدد من الأخبار^(٣)، وفي رواية أخرى عن البراء رضي الله عنه قال: كان أصحاب محمد ﷺ، إذا كان الرجل صائماً فحضر الإفطار، فنام قبل أن يفطر، لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسي، وإن قيس بن صرمة الأنصاري كان صائماً، فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال لها: أعندك طعام؟ قالت: لا، ولكن أنطلق فأطلب لك، وكان يومه يعمل، فغلبته عيناه، فلما رآته قالت: خيبة لك، فلما انتصف النهار غشي عليه، فذكر ذلك للنبي ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾ ففرحوا بها فرحاً شديداً، ونزلت ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾^(٤).

قال ابن حجر رحمه الله: وبين السدي وغيره أن ذلك الحكم كان على وفق ما كتب على أهل الكتاب، كما أخرجه ابن جرير من طريق السدي، ولفظه: «كتب على النصاري الصيام، وكتب عليهم ألا يأكلوا ولا يشربوا ولا ينكحوا بعد النوم، وكتب على المسلمين أولاً مثل ذلك» ويؤيد هذا ما أخرجه مسلم من حديث عمرو بن العاص مرفوعاً: «فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحر»^(٥).

﴿فتاب عليكم﴾ أي: قبل توبتكم، أو خفف عنكم بالرخصة والإباحة، كقوله تعالى: ﴿علم أن لن تحصوه فتاب عليكم﴾ يعني: خفف عنكم.

﴿وعفا عنكم﴾ يحتمل العفو عن الذنب، ويحتمل التوسعة والتسهيل.

وقد ورد في بعض الروايات أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان من الذين

(١) الأنفال: الآية ٢٧.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير (٤٥٠٨).

(٣) انظر فتح الباري ١٨٢/٨.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الصوم (١٩١٥).

(٥) فتح الباري ١٣٠/٤.

خانو أنفسم قبل العفو والترخيص، قال ابن العربي رحمه الله : قال علماء الزهد : هكذا فلتكن الغاية وشرف المنزلة، خان نفسه عمر رضي الله عنه فجعلها الله تعالى شريعة، وخفف من أجله عن الأمة، فرضي الله عنه وأرضاه^(١).

﴿ فالآن باشروهن ﴾ الآن أجل لكم ما كان محرماً عليكم، ويمكنكم الاتصال بهن للجماع، وهذا من حُسن التعبير القرآني، كُنِيَ عن الجماع بالمباشرة لالتصاق بشرة الزوجين فيه.

﴿ وابتغوا ما كتب الله لكم ﴾ أي : اطلبوا ما قدّر الله تعالى لكم من الولد، فالاتصال الجنسي سبب، والخالق هو الله تعالى.

ومدّت الآية زمن إباحة تناول الطعام والشراب والجماع طول الليل حتى يطلع الفجر.

﴿ وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ﴾ أي : حتى يتميز بياض الفجر عن سواد الليل . وفي الحديث الشريف عن عديّ بن حاتم رضي الله عنه قال : لما نزلت ﴿ حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود ﴾ عمدت إلى عقال أسود وإلى عقال أبيض، فجعلتهما تحت وسادتي، فجعلت أنظر في الليل فلا يستبين لي، فغدوت على رسول الله ﷺ فذكرت له ذلك، فقال : «إنما ذلك سواد الليل ويباض النهار»^(٢).

والمراد بقوله : «لما نزلت» أي : لما تُلِيَتْ عليّ عند إسلامي ؛ لأن إسلام عديّ كان في السنة التاسعة أو العاشرة بعد نزول الآية^(٣).

والمراد من الفجر : الفجر الصادق المستطير في الأفق، أما الفجر الذي يظهر أولاً كشعاع مستطيل كذنب الذئب ثم يغيب وتعقبه ظلمة، فهو فجر كاذب لا يبدأ به وقت صلاة الصبح ولا وقت الإمساك للصيام، إنما الفجر الصادق الذي يظهر بعده باثنتي عشرة دقيقة، ويستطير ضوءه وينتشر في الأفق، هو الذي يبدأ به وقت الصلاة والإمساك، وعن عائشة رضي الله عنها : إن بلاً كان يؤذّن لليل، فقال رسول الله ﷺ : «كلوا واشربوا حتى يؤذّن ابن أم مكتوم، فإنه لا يؤذّن حتى يطلع الفجر»^(٤).

(١) تفسير القرطبي ٣١٧/٢.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الصوم (١٩١٦).

(٣) فتح الباري ١٣٢/٤.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الصوم (١٩١٨).

وعن سمرة بن جندب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يغرن أحدكم نداء بلال من السحور، ولا هذا البياض حتى يستطير»^(١).

﴿ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾ أي: إلى أول الليل، فمتهى الصيام أول الليل، كما في الحديث الشريف عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أقبل الليل من هاهنا، وأدبر النهار من هاهنا وغربت الشمس، فقد أفطر الصائم»^(٢).

وأشارت الآية إلى كراهية الوصال، وهو مواصلة الإمساك عن المفطرات في الليل، حتى يتصل صيام اليوم بالذي يليه، وقد ثبت أن النبي ﷺ نهى عنه، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: نهى رسول الله ﷺ عن الوصال رحمة لهم، فقالوا: إنك تواصل. قال: «إني لست كهيتكم، إني يطعمني ربي ويسقين»^(٣).

قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿إلى الليل﴾ فيه ما يقتضي النهي عن الوصال؛ إذ الليل غاية الصيام... وعلى كراهية الوصال جمهور العلماء، وقد حرمه بعضهم لما فيه من مخالفة الظاهر والتشبه بأهل الكتاب^(٤).

وقد مر معنا قول النبي ﷺ: «فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحر».

وبعد أن أحل الله تعالى لهم الجماع في الليل، بين لهم أنهم إذا كانوا معتكفين في المساجد، فلا يحل لهم الجماع في أثناء الاعتكاف ليلاً ونهاراً، فقال:

﴿ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد﴾ أي: وأنتم معتكفون في المسجد بقصد العبادة والقربة. والاعتكاف سنة مؤكدة في العشر الأخير من رمضان، مستحب في غيره من الأزمنة، فعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر في رمضان حتى توفاه الله تعالى، ثم اعتكف أزواجه من بعده^(٥).

﴿تلك حدود الله﴾ أي: تلك الأحكام التي ذكرت في الآيات حدود الله.

وأصل الحد في اللغة المنع، والحدود: الحواجز، وسُميت الأحكام حدود الله؛

(١) صحيح مسلم، كتاب الصيام (١٠٩٤).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الصوم (١٩٥٤).

(٣) صحيح البخاري، كتاب الصوم (١٩٦٤).

(٤) تفسير القرطبي ٣٢٩/٢.

(٥) متفق عليه، واللفظ للبخاري، كتاب الاعتكاف (٢٠٢٦).

لأنها تمنع أن يدخل فيها ما ليس منها، وأن يخرج منها ما هو منها^(١)، وسيأتي قوله تعالى في أحكام الطلاق: ﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾. أما هنا فقال:

﴿فلا تقربوها﴾ بمخالفتها أو تغييرها، ويفيد النهي عن الاقتراب من الحدّ الحاجز بين الحق والباطل الابتعاد عن الباطل ومجانبتها، كما مرّ في الحديث الشريف «كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه».

﴿كذلك﴾ أي: كما بيّن تعالى أحكام الصيام.

﴿يبين الله آياته للناس﴾ أي: معالم دينه وأحكام شريعته.

﴿لعلهم يتقون﴾ [١٨٧] أي: لعلهم إذا تمسكوا بأحكام شريعته، يتحققون بصفة التقوى ويدخلون في زمرة المتّقين.

تحريم أكل المال بالباطل

ومن معالم دين الله تعالى وأحكام شريعته، حقّ التملّك الفردي للمال، وتقدير حرمة هذا المال، وتحريم أكله بالباطل من قبّل الآخرين؛ ولهذا قال تعالى يقرّر هذا المبدأ الهام من مبادئ التعامل المالي بين الناس:

﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ أي: لا يأكل بعضكم مال بعض بالباطل، كالغصب والسرقة والغش والاحتيال والربا والقمار، إلى غير ذلك من وجوه الاكتساب غير المشروع في الإسلام. وعبر عن أخذ المال بالأكل لأنه المقصود الأعظم، وقد وقع التعارف بين الناس على هذا المراد، فيقولون: فلان يأكل أموال الناس. بمعنى: يأخذها بغير حلّها.

وأفاد قوله: ﴿أموالكم﴾ أن آكل مال أخيه بالباطل كآكل مال نفسه بالباطل، ويمكن أن يكون المعنى: لا تأكلوا أموالكم المملوكة لكم بالباطل، وذلك بإنفاقها في الوجوه المحرّمة، كثمن الخمر والخنزير، وفي القمار والربا.

﴿وتدلوها بها إلى الحكّام﴾ أي: ولا تدلوها بها إلى الحكّام.

﴿لتأكلوا﴾ بالتحاكم إليهم.

(١) تفسير القرطبي ٣٣٧/٢.

﴿ فريقاً من أموال الناس بالإثم ﴾ أي: بما يستوجب الإثم والمعصية، كشهادة الزور واليمين الكاذبة والرشوة.

فمعنى الآية: لا تُصانِعُوا بِأَمْوَالِكُمُ الْحَكَّامَ وترشوهم؛ ليقضوا لكم على أكثر منها. قال ابن عطية: وهذا القول يترجح، لأن الحكَّام مظنة الرشاء، إلّا مَنْ عُصِمَ، وهو الأقل، وأيضاً فإن اللفظين متناسبان: تدلوا، من إرسال الدلو. والرشوة من الرشاء^(١)، كأنه يمدّ بها ليقضي الحاجة^(٢). ويقوّي هذا قوله: ﴿ وتدلوا بها ﴾ تدلوا: في موضع جزم عطفاً على ﴿ تاكلوا ﴾^(٣).

﴿ وأنتم تعلمون ﴾ [١٨٨] أنكم مبطلون، وأن هذه الأموال محرّمة عليكم، فحكم الحاكم لا يحلّ حراماً في الشريعة الإسلامية، والحرام ما حرّمه الله تعالى، والحلال ما أحلّه تعالى، وفي صحيح البخاري: باب مَنْ قَضَى لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ فَلَا يَأْخُذْهُ، فَإِنْ قَضَاءُ الْحَاكِمِ لَا يَحِلُّ حَرَاماً، وَلَا يَحْرُمُ حَلَالاً. ثُمَّ رَوَى بِسَنَدِهِ إِلَى أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَمِعَ خَصُومَةَ بَابِ حَجْرَتِهِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّهُ يَأْتِينِي الْخَصْمُ، فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَبْلَغُ مِنْ بَعْضٍ، فَأَحْسَبُ أَنَّهُ صَادِقٌ، فَأَقْضِي لَهُ بِذَلِكَ، فَمَنْ قَضَيْتَ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ، فَلْيَأْخُذْهَا أَوْ لِيَتْرَكْهَا»^(٤).

ولعلّ هذا سرّ إيراد هذه الآية بعد آيات الصيام، وتقديم تقرير هذا المبدأ في التعامل المالي على آيات المعاملات المالية المذكورة في أواخر السورة، فالصيام يربّي نفس المسلم، ويقوّي إحساسه بمسؤوليته ورقابة الله تعالى عليه، ولا شك أن الأثر العملي لهذه التربية الوجدانية تظهر في تعامل الإنسان مع غيره، وفي امتناعه عن أكل أموال الناس بالباطل، ولو حكم الحاكم له بها، فإن حكم الله تعالى فوق أحكام جميع الحكّام والقضاة.

الأهلة والمواقيت الشرعية

لَمَّا كَانَتِ التَّوْقِيتَاتُ الشَّرْعِيَّةُ مُؤَقَّتَةً بِالشُّهُورِ الْقَمَرِيَّةِ، ذَكَرَ تَعَالَى آيَةَ الْأَهْلَةِ فِي سِيَاقِ آيَاتِ الصَّيَامِ وَفِي مُقَدِّمَةِ آيَاتِ الْجِهَادِ وَالْحَجِّ، فَبَعْضُ أَحْكَامِ الْجِهَادِ لَهَا صِلَةٌ بِالشُّهُورِ

(١) الرشاء: حبل الدلو.

(٢) انظر: المحرر الوجيز ١٣٣/٢.

(٣) تفسير القرطبي ٣٤٠/٢.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الأحكام (٧١٨١).

الحُرْم - كما سيأتي - وهي أشهر قمرية، وأشهر الحج أيضاً قمرية، وبهذا تكون الآية متصلة بما قبلها، وممهدة لما يأتي بعدها.

ونزلت الآية جواباً لسؤال وُجِّه إلى النبي ﷺ عن الأهلة، ولا يوجد بين أيدينا رواية صحيحة تكشف لنا عن السائلين، سوى ما أخرجه ابن عساكر بسند ضعيف أن معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم قالا: يا رسول الله ما بال الهلال يبدو ويطلع دقيقاً مثل الخيط، ثم يزيد حتى يعظم ويستوي ويستدير، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان، لا يكون على حال واحد؟ فنزلت. وفي رواية أن معاذاً قال: يا رسول الله إن اليهود يُكثرون مسألتنا عن الأهلة. فأنزل الله تعالى هذه الآية^(١).

﴿يسألونك عن الأهلة﴾ وهي جمع هلال، وجمع وهو واحد لتغير أحواله كل ليلة، وهذا يدل على أنهم سألوا عن حكمة التغير والتحول في الهلال، حسب النظام الدقيق المقدر له، قال تعالى: ﴿والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم﴾^(٢).

﴿قل هي مواقيت للناس والحج﴾ أي: قل هي أوقات يؤقت الناس بها مصالحهم وعباداتهم، وخصوصاً الحج، قال تعالى: ﴿هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون﴾^(٣). ويلاحظ أنه تعالى اقتصر في الآية على ذكر الجانب الشرعي المتصل بمنازل الأهلة، ولم يتعرض سبحانه للجانب العلمي الفلكي، مما يدل على أن القرآن الكريم كتاب هداية وتشريع.

ثم بينت الآية بطلان عادة جاهلية، كانوا يفعلونها عندما يحرمون في أشهر الحج:

﴿وليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾ قال البراء رضي الله عنه: نزلت هذه الآية فينا، كانت الأنصار إذا حجوا - وفي رواية أخرى بلفظ: إذا أحرموا في الجاهلية - فجاءوا لم يدخلوا من قبل أبواب بيوتهم، ولكن من ظهورها، فجاء رجل من الأنصار فدخل من قبل بابه، فكانه غير بذلك، فنزلت: ﴿وليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البرّ من اتقى واثتوا البيوت من أبوابها﴾^(٤).

(١) روح المعاني ٧١/٢.

(٢) يس: الآية ٣٩.

(٣) يونس: الآية ٥.

(٤) صحيح البخاري، كتاب العمرة (١٨٠٣).

﴿ولكن البرَّ مَنْ اتَّقَى﴾ أي: اتقى الله تعالى، باجتناب المحظورات وفعل الطاعات، كما تقدم في آية البرِّ.

﴿واثتوا البيوت من أبوابها﴾ في حال الإحرام وغيره، وباشروا الأمور من وجوهها التي يجب أن تباشر عليها. ولعلَّ في ذلك تأديباً لهم وإشارة إلى سؤالهم عن الأهلَّة، فقد سألوها عن أمر لا يعينهم، وتركوا السؤال عمَّا يعينهم مما يتعلق بشؤون دينهم وعباداتهم^(١).

﴿وانقوا الله﴾ بالتزام شرعه والوقوف عند حدوده.

﴿لعلَّكم تفلحون﴾ [١٨٩] بالوصول إلى البرِّ والهدى والرشاد.

تشريع الجهاد وتحريم العدوان

الجهاد لإعلاء كلمة الله تعالى مشروع في الإسلام، وهو من أعظم العبادات وأفضل القربات، وكلمة: ﴿جهاد﴾ تدلُّ بمعناها اللغوي على شدَّته وصعوبته، فهو في الأصل المشقة، يقال: جهدت جهداً، بلغت المشقة، ومعناها الشرعي بذل الجهد في قتال الكفار.

ومن رحمته تعالى بالمؤمنين أنه ما كلفهم بالجهاد في أول الأمر، فما شرعه تعالى إلا بعد الهجرة؛ لأنهم كانوا بمكة مستضعفين لا شوكة لهم ولا قوة، ولما هاجروا إلى المدينة، وصارت لهم مأوى ومعقلاً، وقاعدة انطلاق ينطلقون منها إلى ميادين الجهاد، شرع تعالى الجهاد وأنزل أول آياته: ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير﴾^(٢). وأنزل أيضاً هذه الآية:

﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم﴾ أي: كما يقاتلونكم قاتلوهم، ففي الآية تهيج وإغراء بالأعداء، الذين همَّتهم قتال الإسلام وأهله^(٣)، كما في قوله تعالى: ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين﴾^(٤).

﴿ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ [١٩٠] أي: اجعلوا قتالكم في سبيل الله ورفع كلمته، ولا تجعلوه للعدوان، فإنه سبحانه لا يحب المعتدين.

(١) تفسير البضاوي والنسفي (١/٢٧٥).

(٢) الحج: الآية ٣٩.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ١/١٦٩.

(٤) التوبة: الآية ٣٦.

ويدخل في الاعتداء - كما قال ابن كثير - ارتكاب المناهي من المثلة والغلول، وقتل النساء والصبيان والشيوخ وأصحاب الصوامع، وتحريق الأشجار، وقتل الحيوان لغير مصلحة^(١). وهذا ما يسمى في عصرنا الحاضر الأهداف المدنية التي لا علاقة لها بالقتال.

وقد ثبت في السَّنة النبوية الشريفة النهي عن التعرّض لهم، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: وَجِدْتُ امرأةً مقتولةً في بعض مغازي رسول الله ﷺ، فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان^(٢).

والمراد بالنساء اللواتي لا يشاركن في القتال، أما المشاركات في القتال فيجوز قتلهن. وعن بريدة قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية، أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: «اغزوا بسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلّوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً»^(٣).

﴿واقتلوهم حيث ثقتموهم﴾ أي: حيث وجدتموهم وظفرتهم بهم، وأصل الثقف الحذق في إدراك الشيء علماً كان أو عملاً، فهو يتضمن معنى الغلبة، ولذلك استعمل فيها^(٤).

﴿وأخرجوهم من حيث أخرجوكم﴾ أي: أخرجوهم من ديارهم كما أخرجوكم من دياركم وألجؤوكم إلى الهجرة.

﴿والفتنة أشد من القتل﴾ أي: والمحنة التي أصابتكم منهم، حين آذوكم وأخرجوكم من دياركم، لأجل أن يردوكم عن دينكم، أعظم من القتل.

فالآية تذكر المسلمين بما أنزله المشركون فيهم من أنواع الظلم والاضطهاد عندما كانوا في مكة؛ لإثارة عواطفهم وإلهاب حماسهم في قتال المشركين، ومن المعلوم أن معارك الإسلام الأولى عندما شرع الجهاد كانت بين المسلمين وبين مُشركي مكة المكرمة.

ثم أمرتهم الآيات بالمحافظة على حرمة البلد الحرام مكة المكرمة، فمنعتهم من إنشأ القتال فيه إلّا في حال الدفاع عن النفس، فجاء هذا المنع بمثابة التخصيص لعموم ما تقدّم في قوله تعالى: ﴿واقتلوهم حيث ثقتموهم﴾.

(١) مختصر ابن كثير ١٧٠/١.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الجهاد (٣٠١٥).

(٣) صحيح مسلم، كتاب الجهاد (١٧٣١).

(٤) البيضاوي ٢٧٦/١.

﴿ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه﴾ فللحرم حُرْمته، كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾، وذكرنا ثَمَّة قول النبي ﷺ: «إن هذا بلد حرَّم الله يوم خلق السموات والأرض، وهو حرام بحُرْمَةِ الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحلَّ القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحلَّ لي إلا ساعة من نهار». فإن قاتلوكم فاقتلوهم ﴿لأنهم الذين هتكوا حُرْمَةَ بيت الله الحرام، ولهذا اضطر خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى قتال مَنْ تصدَّى له من المشركين، في أثناء فتح مكة المكرمة.

﴿كذلك جزاء الكافرين﴾ [١٩١] أي: قتال الكافرين وقتلهم جزاؤهم على ما فعلوا بالمؤمنين.

﴿فإن انتهوا﴾ أي: كفوا عن عدوانهم وظلمهم، أو تركوا كفرهم وشركهم. ﴿فإن الله غفور رحيم﴾ [١٩٢] يغفر ذنوب التائبين ويرحمهم، فكفوا عن قتالهم، فالقتال في الإسلام وسيلة لا غاية، ولا يشرع إلا عند الحاجة إليه، كما قال تعالى: ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم﴾^(١).

استمرار الجهاد

ثم أمرت الآيات المسلمين بالاستمرار في جهاد الكافرين وقتالهم، ما دامت شوكة الكفر في الأرض قوية حادة، تمكّن الكافرين من فتنة المؤمنين وصدهم عن دينهم، فالدنيا دار اختبار وابتلاء، والصراع القائم فيها بين الحق والباطل لا يتوقف، كما أشارت إلى ذلك الآية التي مرّت معنا: ﴿وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوٌ ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾. ولهذا قال تعالى:

﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾ أي: قاتلوا الكفار حتى لا يبقى لهم قوة يستطيعون بها أن يفتنوا المسلمين عن دينهم، هذا هو المراد من الفتنة، فأمر الله تعالى بقتالهم حتى تزول هذه الفتنة^(٢).

﴿ويكون الدين لله﴾ أي: ويكون الخضوع والاستسلام لدين الله تعالى وحده ولأحكام شريعته، إما بالدخول في الإسلام، أو بالرضا بحكمه والعيش مع المسلمين في

(١) الأنفال: الآية ٦١.

(٢) تفسير الرازي ١٦٩/١٥.

ظل سماحته وعدله، فالقتال لم يشرع لإكراه الناس على الإسلام، كما سيأتي عند قوله تعالى: ﴿ لا إكراه في الدين ﴾.

ويمكن أن يكون المعنى: حتى يكون دين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان^(١).

والى المعنى الأول ذهب عبد الله بن عمر رضي الله عنه، فإنه عندما حدث الخلاف بين الصحابة بعد استشهاد عثمان رضي الله عنه، اعتزل عبد الله بن عمر، فجاءه رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن ما حملك على أن تحجّ عاماً وتعتمر عاماً وتترك الجهاد في سبيل الله عز وجل، وقد علمت ما رغب الله فيه؟ قال: يا ابن أخي، بُني الإسلام على خمس إيمان بالله ورسوله والصلوات الخمس وصيام رمضان وأداء الزكاة وحج البيت قال: ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه ﴿قاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾ قال: فعلنا على عهد رسول الله ﷺ، وكان الإسلام قليلاً، فكان الرجل يفتن في دينه، إما قتلوه وإما يعذبونه، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة^(٢).

﴿ فإن انتهوا ﴾ عن الكفر أو عن معارضة دين الله والصدّ عنه.

﴿ فلا عدوان إلّا على الظالمين ﴾ [١٩٣] أي: فلا تعتدوا عليهم، فإن فعلتم صرتم ظالمين.

والجدير بالذكر أنه تعالى قال في موضع آخر: ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير. وإن تولّوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير ﴾^(٣).

﴿ الشهر الحرام بالشهر الحرام ﴾ أي: إن اعتدوا عليكم في الشهر الحرام فقاتلوهم فيه، كما مرّ عند قوله تعالى: ﴿ ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ﴾.

﴿ والحرّمات قصاص ﴾ أي: ويجري القصاص في الحرّمات.

والحرّمات جمع حرمة، وإنما جمعت لأنه أراد حرمة الشهر الحرام، وحرمة البلد الحرام، وحرمة الإحرام. ومعناها: ما منعت من انتهاكه^(٤).

(١) مختصر ابن كثير ١٧٠/١.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير (٤٥١٤).

(٣) الأنفال: الآية ٣٩ - ٤٠.

(٤) تفسير القرطبي ٣٥٥/٢.

فَمَنْ هَتَكَ أَيَّ حَرَمَةٍ كَانَتْ اقْتَصَصَ مِنْهُ بِهَا، وَالظَّالِمُ هُوَ الْبَادِيءُ بِانْتِهَاكِ الْحَرَمَةِ؛
ولهذا قال بعد ذلك: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ أي:
فقابلوا عدوانه بمثله، وَسُمِّيَ الْجَزَاءُ اعْتِدَاءً عَلَى سَبِيلِ الْمَقَابَلَةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَزَاءُ
سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بِالْوَقُوفِ عِنْدَ حُدُودِهِ وَالتَّزَامِ أَحْكَامِ شَرِيعَتِهِ فِي أَثْنَاءِ الْقِتَالِ
وَالْجِهَادِ.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [١٩٤] يُؤَيِّدُهُمْ وَيَنْصُرُهُمْ، فَبِالتَّقْوَى يَسْتَنْزِلُ
الْمُسْلِمُونَ مَعُونَةَ اللَّهِ وَنَصْرَهُ وَتَأْيِيدَهُ، فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَتَمَسَّكُوا بِهَا فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ
وَوُضُوفِهِمْ.

وكما يحتاج الجهاد إلى التضحية بالأرواح، يحتاج أيضاً إلى بذل الأموال وإنفاقها
على إعداد العدد والمؤن والتجهيزات، وقد شهد العصر الحاضر تطوراً كبيراً في الأسلحة
والذخائر والمعدات، يحتاج تأمينها إلى نفقات باهظة وأموال طائلة؛ ولهذا قال تعالى
يَحْضُرُ عَلَى الْإِنْفَاقِ:

﴿وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: من أجل إعزاز دين الله تعالى وتمكينه في الأرض.

﴿وَلَا تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ أي: لا تعرّضوا أنفسكم إلى الهلاك، بالبخل
والامتناع عن الإنفاق، فإنه يؤدي إلى ضعفكم وتسلط العدو عليكم وهلاككم.

أو: لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة بالإسراف وتبذير المال في غير وجوهه المشروعة
النافعة. أو لا تلقوا بأيديكم إلى الهلاك بترك الجهاد وعدم الاستعداد، فالأمة التي تتخلى
عن الجهاد والاستعداد له، وتدريب أبنائها على فنون القتال واحتمال مصاعبه وشدائده،
أمة هالكة ذليلة لا مكانة لها بين الأمم. ويؤيد هذا المعنى ما رُوِيَ في سبب نزول الآية،
فعن حذيفة رضي الله عنه، في قوله تعالى: ﴿وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى
التَّهْلُكَةِ﴾ قال: نزلت في النفقة^(١). قال ابن حجر رحمه الله: هذا الذي قاله حذيفة جاء
مفسراً في حديث أبي أيوب الذي أخرجه مسلم والنسائي وأبو داود والترمذي وابن حبان
والحاكم من طريق أسلم بن عمران قال: كنا بالقسطنطينية، فخرج صفّ عظيم من
الروم، فحمل رجل من المسلمين على صفّ الروم حتى دخل فيهم، ثم رجع مقبلاً،
فصاح الناس: سبحان الله! ألقى بيده إلى التهلكة، فقال أبو أيوب: أيها الناس، إنكم

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير (٤٥١٦).

تَوَلَّوْنَ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ، وَإِنَّمَا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِينَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، إِنَّا لَمَّا أَعَزَّ اللَّهُ دِينَهُ وَكَثَرَ نَاصِرُوهُ، قَلْنَا بَيْنَنَا سِرًّا: إِن أَمْوَالَنَا قَدْ ضَاعَتْ، فَلَوْ أَنَّا أَقْمَنَّا فِيهَا وَأَصْلَحْنَا مَا ضَاعَ مِنْهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ، فَكَانَتْ التَّهْلُكَةُ الْإِقَامَةَ الَّتِي أَرَدْنَاهَا. وَصَحَّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَجَمَاعَةٍ مِنَ التَّابِعِينَ نَحْوَ ذَلِكَ فِي تَأْوِيلِ الْآيَةِ^(١).

﴿وَأَحْسِنُوا﴾ بِالْقِتَالِ وَالْإِنْفَاقِ، وَذَلِكَ بَأَنْ تَجْعَلُوهُمَا خَالِصِينَ لِلَّهِ تَعَالَى وَإِعْلَاءَ كَلِمَتِهِ، وَالتَّزَامَ أَحْكَامَ شَرِيعَتِهِ.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [١٩٥].

الحجَّ والجِهَاد

الحجَّ هو الركن الخامس من أركان الشريعة الإسلامية، وتَدُلُّ مناسكُه على الاستسلام الكامل لله تَعَالَى لَأَنَّهَا أَعْمَالُ تَعْبُدِيَّةٍ مُحَضَّةٌ، سِوَاهُ فِي ذَلِكَ الْإِحْرَامِ وَالطَّوَافِ وَالسَّعْيِ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَالْوُقُوفِ بِعَرَفَةَ وَمَزْدَلِفَةَ، وَرَمِي الْجِمَارِ... وَغَيْرِهَا مِنْ الْمَنَاسِكِ.

وَفِي كَلِمَةِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عِنْدَمَا أَرَادَ تَقْبِيلَ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ فِي أَثْنَاءِ الطَّوَافِ حَوْلَ الْبَيْتِ، مَا يُوَكِّدُ مَعْنَى الْإِسْتِسْلَامِ وَالْإِنْقِيَادِ لِلَّهِ تَعَالَى فِي مَنَاسِكِ الْحَجِّ، فَقَدْ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْبَلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ^(٢).

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَفِي قَوْلِ عُمَرَ هَذَا التَّسْلِيمُ لِلشَّارِعِ فِي أُمُورِ الدِّينِ، وَحُسْنُ الْإِتْبَاعِ فِيمَا لَمْ يَكْشَفْ عَنْ مَعَانِيهَا، وَهِيَ قَاعِدَةٌ عَظِيمَةٌ فِيمَا يَفْعَلُهُ وَلَوْ لَمْ يَعْلَمْ الْحِكْمَةُ فِيهِ^(٣).

وَيَلَاظُ أَنَّهُ تَعَالَى قَرْنَ بَيْنَ آيَاتِ الْحَجِّ وَآيَاتِ الْجِهَادِ، هُنَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ، كَمَا قَرْنَ أَيْضاً بَيْنَهُمَا فِي سُورَةِ الْحَجِّ، وَقَدْ بَيَّنَّ تَعَالَى سِرَّ اقْتِرَانِ الْحَجِّ بِالْجِهَادِ فِي سُورَةِ الْحَجِّ، عِنْدَمَا قَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصَدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يَرِدْ فِيهِ بِالْهَادِ بِظُلْمٍ نَذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٤)، ثُمَّ فِي قَوْلِهِ أَيْضاً بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْجَمَتْ

(١) فتح الباري ١٨٥/٨.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الحج (١٥٩٧).

(٣) فتح الباري ٤٦٣/٣.

(٤) الآية ٢٥.

صوامع وبيع وصلوات ومساجد يُذكر فيها اسم الله كثيراً ولنصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز ﴿١﴾ فالحجّ رمز لوحدة المسلمين وتوحيدهم، والصدّ عنه صدّ عن الإسلام، ومحاربة للأمة المسلمة، وتهديد لمقدساتهم وأماكن عبادتهم، وفي الجهاد حماية للأمة المسلمة ومقدساتها.

وقد أشارت الآيات هنا في سورة البقرة أيضاً إلى الصلة بين الحج والجهاد، بتقديمها بيان حكم الإحصار في الحج والعمرة، ولا شك أن سببه الرئيسي هو قطع الطريق على الحجاج والعمّار، ومنعهم من الوصول إلى بيت الله الحرام، كما فعل المشركون من أهل مكة عندما صدّوا رسول الله ﷺ وأصحابه، في السنة السادسة من الهجرة، عن الوصول إلى بيت الله الحرام ودخول مكة، بعد أن خرجوا مُحْرَمِينَ لأداء مناسك العمرة، وكذلك كان الصليبيّون يفعلون في أثناء الحروب الصليبية، عندما تمكنوا من إقامة بعض المعاقل والحصون في فلسطين على طريق قوافل الحجاج. فللجهاد دور كبير في تأمين سلامة الحجاج والعمّار، وحماية بيت الله الحرام من عدوان أعداء الإسلام، الذين يرون في الحج مظهراً من مظاهر وحدة الأمة المسلمة وقوتها.

الإحصار في الحجّ والعمرة

﴿وَأَتَمُّوا الْحَجَّ وَالْعَمْرَةَ لِلَّهِ﴾ أي: أدّوهما بعد الشروع بهما تأمين، بشرائيهما وفرائضهما وسُننهما لوجه الله تعالى.

﴿فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ﴾ أي: منعتهم من إتمام الحج والعمرة بمانع حال بينكم وبين الوصول إلى بيت الله الحرام، كما حدث في السنة السادسة من الهجرة عام الحديبية، عندما صدّ المشركون رسول الله ﷺ وأصحابه عن الوصول إلى البيت الحرام، وأنزل الله تعالى قوله الكريم: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوُّوهُمْ فَتَصِيَّيْكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةً بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ (٢).

﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أي: فعليكم ما تيسّر من الهدي، فإن أحصر المحرم بحجّ أو عمرة، وأراد أن يتحلّل من إحرامه، فعليه قبل أن يتحلّل أن يذبح ما تيسّر له من الهدي من بعير أو بقرة أو شاة.

(١) الحج: الآية ٤٠.

(٢) الفتح: الآية ٢٥.

﴿ ولا تحلقوا رؤوسكم ﴾ للتحلل من الإحرام.

﴿ حتى يبلغ الهدى محله ﴾ أي: حتى يصل الهدى المكان الذي يُذبح فيه، وهو أرض الحرم عند بعض العلماء، أو أيّ مكان يُذبح فيه عند آخرين، وفي الحديث الشريف عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ معتمرين، فحالف قريش دون البيت، فنحر رسول الله ﷺ بُدْنَه وحلق رأسه^(١).

وقال ابن عباس: إن كان معه هدي وهو محصر نحره، إن كان لا يستطيع أن يبعث به، وإن استطاع أن يبعث به لم يحلّ حتى يبلغ الهدى محله^(٢).

قال ابن حجر رحمه الله: هذه مسألة اختلاف بين الصحابة ومن بعدهم، فقال الجمهور: يذبح المحصر الهدى حيث يحلّ، سواء كان في الحلّ أو في الحرم، وقال أبو حنيفة: لا يذبح إلّا في الحرم، وفصل آخرون كما قاله ابن عباس هنا، وهو المعتمد، وسبب اختلافهم في ذلك، هل نحر النبي ﷺ الهدى بالحديبية في الحلّ أو في الحرم، وكان عطاء يقول: لم ينحروا يوم الحديبية إلّا في الحرم، ووافقه ابن إسحاق، وقال غيره من أهل المغازي: إنما نحر في الحلّ^(٣).

﴿ فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ﴾ أي: لا تحلقوا رؤوسكم في حال الإحرام، إلّا إذا اضطررتم إلى حلقه بسبب مرض، أو أذى تعلّق بالشعر كالقمل. ﴿ففدية﴾ أي: فعلى المحرم الذي اضطر إلى حلق شعر رأسه فدية.

﴿ من صيام ﴾ مقداره ثلاثة أيام.

﴿ أو صدقة ﴾ على ستة مساكين، لكل مسكين نصف صاع من بر - أي قمح -.

﴿ أو نسك ﴾ جمع نسكة، أي: ذبيحة.

وفي الحديث الشريف عن كعب بن عجرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لعلك آذاك هوامك؟» قال: نعم يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: «احلق رأسك وصم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين، أو انسك شاة»^(٤).

ودلت الآية على أن حلق الشعر من محظورات الإحرام.

(١) صحيح البخاري، كتاب المحصر (١٨١٢).

(٢) ذكره البخاري تعليقاً في كتاب المحصر.

(٣) فتح الباري ١١/٤.

(٤) صحيح البخاري، كتاب المحصر (١٨١٤).

التمتع بين العمرة والحج

وتابعت الآيات بيان بعض الأحكام الأساسية في الحج والعمرة، بقوله تعالى:

﴿ فَإِذَا أُمِيتُمْ ﴾ من الإحصار وأصبحتُم في حال سعة وأمن.

﴿ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعِمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ ﴾ أي: تمتع بعد التحلل من العمرة، باستباحة محظورات الإحرام، حتى يحرم بالحج.

﴿ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ أي: فعليه أن يذبح ما يتيسر له من الهدي؛ شكراً لله تعالى أن وفقه لأداء العمرة والحج في أشهر الحج، وتمتع بينهما بالتحلل من إحرام العمرة.

وتدل كلمة ﴿ فَمَا اسْتَيْسَرَ ﴾ التي تكرر ذكرها في الآية، على يسر أحكام الشريعة. ومن مظاهر التيسير في أحكام الحج، أنه سبحانه شرع الصيام بدل الهدي للذين لا يملكون ثمنه، فقال:

﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ ﴾ أي: الهدي. وأقله شاة يشترط لها ما يشترط لشاة الأضحية.

﴿ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ ﴾ أي: في أشهر الحج بين الإحرامين.

﴿ وَسَبْعَةٌ إِذْ رَجَعْتُمْ ﴾ أي: إذا فرغتم من أعمال الحج، أو إذا رجعتُم إلى أهلكم.

﴿ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ في قيامها مقام الهدي، لا بدّ من صيامها كاملة غير ناقصة.

﴿ ذَلِكَ ﴾ أي: حكم التمتع.

﴿ لَمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ أي: لغير الساكنين في الحرم وحوله ضمن حدود المواقيت، فالتمتع مشروع للقادمين من وراء المواقيت.

وكما عودنا الله تعالى في آيات الأحكام في السورة، ختم الآية بالأمر بالتقوى،

فقال:

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ بالتزام أحكام دينه وشرعه.

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [١٩٦] وهو تهديد لمن يخرج على أمره

ويخالف شرعه سبحانه. ويلاحظ أنه تعالى أمر في آيات الجهاد بالتقوى بصيغة التثنية

فقال: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾؛ لحاجة المقاتلين إلى التثبيت، وأما

في آيات الحج، فقد قرن تعالى الأمر بالتقوى مع التحذير من مخالفة الأمر وتوعد

المخالفين ﴿ واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾، وذلك ليحرص الحاج والمعتمر على أداء المناسك كما شرعت، ويحافظ على حُرمة الإحرام وحُرمة الحرم.

من محظورات الإحرام

ولا ينبغي انتهاك حرمة الإحرام بفعل شيء من المحظورات فيه، وقد تقدم ذكر بعضها، وتذكر الآية التالية بعضاً آخر منها:

﴿ الحج أشهر معلومات ﴾ أي: معروفات، وهي شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة.

﴿ فَمَنْ فرض فيهِنَّ الحج ﴾ أي: أوجبه على نفسه بالإحرام فيهنَّ.
﴿ فلا رفث ﴾ أي: لا جماع ولا فحش في الكلام، فهو محظور على المحرم حتى يتحلل من إحرامه ويطوف طواف الإفاضة بعد الوقوف بعرفة.
﴿ ولا فسوق ﴾ أي: ولا خروج عن حدود الشرع بارتكاب المحرمات، فهي في أثناء الإحرام أغلظ جرماً وأعظم إثماً.

﴿ ولا جدال في الحج ﴾ أي: ولا جدال أيضاً مع الناس في أيام الحج.
وفي الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ حجَّ لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»^(١).

فعلى الحاج أن ينصرف إلى أداء المناسك، وأن يستكثر من فعل الطاعات، ويغتتم هذه الفرصة التي يسرها الله تعالى له، حتى وصل إلى هذه البقاع الشريفة، في أوقات شريفة لها حُرمتها، ولهذا قال تعالى بعد ذلك يحث على الإكثار من الطاعات وفعل الخيرات: ﴿ وما تفعلوا من خير يعلمه الله ﴾ ويشيكم عليه يوم القيامة، فلا ينقصكم سبحانه شيئاً، كما قال: ﴿ فَمَنْ يعمل مثقال ذرة خيراً يره ﴾^(٢).

فاغتنموا هذه الفرصة الطيبة المُتاحة لكم، لتزودوا لمعادكم:

﴿ وتزودوا ﴾ بزد السفر الذي تحتاجون إليه عندما ترحلون عن الدنيا بالموت، وتزودوا أيضاً بزد السفر الذي يحتاج إليه المسافر في طريق الحج؛ حتى لا تكونوا عالة

(١) متفق عليه، واللفظ للبخاري، كتاب الحج (١٥٢١).

(٢) الزلزلة: الآية ٧.

على غيركم، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان أهل اليمن يحجّون ولا يتزوّدون، ويقولون: نحن المتوكّلون. فإذا قدّموا مكة سألوا الناس، فأنزل الله تعالى: ﴿وتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى﴾^(١). قال ابن حجر: فيه أن التوكّل لا يكون مع السؤال، وإنما التوكّل المحمود ألاّ يستعين بأحد في شيء، وقيل: هو قطع النظر عن الأسباب بعد تهيئة الأسباب، كما قال عليه السلام: «اعقلها وتوكّل»^(٢).

﴿فإن خير الزاد التقوى﴾ أي: إن أفضل زاد يتزوّد الإنسان به إلى دار الآخرة تقوى الله تعالى، بعبادته والتزام أحكام شريعته، فهذا بيان لزاد الآخرة بعد أن أمر بالتزوّد بزاد الدنيا، ونظيره قوله تعالى يبيّن لباس الأبدان، مع لباس التقوى: ﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلّهم يذكرون﴾^(٣).

وليس من التقوى أن يقصد بيت الله الحرام، من غير نفقة تكفيه وتصونه عن ذلك السؤال، والله تعالى لم يفرض الحج إلّا على المستطيعين؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿والله على الناس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾^(٤).

﴿واتّقون يا أولي الألباب﴾ [١٩٧] أي: خافون واشتغلوا بعبادتي والتزموا بشريعتي، يا أصحاب العقول، فإن حُسن استعمال العقل يستدعي تقوى الله تعالى، ومن لم يتّقه فكأنه لا عقل له^(٥).

التجارة والعمل في الحجّ

وهذا لا يعني حَظَر الاكتساب الحلال في أثناء الحج، فالحج موسم للطاعة والعبادة، وموسم أيضاً للكسب والتجارة، وقد كان العرب في الجاهلية يقيمون الأسواق في موسم الحج، ويبدو أن بعض الصحابة تأثّموا من التجارة في مواسم الحج، فأنزل تعالى قوله الكريم:

﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾ أي: ليس عليكم حَرَج في أن تطلبوا رزقاً من الله تعالى بالعمل والتجارة.

(١) صحيح البخاري، كتاب الحج (١٥٢٣).

(٢) فتح الباري ٢٨٤/٣.

(٣) الأعراف: الآية ٢٦.

(٤) آل عمران: الآية ٩٧.

(٥) تفسير النسفي ٢٩١/١.

ففي الآية دليل على جواز التجارة في الحج للحاج مع أداء العبادة، وأن القصد إلى ذلك لا يكون شركاً، ولا يخرج به المكلف عن رسم الإخلاص المفترض عليه... لكن الحج دون تجارة أفضل؛ لعروها - أي العبادة - عن شوائب الدنيا، وتعلق القلب بغيرها^(١).

﴿ فإذا أفضتم ﴾ أي: اندفعتم بعد غروب شمس اليوم التاسع من ذي الحجة.
﴿ من عرفات ﴾ وهو المكان المسمى بهذا الاسم، والواقع إلى الجنوب الشرقي من مكة المكرمة، على بُعد أربع وعشرين كيلومتراً تقريباً من المسجد الحرام.
والوقوف بعرفات ركن أساسي من أركان الحج، يفوت الحج بفواته، ووقته من زوال شمس يوم التاسع من ذي الحجة، إلى فجر اليوم العاشر منه.
﴿ فاذكروا الله ﴾ بالتلبية والتهليل، وصلاة المغرب والعشاء.

﴿ عند المشعر الحرام ﴾ أي: عند جبل قزح في مزدلفة، التي تقع بين عرفات ومنى، على بُعد أربعة عشر كيلومتراً تقريباً من المسجد الحرام، ويبيت فيها الحجاج بعد الإفاضة من عرفات، ويصلّون فيها الفجر، وقد جاء في حديث جابر رضي الله عنه: فلم يزل واقفاً - أي في عرفات - حتى غربت الشمس، وذهبت الصفرة قليلاً حتى غاب القرص، وأردف أسامة خلفه، ودفع رسول الله ﷺ، وقد شق للقصواء الزمام^(٢)، حتى إن رأسها ليصيب مورك رحله^(٣)، ويقول بيده^(٤): أيها الناس السكينة السكينة، كلما أتى جبلاً من الجبال^(٥) أرخى لها قليلاً حتى تصعد، حتى أتى المزدلفة، فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين، ولم يستريح بينهما شيئاً، ثم اضطجع رسول الله ﷺ حتى طلع الفجر، وصلى الفجر حين تبيّن له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام، فاستقبل القبلة فدعاه وكبره وهلّله ووحدّه، فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً، فدفع قبل أن تطلع الشمس^(٦).

(١) تفسير القرطبي ٤١٤/٢.

(٢) القصواء ناقة النبي ﷺ، وشق: شدّ الزمام.

(٣) أي: موضع رجل الراكب على الناقة.

(٤) أي: مشيراً بها.

(٥) أي: تلاً من تلال الرمل.

(٦) صحيح مسلم، كتاب الحج (١٢١٨).

الذِّكْر والدعاء في الحج

﴿واذكروه كما هداكم﴾ أي: اذكروا الله تعالى ذكراً حسناً كما هداكم هداية حسنة، أو اذكروه كما علّمكم كيف تذكرونه ولا تعدلوا عنه^(١).

وذكرنا عند قوله تعالى: ﴿فاذكروني أذكركم﴾ أن ذكره تعالى ينبغي أن يكون باسم من أسمائه الحسنی، المذكورة في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة.

﴿وإن كنتم من قبله لمن الضالّين﴾ [١٩٨] فاعرفوا فضل الله تعالى عليكم بإنزال القرآن الكريم، وبعثة النبي عليه الصلاة والسلام.

ثم وجّه تعالى الخطاب لقريش، يأمرهم فيه أن يقفوا مع الناس في عرفات، ويفضوا معهم دون أن يكون لهم أي امتياز عليهم، كما كان الحال في الجاهلية، فالإسلام دين المساواة، وهم أمام شرعه تعالى سواء.

﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾ أي: أفيضوا من عرفات حيث يقف الناس، لا من مزدلفة حيث كانت قريش تقف. و﴿ثم﴾ ليست هنا للترتيب؛ وأتى بها إيذاناً بالتفاوت بين الإفاضتين في الرتبة، فإن إحداهما صواب، وهي الإفاضة من عرفات، والأخرى خطأ، وهي الإفاضة من مزدلفة^(٢). وفي الحديث الشريف عن عائشة رضي الله عنها: كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة، وكانوا يسمّون الحمس، وكان سائر العرب يقفون بعرفات، فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه ﷺ أن يأتي عرفات، ثم يقف بها، ثم يفيض منها، فذلك قوله تعالى: ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾^(٣).
﴿واستغفروا الله﴾ مما كنتم عليه في الجاهلية.

﴿إن الله غفور رحيم﴾ [١٩٩].

ثم نبّهت الآيات أن على الإنسان ألا يقتصر على ذكر الله تعالى في أثناء العبادات المكلف بها فقط، بل عليه أن يداوم على ذكره سبحانه، وألا يغفل عنه في جميع شؤون حياته:

﴿فإذا قضيت مناسككم﴾ أي: إذا فرغتم من أعمال الحج.

(١) تفسير النسفي ٢٩٥/١.

(٢) روح المعاني ٨٩/٢.

(٣) صحيح البخاري، كتاب التفسير (٤٥٢٠).

﴿ فاذكروا الله كذكركم آباءكم ﴾ أي: كما يلهج الصبي بذكر أبيه وأمه، فالهجوا بذكر الله تعالى واستمروا عليه، أو: كما كنتم تذكرون آباءكم في المواسم بعد الحج، فقد كانوا يفتخرون بأبائهم وأنسابهم في المجامع بعد الحج.

﴿ أو أشدّ ذكراً ﴾ أي: بل أشدّ ذكراً، أو: وأشدّ ذكراً؛ لأنه هو المُنعم عليهم وعلى الآباء، فهو المستحق للذكر والحمد مطلقاً^(١). والمقصود الحث على كثرة ذكر الله عز وجل.

ثم حذرتهم الآيات من أن يذكروا الله تعالى لكي يسألوه المنافع الدنيوية فقط، كما كانوا يفعلون في الجاهلية.

﴿ فمن الناس من يقول ربنا آتينا في الدنيا ﴾ فكان أحدهم يقول: أبي كان عظيم الفئة، كبير الجفنة كثير المال، فأعطني مثل ما أعطيته.

﴿ وما له في الآخرة من خلاق ﴾ [٢٠٠] أي: من حظ ولا نصيب؛ لأنه قصر نظره على الدنيا وعلّق قلبه بها، وأعرض عن الآخرة وعملها.

ودلت الآية على أنه من أدب الدعاء ألا يقتصر الإنسان فيه على سؤال ما يتصل في الدنيا فقط، وأن عليه أن يضمّ إليه بعض ما يتعلق بالآخرة، كأن يسأل المغفرة والرحمة وحسن الخاتمة، والنجاة من النار ودخول الجنة؛ ولهذا مدح تعالى من يفعل ذلك فقال:

﴿ ومنهم من يقول ربنا آتينا في الدنيا حسنة ﴾ أي: ما يحسن به حالنا في الدنيا.

﴿ وفي الآخرة حسنة ﴾ يحسن بها حالنا في الآخرة.

﴿ وقينا عذاب النار ﴾ [٢٠١].

وهذا دعاء جامع، جمع كل خير في الدنيا والآخرة، وصرف كل شرّ فيهما، وجاء في الحديث الشريف أنه ﷺ كان يكثر الدعاء به، ولما سُئِلَ أنس بن مالك رضي الله عنه: أي دعوة كان يدعو بها النبي ﷺ أكثر؟ قال: كان أكثر دعوة يدعو بها يقول: «اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار»، وكان أنس إذا أراد أن يدعو بدعوة دعا بها، فإذا أراد أن يدعو بدعاء دعا بها فيه^(٢).

﴿ أولئك ﴾ أي: الذين سألوا الحسنة في الدنيا والآخرة.

(١) تفسير الخازن ٢٩٧/١.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الذكر (٢٦٩٠).

﴿لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ أي: لَهُمْ حَظٌّ مِنْ جَنْسٍ مَا سَأَلُوا وَطَلَبُوا.

﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [٢٠٢] فَاسْتَكْثَرُوا مِنْ فِعْلِ الْخَيْرَاتِ، وَالتَّوَجَّهَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِالْإِعْدَاءِ وَسْؤَالِهِ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

ثُمَّ خَتَمَتِ الْآيَاتُ حَدِيثَهَا عَنْ مَنَاسِكَ الْحَجِّ؛ بِالْحَدِيثِ عَنْ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ، وَهِيَ الْأَيَّامُ الثَّلَاثَةُ بَعْدَ يَوْمِ النُّحْرِ الْعَاشِرِ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ، وَسُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَشْرِقُونَ فِيهَا شَرَائِخَ اللَّحْمِ لِتَجْفِيفِهَا بِأَشْعَةِ الشَّمْسِ، أَوَّلَ التَّكْبِيرِ فِيهَا، وَتُسَمَّى أَيْضاً أَيَّامَ مَنْى؛ لِأَنَّ الْحَجَّاجَ يَمْضُونَهَا فِي مَنْى، حَيْثُ يَرْمُونَ الْجِمَارَاتِ.

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ أي: اذْكُرُوا اللَّهَ بِتَعْظِيمِهِ وَتَكْبِيرِهِ فِي أَدْبَارِ الصَّلَوَاتِ وَعِنْدَ ذَبْحِ الْهَدَايَا وَالْأَضَاحِي، وَرَمَى الْجِمَارِ، فِي أَيَّامِ مَنْى الْمَعْدُودَاتِ.

﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي: فَمَنْ اسْتَعْجَلَ وَخَرَجَ مِنْ مَنْى بَعْدَ أَنْ مَكَثَ فِيهَا يَوْمَيْنِ فَقَطْ، الْحَادِي عَشَرَ وَالثَّانِي عَشَرَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ.

﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي: لَا حَرَجَ عَلَيْهِ بِسَبَبِ اسْتِعْجَالِهِ.

﴿وَمَنْ تَأَخَّرَ﴾ أي: مَكَثَ فِي مَنْى إِلَى الْيَوْمِ الثَّلَاثِ عَشَرَ يَرْمِي فِيهِ أَيْضاً.

﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ وَهَذَا التَّخْيِيرُ وَالتَّيْسِيرُ شَرَعَهُ سُبْحَانَهُ:

﴿لِمَنْ أَتَقَى﴾ أي: لِمَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ تَعَالَى وَيُؤَدِّي الْمَنَاسِكَ عَلَى وَجْهِهَا الصَّحِيحَ الْمَشْرُوعَ. فَالْتَحَقُّقُ مِنَ التَّقْوَى هِيَ الْغَايَةُ مِنْ جَمِيعِ التَّكْلِيفَاتِ الشَّرْعِيَّةِ، الَّتِي كَلَّفَ تَعَالَى بِهَا الْمُؤْمِنِينَ؛ وَلِهَذَا خَتَمَ اللَّهُ تَعَالَى آيَاتِ الْحَجِّ بِالْأَمْرِ بِالتَّقْوَى، وَتَذْكِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِمَسْئُولِيَّتِهِمْ أَمَامَهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [٢٠٣] لِكَيْ يَسْأَلَكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ وَيُجَازِيَكُمْ عَلَيْهَا، فَالشُّعُورُ بِالمَسْئُولِيَّةِ أَمَامَ اللَّهِ تَعَالَى أَعْظَمُ وَسَائِلَ تَرْبِيَةِ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ وَتَهْذِيبِهَا وَإِصْلَاحِهَا.

هَكَذَا رَبَطَتِ الْآيَاتُ الْكَرِيمَةُ أَحْكَامَ الْحَجِّ بِتَّقْوَى اللَّهِ تَعَالَى، كَمَا فَعَلَتْ عِنْدَ تَشْرِيعِ الْجِهَادِ وَالصِّيَامِ وَالْوَصِيَّةِ وَالْقَصَاصِ، وَفِي آيَةِ الْبَرِّ، انْسِجَاماً مَعَ مَا أَعْلَنَتْهُ فِي أَوَّلِ آيَاتِ السُّورَةِ: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

الفصل السادس

إِسْلَامٌ وَأَسْتِعْلَامٌ
(أَسْئَلَةُ الصَّحَابَةِ)

تَوْجِيهٌ رَفِيقٌ وَإِرْشَادٌ لَطِيفٌ

دأبت الآيات الكريمة على إبراز سِمة السّماحة واليُسْر في أحكام الشريعة الإسلامية، وهي سِمة بارزة في جانبيين، أولهما في ذات الأحكام بإبراز ما فيها من يُسْر التكليف وسهولتها، وثانيهما في أسلوب التشريع المتدرّج، فلم تشرع الأحكام دفعة واحدة، بل شرعت - كما تقدم - تبعاً لنزول الآيات القرآنية الكريمة على نجوم وأقسام، استمر ثلاثة وعشرين عاماً.

وإن المتدبّر لآيات القرآن الكريم يدرك أيضاً رحمة الله بعباده، بعد أن اكتمل نزوله بهذا الأسلوب التربوي الرفيع، الذي اتّبعه القرآن الكريم في عرض الأحكام الشرعية التكليفية، فلم تُعرّض أحكامه جملة واحدة في مكان واحد، بل فُرّقت ونُثِرَتْ بإحكام عجيب متّقن، بين آيات قرآنية كثيرة، وأقرب مثال إلى ذلك توزيع آيات الأحكام في سورة البقرة، فلم تُعرّض دفعة واحدة وفي مكان واحد، بل نُثِرَتْ ووُزِعَتْ بين آيات كثيرة في السورة الكريمة، وها هي الآيات بعد أن انتهت من عرض أحكام الحج والعمرة، تتوقف عن عرض الأحكام، لكي لا تثقل علينا بتتابع الأحكام وتوالي عرضها، وفي وقفها هذه لم تتعد عن الموضوع الأساسي للسورة، وهو الإسلام لله تعالى والانقياد لأحكام دينه وشريعته، فعرضت في أثناء توقفها هذا، مقارنة بين نموذجين من الناس، نموذج الإنسان الجاحد المعاند لدين الله وشرعه، ونموذج الإنسان المسلم المستسلم لله تعالى. وبهذا الأسلوب التربوي الرفيع المتميز، توجّهنا الآيات توجيهاً رقيقاً لطيفاً إلى التمسك بأحكام الشريعة الإسلامية والإسلام الكامل لله تعالى.

الفاسدون المفسدون المعاندون

﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا﴾ أي: في شؤون الدنيا وزخارفها وبهارجها وأسباب العيش المادي فيها، فحبّه المُفْرِطُ للدنيا يظهر في حلاوة كلامه وفصاحة لسانه، ومن أحبّ شيئاً أكثر من ذكره، وتفتّح أساريره وتطيب نفسه عندما يتحدث عنه.

ولا شك أن مثل هذا الإنسان مُعرّض عن الآخرة، لا يرغب في ذكرها ولا تذكّرها، ولا يُحسِّن الحديث عنها، وإذا ما أراد ذلك اعترته حُبْسَةٌ في لسانه وضعف في بيانه، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (١). ويستعين بالأيمان الكاذبة حتى يقنعك بمراده ويجعلك تتقبل كلامه:

﴿ويشهد الله على ما في قلبه﴾ أي: يحلف قائلاً: الله شاهد على ما في قلبي من حُبِّي لك وحرصي على مصلحتك، وإني لك لناصر، ولا أريد لك إلّا الخير... وغير ذلك من الكلام المعسول المنمّق، كما قال تعالى في صفات المنافقين: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ (٢).

﴿وهو ألدّ الخصام﴾ [٢٠٤] أي: وهو في حقيقته شديد العداوة قوي الخصومة، ممتلىء بالحق والضعيفة، وفي الحديث الشريف عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إِنْ أَبْغَضَ الرَّجَالُ إِلَى اللَّهِ أَلَدَّ الْخَصْمَ» (٣).

وروى الإمام الطبري في تفسيره عند هذه الآية، محاوراة بين عالمين من علماء التابعين، هما سعيد المقبري ومحمد بن كعب القرظي، قال سعيد: إن في بعض الكتب: إن الله عبداً ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أَمَرّ من الصبر، لبسوا للناس مسوكاً (٤) الضأن من اللين، يجترّون الدنيا بالدين، قال الله تبارك وتعالى: أَعْلَىٰ يجترثون، وبني يغترون؟ وعزّتي لأبعثنّ عليهم فتنة تترك الحليم منهم حيران. فقال محمد بن كعب: هذا في كتاب الله جلّ ثناؤه.

فقال: وأين هو من كتاب الله؟

قال: قول الله عزّ وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ (٥).

وتقدم ذكر حديث شريف بهذا المعنى عند قول الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾. ويدلّ الحديث على أن هذا النوع من الناس يكثر في آخر الزمان، وما أكثر ما نجد في مجتمعاتنا المعاصرة كثيراً من أمثال هؤلاء الناس، خاصة في المجتمعات التي يحكمها الطغاة المستبدّون.

(١) الروم: الآية ٧.

(٢) المنافقون: الآية ٤.

(٣) متفق عليه واللفظ لمسلم، كتاب العلم (٢٦٦٨).

(٤) أي: جلود.

(٥) جامع البيان ١٨٢/٢.

﴿ وإذا تولَّى ﴾ أي : انصرف وابتعد عنك ، أو تمكن وأصبح ذا ولاية وسلطة وقوة ، ويقوِّي هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ﴾ (١) .

﴿ سعى في الأرض ليفسد فيها ﴾ أي : بذل كل جهده لينشر الفساد في الأرض ، بنشر العقائد الباطلة ، والأخلاق الهابطة المنحلة .

﴿ ويهلك الحرث والنسل ﴾ أي : ويتلف النبات والزرع ويهدم الأسر ، ويقطع أسباب التكاثر والتوالد التي فُطِرَ عليها الناس ، وذلك بإشاعة الفوضى في العلاقة الجنسية بينهم ، وإشعال وقود الحروب المدمِّرة ، تماماً كما هو مشاهد في كثير من المجتمعات البشرية المعاصرة ، فالأزمات الاقتصادية الخانقة وانتشار المجاعات ، وكثرة الحروب والفتن ، وانحلال الأخلاق والقيَم ، كل ذلك نتيجة تسلُّط حفنة من الفاسدين المفسدين على حكم الأمم والشعوب .

﴿ والله لا يحب الفساد ﴾ [٢٠٥] ولهذا أنزل سبحانه الكتب ، وشرع الشرائع ، وأرسل الأنبياء والرسل ، لكي يدفعوا عن الناس شرَّ المفسدين ، وينشروا الخير والصلاح بين العباد وفي البلاد ، ويعمِّروا الأرض بطاعته سبحانه وعبادته .

ومن صفات هؤلاء الفاسدين المفسدين ، أنهم يبغيضون كل دعوة للإصلاح ؛ لأنهم يرون فيها خطراً يهدِّد سلطان طغيانهم وظلمهم .

﴿ وإذا قيل له اتَّقِ الله ﴾ أي : إذا ذكره أحد المصلحين بالله تعالى ، وخوفه من عذابه وانتقامه .

﴿ أخذته العزة بالإثم ﴾ أي : قهرته وأحاطت به حمية المعاصي والآثام ، فحجبته عن رؤية حقيقة ضعفه وعبوديته لله تعالى ، فازداد تكبراً وطغياناً وفساداً ، وأنكر أن يقال له هذا القول ، واستكبر أن يوجَّه إلى التقوى ، وتعاضم أن يؤخذ عليه خطأ ، وأن يوجَّه إلى صواب ، وأخذته العزة لا بالحق ولا بالعدل ولا بالخير ، ولكن بالإثم ، فاستعزَّ بالإجرام والذنوب والخطيئة ، ورفع رأسه في وجه الحق الذي يُذكر به ، وأمام الله بلا حياء منه ، وهو الذي كان يُشهد الله على ما في قلبه (٢) .

ذكر أن يهودياً كانت له حاجة عند هارون الرشيد ، فاختلف إلى بابه سنة ، فلم

(١) محمد : الآية ٢٢ .

(٢) في ظلال القرآن ٢٠٥/١ .

يقض حاجته، فوقف يوماً على الباب، فلما خرج هارون سعى حتى وقف بين يديه وقال: اتق الله يا أمير المؤمنين، فنزل هارون عن دابته وخرّ ساجداً، فلما رفع رأسه أمر بحاجته فقضيت، فلما رجع قيل له: يا أمير المؤمنين، نزلت عن دابتك لقول يهودي؟ قال: لا، ولكن تذكّرت قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبِهِ جَهَنَّمَ وَلِبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (١).

﴿فحسبه جهنم﴾ أي: تكفيه جهنم، فهي كافية له ولأمثاله من الطغاة المستبدين.

﴿ولبئس المهاد﴾ [٢٠٦] الذي أعد له ولأمثاله.

والمهاد: الفراش، وجيء به للتهكم المرير، ففي مواجهة هذا الاعتزاز بالإثم واللدد في الخصومة، والقسوة في الفساد، والفجور في الإفساد، يجبهه الله تعالى بهذه اللطمة اللائقة به (٢).

فلا ينبغي لمن يقال له: اتق الله، أن يغضب؛ ولهذا قال العلماء: إذا قال الخصم للقاضي: اعدل، ونحوه. له أن يعززه، وإذا قال له: اتق الله. لا يعززه.

وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: إن من أكبر الذنب أن يقول الرجل لأخيه: اتق الله تعالى، فيقول: عليك نفسك، عليك نفسك (٣).

إسلام وسلام

ثم عرضت الآيات في مقابل نموذج الإنسان الجاحد المعاند والفاقد المفسد، نموذج الإنسان المسلم لله تعالى والمستسلم لحكمه وشرعه:

﴿ومن الناس من يشري نفسه﴾ أي: يبيع نفسه وكل ما يملك ويبدلها.

﴿ابتغاء مرضات الله﴾ أي: طلباً للوصول إلى رضوان الله تعالى.

فهم الذين بذلوا أنفسهم وأرواحهم لرفع كلمة الله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿إِن اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَن لَهُمِ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ

(١) تفسير القرطبي ١٩/٣.

(٢) في ظلال القرآن ٢٠٥/١.

(٣) روح المعاني ٩٦/٢.

فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴿١﴾. أو هم الذين قاموا يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر، ويعرضون أنفسهم لغضب الطغاة المستبدين، وهذا ما اختاره الإمام الطبري رحمه الله، فقد رُوِيَ أن عمر بن الخطاب عندما سمع هذه الآية استرجع فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، قام رجل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فقتل. ثم قال الطبري: والذي هو أولى بظاهر هذه الآية من التأويل ما رُوِيَ عن عمر بن الخطاب وعن علي بن أبي طالب وابن عباس رضي الله عنهم من أن يكون عني بها الأمر بالمعروف والناهي عن المنكر^(٢).

ويؤيد هذا القول أن النبي عليه الصلاة والسلام لما سُئِلَ: أيّ الجهاد أفضل؟ قال: «كلمة حق عند سلطان جائر»^(٣)، وقوله ﷺ: «سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله»^(٤).

وأكثر الروايات أن الآية نزلت في صُهب الرومي رضي الله عنه، فقد أخرج جماعة أن صهباً أقبل مهاجراً نحو النبي ﷺ، فاتبعه نفر من المشركين، فنزل عن راحلته ونثر ما في كنانته، وأخذ قوسه، ثم قال: يا معشر قريش لقد علمتم أنني من أركام رجلاً، وإيم الله لا تصلون إليّ حتى أرمي بما في كنانتي، ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي منه شيء، ثم افعلوا ما شئتم، فقالوا: دلنا على بيتك ومالك بمكة ونخلي عنك. ففعل، فلما قَدِمَ على النبي ﷺ قال: «أبا يحيى ربح البيع، ربح البيع» وتلا له الآية. وعلى هذا يكون الشراء على ظاهره بمعنى الاشتراء^(٥).

ولا مانع من حمل الآية على العموم، وإن كان سبب نزولها خاصاً؛ لأن معناها يمكن أن ينسحب على كل مسلم مستسلم لله تعالى، مُدْعِن لأحكام دينه وشرعه. ﴿والله رؤوف بالعباد﴾ [٢٠٧] ومن رأفته سبحانه بعباده أنه أرشدهم إلى دينه القويم وشرعه المستقيم.

وبعد هذه المقارنة دعت الآيات المؤمنين إلى الإسلام الكامل لله تعالى، والإذعان لأحكامه القدريّة والشرعية.

(١) التوبة: الآية ١١١.

(٢) جامع البيان ١٨٧/٢.

(٣) رواه النسائي بإسناد صحيح.

(٤) رواه الترمذي والحاكم وقال: صحيح الإسناد. انظر الترغيب والترهيب ٢٣٥/٣.

(٥) روح المعاني ٩٧/٢.

﴿ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ﴾ أي: استسلموا لله تعالى وأطيعوه جميعاً، كما فعل الذي شرى نفسه ابتغاء مرضات الله.

والسلم، قُرئت بفتح السين وكسرها، وهو الاستسلام والطاعة^(١). وهي تدلّ على شعور المسلم بالأمن والطمأنينة؛ لأنه يمضي مع قدر الله متوجّهاً إليه تعالى، يحقق حكمة وجوده على هذه الأرض دون قلق أو حيرة أو يأس وقنوط.

﴿ ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ [٢٠٨] وهو التحذير الثاني في السورة، جاء يشبه التحذير الأول في قوله تعالى: ﴿ يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾.

وتكرار التحذير يدلّ على خطر اتباع الشيطان، وأنه يسعى جاهداً لمنع الإنسان المسلم من الإسلام لله تعالى والإذعان لأحكامه.

ثم بعد الدعوة إلى الإسلام والتحذير من اتباع الشيطان، توعدهم الآيات من اتباعه؛ تحصيناً لهم من التأثير بنزغاته ووساوسه.

﴿ فإن زللتم ﴾ أي: وقعتم في الزلّة، وهي المعصية والخطأ، وتأثرتم بوساوس الشيطان ونزغاته.

﴿ من بعد ما جاءكم البينات ﴾ أي: من بعد ما جاءكم الأدلة الدالة على الحق، فلا عذر لكم حينئذ بالجهل.

﴿ فاعلموا أن الله عزيز حكيم ﴾ [٢٠٩] فهو سبحانه غالب قاهر، لا تؤثر عليه معاصيكم وزلاتكم، حكيم في كل أمر وشرع، لا ينتقم ولا يعذب إلّا بحق وعدل.

وحتى لا يقنط أصحاب الزلات والمعاصي من رحمة الله، دعتهم الآيات إلى التوبة والعودة إلى الإذعان والاستسلام الكامل لأحكام دين الله وشريعته، بأسلوب مبطن بالوعيد والتهديد: ﴿ هل ينظرون إلّا أن يأتيهم الله ﴾ بالمعنى اللائق به جلّ شأنه، منزهاً عن مشابهة المخلوقات، كما قال سبحانه: ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾^(٢).

وهو سؤال تعجيب من هؤلاء المتقاعسين عن التوبة والرجوع إلى الله تعالى، ماذا

(١) تفسير البضاوي ٣٠٦/١.

(٢) الشورى: الآية ١١.

ينتظرون؟ هل ينتظرون إلا أن يأتيهم الله يوم القيامة ومعهم الملائكة، لسؤالهم وحسابهم ومجازاتهم على أعمالهم؟ فعليهم أن يبادروا إلى التوبة والاستغفار قبل أن يحل بهم هذا اليوم.

﴿ في ظل من الغمام ﴾ أي: قي قطع من السحاب.

﴿ والملائكة ﴾ أي: وتأتي الملائكة أيضاً بعد أن تتشقق السموات وتُزال، وتنزل الملائكة منها إلى أرض المحشر، كما قال تعالى: ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ونُزِّلَ الملائكة تنزيلاً ﴾^(١)، وقال أيضاً: ﴿ هل ينتظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً قل انتظروا إنا منتظرون ﴾^(٢).

﴿ وقضي الأمر ﴾ أي: وجب العذاب وفُرج من الحساب؛ لأنه تعالى سريع الحساب.

﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ [٢١٠] أي: إلى حكمه وأمره ترجع أمور المخلوقات كلها، فانقادوا لأمره، واستسلموا لأحكام شريعته.

تذكير وتحذير

وتابعت الآيات بأسلوبها التربوي الرفيع تهذب نفوس المؤمنين، وترد الشاردين عن دين الله تعالى إلى صراطه المستقيم ومنهجه القويم، وسلكت هذه المرة أسلوب التذكير مع التحذير، فذكرتهم بمواقف الجحود والعناد التي وقفها بنو إسرائيل، والتي سبق الحديث عنها، وحذرتهم من التشبه بهم.

﴿ سَلْ بني إسرائيل ﴾ أي: اسأل بني إسرائيل.

﴿ كم آتيناهم من آية بيّنة ﴾ أي: ما أكثر الآيات الواضحات الدالة على فضله سبحانه وقدرته، التي تفضل سبحانه بها عليهم، وليس المراد حقيقة السؤال، فلا شك أن النبي ﷺ يعلم كثرة الدلائل والنعم والمعجزات التي أنزلها تعالى على بني إسرائيل، وإنما المراد تذكير المؤمنين وتربيتههم بأسلوب لطيف غير مباشر، يدل على رحمته تعالى بهذه الأمة؛ ولهذا جاء بعد هذا التذكير، التحذير بقوله تعالى:

(١) الفرقان: الآية ٢٥.

(٢) الأنعام: الآية ١٥٨.

﴿ وَمَنْ يَبْدُلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ ﴾ أي : مَنْ يَسْتَعْمِلْ نِعْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى فِي مَعْصِيَتِهِ ، بَدَلَ أَنْ يَسْتَعْمِلَهَا فِي شُكْرِهِ وَطَاعَتِهِ .

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [٢١١] فَاحْذَرُوا أَنْ تَعْرِضُوا أَنْفُسَكُمْ لِعِقَابِهِ الشَّدِيدِ ، اشْكُرُوهُ عَلَى نِعَمِهِ ، وَتَمَسَّكُوا بِدِينِهِ وَشَرِيعَتِهِ ، وَانْقَادُوا لِحُكْمِهِ وَأَمْرِهِ ، وَلَا تَغْتَرَّوا بِزِينَةِ الدُّنْيَا وَزَخَارِفِهَا حَتَّى لَا تَصْبَحُوا مِثْلَهُمْ .

﴿ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ أي : زِينَتُهَا الشَّيْطَانُ لَهُمْ حَتَّى اغْتَرَّوا بِهَا وَاطْمَأَنَّنُوا إِلَيْهَا ، وَأَعْرِضُوا عَنِ الْآخِرَةِ .

﴿ وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بِسَبَبِ إِعْرَاضِهِمْ عَنِ الدُّنْيَا وَعَدَمِ انْهَمَاكِهِمْ بِهَا .
﴿ وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ بِسَبَبِ دُخُولِهِمُ الْجَنَّةَ وَمَا يَكْرَهُهُمُ اللَّهُ فِيهَا مِنْ أَنْوَاعِ النَّعِيمِ . وَقَدْ جَاءَ ذَلِكَ مَفْصَلًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ . وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ . وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ . وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ . وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ . فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ . عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴾ (١) .

﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [٢١٢] فَنَعِيمُ الْجَنَّةِ لَا يُحَدُّ وَلَا يُعَدُّ .

الاختبار والصراع

ثُمَّ بَيَّنَّتِ الْآيَاتُ شِدَّةَ حَاجَةِ النَّاسِ إِلَى إِرْسَالِ الرُّسُلِ بِالشَّرَائِعِ الْإِلَهِيَّةِ ، وَأَنَّ ذَلِكَ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ الْكَبِيرِ عَلَيْهِمْ :

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ عَلَى مِلَّةِ التَّوْحِيدِ وَعَلَى طَرِيقِ الْهُدَى ، لَا يَعْبُدُونَ غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَلَا يَطِيعُونَ سِوَاهُ ، فَاخْتَلَفُوا بِسَبَبِ نَزَغَاتِ الشَّيْطَانِ وَوَسَاوَسِهِ ، وَمَا بَثَّهُ بَيْنَهُمْ مِنْ أَسْبَابِ الْاِخْتِلَافِ وَالنِّزَاعِ .

وحذفت كلمة : اختلفوا من الآية ؛ لدلالة سياق الكلمات عليها ، إذ تكرر ذكرها في الآية ثلاث مرات .

وقد كان الناس على أصل الفطرة التي خلِقوا عليها ، على التوحيد ، كما صرّحت بذلك الآية الكريمة : ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (٢) .

(١) المطففين : الآيات ٢٩ - ٣٥ .

(٢) يونس : الآية ١٩ .

والشرك الذي طرأ على الناس أدى إلى اختلافهم وتنازعهم.

﴿ فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب ﴾ أي: الكتب المنزلة، فالمراد جنس الكتاب.

﴿ بالحق ﴾ أي: ببيان الحق.

﴿ ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴾ أي: في الحق الذي اختلفوا فيه، فما أنزل الله تعالى الكتاب ليزيل الاختلاف بين الناس، فاختلفهم سيقى قائماً بينهم ما داموا على الأرض، وسيستمر الصراع بينهم، كما ذكرنا سابقاً، وإنما أنزل الله الكتاب حكماً بينهم، يبين المحق من المبطل.

﴿ وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه ﴾ أي: إلا الذين أنزل عليهم الكتاب، فأمن به بعضهم وكفر آخرون، وغيروا وبدلوا في كتبهم.

﴿ من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم ﴾ أي: بسبب الحسد والظلم القائم بينهم.

﴿ فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ﴾ أي: بتوفيقه وتيسيره.

﴿ والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ [٢١٣] ولهذا نرى المؤمنين يتوجهون دائماً إلى الله تعالى، يسألونه التوفيق إلى الصراط المستقيم: ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾.

فالصراع والاختلاف بين الناس السمة البارزة في حياتهم على هذه الأرض، كما تقدّم عند قوله تعالى: ﴿ قلنا اهبطوا منها جميعاً بعضهم لبعض عدو ﴾.

ولا يزال هذا الصراع القائم بين الناس أهم أسباب حركة تاريخ الوجود البشري بتقدير الله تعالى، فحياة الإنسان على الأرض ليست حياة نعيم، كما كانت في الجنة، بل هي حياة ابتلاء واختبار، كما قال تعالى: ﴿ لقد خلقنا الإنسان في كبد ﴾^(١).

ولن يعود إلى الجنة يوم القيامة إلا من ينجح بهذا الاختبار، ويفوز في الامتحان، وهو ما قرّره تعالى في الآية التالية:

﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ﴾ أي: لن تدخلوا الجنة حتى تمتحنوا كما امتحن المؤمنون الذين كانوا قبلكم، فالاستفهام للتقرير،

(١) البلد: الآية ٤.

وقد قرّر تعالى هذا المعنى في عدّة آيات، منها قوله تعالى: ﴿ألم. أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناً وهم لا يفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمنّ الله الذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين﴾^(١).

﴿مستهم البأساء والضراء﴾ أي: أصابتهم الشدائد في الأموال والأنفس، كما سبق الخبر عنه في قوله تعالى: ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين﴾.

ولقد امتحن أصحاب النبي ﷺ عندما كانوا في مكّة المكرمة قبل الهجرة، وكان ﷺ يبتهم ويصبرهم ويشرهم، وفي الحديث الشريف عن خباب بن الارت قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ، وهو متوسّد بردة في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ قال: «كان رجل فيمن كان قبلكم يُحفر له في الأرض، فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه، فيشقّ باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويُمشط بأمشط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه. والله ليتمنّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»^(٢).

﴿وزلزلوا﴾ أي: أزعجوا واضطربت قلوبهم من كثرة الشدائد وقوّة المِحْن، كما حدث لهم في أثناء حصار غزوة الخندق، التي أنزل الله فيها قوله الكريم: ﴿إذ جاءكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا. هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزلاً شديداً﴾^(٣).

﴿حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه﴾ أي: وصل بهم البلاء حتى اضطروا أن يقولوا:

﴿متى نصر الله﴾ أي: متى يأتينا النصر من الله تعالى؟ وهذا يدلّ على أنهم تعلقوا بالله تعالى وحده، وقطعوا أسبابهم عن غيره سبحانه، فهو ملاذهم ورجاؤهم. قالوا ذلك طلباً وتمنياً واستطالةً لمدة الشدّة، لا شكّاً وارتياباً، والمراد من الرسول الجنس لا واحد بعينه^(٤).

(١) العنكبوت: الآيات ١ - ٣.

(٢) صحيح البخاري، كتاب المناقب (٣٦١٢).

(٣) الأحزاب: الآيات ١٠ - ١١.

(٤) روح المعاني ١٠٤/٢.

وجاءهم الجواب من الله تعالى مباشرة، بدون توسط فعل القول، وبالجمله الاسمية المؤكدة: ﴿ألا إن نصر الله قريب﴾ [٢١٤] فالنصر يأتي بعد الثبات والصبر والاستسلام الكامل لله تعالى ويأتي أيضاً بعد أن تصل المحنة إلى ذروة شدتها، كما قال تعالى: ﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين﴾ (١). فطريق النصر محفوف بالمكاره والشدائد، ولا بد للأمة حتى تصل إليه أن تربّي أبنائها على حياة العزم والحزم، وتتأى بهم عن حياة الدعة والكسل والميوعة والانحلال.

أسئلة الصحابة

استأنفت الآيات مسيرتها على طريق التشريع وبيان الأحكام، بعد توقفها القصير السابق، بأسلوب جديد مغاير لأساليب البيان السابقة، ومن المعلوم أن التفنن بأساليب الخطاب والعرض من مزايا القرآن الكريمة المعجزة، الدالة على أنه كلام الله تعالى.

عرضت الآيات مجموعة من الأحكام التشريعية، من خلال عرضها لأسئلة وجهت إلى النبي ﷺ، وأسئلة الصحابة للنبي ﷺ تختلف عن أسئلة بني إسرائيل لنبيهم موسى عليه السلام، فهي أسئلة استعمال واستفهام، لا أسئلة جحود وعناد، وهي أيضاً أسئلة محدودة قليلة، حتى قال ابن عباس رضي الله عنه: ما رأيت قوماً خيراً من أصحاب محمد ﷺ، ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة، كلهن في القرآن ﴿يسألونك عن المحيض﴾ ﴿يسألونك عن الشهر الحرام﴾ ﴿يسألونك عن اليتامى﴾، ما كانوا يسألون إلا عما ينفعهم (٢).

وتدلّ قلة أسئلتهم على شدة أدبهم مع الله تعالى ومع رسوله ﷺ، واستسلامهم لأحكام دين الله وشرعه، واستفادتهم مما أدبهم الله تعالى به وأرشدهم إليه، كما مرّ عند قوله تعالى: ﴿أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن يتبدّل الكفر بالإيمان فقد ضلّ سواء السبيل﴾.

وكان لهذا الاستسلام والإذعان لأحكام دين الله تعالى، أثر كبير في تيسير أحكام الشريعة الإسلامية وتخفيف أحكامها، كما سيأتي في آخر السورة.

(١) يوسف: الآية ١١٠.

(٢) تفسير القرطبي ٤٠/٣.

وفي المقابل كان تعنت بني إسرائيل، وكثرة أسئلتهم وعنادهم، سبباً للتشديد عليهم في أحكام شريعة التوراة، كما سبق في قصة ذبح البقرة.

وذكرت الآيات هنا أكثر أسئلة الصحابة متوالية، إلا أنها قدّمت - كما مرّ معنا - سؤالهم عن الأهلّة؛ لمناسبة موضوع السؤال للآيات الكريمة ثمة.

وقد ذكرت بعض الأسئلة في سور أخرى، حيث يكون اتفاقها وانسجامها مع موضوع السورة، كقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتِ﴾ وقوله في سورة الأنفال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾.

وهذا يُبرز الانسجام والاحتباك بين الآيات الكريمة، في سياقها وسباقها وموقعها من السورة.

التشريع لله تعالى وحده

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يَنْفِقُونَ﴾ أي: ماذا ينفقون في سبيل الله تعالى من أموالهم، ويبدو أنهم سألوا الرسول عليه الصلاة والسلام هذا السؤال، قبل أن يبيّن لهم مقادير الزكاة ونصابها.

﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِللْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ أي: أنفقوا أموالكم في هذه الوجوه، وابدؤوا بالأقرب فالأقرب، حتى تشمل نفقاتكم جميع المحتاجين في المجتمع، وفي الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ قال: «ابدأ بنفسك فتصدّق عليها، فإن فضل شيء فلاهلك، فإن فضل عن أهلك شيء فلذي قرابتك، فإن فضل عن ذي قرابتك شيء فهكذا وهكذا»^(١).

ثم حثّهم الآية على الإنفاق في وجوه الخير دون قيد وحدّ:

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [٢١٥] وهذا يدلّ على أنهم كانوا وقتئذ يمرّون بمرحلة عصيبة، يحتاجون فيها إلى البذل الكثير.

ويلاحظ أن الجواب أتى غير مطابق للسؤال، ولعلّ سبب ذلك أنه تعالى ترك بيان مقادير النفقات الواجبة في أموالهم للنبي ﷺ، فهي من التفاصيل التي اهتمّت السنّة ببيانها، والقرآن الكريم اقتصر على بيان أسس الشريعة الإسلامية الكبرى، ولم يفصل الفروع إلا في بعض القضايا المحدودة، كنظام الأسرة وعلاقة أفرادها ببعضهم.

(١) صحيح مسلم، كتاب الزكاة (٩٩٧).

وأفاد العدول عن جوابهم على سؤالهم بيان أمر هام أيضاً، وهو أن تشريع الأحكام منوط بمشيئة الله تعالى وحكمته، فهو سبحانه يعلم متى يشرع، وكيف يشرع، وما يشرع؛ لأنه يعلم ما يصلح لعباده أكثر مما يعلمون، فهو يحكم ما يريد، وهو يعلم وأنتم لا تعلمون.

فشأنه تعالى مع عباده فيما يشرع لهم، وله المثل الأعلى، كشأن الطبيب مع المريض، فالطبيب يصف الدواء المناسب للمريض في الوقت المناسب، دون أن ينظر إلى رأي المريض، وميله للدواء أو كراهته له، واستعجاله له أو استبطائه.

أكد سبحانه هذا المعنى في قوله بعد ذلك:

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ ﴾ أي: فرض عليكم القتال، وهو مكروه لكم، بحسب الطبيعة البشرية التي جُبلتم عليها، لكنه تعالى كلّفكم به لعلمه أن فيه خيراً وصلاًحاً لكم، فالتشريع منوط بعلمه تعالى وحكمته، لا برغباتكم وعواطفكم، وهذا ما يميّز أحكام الشريعة الإسلامية عن الشرائع الوضعية، التي تتأثر بأهواء الناس ورغباتهم وعواطفهم ومصالحهم الآنية.

﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾ مما يدلّ على قصور الإنسان وضعفه، وعدم أهليّته للتشريع، فمهما اكتسب من العلوم والمعارف، يبقى قاصراً محدوداً ضعيفاً أمام عواطفه وأهوائه ونزواته، وهو ما قرره تعالى في ختام الآية بقوله:

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [٢١٦] فبادروا إلى التزام شرعه، والتسليم لأمره وحكمه سبحانه.

السؤال عن القتال في الأشهر الحُرُم

وأوردت الآيات بمناسبة ذكر القتال، سؤال بعضهم عن حكم القتال في الشهر الحرام، ويبدو أن سؤالهم هذا أتى قبل نزول آيات القتال التي مرّت، والتي ذكر فيها تعالى حكم القتال في الشهر الحرام، في قوله الكريم: ﴿ الشهر الحرام بالشهر الحرام والحُرُمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾.

ومما يؤكد أن هذه الآية نزلت قبل آيات القتال المتقدمة، ما ذكر في سبب نزولها؛ إذ نزلت بمناسبة سرية عبد الله بن جحش، وفيها حدث أول قتال بين المسلمين والمشركين من قريش، قال ابن هشام: بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش في

رجب، وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين، وكتب له كتاباً، وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين، فيمضي لما أمره به، ولا يستكره من أصحابه أحداً. فلما سار عبد الله يومين فتح الكتاب، فإذا فيه: إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة، بين مكة والطائف، فترصد بها قريشاً، وتعلم لنا من أخبارهم. فمضى ومضى معه أصحابه، لم يتخلف عنه منهم أحد، حتى نزل بنخلة، فمرت به غير لقريش فيها عمرو بن الحضرمي، وذلك في آخر يوم من رجب، فتردد القوم وهابوا الإقدام عليهم، ثم شجعوا أنفسهم وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم، فقتلوا عمرو بن الحضرمي، وأسروا عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان، وقدموا على رسول الله ﷺ المدينة، فقال لهم عليه الصلاة والسلام: «ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام» وأكثر الناس في ذلك، حتى أنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه﴾^(١).

﴿يسألونك عن الشهر الحرام﴾ أي: يسألونك عن القتال في الشهر الحرام.

﴿قتال فيه﴾ وهو بدل اشتمال من الشهر؛ لأن سؤالهم اشتمل على الشهر وعلى القتال، والمراد منه جنس الأشهر الحرم، وهي أربعة: رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم.

﴿قل قتال فيه كبير﴾ أي: ذنب كبير.

وجمهور العلماء يجيزون القتال في الأشهر الحرم، ويرون أن هذا الحكم في الآية منسوخ، لكن بعض المفسرين لم ير في الآية دليلاً على تحريم القتال في الأشهر الحرم مطلقاً، قال البيضاوي: والأولى منع دلالة الآية على حرمة القتال فيه مطلقاً، فإن ﴿قتال﴾ نكرة في حيز مثبت، فلا يعم^(٢). أي: فالنكرة لا تفيد العموم إلا إذا كانت منفية.

ثم ذكرت الآية المشركين بجرائمهم الكبيرة في حق الإسلام والمسلمين، وكان المشركون قد أنكروا على الصحابة ما فعلوه في الشهر الحرام.

﴿وصدّ عن سبيل الله﴾ أي: منع الناس عن الدخول في دين الله تعالى.

﴿وكفر به﴾ أي: بالله تعالى.

﴿والمسجد الحرام﴾ أي: وصدّ الناس عن عبادة الله وحده في المسجد الحرام.

(١) سيرة ابن هشام ١٧٩/٢.

(٢) تفسير البيضاوي ٣١٩/١.

﴿ وإخراج أهله منه ﴾ وهم النبي ﷺ والمسلمون، فما فعله المشركون بهم من الأذى والعدوان حتى اضطروهم إلى الهجرة، كل ذلك:

﴿ أكبر عند الله ﴾ مما فعلته سرية عبد الله بن جحش من القتال في الشهر الحرام.

﴿ والفتنة أكبر من القتل ﴾ أي: وتعذيب المشركين للمسلمين ليفتنوهم عن دينهم، ويردوهم إلى الشرك، أعظم من قتل المسلمين لرجل من المشركين.

ويزيد في قبح وشناعة هذه الجرائم الكبيرة، إصرار المشركين عليها وتمسكهم بها؛ ولهذا قال تعالى يخاطب المسلمين محذراً لهم من كيد المشركين:

﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾ أي: إن تمكّنوا من ذلك وقدروا عليه، فالآية تستبعد استطاعتهم، وتبشّر المؤمنين بثباتهم على الإيمان، ومع ذلك ختم الله تعالى الآية ببيان ما يترتب على الردّة من عقاب شديد في الدنيا والآخرة؛ تحذيراً للمؤمنين، فقال:

﴿ ومن يردد منكم عن دينه فيمت وهو كافر ﴾ أي: ومن يرتدّ عن دينه ويصرّ على الكفر حتى يموت عليه.

﴿ فأولئك حبطت أعمالهم ﴾ أي: بطلت أعمالهم الصالحة التي عملوها في الإسلام، فلا يُثابون عليها.

﴿ في الدنيا والآخرة ﴾ في الدنيا يقتل المرتدّ المُصرّ على ردّته، وتبين منه زوجته بانفساخ عقد نكاحه، ولا يرث من أقاربه، ولا يورث عنه ماله الذي اكتسبه في حال الردّة، وأما في الآخرة:

﴿ وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ [٢١٧].

وبيّنت الآيات في مقابل عقوبة المرتدّين، مكانة المؤمنين الثابتين على إيمانهم، الواثقين بربّهم، الراجين فضله ورحمته وثوابه:

﴿ إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله ﴾ وقد اجتمعت هذه الصفات الثلاث: الإيمان والهجرة والجهاد، في رجال السرية - كما تقدّم في سبب النزول - إذ كانوا جميعاً من المهاجرين. وجاء ثناء الله عليهم بهذه الآية، ردّاً على حملات التعنيف واللوم التي تعرّضوا لها.

﴿ أولئك يرجون رحمة الله ﴾ أي: يطمعون برحمته تعالى، فعملهم الصادر عنهم ما عملوه إلّا تقرباً لله تعالى وطمعاً في ثوابه وفضله.

﴿والله غفور رحيم﴾ [٢١٨] يغفر لهم ذنوبهم ويرحمهم، فهنيئاً لهم المغفرة والرحمة، رضي الله عنهم.

السؤال عن الخمر والميسر

ثم ذكرت الآيات سؤالاً آخر من أسئلة الصحابة، يدل على حرصهم على سلامة دينهم، وحبهم للتفقه فيه:

﴿يسألونك عن الخمر والميسر﴾ أي: عن حكم تعاطي الخمر والميسر. والخمر: المُسكر الذي يخمر العقل ويغطيه، أو من التخمّر؛ لأنها شراب متخمّر. والميسر: القمار.

وهما من الآفات الاجتماعية الخطيرة، التي كانت ولا تزال منتشرة في المجتمعات الجاهلية، وقد حاربها الإسلام وحرّمها، وطهر المجتمعات الإسلامية من شرورها وغوائلها.

ودلّ سؤال الصحابة عن الخمر والميسر، على أن الدين الجديد قد أحدث في نفوسهم وعقولهم يقظة وتفتحاً ووعياً، حتى أصبحوا يميّزون بين ما يضرهم وما ينفعهم، فهم يعيشون في ظلال شريعة تُبيح لهم كل طيب نافع، وتحرم عليهم كل خبيث ضار. ومن رحمته تعالى بهم أنه ما أنزل تحريم الخمر دفعة واحدة؛ إذ كان تعلقهم بالخمر شديداً، وإدمانهم عليها قوياً، ولهذا كرّهم سبحانه بها أولاً، فقال:

﴿قل فيهما إثم كبير﴾ لأن تعاطيها يؤدّي إلى الإثم، وإثم الخمر ما تحدثه في عقل الشارب وصحته من الأضرار، وما يصدر عنه من أقوال وأفعال شاذّة تضرّ بدينه ومجتمعه.

وأما إثم الميسر فما ينتج عنها من كراهية وخصام، وإتلاف للأموال، وتضييع للطاقات، وإهدار للأوقات.

﴿ومنافع للناس﴾ ومنافع الخمر بسبب التجارة فيها؛ إذ كانت بضاعة رائجة بينهم.

وأما منافع الميسر فكانت للمحاييج والفقراء، فمن عاداتهم التي كانوا عليها في الجاهلية أن يتعقّف الرابح في الميسر عن أخذ الربح، ويتركه للمحتاجين.

﴿وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ أي: ما فيهما من أضرار أكثر بكثير مما يترتب عليهما

من منافع، ولا شك أن هذا تنفير عنهما، وحث للناس على اجتنابهما، وتمهيد لتحريمهما القطعي، الذي نزل بعد ذلك. روى الإمام أحمد عن أبي ميسرة عن عمر أنه قال: اللَّهُمَّ بَيْنَ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا، فنزلت هذه الآية التي في سورة البقرة، فدُعِيَ عمر فقرأت عليه. فقال: اللَّهُمَّ بَيْنَ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا، فنزلت الآية التي في النساء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ فكان مُنادي رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة نادى: أن لا يقربن الصلاة سكران، فدُعِيَ عمر فقرأت عليه، فقال: اللَّهُمَّ بَيْنَ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا. فنزلت الآية التي في المائدة، فدُعِيَ عمر فقرأت عليه، فلما بلغ ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ قال عمر: انتهينا انتهينا^(١). بهذا الأسلوب المتدرج الذي يُظهر سماحة الشريعة الإسلامية ويُسرها، نجح الإسلام نجاحاً كبيراً في قلع هذه الآفات الاجتماعية، التي كانت راسخة في قلب المجتمع العربي الجاهلي^(٢).

السؤال عن الصدقة ومخالطة الأيتام

ويبدو أن السؤال عن مقدار النفقة قد تكرر من بعض الصحابة، وجاء الجواب في هذه المرة، يبين لهم ما ينفقون من أموالهم دون تحديد أيضاً.

﴿وَسْأَلُونَا مَاذَا يَنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ أي: أنفقوا العفو، وهو ما سهل وتيسر وفضل، ولم يشق على القلب إخراجه. والمعنى: أنفقوا ما فضل عن حوائجكم، ولم تؤذوا فيه أنفسكم فتكونوا عالة^(٣). ويؤيده الحديث النبوي الشريف عن حكيم بن حزام رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أفضل الصدقة - أو خير الصدقة - عن ظهر غنى، واليد العليا خير من اليد السفلى، وأبدأ بَمَن تعول»^(٤).

وقوله: «عن ظهر غنى» أي: ما بقي صاحبها بعدها مستغنياً بما بقي معه عن الناس.

﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [٢١٩] في الدنيا والآخرة ﴿أَيُّ: تَتَفَكَّرُونَ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وتعملون لما يصلحكم فيهما، فالإسلام أتى بخير الدنيا والآخرة.

ولما أنزل الله الآيات التي فيها وعيد شديد للذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً، خاف

(١) مختصر ابن كثير ١٩٢/٢.

(٢) انظر: الحلال والحرام في سورة المائدة ص ١٠٠.

(٣) تفسير القرطبي ٦١/٣.

(٤) صحيح مسلم، كتاب الزكاة (١٠٣٤).

الصحابة خوفاً شديداً، وشعروا بالحرج في حفظ أموال اليتامى . قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما نزلت ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا﴾^(١) تحرّج المسلمون من أموال اليتامى تحرّجاً شديداً، حتى عزلوا أموالهم عن أموالهم، وتركوا مخالطتهم، وربما كان يصنع لليتيم الطعام، فيفضل منه، فيتركونه ولا يأكلونه، فاشتد ذلك عليهم فسألوا رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ﴾^(٢).

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ أي: مخالطتهم بقصد الإصلاح لهم والحفظ، خير من اعتزالهم.

﴿وَأِنْ تَخَالَطُوهُمْ إِفْخَاؤُكُمْ﴾ أي: وإن تخلطوا طعامكم بطعامهم وتشاركوهم في النفقة والمسكن، فهم إخوة لكم، والإخوة يُعين بعضهم بعضاً على الخير والصلاح. ففي الآية حث على مخالطة اليتامى ومؤانستهم، فقد يؤثر عزلهم واعتزالهم على عواطفهم، ويسبب لهم الحزن المتواصل والكآبة، ويورثهم بعض العقد النفسية، بينما مخالطتهم ومؤانستهم تعوّضهم عن شيء من العطف والحب الذي فقدوه بموت آبائهم. وفي الوقت نفسه حذرت الآية أصحاب النفوس الضعيفة، الذين يقصدون بالمخالطة إلى أكل أموال اليتامى، بقوله تعالى:

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمَفْسَدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ فيجازي المفسد على إفساده، ويثيب المصلح على إصلاحه.

وهذه الإباحة في مخالطة مال الأيتام تدلّ على يسر الشريعة الإسلامية وسماحتها، وأنه تعالى يريد التيسير على الأمة المسلمة؛ ولهذا قال تعالى ممتناً عليهم:

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبْكُمْ﴾ أي: لأوقعكم بالعنت، وهو المشقة، وذلك بتشديد التشريع عليكم، وتكليفكم بالتكاليف الشاقة.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [٢٢٠] فهو سبحانه غالب على أمره، يشرع ما يريد، حكيم في كل ما يشرع.

وقد تؤدّي مخالطة الأيتام إلى تقوية الصلات الاجتماعية معهم، بتزويجهم أو الزواج منهم، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة التالية:

(١) النساء: الآية ١٠.

(٢) تفسير الخازن ١/٣٢٨.

تحريم النكاح بين المسلمين والمشركين

﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن﴾ فلا يحلّ للمسلم أن يتزوج المرأة المشركة، ولو كانت يتيمة، وهو حكم عام ينسحب على الكافرات، وخرج من هذا العموم الكتابيات بقوله تعالى: ﴿اليوم أحلّ لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حلّ لكم وطعامكم حلّ لهم والمحسنات من المؤمنات والمحسنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيموهنّ أجورهنّ محسنين غير مسافحين ولا متّخذين أخدان ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين﴾^(١).

وفي الآية إشارة إلى الأوصياء بأن عليهم أن يهتمّوا بتربية الأيتام، وتنشئتهم على العقيدة الإسلامية الصحيحة، وإبعادهم عن كل مظاهر الشرك والكفر، فمهمتهم لا تقتصر على المحافظة على أموال اليتامى، بل عليهم أيضاً أن يحافظوا على أخلاقهم وعقائدهم ووصفاء فطرتهم.

﴿ولأمة مؤمنة﴾ مع ما فيها من ذلّ العبودية والرق.

﴿خير من مشركة ولو أعجبتكم﴾ بسبب جمالها وسائر ما فيها من صفات ترغب بنكاحها، فالإيمان أعلى الصفات التي يشرف بها الإنسان، وفي الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «تنكح المرأة لأربع، لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها، فاظفر بذات الذين تربّت يداك»^(٢). وكما حرّم الإسلام الزواج من الكافرات، حرّم أيضاً تزويج المشركين، بقوله تعالى:

﴿ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا﴾ أي: لا تزوّجوا الكفار من المؤمنات مطلقاً، سواء كان الكافر كتابياً أم غير كتابي، وقد أكّد تعالى هذا الحكم في قوله الكريم: ﴿يا أيّها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهنّ الله أعلم بإيمانهنّ فإن علمتموهنّ مؤمنات فلا ترجعهنّ إلى الكفار لا هنّ حلّ لهم ولا هم يحلونّ هنّ﴾ الآية^(٣).

وأكدّه أيضاً هنا بقوله بعد ذلك:

﴿ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم أولئك يدعون إلى النار﴾ أي: المشركون والمشركات يدعون إلى الكفر المؤدي إلى النار يوم القيامة، وهذا يدلّ على

(١) المائدة: الآية ٥.

(٢) صحيح البخاري، كتاب النكاح (٥٠٩٠).

(٣) الممتحنة: الآية ١٠.

خطورة مخالطة الكفار والفاسق، فالواجب اجتناب مخالطتهم بقدر الاستطاعة، فمن جالس جانس، وما أعظم العبرة والعظة في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا. يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا. لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾^(١).

فالمحافظة على الدين وسلامة الاعتقاد أوجب واجبات المسلم، والحيلة والحذر من أسباب السلامة والوقاية.

﴿والله يدعو إلى الجنة﴾ أي: يدعو إلى الإسلام، وهو الطريق المؤدي إلى فضل الله ورحمته وجنته، كما قال في موضع آخر: ﴿والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾^(٢).

﴿والمغفرة﴾ أي: ويدعو إلى ستر الذنوب والتجاوز عنها في حال التوبة والاستغفار.

﴿بإذنه﴾ أي: بتيسيره سبحانه وتوفيقه، فلا غنى لأي إنسان مهما كان عن معونته تعالى وتيسيره وهدايته.

﴿وَيَبِّينُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [٢٢١] أي: لعلهم يتفكرون بها ويتعظون.

السؤال عن المحيض

ومن الأمور التي يظهر فيها يُسر الشريعة الإسلامية وسماحتها، بمقارنتها مع شريعة التوراة، كيفية معاملة الزوج لزوجته في أثناء الحيض، فاليهود إذا حاضت المرأة اعتزلوها اعتزالاً كاملاً، حتى إنهم لا يجتمعون معها على طعام ولا تحت سقف واحد، بينما الأمر في الإسلام أيسر من ذلك بكثير، فهو يحرم على الزوج الاتصال الجنسي بزوجته فقط في أثناء الحيض، ولا يكلفه اعتزالها، كما يفعل اليهود، بل شرع له الاستمتاع بها ومباشرتها، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كانت إحدانا إذا كانت حائضاً، أمرها رسول الله ﷺ فتأترز بإزار، ثم يباشرها^(٣). وعن ميمونة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يضطجع معي وأنا حائض، وبينني وبينه ثوب^(٤).

(١) الفرقان: الآيات ٢٧ - ٢٩.

(٢) يونس: الآية ٢٥.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الحيض (٢٩٣).

(٤) المرجع نفسه (٢٩٥).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: أمرني رسول الله ﷺ أن أنأوله الخمرة^(١) من المسجد، - أي: وهو في المسجد - فقلت: إني حائض، فقال: «تناولها فإن الحيضة ليست في يدك»^(٢).

وعنها أيضاً قالت: كان رسول الله ﷺ يتكئ في حجري وأنا حائض، فيقرأ القرآن^(٣).

فأين هذا التيسير والتسهيل من التشديد الذي كان عليه اليهود، فعن أنس رضي الله عنه، أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم، لم يؤاكلوها، ولم يجامعوها في البيوت، فسأل أصحاب النبي ﷺ، النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض﴾ فقال رسول الله ﷺ: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح» فبلغ ذلك اليهود فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه^(٤).

﴿ويسألونك عن المحيض﴾ أي: الحيض، وهو دم يسيل من رحم المرأة البالغة في أوقات معلومة، إذا كانت غير حامل، ولم تبلغ سنّ اليأس.

﴿قل هو أذى﴾ أي: هو مؤذٍ. وقد أثبت التحليل المِخْبَرِي لدم الحيض أنه يحمل قطعاً من الغشاء المبطن للرحم، لأن الرحم يتخلص من بطائنه القديمة التي لم تعد تصلح لاستقبال حمل جديد، فيطرحها على شكل سائل دموي يميل إلى السواد، فدم الحيض لا يأتي مباشرة من العروق الدموية، بل هو نسيج محتقن متنخر^(٥).

ولهذا فهو معرض بسهولة لعدوان البكتيريا الكاسح، ومن المعلوم طبيّاً أن الدم هو خير بيئة لتكاثر الميكروبات ونموّها، والاتصال بالمرأة في هذه الفترة يساعد على إدخال الميكروبات إلى المهبل والرحم، حيث تكون البيئة مناسبة لنموّها، مما يؤدي إلى التهابات قد تمتد إلى سائر أجهزة الحمل عند المرأة، وإلى مجاري البول والمثانة والحالبين، وينتقل الأذى إلى الرجل أيضاً، بانتقال الميكروبات إليه، مما يؤدي إلى التهابات في مجرى البول والمثانة والبروستاتا^(٦).

(١) السجادة التي يصلّي عليها.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الحيض (٢٩٨).

(٣) المرجع نفسه (٣٠١).

(٤) المرجع نفسه (٣٠٢).

(٥) القرار المكين، ص ٤٢.

(٦) خلق الإنسان بين الطب والقرآن، ص ١٠٤.

﴿فاعتزلوا النساء في المحيض﴾ أي: اجتنبوا مجامعتهن في أثناء الحيض.

﴿ولا تقربوهن حتى يطهرن﴾ أي: لا تقربوهن بالجماع حتى يطهرن من الحيض بانقطاع دمه. وفي قراءة ﴿حتى يطهرن﴾ أي: يتطهرن بالماء، ولهذا شرط بعض العلماء لحل مجامعة الزوجة، اغتسالها بعد انقطاع دم الحيض، وفصل بعضهم أنه إذا كان الانقطاع بعد انقضاء أكثر مدة الحيض حل وطؤها ولو لم تغتسل، وإذا كان قبل ذلك لم يجز وطؤها حتى تغتسل.

﴿فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله﴾ أي: جامعوهن من المكان الذي حلّله الله لكم، أي في القبل لا في الدبر.

﴿إن الله يحب التوابين﴾ من الذنوب، والتواب كثير التوبة، كلما أذنب جدد توبته.

﴿ويحب المتطهرين﴾ [٢٢٢] من النجاسات والأقذار والمرتزحين عنها، فلا يجامعون الحائض، ولا يأتونها في الدبر، حيث الأذى والقذر والنجاسة.

فالشريعة الإسلامية شريعة رحمة، أنزلها تعالى لصالح الإنسان وسعادته في الدنيا والآخرة، وما حرّمت على الناس إلا ما فيه ضرر وأذى؛ ولهذا حرّمت وطء الحائض ووطء الدبر، وعندما ينتفي الضرر والأذى لا تضيق الشريعة الإسلامية على الإنسان، بل تتركه على الإباحة الأصلية، طليقاً عن كل قيد وشرط، ويدلّ على ذلك قوله تعالى في موضوع الاتصال الجنسي بين الزوجين، بهذا التبيان الصريح المشرق:

﴿نساؤكم حرث لكم﴾ أي: زوجاتكم بالنسبة لكم مواضع زرع، فالزوجة بالنسبة لزوجها، الأرض التي تتقبل البذر وتحمله وتنميه، والزوج بالنسبة لها، الزارع الذي ينبغي له أن يضع البذر في موضعه المناسب له.

﴿فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ أي: جامعوهن متى شئتم وكيف شئتم، فلا حَظَر عليكم مادام الجماع في موضع الحرث وتقبل البذر، وهو الفرج المتصل بالرحم، فالطريقة التي يجدها الزوج مناسبة لمجامعة زوجته في فرجها حلال له.

وقد أنزل الله هذه الآية رداً على تعنت اليهود وتشددهم، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كانت اليهود تقول: إذا أتى الرجل امرأته من دبرها في قبلها، كان الولد أحول، فنزلت: ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾^(١).

(١) صحيح مسلم، كتاب النكاح (١٤٣٥).

﴿وقدموا لأنفسكم﴾ أي: ما تستطيعون من الأعمال الصالحة لأخركم، فالدنيا في نظر الإسلام مزرعة للآخرة، وكل أعمال الإنسان الدنيوية، إذا ما التزم بها أحكام الشريعة الإسلامية وقصد بها رضوان الله تعالى، تصبح عبادات يُثاب عليها يوم القيامة، حتى الاتصال الجنسي بين الزوجين، وفي الحديث الشريف عن أبي ذر رضي الله عنه، أن ناساً من أصحاب النبي ﷺ، قالوا للنبي ﷺ: يا رسول الله ذهب أهل الدثور - الأموال - بالأجور؛ يصلّون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدّقون بفضول أموالهم. قال: «أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدّقون؟ إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمرٌ بالمعروف صدقة، ونهيٌ عن منكر صدقة، وفي بضع^(١) أحدكم صدقة» قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام، أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر»^(٢).

﴿واتقوا الله﴾ في جميع شؤون حياتكم.

﴿واعلموا أنكم مُلاقوه﴾ يوم القيامة للحساب والجزاء.

﴿وبشّر المؤمنين﴾ [٢٢٣] بفضل الله ورحمته إذا ما اتقوا ربهم وتمسكوا بأحكام

شريعته.

(١) أي: الجماع أو الفرج.

(٢) المرجع نفسه، كتاب الزكاة (١٠٠٦).

الفصل السابع

الأسرة وتشريع الطلاق

حُرْصُ الْإِسْلَامِ عَلَى الْأُسْرَةِ

وبعد أن نظّمت الآيات الصّلات الجنسية بين الزوجين، وبَيّنت ما يتعلق بها من أحكام، انتقلت إلى الحديث عمّا يمكن أن يحدث بين الزوجين من تنافر وتخاصم وسوء تفاهم، قد يؤدّي إلى انقطاع الصّلة الزوجية بينهما وحدوث الطلاق.

وتحرص الشريعة الإسلامية على استمرار الحياة الزوجية وبقاء الأسرة، لأنها المكان الطبيعي لاستمرار الوجود البشري ونشوء الإنسان وتربيته تربية صحيحة سليمة تنمّي مشاعره الإنسانية، وتُعده ليكون إنساناً صالحاً، يحمل مسؤولية الأمانة التي كلّفه الله تعالى بها وخلقه من أجلها.

وما شرع الطلاق في الإسلام إلّا كعلاج أخير للمرض المستفحل بالأسرة، والمستعصي على كل دواء، فهو كالعمل الجراحي الذي يضطر إليه الطبيب، لكي يستأصل موضع المرض من الجسم، بعد أن فشلت العقاقير في معالجته، فاستئصال موضع المرض من الجسم يحمي بقية الجسد ويحول دون انتشار المرض إليه.

وكذلك الطلاق يستأصل الأسر المريضة التي يمكن أن ينتشر منها المرض إلى سائر أبناء المجتمع، فهو أمر خطير في نظر الإسلام، وسيأتي معنا أن الأصل فيه الحظر؛ ولهذا اهتمت آيات السورة به، فتناولته بتفصيل أحكامه وبيان فروعه، ولم تكتفِ بعرض أصوله وقواعده العامّة، كما فعلت في غيره من التشريعات.

اليمين اللغو واليمين المنعقدة

شرعت الآيات أولاً تتحدث عن الأيمان؛ لما لها من صلة قوية بموضوع الطلاق، قال تعالى:

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ أي: لا تجعلوا الحلف بالله تعالى سبباً مانعاً لكم من أعمال البرّ والتقوى والإصلاح بين الناس. فالعُرْضة: اسم لما يُجعل عارضاً وحاجزاً ومانعاً.

وذكر المفسرون أنها نزلت في عبد الله بن رواحة رضي الله عنه، كان بينه وبين ختنه - زوج أخته - بشير بن النعمان شيء، بسبب أنه طلق زوجته ثم أراد الرجوع إليها، فحلف عبد الله يميناً لا يدخل عليه ولا يكلمه ولا يُصليح بينه وبين زوجته. وجاء في معنى الآية قوله ﷺ: «مَنْ حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأتها ويكفر عن يمينه»^(١).

﴿والله سميع عليم﴾ [٢٢٤] وهذا مظهر من مظاهر سماحة الشريعة الإسلامية ورحمتها، أكدّه سبحانه وتعالى بعد ذلك بقوله:

﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ أي: لا يؤاخذكم الله بالأيمان اللاغية، وهي التي يسبق إليها اللسان من غير قصد وثنية، وهو ما ذهبت إليه السيدة عائشة رضي الله عنها في قولها: أنزلت هذه الآية ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ في قول الرجل: لا والله، وبلى والله^(٢).

أو هي الأيمان المبنية على غلبة ظن الحالف، ثم يتبين له أنه أخطأ فيما حلف عليه. أو هي ما كان يصدر عنهم بعد أن أسلموا، وألستهم قد ألقت الحلف باللات والعزى فكانوا يحلفون بها من غير قصد، فأمرُوا أن يتلفظوا بعدها بكلمة الإخلاص، لتكون هذه بهذه^(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ حلف منكم فقال في حلفه: باللات، فليقل: لا إله إلا الله، وَمَنْ قال لصاحبه: تعال أقامرك، فليتصدق»^(٤).

﴿ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾ أي: ولكن يؤاخذكم بما عزمتم عليه وقصدتم له، وكَسَبَ القلب هو القصد والنية، وقد شرع الله تعالى الكفارة في حال الحنث بهذا اليمين وعدم البرّ به، فقال: ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فَمَنْ لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتُمْ واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون﴾^(٥).

﴿والله غفور حلِيم﴾ [٢٢٥] ولهذا لم يؤاخذكم بأيمان اللغو، ولم يعاجلكم

(١) متفق عليه واللفظ لمسلم، كتاب الأيمان (١٦٥٠).

(٢) صحيح البخاري (٤٦١٣).

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ١/ ١٩٩.

(٤) صحيح مسلم، كتاب الأيمان (١٦٤٧).

(٥) المائدة: الآية ٨٩.

بالعقوبة في حال الحنث وعدم البرّ بالإيمان المنعقدة. بل حضّ سبحانه على التوبة وشرع الكفارة.

الإيلاء

وانتقلت الآيات إلى الحديث عن أيمان مخصوصة، تصدر عن بعض الأزواج بقصد الإضرار بزوجاتهم:

﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ أي: يحلفون على ألا يجامعوهم.

﴿تَرْبِصَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ أي: انتظار مدة أربعة أشهر.

وقد رفع الإسلام بهذا عن المرأة ظلماً كبيراً كانت تعاني منه في الجاهلية، قال ابن عباس: كان إيلاء الجاهلية السنة والستين وأكثر من ذلك، يقصدون بذلك إيذاء المرأة عند المساءة، فوقّت لهم أربعة أشهر^(١).

﴿فَإِنْ فَاءُوا﴾ أي رجعوا في أثناء ذلك إلى الاتصال بزوجاتهم، ومعاشرتهن المعاشرة الزوجية الكريمة، وكفّروا عن أيمانهم.

﴿فَإِنْ اللَّهُ غَفَرَ رَحِيمٌ﴾ [٢٢٦] يغفر لهم إساءتهم إلى زوجاتهم، فالآية تحضّ الأزواج على حُسن معاشرّة الزوجات، وعلى رجوعهم عن قصد الإساءة إليهنّ والإضرار بهنّ.

﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾ بترك العودة والإصرار على هجر فراش الزوجية، حتى مضت مدة أربعة أشهر، بانت منه زوجته بطلقة واحدة، أي: يعدّ حكماً مطلقاً زوجته طلقة واحدة.

﴿فَإِنْ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [٢٢٧] يسمع أقوالهم ويعلم أحوالهم وحقيقة مقاصدهم، فيجازي. المُسيء، على إساءته وإضراره بغيره.

فانقضاء الأشهر الأربعة يؤدّي إلى وقوع الطلاق حكماً، ولو لم تطالب المرأة به، عند بعض العلماء، وذهب آخرون إلى أنه لا يقع الطلاق بمجرد مضيّ المدة، حتى تطالبه الزوجة بالرجوع عن يمينه أو طلاقها، وترفع أمره إلى الحاكم، فيأمره الحاكم إما بالرجوع أو بالطلاق.

ويلاحظ أن الآيات لم تحرّم على الزوج هجر فراش زوجته تحريماً قاطعاً، بل منعه من هجر فراشها بقصد الإضرار بها والإساءة إليها، فقد يحتاج الرجل أحياناً إلى

(١) تفسير القرطبي ١٠٣/٣.

هجر زوجته تأديباً لها في حال نشوزها، وهو أمر مشروع شرعه تعالى في قوله: ﴿وَاللّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً﴾^(١).

وقد ثبت أن النبي ﷺ آلى من نسائه واعتزلهن شهراً، تأديباً لهن، عندما سأله أن يوسع عليهن في النفقة، وأنزل الله بعد ذلك قوله الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأُزَاجِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَرْضَوْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً. وَإِنْ كُنْتُمْ تَرْضَوْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً﴾^(٢).

الأصل في الطلاق الحظر

أبرزت آيات الإيلاء حرص الشريعة الإسلامية على سلامة العلاقة الزوجية وصفاتها، وإبعادها عن كل ما يعكرها ويُسِيء إليها؛ لأنها حريصة - كما مرّ - على سلامة الأسرة واستمرارها في تأدية وظائفها الاجتماعية الهامة الضرورية للإنسان.

وشرعت لهذا السبب، في حال وقوع الطلاق، العدة؛ لكي يتمكن الزوجان في أثنائها من العودة إلى الحياة الزوجية، واستدراك ما فاتهما بالطلاق، ولهذا بادرت الآيات الكريمة إلى بيان عدة الطلاق، قبل الحديث عن الطلاق نفسه، لإظهار حرص الشريعة على بقاء الأسرة وسلامتها. وأشارت في تأخيرها الحديث عن الطلاق، إلى كونه أمراً مكروهاً ما شرع إلّا عند الضرورة الملجئة إليه. قال عليه الصلاة والسلام: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق»^(٣)، ولهذا قال الفقهاء: الأصل في الطلاق الحظر، بمعنى أنه محظور إلّا لعارض يُبيحه^(٤)، وسيأتي لهذا المعنى مزيد بيان.

عدة المطلقات

﴿والمطلقات﴾ أي: الزوجات اللواتي تمّ زواجهنّ بالدخول فيهنّ، ثم طلقهنّ أزواجهنّ.

﴿يتربصن بأنفسهنّ﴾ أي: ينتظرن بعد الطلاق فلا يتزوجن، مدة: ﴿ثلاثة قروء﴾ جمع قرء، اسم يطلق على الحيض أو الطهر الواقع بين حيضتين، ولهذا اختلف

(١) النساء: الآية ٣٤.

(٢) الأحزاب: الآيتان ٢٨ - ٢٩. انظر: النبي ﷺ وأزواجه في سورة الأحزاب.

(٣) رواه أبو داود في السنن.

(٤) انظر: ردّ المحتار ٤٦٦/٢.

العلماء في الأقراء، فبعضهم قال: المراد الحيض، وبعضهم قال: المراد الأطهار. وفي ذكر الأنفس تهيج لهنّ على التربص؛ لأنّ أنفس النساء طوامح إلى الرجال، فأمرن أن يقمعن أنفسهنّ ويجبرنها على التربص. والخبر بمعنى الأمر، وأصل الكلام: ولتربص المطلقات. وإخراج الأمر في صورة الخبر تأكيد للأمر وإشعار بأنه مما يجب المسارعة إلى امتثاله^(١).

والحكمة من تشريع العدة صيانة الأنساب والتأكد من عدم اختلاطها، ففي أثائها يظهر إن كانت المطلقة حاملاً أو غير ذات حمل، كما أنها تعطي فرصة للزوج لمراجعة زوجته بعد الطلقة الأولى والثانية، كما سيأتي بيانه.

ولما كان أمر العدة منوطاً بحيض المرأة وطهرها، إذا كانت ممن تحيض، أو منوطاً بوضع حملها إذا كانت حاملاً، لقوله تعالى: ﴿وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾^(٢)، وهي أمور من خصوصيات المرأة، جعلها الله تعالى مؤتمنة على تحديد مدة العدة، ومسؤولة عنها، فقال:

﴿وَلَا يَحِلُّ لهنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ من الولد أو من الحيض، استعجالاً لانقضاء العدة، وإبطالاً لحقّ الزوج في المراجعة، كما أن كتمان المرأة لما خلق الله في رحمها يؤدي إلى اختلاط الأنساب.

﴿إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: إن كنّ حقاً يؤمنن بالله واليوم الآخر، فشأن المؤمنات بالله تعالى وبالمسؤولية والحساب يوم القيامة، أن يكنّ صادقات حافظات للأمانة التي أوّمنّ عليها، فلا يغيّرنها ولا يبدّلنها.

﴿وَبِعُولَتِهِنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: لأزواج المطلقات الحق بمراجعتهنّ وردّهنّ إلى حياة الزوجية في أثناء العدة، ولهذا لا تحتجب المرأة المطلقة عن زوجها في أثناء العدة لكي يراجعها، فإذا ما انقضى وقت العدة بطل حقهم في المراجعة، وأصبحت المطلقة حرة في أمرها، إن شاء رجعت إلى زوجها السابق بعقد جديد، وإن شاءت امتنعت عن الرجوع، وهذا إذا كان الطلاق رجعياً يمكن مراجعة الزوجة المطلقة بعده في أثناء العدة.

﴿إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحاً﴾ أي: إذا أراد الأزواج بمراجعة زوجاتهم الإصلاح وحسن العشرة.

(١) انظر: تفسير النسفي ٢٤٠/١.

(٢) الطلاق: الآية ٤.

ودلّ هذا الشرط على حرص الشريعة الإسلامية على سلامة الأسرة، وعلى أن تكون العلاقة بين الزوجين قائمة على التفاهم والمودة، وحرصها أيضاً على عدم الإضرار بالمرأة، كما كان أهل الجاهلية يفعلون، فقد كان بعض الأزواج يُراجعون زوجاتهم بقصد الإضرار بهنّ، وذلك بالعودة إلى تطليقهنّ، فتبقى المرأة حائرة مترددة، فحرم الإسلام هذا ومنعه، وجعل عدد الطلقات التي يمكن للرجل أن يُراجع زوجته بعدها في أثناء العدة تطليقتين فقط، كما سيأتي في الآية التالية.

المساواة بين الحقوق والواجبات

ثم شرعت الآية مبدأً أساسياً للتعامل بين الزوجين، يتمتع كلٌّ منهما بحقوق مساوية للواجبات عليه نحو الآخر، فإذا ما التزم الزوجان بهذا المبدأ عاشا حياة زوجية طيبة بعيدة عن كل أسباب الخلاف المؤدية إلى الطلاق:

﴿ولهنّ مثل الذي عليهنّ بالمعروف﴾ أي: وللزوجات من الحقوق على أزواجهنّ من المهر والنفقة وحُسن المعاشرة، مثل ما عليهنّ من طاعة الزوج ضمن الحدود المشروعة، وحُسن القيام على شؤون الأسرة.

فالواجب على الزوج أن يؤمّن للزوجة جميع ما تحتاج إليه في شأن معيشتها من مأكل وملبس ومسكن، كما يجب عليه أن يعاشرها معاشرة إنسانية كريمة.

والواجب على المرأة طاعة زوجها في غير معصية الله تعالى، ورعاية بيته في أثناء غيابه، قال عليه الصلاة والسلام: «ألا كلّكم راعٍ وكلّكم مسؤول عن رعيته، فالإمام الأعظم الذي على الناس راعٍ، وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راعٍ على أهل بيته، وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولده، وهي مسؤولة عنهم، وعبد الرجل راعٍ على مال سيده، وهو مسؤول عنه، ألا فكلّكم راعٍ وكلّكم مسؤول عن رعيته»^(١).

فالأسرة مؤسسة اجتماعية تحتاج إلى راعٍ يراها ويكون مسؤولاً عنها، وقد جعل الله تعالى رعايتها بيد الرجل في حال حضوره، وبيد المرأة في غيابه، فقال:

﴿وللرجال عليهنّ درجة﴾ وهي درجة القوامة والرعاية، المذكورة في قوله تعالى: ﴿الرجال قوّامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم﴾

(١) رواه البخاري، كتاب الأحكام (٧١٣٨).

فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ﴿١﴾.

وليس المراد منها درجة الفضل عند الله تعالى، فالفضل عنده تعالى منوط بالتقوى، لقوله سبحانه: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ ﴿٢﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنه: الدرجة إشارة إلى حُصْن الرجال على حُسن العشرة، والتوسّع للنساء في المال والخلق ﴿٣﴾.

﴿والله عزيز﴾ غالب على أمره.

﴿حكيم﴾ [٢٢٨] في أفعاله وأقواله، فلا يجوز لأحد أن يعترض على أحكامه وشرعه.

الطلاق الرجعي مرتان

ثم بيّنت الآيات عدد الطلاق الذي يمكن بعده مراجعة الزوجة، فقال تعالى:

﴿الطلاق مرتان﴾ أي: الطلاق الرجعي مرتان فقط، ولا رجعة بعد الثالثة إلا بعد أن تنكح زوجاً آخر، وقد رفعت الشريعة الإسلامية بهذا التحديد ظمناً كبيراً عن كثير من الزوجات. قال ابن كثير رحمه الله: هذه الآية الكريمة رافعة لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام، من أن الرجل كان أحقّ برجعة امرأته، وإن طلقها مائة مرة ما دامت في العدة، فلما كان هذا فيه ضرر على الزوجات قصرهم الله إلى ثلاث طلاقات، وأباح الرجعة في المرة والثنتين، وأبانها بالكلية في الثالثة ﴿٤﴾. وعن عروة بن الزبير رضي الله عنه قال: كان الرجل إذا طلق زوجته ثم ارتجعها قبل أن تنقضي عدتها، كان له ذلك وإن طلقها ألف مرة، فعمد رجل إلى امرأته فطلقها حتى إذا شارفت انقضاء عدتها ارتجعها، ثم قال: والله لا أويك ولا تحلين أبداً. فأنزل الله تعالى: ﴿الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾ ﴿٥﴾.

﴿فإمساك بمعروف﴾ أي: فالواجب عليكم بعد المراجعة معاشرة الزوجة بما عُرف في الشرع من أداء لحقوق الزوجة، وحُسن الصحبة معها.

(١) النساء: الآية ٣٤.

(٢) الحجرات: الآية ١٣.

(٣) تفسير القرطبي ١٢٥/٣.

(٤) مختصر ابن كثير ٢٠٤/١.

(٥) تفسير الخازن ١٤٤/١، والحديث رواه الترمذي.

﴿أو تسريح بإحسان﴾ أي: أو أن يتركها فلا يُراجعها، من غير ضرر بها، وأن يؤدي لها جميع حقوقها المشروعة.

﴿ولا يحلّ لكم أن تأخذوا مما آتيتموهنّ شيئاً﴾ أي: لا يحلّ لكم أيها الأزواج أن تأخذوا شيئاً من المهر، فهو حق الزوجة، ولا يجوز للزوج أن يأخذ منه شيئاً إذا طلقها، إلّا في حالة واحدة، بينها تعالى بقوله:

﴿إلّا أن يخافا ألا يقيما حدود الله﴾ أي: إلّا إذا خافت المرأة أن تعصي الله تعالى في معاملتها لزوجها، كأن تكون كارهة له، لا تستطيع الحياة معه، وإلّا أن يخاف الرجل في مقابل ذلك أن يظلمها، ففي مثل هذه الحالة يجوز لزوجها أن يأخذ منها شيئاً من المال لكي يطلقها، وهو ما شرعه تعالى بقوله:

﴿فإن خفتم ألا يقيما حدود الله﴾ أي: فإن خفتم أيها الحكماء ألا يستطيع الزوجان تطبيق شرع الله تعالى في حياتهما الزوجية.

﴿فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾ أي: فلا إثم عليهما إذا أعطت الزوجة لزوجها شيئاً من المال، في مقابل فسخ النكاح بينهما.

وفي الحديث الشريف عن ابن عباس رضي الله عنه قال: جاءت امرأة ثابت بن قيس بن شماس إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، ثابت بن قيس ما أعتب عليه في خلق ولا دين، ولكنني أكره الكفر في الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «أتردين عليه حديثه؟» قالت: نعم. قال رسول الله ﷺ: «أقبل الحديقة وطلقها تطليقة»^(١). وقولها: أكره الكفر في الإسلام، أي: أكره إن أقمت عنده أن أقع فيما يقتضي الكفر، وكأنها أشارت إلى أنها قد تحملها شدة كراهتها له على إظهار الكفر، لينفسخ نكاحها منه، ويحتمل أن تريد بالكفر كفران العشير، وتقصير المرأة في حقّ الزوج^(٢).

والجمهور على أن أخذ الفدية على الطلاق جائز، وأجمعوا على تحريم أخذ مالها إلّا أن يكون النشوز وفساد العشرة من قبلها^(٣).

﴿تلك حدود الله﴾ أي: أحكام دينه التي شرعها سبحانه.

﴿فلا تعتدوها﴾ أي: لا تتجاوزوها بالمخالفة والإعراض عنها.

(١) صحيح البخاري، كتاب الطلاق (٥٢٧٣). وكان قد أصدقها حديقة.

(٢) فتح الباري ٤٠٠/٩.

(٣) تفسير القرطبي ١٣٧/٣.

﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [٢٢٩] أي: أولئك هم الظالمون لأنفسهم بالإعراض عن شريعة ربهم، فلا تصلح الحياة الزوجية إلا في ظل الشريعة الإسلامية، التي تحرص على سلامة الأسرة وسعادتها.

الطَّلَاقُ الثالثة

﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا ﴾ للمرة الثالثة.

﴿ فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ ﴾ أي: من بعد ذلك الطلاق.

﴿ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ ﴾ أي: حتى تنتهي عدتها وتزوّج غير زوجها السابق.

وهذا أسلوب تربوي عملي في تأديب الزوجة، إذا كانت هي المتسببة في طلاقها. كما أن فيه تربية وتأديباً للزوج إذا كانت الإساءة من جهته، فلا بد أن تدركه الغيرة عندما يرى زوجته تزوّج بعد طلاقها غيره، ويندم على ما صدر منه في حقها. ولا يحلّ لها أن تعود إلى زوجها السابق حتى يتمّ زواجها من الثاني، ويعاشرها معاشرة الأزواج، دلّ على ذلك الحديث الشريف عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاءت امرأة رفاعة إلى النبي ﷺ فقالت: كنت عند رفاعة فطلّقني فبتّ طلاقاً - أي طلقني ثلاثاً - فتروّجت عبد الرحمن بن الزبير، وإنما معه مثل هدبة الثوب^(١)، فتبسّم رسول الله ﷺ فقال: «أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟ لا حتى تذوقي عُسَيْلَتَهُ ويذوق عُسَيْلَتَكَ»^(٢).

﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا ﴾ الزوج الثاني، وانقضت عدتها منه.

﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ أي على المرأة المطلقة وزوجها الأول.

﴿ أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ﴾ أي: أن يرجعا إلى حياتهما الزوجية السابقة بعقد جديد، إن ظنّا أنّهما يستطيعان أن يستأنفا حياتهما الزوجية في ظلّ شريعة الله تعالى. وذكرتهم الآية مرة ثانية بأن هذه الأحكام هي الحدود التي شرعها الله تعالى، فيجب الوقوف عندها:

﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [٢٣٠] ويعملون بها، فالعلم لا يكون نافعاً إلا إذا عمل به، ولقد استعاذ النبي ﷺ من علم لا ينفع فقال: «اللّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ

(١) تعني ضعفه جنسياً.

(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم، كتاب النكاح (١٤٣٣). وهو استعارة لطيفة شبه بها النبي ﷺ لذة الاتصال الجنسي بحلاوة العسل.

من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها»^(١).

التحذير من الإضرار والعدوان

ثم وَّجَّهَت الآيات الخطاب للأزواج الذين يريدون تطليق زوجاتهم؛ تحذّرهم من الإضرار بهنّ وظلمهنّ، كما كان الحال في الجاهلية، بقوله تعالى:

﴿وإذا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغُنَّ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: قاربن بعد إيقاع الطلاق من نهاية عدّته.

﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ وذلك بالمراجعة المشروعة كما مرّ.

﴿أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: اتركوهنّ حتى تنقضي عدّتهنّ، ويملكن أمرهنّ، وهو تأكيد لما سبق في قوله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فِإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ وهذا يدلّ على اهتمام الشريعة الإسلامية بدفع الظلم والضرر عن المطلّقات، أكّده تعالى أيضاً بقوله بعد ذلك:

﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضَرَارًا لِّتَعْتَدُوا﴾ أي: لا تراجعوهنّ بقصد الإضرار بهنّ، فتجاوزوا حدود شرع الله تعالى، وتعتدوا عليهنّ وتأخذوا أموالهنّ.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ بتعريضها لغضب الله وعذابه، فاحذروا ذلك، وقفوا عند الحدود المشروعة لكم.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ أي: تمسكوا بأحكام شريعته تعالى بجدّ وقوة، ارعوها حقّ رعايتها، وإلّا كنتم لاعبين هازئين بها، فإنّه تعالى شرع هذه الأحكام لصلاحيكم وسعادتكم، وهي من نعمه الكبيرة عليكم.

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾ في القرآن الكريم والسنة المطهرة، فانقادوا لأحكامهما، وأذعنوا لما فيهما.

﴿يَعْظُمُكُمْ بِهِ﴾ أي: يعظّمكم بما أنزل عليكم، ففي الكتاب والسنة من الزواجر والدروس النافعة والعبر البليغة المربيّة ما يكفي للتعاظ والانزجار.

ودلّت الآية على أنه لا يجوز التلاعب بألفاظ الطلاق، ولا خلاف بين العلماء أن

(١) صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء (٢٧٢٢).

مَنْ طَلَّقَ هَازِلًا يَلْزِمُهُ طَلَاقُهُ، وَأَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «ثَلَاثُ جَدَهْنَ جَدٌّ، وَهَزْلَهْنَ جَدٌّ: النِّكَاحُ وَالطَّلَاقُ وَالرَّجْعَةُ»^(١).

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بِالتَّزَامِ دِينَهُ وَتَطْبِيقِ أَحْكَامِ شَرِيعَتِهِ.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [٢٣١] لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِكُمْ، فَاحْذَرُوا مَخَالَفَةَ أَمْرِهِ، وَمَجَاوِزَةَ شَرْعِهِ.

الرجوع إلى الحياة الزوجية

وَتَسْتَطِيعُ الْمَرْأَةُ الْمُطَلَّقةُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى حَيَاتِهَا الزَّوْجِيَّةِ السَّابِقَةِ، وَلَوْ انْتَهَتْ عَدَّتُهَا، بَعْدَ التَّطْلِيقِ الْأَوَّلِيِّ وَالثَّانِيَةِ، وَلَا يَتِمُّ ذَلِكَ إِلَّا بِإِرَادَتِهَا وَرِضَاهَا، وَبِاتِّفَاقِهَا مَعَ مُطَلِّقِهَا عَلَى عَقْدٍ جَدِيدٍ وَمَهْرٍ جَدِيدٍ أَيْضًا.

فَالشَّرِيعَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ تَحْرُسُ عَلَى إِتَاحَةِ الْفُرْصَةِ لِلزَّوْجَيْنِ الْمُنْفَصِلِينَ بِالطَّلَاقِ، لِإِعَادَةِ بِنَاءِ الْأُسْرَةِ وَإِصْلَاحِ مَا تَهَدَّمَتْ مِنْهَا، وَعَلَى أَوْلِيَاءِ الْمَرْأَةِ الْمُطَلَّقةِ أَنْ يَسِّرُوا عَمَلِيَّةَ رَجُوعِ الْمَرْأَةِ إِلَى حَيَاتِهَا الزَّوْجِيَّةِ السَّابِقَةِ، وَلَا يَجُوزُ لَهُمْ مَنَعُهَا مِنْ ذَلِكَ، وَهَذَا مَا بَيَّنَّهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ:

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبِغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أَي: انْقَضَتْ عَدَّةُ طَلَاقِهِنَّ.

﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ أَي: لَا تَمْنَعُوهُنَّ أَيُّهَا الْأَوْلِيَاءُ.

﴿أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ أَي: أَنْ يَرْجِعْنَ إِلَى أَزْوَاجِهِنَّ بِعَقْدٍ جَدِيدٍ.

وَأَصْلُ الْعَضْلِ: الْحَبْسُ وَالتَّضْيِيقُ، وَمِنْهُ عَضَلَتِ الدَّجَاجَةُ، إِذَا نَشَبَتْ بَيْضَتَهَا وَلَمْ تَخْرُجْ^(٢).

وَذَكَرُوا فِي سَبَبِ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ مَعْقِلَ بْنَ يَسَارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: نَزَلَتْ فِيهِ، قَالَ: زَوَّجْتُ أُخْتًا لِي مِنْ رَجُلٍ، فَطَلَّقَهَا، حَتَّى إِذَا انْقَضَتْ عَدَّتُهَا جَاءَ يَخْطُبُهَا، فَقُلْتُ لَهُ: زَوَّجْتُكَ وَأَفْرَشْتُكَ وَأَكْرَمْتُكَ، فَطَلَّقْتُهَا ثُمَّ جِئْتُ تَخْطُبُهَا! لَا وَاللَّهِ لَا تَعُودُ إِلَيْكَ أَبَدًا، وَكَانَ رَجُلًا لَا بَأْسَ بِهِ، وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ تَرِيدُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ فَقُلْتُ: الْآنَ أَفْعَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَرَوَّجْهَا إِيَّاهُ^(٣).

(١) تفسير القرطبي ١٥٧/٣.

(٢) روح المعاني ١٤٤/٢.

(٣) صحيح البخاري، كتاب النكاح (٥١٣٠).

﴿إذا تراضوا بينهم بالمعروف﴾ أي: إذا تمَّ الاتفاق بين الرجل الخاطب والمرأة المخطوبة، على وفق ما شرع الله تعالى من أحكام.

﴿ذلك يوعظ به مَنْ كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ أي: هذه الأحكام التي ذكرها الله في الآية، يتعظ بها ويتنفع بها المؤمن دون غيره.

﴿ذلكم أزكى لكم وأطهر﴾ أي: هذه الأحكام الشرعية تطهركم من أدناس المعاصي والآثام، وتطهر قلوبكم من الأحقاد والأضغان، فتطبيقها ينفي عن المجتمع المعاصي والفواحش، وينفي عن النفوس والقلوب الضغائن والأحقاد.

ولا شك أن في منع النساء من الزواج، إشاعةً للفساد في المجتمع، وتشجيعاً على الفواحش والفسوق.

﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ [١٣٢] أي: والله يعلم ما فيه صلاحكم وسعادتكم، وأنتم لا تعلمون ذلك بسبب قصوركم وعجزكم، وتغلب الأهواء عليكم.

حقّ الأولاد في الرضاعة والنفقة

اهتمّت الشريعة الإسلامية بالأولاد، وخاصة الصغار منهم، فلهم حقوق لا ينبغي إهمالها في أثناء الخلافات الزوجية بين الآباء، وها هي الآيات تتحدّث عن حقوق الأطفال في الرضاع، وما يتعلق بها من أحكام، في حال انفصال الزوجين ووقوع الطلاق.

قرّرت أولاً المدة الكاملة للرضاع بقوله تعالى:

﴿والوالدات يرضعن أولادهنّ حولين كاملين﴾ أي: سنتين كاملتين، والمراد من الوالدات العموم، مطلّقات أو غير مطلّقات.

ويندب للأم أن ترضعه من لبنها، لأنه أصلح له من لبن غيرها، ولكمال شفقتها عليه، ولا يتعيّن عليها إرضاع ولدها إلا إذا لم يوجد مَنْ يرضعه، أو لم يقبل غير لبنها، وإن رغبت الأم في إرضاع ولدها فهي أولى به من غيرها، لكمال شفقتها عليه.

﴿لمن أراد أن يتمّ الرضاعة﴾ أي: هذا الحكم لمن أراد إتمام الرضاعة، وهو يدلّ على أن أقصى مدة الإرضاع حولان، وأنه يجوز الفطام قبل تمام الحولين، والتحديد لقطع التنازع بين الزوجين، فلا عبء على الوالد إعطاء أجره الرضاع لأكثر من حولين. وأفادت الآية أن الرضاع المحرّم للنكاح هو الرضاع في السنتين الأوليين من حياة الرضيع. ثم قرّرت الآية مسؤولية الوالد في الإنفاق على الأسرة:

﴿ وعلى المولود له ﴾ وهو الوالد، وإنما قيل: ﴿ وعلى المولود له ﴾ دون: الوالد؛ ليعلم أن الوالدات إنما يلدن لهم، إذ الأولاد للآباء والنسب إليهم لا إليهن^(١).

﴿ رزقهن وكسوتهن بالمعروف ﴾ أي: عليهم نفقة الوالدات من طعام وكسوة وسكنى حسب ما هو متعارف عليه في المجتمع، من غير إسراف ولا تقتير.

وفي هذا دليل على وجوب نفقة الولد على الوالد، لضعفه وعجزه، وسمّاه سبحانه للأم لأن الغذاء يصل إليه بواسطتها في الرضاع^(٢)، قال تعالى: ﴿ أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضييقنا عليهن وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن فإن أرضعن لكم فأتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى ﴾^(٣).

وفي الحديث الشريف أن هند بنت عتبة قالت للنبي ﷺ: إن أبا سفيان رجل شحيح وليس يعطيني ما يكفيني وولدي إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم، فقال: «خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف»^(٤).

ثم بين تعالى أن تكليف الوالد بالنفقة منوط بوسعه وإمكاناته المادية المتوفرة له فقال: ﴿ لا تكلف نفس إلا وسعها ﴾ أي: إلا ما تتسع له مقدرتها، كما قال في موضع آخر: ﴿ لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاه سيجعل الله بعد عسر يسراً ﴾^(٥).

والضرر في الإسلام ممنوع، وتجب إزالته؛ ولهذا نهى تعالى في حال حدوث نزاع بين الزوجين حول الولد، أن يسعى كل منهما للإضرار بالآخر بسبب الولد، فقال: ﴿ لا تضارّ والدته بولدها ﴾ قرء بالفتح، ويراد به النهي، وبالضم، ويراد به الإخبار، ومعناه النهي.

﴿ ولا مولود له بولده ﴾ وإضافة الولد إليها تارة وإليه أخرى استعطاف لهما عليه، وتنبيه على أنه حقيق بأن يتفقا على استصلاحه والإشفاق عليه، فلا ينبغي أن يضرا به، أو أن يتضارّا بسببه^(٦).

(١) النسفي ٣٥٤/١.

(٢) القرطبي ١٦٣/٣.

(٣) الطلاق: الآية ٦.

(٤) صحيح البخاري، كتاب النفقات (٥٣٦٤).

(٥) الطلاق: الآية ٧.

(٦) تفسير البضاوي ٣٥٥/١.

﴿ وعلى الوارث مثل ذلك ﴾ أي : وعلى وارث الولد عند عدم الوالد أن ينفق على الولد المحتاج الذي لا مال له ؛ إذ الغرم بالغنم في الشريعة الإسلامية ، فكما قررت له الشريعة حقاً في ميراثه في حال وفاته ، أوجب عليه في مقابل ذلك أن ينفق عليه إذا كان محتاجاً ، وهذه قاعدة مهمة في نظام التكافل الاجتماعي ، قررتها الشريعة الإسلامية في النفقة بين الأقارب ، ولو أحسن المسلمون تطبيقها لتمكنوا من معالجة ظاهرة الفقر في قطاع كبير من المجتمع ؛ فمن النادر أن تجد فقيراً لا وارث له يستطيع كفالتة والإنفاق عليه .

ولا ينبغي أن يستبدّ أحد الوالدين دون الآخر برعاية الولد ، فمصلحة الولد يجب أن تكون في معزل عن المنازعات القائمة بينهما ، ولا شك أن الوالدين يتفقان على ما هو الأصلح لولدهما ، ولا يتنازعان في ذلك ، فعليهما أن يتشاورا في كل ما يتعلق بمصلحة ولدهما ، وهو ما دلّ عليه قوله تعالى بعد ذلك :

﴿ فإن أرادا فصلاً عن تراضٍ منهما وتشاورٍ ﴾ أي : إن أراد الوالدان فطام الولد قبل الحولين ، واجتمع رأيهما على ذلك بعد التشاور .

﴿ فلا جناح عليهما ﴾ أي : لا حرج عليهما في ذلك ، لأن تشاورهما واتفاقهما لا بدّ أن يكون في مصلحة ولدهما .

فالفصال والفصل : الفطام ، وأصله التفريق ، فهو تفريق بين الرضيع والثدي . وكذلك إذا أرادت الأم المطلقة أن تتزوج ، أو تعذر عليها إرضاع ولدها لانقطاع لبنها ، فلا حرج على الآباء أن يطلبوا لأولادهم مريضعات غير أمهاتهم :

﴿ وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف ﴾ أي : إذا سلّم الآباء إلى المراضع أجرة الرضاع بالوجه المتعارف المستحسن ، ولا شك أن تعجيل الأجرة للمرضع أحسن للطفل ؛ إذ يجعلها أكثر عناية به واهتماماً بمصلحته .

﴿ واتقوا الله ﴾ بالتزام أحكام شريعته .

﴿ واعلموا أن الله بما تعملون بصير ﴾ [٢٣٣] يراكم ويحصى عليكم أعمالكم .

هكذا حفظت الشريعة الإسلامية حقوق جميع أفراد الأسرة ، وخاصة الضعفاء فيها ، وهم الأطفال الرضع ، بأسلوب حكيم متوازن ، لا ميل فيه لطرف على حساب طرف آخر ، مما يدلّ على كمالها وإنسانيتها ، وأنها حقاً شريعة الحكيم العليم والبرّ الرحيم .

عِدَّة الوفاة

وكما شرعت الآيات عِدَّة للمطلقات، شرعت أيضاً عِدَّة للمتوفى عنهن أزواجهن، فالزواج نعمة كبيرة، وموت الزوج لا شك مصيبة كبيرة بالنسبة للزوجة، وليس من المناسب أن تتزوج مباشرة بعد وفاة زوجها، بل عليها أن تتربص مدة العِدَّة، وتظهر الأسف على فَقْد زوجها، وتترك التزيّن والطيب، وهو الحداد المشروع، ففي الحديث الشريف عن أم عطية أن رسول الله ﷺ قال: «لا تحد المرأة على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً»^(١).

﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن﴾ أي: ينتظرن بأنفسهن في العِدَّة.

﴿أربعة أشهر وعشراً﴾ أي: أربعة أشهر وعشر ليالٍ من وفاة الزوج. وهو خبر في معنى الأمر يدل على الوجوب، كما مرّ في عِدَّة الطلاق ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾.

﴿فإذا بلغن أجلهن﴾ أي: انقضت مدة العِدَّة.

﴿فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن﴾ من الأمور التي كانت محرمة عليهن في العِدَّة، كالتزيّن والخروج من المنزل الذي كانت تعتدّ فيه، والخطبة والزواج.

﴿بالمعروف﴾ أي: بالوجه المشروع الذي لا ينكره الشرع، أما إذا فعلن ما يخالف الشرع فعلى أولياء النساء أو أولياء الأمر أن يمنعهنّ من ذلك، ولهذا وجّهت الآية الخطاب لهم.

﴿والله بما تعملون خبير﴾ [٢٣٤] يعلم حقيقة وكُنْه أعمالكم، لا يخفى عليه خافية، فاحذروا مخالفة أمره.

وكما لا يجوز للمرأة المَعْتَدَّة أن تتزوج، لا يجوز أن تُخَطَّب إلا بالتلويح والتعريض دون التصريح:

﴿ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء﴾ أي: لا حرج عليكم في التلويح للنساء المَعْتَدَّات برغبتكم في الخطبة من غير تصريح.

قال ابن عباس رضي الله عنه يقول: إنّي أريد التزويج، ولوددت أنه يسّر لي امرأة

(١) صحيح مسلم، كتاب الطلاق (٩٣٨).

صالحة. وقال القاسم بن محمد: يقول: إنك عليّ كريمة، وإني فيك لراغب، وإن الله لسائق إليك خيراً، أو نحو هذا^(١).

وهذا يدلّ على أن الخطبة التي هي مقدمة الزواج غير جائزة شرعاً في أثناء عدّة المتوفّي عنها زوجها.

﴿أو أكنتم في أنفسكم﴾ أي: ولا جناح عليكم إذا أضمرتم في أنفسكم رغبتكم في الزواج.

﴿علم الله أنكم ستذكرونهنّ﴾ أي: بقلوبكم، لأن شهوة النفس والتمني لا يخلو عنها أحد، ودفع مثل هذه الخواطر شاق على النفس؛ ولهذا أسقطه الله عنهم، إذ الشريعة الإسلامية شريعة رحمة وسماحة ويُسّر.

﴿ولكن لا تواعدوهنّ سرّاً﴾ فيما يستحيا من ذكره من الكلام المتعلّق بالجماع، فقد يعتمد بعض الرجال إلى الحديث عن فحولتهم وقوتهم في الجماع في مثل هذه الأحوال، فنهاهم الله تعالى عن ذلك.

﴿إلا أن تقولوا قولاً معروفاً﴾ أي: واعدوهنّ بقول معروف لا فحش فيه ولا يستحيى منه في المجاهرة.

ثم حدّرتهم الآية من إبرام عقد النكاح قبل انتهاء العدّة، فهو في هذه الحالة عقد باطل شرعاً.

﴿ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله﴾ أي: لا تعقدوا عقد النكاح حتى تنتهي العدّة المفروضة، وسُمّيت العدّة كتاباً لأنها مفروضة، أو لأنها فُرِضَتْ بالكتاب، وهو القرآن الكريم. أو لا تقصدوا إلى إبرام العقد بجدّ وعزيمة قبل انتهاء العدّة، ففي هذا المعنى مبالغة في النهي عن عقد النكاح، وهو يتفق مع قوله تعالى بعد ذلك:

﴿واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم﴾ من العزم على فعل ما لا يجوز.

﴿فاحذروه﴾ أي: فاحذروا مخالفته، ولا تعزموا على فعل الحرام.

﴿واعلموا أن الله غفور حلیم﴾ [٢٣٥] يغفر للتائبين، ولا يعاجل المذنبين بالعقوبة، لكي يتوبوا ويرجعوا عمّا عزموا عليه.

(١) صحيح البخاري، كتاب النكاح (٥١٢٤).

الطلاق قبل الدخول

مر معنا أن الطلاق أمر مكروه، ما شرع إلّا للضرورة، وأن الأصل فيه الحظر، لحرص الشريعة الإسلامية على سلامة الأسرة واستمرارها، لكن هذا الحظر يزول إذا لم يكتمل بناء الأسرة، وكانت لا تزال في أول مراحل نشوئها.

قال القرطبي رحمه الله: لما نهى رسول الله ﷺ عن التزوّج لمعنى التذوّق وقضاء الشهوة، وأمر بالتزوّج لطلب العصمة والتماس ثواب الله، وقصد دوام الصحبة، وقع في نفوس المؤمنين أن من طلق قبل البناء قد وقع جزءاً من هذا المكروه، فنزلت الآية رافعة للجناح في ذلك، إذا كان أصل النكاح على المقصد الحسن^(١).

﴿ لا جناح عليكم إن طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ ﴾ أي: لا مؤاخذه عليكم إذا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ قَبْلَ أَنْ تَمْسُوهُنَّ، أي: تدخلوا بهنّ وتجامعهنّ، فالطلاق بعد العقد وقبل الدخول جائز، فقد يبدو للرجل أمر بعد العقد يحمله على التراجع عنه، والتراجع في مثل هذه الحالة أفضل، والضرر فيه يسير، يلحق المرأة أكثر من الرجل، فقد تصاب المرأة بشي من الإحباط وخيبة الأمل عندما تطلق بعد العقد عليها؛ ولهذا شرع الله تعالى لها أن تأخذ نصف المهر المسمّى في العقد، كما سيأتي في الآية التالية، وفي هذه الآية بيّن تعالى حكم المطلّقات قبل الدخول ولم يسمّ لهنّ المهر، فقال:

﴿ أو تَفْرَضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ أي: ولم تفرضوا لهنّ مهراً.

﴿ وَتَمَتَّعُوهُنَّ ﴾ أي: فالواجب عليكم في مثل هذه الحالة أن تعطوهنّ المتعة، كتعويض مادّي عن الضرر المعنوي الذي يمكن أن يلحق بهنّ، وتقدير المتعة على حسب حال المطلّقات:

﴿ عَلَى الْمَوْسَعِ قَدْرُهُ ﴾ أي: على الذي له سعة وغنى، مقداره الذي يناسبه.

﴿ وَعَلَى الْمَقْتَرِ قَدْرُهُ ﴾ أي: وعلى المقلّ الضيق الحال، المقدار الذي يناسبه.

﴿ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أي: متّعوهنّ متاعاً بالوجه المستحسن المعروف بين الناس.

﴿ حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴾ [٢٣٦] أي: واجباً لازماً على الذين يحسنون إلى النساء

المطلّقات.

وأما المطلّقات قبل الدخول، اللواتي ذكّرت مهورهنّ، فلكل واحدة نصف مهرها

(١) تفسير القرطبي ١٩٧/٣.

المسمى : ﴿وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة﴾ أي : سميت لهن مهراً ، سمّاه فريضةً لأنه من الحقوق المفروضة على الرجل لزوجته .

﴿ فنصف ما فرضتم ﴾ أي : فلهن نصف المهر المسمى .

﴿ إلا أن يعفون ﴾ أي : المطلقات ، فيتنازلن عن حقهن في نصف المهر .

﴿أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح﴾ أي : أو يترك الزوج حقه في النصف الثاني من المهر ، فيعطيها المهر كاملاً ، وكانوا يعطون النساء المهر كاملاً عند العقد ، فمن طلق قبل الدخول استحق أن يسترد نصف ما أعطى للمرأة من المهر ، فإذا لم يسترده فقد عفا عنه . وبعد أن بينت الآية حق كل واحد على الآخر ، حثتهم على العفو؛ رفعا لهمهم إلى المستوى المثالي الرفيع :

﴿ وأن تعفو أقرب للتقوى ﴾ ويبدو أنه خطاب للأزواج ، حثاً لهم على التفضل على المرأة ، فهو أقرب للقوى .

﴿ ولا تنسوا الفضل بينكم ﴾ أي : ليتفضل بعضكم على بعض ، وهو خطاب للطرفين ، الرجال والنساء ، لكي تبقى العلاقة في المجتمع قائمة على الإحسان ومكارم الأخلاق ، فلا يبقى في القلوب نتيجة ما حدث من فرقة وطلاق أحقاد وضغائن . ﴿ إن الله بما تعملون بصير ﴾ [٢٣٧] فيجازي المحسنين على إحسانهم ، وأصحاب الفضل على فضلهم .

الصلاة والطلاق

ويلاحظ المتدبر لآيات الطلاق ، أنها دأبت على تقوية الرقابة الوجدانية الداخلية في نفوس المسلمين ، فقد ختمت أكثر الآيات بتذكير الإنسان برقابة الله تعالى عليه ، وأنه تعالى مطلع على دخيلة نفسه وما يكنه في ضميره ووجدانه ، كقوله تعالى : ﴿ واعلموا أن الله بكل شيء عليم ﴾ ، وقوله : ﴿ ذلكم أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ ، وقوله : ﴿ واعلموا أن الله بما تعملون بصير ﴾ ، وقوله : ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ ، وقوله : ﴿ واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه ﴾ .

وكل ذلك يدل على أن الطلاق من الشؤون الخاصة ، التي ينبغي أن تسوى بين الرجل وزوجته على أصيق نطق ، كما أن شعورهما بمراقبة الله تعالى لهما ، ووقوفهما عند أحكامه التي شرعها لهما ، كفيل أن يحل كل ما يواجههما من عقبات وصعوبات ،

وقد يؤدّي التزامهما بتقوى الله تعالى، إلى عودة التفاهم والمحبة إليهما، واستمرار حياتهما الزوجية على أحسن الوجوه.

والمحافظة على الصلوات المفروضة، لها دور كبير في تربية الوجدان الديني عند الزوجين، فهي تذكّرهما بالله تعالى وبمراقبته، وتجعلهما يقفان عند حدوده المشروعة، وتساعدهما على التغلب على المشقات والصعوبات التي تواجههما، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿يا أيّها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إنّ الله مع الصابرين﴾، وقوله سبحانه: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنّها لكبيرة إلاّ على الخاشعين﴾ ولهذا لا نعجب، ونحن نرى الآيات الكريمة في السورة، قبل أن تفرغ من الحديث عن أحكام الطلاق، تلتفت بالخطاب إلى عامّة المؤمنين، تأمرهم بالمحافظة على الصلوات المفروضة، وتأمرهم أن يؤدّوها على قدر استطاعتهم، مهما كانت الظروف والأحوال التي يمرّون بها.

﴿حافظوا على الصلوات﴾ المفروضة عموماً.

﴿والصلاة الوسطى﴾ بين الصلوات، أي: الفضلى، وخصّت بالذكر لانفرادها بمزيد من الفضل، وهي صلاة العصر عند جمهور العلماء، وفي الحديث الشريف عن عليّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً» ثم صلاها بين العشائين، بين المغرب والعشاء^(١).

﴿وقوموا لله قانتين﴾ [٢٣٨] أي: طائعين كاملي الاستسلام لله تعالى، أو خاشعين، أو ذاكرين له تعالى، أو داعين، أو ساكتين.

وفي الحديث الشريف عن زيد بن أرقم قال: كنّا نتكلم في الصلاة، يكلم أحداً أخاه في حاجته، حتى نزلت هذه الآية ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين﴾ فأمرنا بالسكوت^(٢).

وهذه الأقوال متقاربة في المعنى، والمقصود أن يتحقّق المصلّي بالخضوع والخشوع لله تعالى، وهو من أعمال القلب، يظهر أثره في سكون الجوارح، حتى يمدّه الله تعالى في صلاته بمعونته ورحمته.

(١) متفق عليه واللفظ لمسلم، كتاب المساجد (٦٢٧).

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير (٤٥٣٤).

ففي الآية الكريمة وصفة ربّانية لعلاج المتاعب النفسية والعصبية، التي تواجه الإنسان في حياته، وخاصة في حياته الأسرية مع زوجته وأولاده، ولهذا أمر الله تعالى الرجل أن يأمر أهله بالصلاة: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ (١).

وحيث ﷺ في عدد من الأحاديث، على أداء السنن في البيوت، لعمارتها بذكر الله، واستنزال الرحمات الإلهية فيها، فهي تشيع في البيت جو الألفة والمودة، وتبعد عنه الأجواء المشحونة بالتوتر والبغضاء والأحقاد.

ومما يؤكد على أهمية الصلاة، أنها لا تسقط عن المكلف بها في أيّ حال من الأحوال، فمهما كانت الظروف قاسية وشديدة عليه، فالواجب عليه أن يؤدي الصلاة، إذ فيها ما يساعده على مواجهة الصعوبات، والتغلب على المشقات؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ مِنْ عَدُوٍّ أَوْ غَيْرِهِ.

﴿فَرَجُلًا أَوْ رَكْبَانًا﴾ أي: فصلّوا راجلين على أرجلكم، أو راكبين على الدواب وغيرها من وسائل السفر.

﴿فَإِذَا أَمْتُمْ﴾ أي: زالت أسباب الخوف.

﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ أي: فصلّوا الصلاة كاملة.

﴿كَمَا عَلَّمَكُمْ﴾ أي: مثلما علّمكم وشرع لكم.

﴿مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [٢٣٩] وفيه إشارة إلى إنعام الله تعالى علينا بالعلم، ولولا هدايته وتعليمه إيانا لم نعلم شيئاً، ولم نصل إلى معرفة شيء، فله الحمد على ذلك (٢).

تخفيف وتيسير

وبعد هذه الالتفاتة السريعة إلى الصلاة وأهميتها، ووجوب المحافظة عليها، رجعت الآيات الكريمة إلى موضوع الطلاق، لتتوجّ خاتمة بآيتين كريمتين، تُظهر الأولى منهما فضل الله تعالى بتيسير أحكام هذه الشريعة وتخفيفها، بنسخ حكم شرعي كانوا يعملون به في أول الأمر، بحكم أخفّ منه وأيسر، وتظهر الآية الثانية حرص الإسلام

(١) طه: الآية ١٣٢.

(٢) تفسير الخازن ١/٣٧٠.

على إزالة الأحقاد والضغائن من القلوب، ومسح ما يمكن أن يعلق بها من رواسب نتيجة الطلاق. قال تعالى:

﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم﴾ أي: ليوصوا وصية لأزواجهم.

﴿متاعاً إلى الحول﴾ أي: تُعطى المرأة بها نفقة سنة، لطعامها وكسوتها وما تحتاج إليه.

﴿غير إخراج﴾ أي: وتبقى في بيتها سنة، تعتدّ عدّة الوفاة.

وكان ذلك مشروعاً في أول الأمر، إذ كانت عدّة الوفاة سنة كاملة، ثم خففها تعالى إلى أربعة أشهر وعشر، بقوله المتقدم: ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يترصدن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾.

﴿فإن خرجن﴾ أي: إن لم يلتزمن بالعدّة، وخرجن من منزل الزوج المتوفى.

﴿فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن﴾ أي: في ترك العدّة.

﴿من معروف﴾ أي: مما لا ينكره الشرع. وهذا يدلّ على أن المرأة كانت مخيرة، بين التزام العدّة والإحداذ على الزوج المتوفى وأخذ النفقة، وبين الخروج وتركها.

﴿والله عزيز حكيم﴾ [٢٤٠].

ويلاحظ أن الآية الناسخة قد ذكرت قبل هذه الآية المنسوخة، مما يدلّ على أن ترتيب المصحف يختلف عن ترتيب نزوله، وأن ترتيبه في المصحف توقيفي، وأن الصحابة رضي الله عنهم عندما كتبوا المصاحف، ما غيروا شيئاً فيه أبداً، أكّد ذلك قول عبد الله بن الزبير لعثمان بن عفان رضي الله عنهما: ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً﴾ قد نسختها الآية الأخرى، فلم تكتبها أو تدعها؟ قال: يا ابن أخي، لا أغيّر شيئاً عن مكانه^(١).

وفي رواية أخرى: قلت لعثمان: هذه الآية ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج﴾ قال: نسختها الآية الأخرى، قلت: تكتبها أو تدعها؟ قال: يا ابن أخي، لا أغيّر منها شيئاً عن مكانه.

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير (٤٥٣٠).

قال ابن حجر رحمه الله: وهذا السياق أولى من الذي قبله، و﴿أو﴾ للتخيير لا للشك، وفي جواب عثمان هذا دليل على أن ترتيب الآي توقيفي... على أن من السلف من ذهب إلى أنها ليست منسوخة، وإنما خص من الحول بعضه، وبقي البعض وصية لها، إن شاءت أقامت، كما في الباب عن مجاهد، لكن الجمهور على خلافه^(١).

وجاءت الآية الأخيرة في آيات الطلاق، تؤكد على تقديم المتعة إلى المطلقات على وجه العموم؛ لإزالة ما يمكن أن يبقى في القلوب والنفوس من أحقاد وضغائن، قال تعالى: ﴿وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين﴾ [٢٤١] أي: حقاً ثابتاً للمطلقات، على المتقين المتمسكين بدين الله وأحكام شريعته، وبهذا ربطت الآيات أحكام الطلاق بالتقوى، كما فعلت في جميع ما سبق من التشريعات.

ثم ختم الله تعالى الحديث عن أحكام الطلاق بقوله الكريم: ﴿كذلك يبين الله لكم آياته﴾ أي: وهكذا يبين الله لكم أيها المؤمنون، أحكام دينه وشرعه، المؤيدة بالدلائل والبراهين.

﴿لعلكم تعقلون﴾ [٢٤٢] ما فيها من حكم وأحكام، تجعلكم متمسكون بها، مستسلمين مذعنين.

قال سيد قطب رحمه الله: كذلك.. كهذا البيان الذي سلف في هذه الأحكام، وهو بيان محكم دقيق موحٍ مؤثر، كذلك يبين الله لكم آياته عسى أن تقودكم إلى التعقل والتدبر فيها، وفي الحكمة الكامنة وراءها، وفي الرحمة المتمثلة في ثناياها، وفي النعمة التي تتجلى فيها، نعمة التيسير والسماحة مع الحسم والصرامة، ونعمة السلام الذي يفيض منها على الحياة ولو تعقل الناس وتدبروا هذا المنهج الإلهي لكان له معهم شأن، هو شأن الطاعة والاستسلام والرضى والقبول، والسلام الفائض في الأرواح والعقول^(٢).

(١) فتح الباري ١٩٤/٨.

(٢) في ظلال القرآن ٢٥٩/١.

الفصل الثامن

أخبار وقصص من التاريخ

تَهْيِيد

وتوقفت الآيات مرة ثانية على طريق التشريع وبيان الأحكام، التزاماً بأسلوبها التربوي الرفيع، في عرض الأحكام التكليفية، الذي سبقت الإشارة إليه، وهو تفريق الأحكام ونشرها بين آيات السورة، بإحكام واتساق وإتقان؛ إبرازاً لِيُسَرَّ الشريعة الإسلامية وسماحتها في ذات الأحكام، وفي أسلوب تشريعها وبيانها.

ولم تبتعد الآيات في أثناء توقفها عن محور السورة الأساسي، وهو الإسلام لله تعالى، والاستسلام الكامل لأحكامه التشريعية والقدرية، وقد ركزت هذه المرة على الأخبار والقصص التاريخية؛ لتؤكد صدق النبي ﷺ، وصحة نبوته ورسالته.

الفارّون من الموت

وكان أول خبر عرضته، إخبارها عن أمة من الأمم السالفة، نزل الموت بديارهم، فخرجوا منها فراراً من الموت، وهم يظنون أنهم بخروجهم وفرارهم يتمكنون من الإفلات من قدر الله تعالى، فهم نموذج للناس الذين لا يستسلمون لأحكامه سبحانه القدرية.

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ وهو سؤال تعريف وتعجيب.

﴿ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ ﴾ ويبدو أنهم كانوا أكثر من عشرة آلاف؛ إذ لا يقال عشرة ألف ولا تسعة ألوف، وأفاد قوله: ﴿ وَهُمْ أُلُوفٌ ﴾ بيان كثرة عددهم، وأن خروجهم من ديارهم كان خروجاً جماعياً.

ولم تبيّن الآية جنسهم ومكان ديارهم، فعدم معرفة جنسهم ومكانهم وتاريخهم لا يؤثر على مغزى الخبر وعظاته، يكفيننا ما ذكرته الآية لنا، فلا نسعى، كما فعل أكثر المفسرين، لمعرفة أمور لا فائدة من معرفتها.

﴿ حذر الموت ﴾ أي: خرجوا من ديارهم خوفاً من الموت، ويبدو أن وباء مميتاً كالطاعون وقع بينهم، فخرجوا فراراً منه.

وقد يقول قائل: ألا ينبغي في مثل هذه الأحوال أن يأخذ الإنسان بأسباب السلامة والوقاية؟ وأقول: نعم، الأخذ بأسباب السلامة والوقاية أمر مشروع في الإسلام، وقد مرّ في هذه السورة الكريمة ما يدلّ عليه: ﴿ وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ فهي تفيد هذا الحكم نظراً لعموم لفظها، فإذا كان الإنسان خارج موطن الوباء والطاعون لا يقدم عليه، وأما إذا كان داخل موطنه وموضع انتشاره فلا يخرج منه؛ لأنه بخروجه يمكن أن يتسبب بتقدير الله تعالى، في نقل أسبابه وحاملاته إلى أماكن أخرى، وهو ما نصّ عليه في الحديث النبوي الشريف: «إذا سمعتم بالطاعون في أرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها»^(١).

وأراد سبحانه أن يبيّن لهؤلاء الفارين، أنهم لا يستطيعون الفرار من قدره، وأنه لا بدّ لهم من الاستسلام والإذعان لقدره، كما يستسلمون لأحكام شريعته:

﴿ فقال لهم الله موتوا ﴾ فماتوا، لأن إرادته تعالى تامّة نافذة في ذرات الموجودات كلها، ولن يغني حذر من قدر، وكان موتهم موتاً مؤقتاً للاعتبار والاتعاظ، فما حانت بعد أجالهم التي تنتهي بها حياتهم الدنيوية.

﴿ ثم أحياهم ﴾ أي: ثم أعادهم سبحانه بقدرته إلى الحياة، وقد مرّ معنا في السورة حدوث مثل ذلك في بني إسرائيل على عهد موسى عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون. ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون ﴾.

فالذين أماتهم سبحانه هم الذين أحياهم، ولا يجوز صرف الضمير إلى غيرهم، كما حاول سيد قطب في قوله: ﴿ ثم أحياهم ﴾ كيف؟ هل بعثهم من موت وردّ عليهم الحياة؟ هل خلف من ذريتهم خلف تتمثل فيه الحياة القوية، فلا يجزع ولا يهلع هلع الآباء؟ ذلك كذلك لم يرد عنه تفصيل، فلا ضرورة لأن نذهب وراءه في التأويل^(٢).

﴿ إن الله لذو فضل على الناس ﴾ لأنه خلقهم، ويمدّهم بأسباب الوجود، فمنه تعالى الإيجاد والإمداد.

(١) صحيح البخاري، كتاب الطب (٥٧٢٨).

(٢) في ظلال القرآن ٢٦٤/١.

﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ [٢٤٣] بل يكفرون ويجحدون، وهو الواقع المُشاهد من أحوال الناس في جميع عصورهم وأجيالهم، وقد أكدّه تعالى في عدد من الآيات منها قوله تعالى: ﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾ (١).

كما أكدته مواقف الجحود والعناد التي عرضها تعالى في جزء كبير من آيات سورة البقرة، كما تقدم.

الحثّ على الثبات والاستبسال والبذل

وتتميماً للدرس التاريخي، واستكمالاً لما فيه من عبر ومواعظ، توجهت الآيات بالخطاب إلى المسلمين، تحثهم على القتال والجهاد في سبيل الله، ولتذكّر أنهم كانوا عند نزول هذه الآيات، في أوائل المرحلة المدنية، التي كُلفوا فيها بالجهاد والقتال: ﴿ وقاتلوا في سبيل الله ﴾ أي: واثبتوا ولا تفروا من الموت، فالموت بيده سبحانه، ولا فرار لأحد منه إذا حان أجله، ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾ (٢)، قال ابن كثير رحمه الله: وروينا عن أمير الجيوش وسيف الله المسلول على أعدائه، خالد بن الوليد رضي الله عنه، أنه قال وهو في سياق الموت: لقد شهدت كذا وكذا موقفاً، وما من عضو من أعضائي إلّا وفيه رمية أو طعنة أو ضربة، وها أنا ذا أموت على فراشي كما يموت العير، فلا نامت أعين الجبناء (٣).

﴿ واعلموا أن الله سميع عليم ﴾ [٢٤٤] يسمع أقوالكم ويعلم أحوالكم، في حال الثبات والاستبسال أو الفرار والهزيمة.

﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً ﴾ وهو طلب بأسلوب الاستفهام، حثهم سبحانه به على الإكثار من الطاعات والقربات، ومنها الجهاد في سبيله ببذل الأنفس والأموال، وأنزل سبحانه ذاته المقدسة منزلة المستقرض، وهو الغني عنهم مالك المُلْك، خالقهم ورازقهم؛ تلطفاً بهم وتشجيعاً لهم على الاستجابة لأمره تعالى والمبادرة إلى طاعته.

وهو أسلوب كريم يدلّ على رأفته جلّ وعلا بعباده، ولطفه بهم، وفضله العظيم

(١) سبأ: الآية ١٣.

(٢) النساء: الآية ٧٨.

(٣) مختصر ابن كثير ٢٢٢/١.

وإحسانه الكبير عليهم، وهو كقوله سبحانه: ﴿ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم﴾^(١).

وقد جاء مثل هذا الأسلوب في السّنة النبوية الشريفة، قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ تصدَّق بعدل ثمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلّا الطيّب، فإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربّيها لصاحبه كما يربّي أحدكم فلهو، حتى تكون مثل الجبل»^(٢).
فالواجب على الدّعاة أن يتفننوا بأساليب الدعوة، ولا يجمدوا على أسلوب واحد، وأن يتواضعوا للمدعوين ويتلطفوا بهم.

﴿فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾ أي يضاعف له جزاءه أضعافاً كثيرة، كما سيأتي في قوله تعالى: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم﴾.

﴿والله يقبض ويبسط﴾ أي: يضيق الرزق على مَنْ يشاء من عباده ويوسّعه على مَنْ يشاء حسبما اقتضت حكمته وتعلّقت به إرادته، كقوله تعالى: ﴿إن ربك ييسر الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيراً بصيراً﴾^(٣).

ففي الآية حثٌّ على المبادرة إلى الطاعات في حال السعة والرخاء والقوة والصحة، قبل أن يبدّل الله حالهم إلى الضيق والضعف والعجز والقلّة.

﴿وإليه ترجعون﴾ [٢٤٥] فيجازيكم على ما قدّمتم من أعمال.

قصة طالوت وداود وجالوت

ثم أوردت الآيات قصة من تاريخ بني إسرائيل، غنية بالعظات والعبر والدروس، المؤكدة للأفكار الأساسية في السورة، ابتدأها الله تعالى كما ابتدأ الخبر التاريخي السابق، بأسلوب الاستفهام، المفيد للتعريف والتعجيب:

﴿ألم تر إلى الملاء﴾ أي: الأشراف والوجهاء الذين يملأون العيون والنفوس بمظهرهم وشارتهم.

(١) التوبة: الآية ١٠٤.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الزكاة (١٤١٠).

(٣) الإسراء: الآية ٣٠.

﴿ من بني إسرائيل من بعد موسى ﴾ هكذا كشفت الآيات هنا عن أبطال القصة، وعيّنت زمانهم، فهم من بني إسرائيل الذين عاشوا بعد عهد موسى عليه السلام. ﴿ إذ قالوا لنبي لهم ﴾ ومن المعلوم أن النبوة لم تنقطع عن بني إسرائيل حتى زمن عيسى عليه السلام.

﴿ ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله ﴾ أي: عيّن لنا ملكاً ينظم صفوفنا، ويقودنا إلى القتال والجهاد في سبيل الله.

ويدلّ كلامهم على أنهم كانوا في حال ضعف وتشتت وتمزّق، وأن عدوّهم قد تغلب عليهم وطردهم من ديارهم وأسر أبناءهم، وذلك أنهم بعد فترة التيه الذي ضربه الله عليهم في صحراء سيناء، وموت موسى وهرون عليهما السلام، تمكّنوا من الدخول إلى الأرض المقدسة في فلسطين، فأفسدوا بعد ذلك فيها، وانتشرت بينهم المعاصي، وهجروا شريعتهم، ويبدو أنها الإفسادة الأولى التي ذكرها سبحانه في قوله: ﴿ وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً ﴾^(١).

فسلّط الله عليهم أعداءهم، فقاتلوهم وهزموهم شرّ هزيمة، وقتلوا منهم عدداً كبيراً، وأسروا كثيراً من أبنائهم ونسائهم، كما قال تعالى: ﴿ فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً ﴾^(٢). ولما طال عليهم العهد في التشتت والضعف، توجهوا إلى نبي من أنبيائهم بهذا الطلب، وكان ذلك قبل ميلاد عيسى بأكثر من ألف سنة.

﴿ قال ﴾ أي: نبيهم.

﴿ هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ﴾ أي: لعلمكم إن فرض عليكم القتال مع ذلك الملك أن تتقاعسوا وتجنبوا عن القتال، وهذا يدلّ على أن نبيهم كان يعلم حقيقة، فالجبن والتخاذل يغلب عليهم بسبب بعدهم عن طاعة ربهم وهجرهم لشريعته، كما يدلّ على أن الجهاد لا يجب بدون حاكم يتولى أمر المسلمين، ويقودهم إلى الجهاد.

﴿ قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ﴾ فالقتال لدفع الظلم وردّ العدوان قتال في سبيل الله، شرعه تعالى وأمر به، كما مرّ في قوله سبحانه: ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحبّ المعتدين ﴾.

(١) الإسراء: الآية ٤. انظر: المواجهة والتثبيت في سورة الإسراء.

(٢) الإسراء: الآية ٥.

وصدق ظنّ نبيّهم بهم :

﴿ فلما كتب عليهم القتال ﴾ وأُجيبوا إلى ما طلبوا، وعيّن لهم نبيّهم بوحى من الله تعالى ملكاً عليهم، أمرهم بالقتال وقادهم إليه .

﴿ تولّوا إلّا قليلاً منهم ﴾ أي : أعرضوا عن تنفيذ أمره تعالى ، إلّا طائفة قليلة منهم ، كما سيأتي .

﴿ والله عليم بالظالمين ﴾ [٢٤٦] الذين يُعرضون عن تنفيذ أمره ، ويظلمون أنفسهم بمعصيته .

ودلّت الآيات على كمال علمه تعالى ، وأنه سبحانه يعلم ما يكون قبل أن يكون ، علم تعالى أن أكثرهم لن ينقاد لأمره ولن يستسلم لشرعه ، ومع ذلك استجاب تعالى لطلبهم وكلفهم بالجهاد ، وهيباً لهم أسبابه ؛ ابتلاءً لهم وإظهاراً لفضل الفئة القليلة الصالحة المستسلمة لأمره الشرعي وحكمه القدري جلّ وعلا ، كما سيأتي .

﴿ وقال لهم نبيّهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً ﴾ فلم يرضوا بحكم الله تعالى ، واعترضوا منكرين : ﴿ قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحقّ بالملك منه ﴾ فطالبوا كان من سبط ، ما كانت ملوك بني إسرائيل منه ؛ إذ كان الملك بينهم بالتوارث ، وكان أيضاً فقيراً مُقِلّاً ، وللمال في المجتمع الإسرائيلي المكانة الكبرى ؛ ولهذا أكدوا اعتراضهم بقولهم :

﴿ ولم يؤت سعة من المال ﴾ فاضطر نبيّهم أن يذكرهم بأن اعتراضهم لا قيمة له عند الله تعالى ، وأن الشروط الشرعية للملك متوفرة فيه ، وهي قوة العلم بأحكامه الشرعية ، وقوة الجسم التي يحتاج إليها لحمل أعباء الحكم .

﴿ قال إن الله اصطفاه عليكم ﴾ أي : اختاره عليكم وخصّه بالملك دونكم ، فالحكم ما حكم سبحانه والشرع ما شرع ، لا ما تحكمون وتشرعون .

﴿ وزاده بسطة في العلم والجسم ﴾ أي : ومنّ الله تعالى عليه بسعة العلم وقوة الجسم .

﴿ والله يؤتي ملكه من يشاء ﴾ فالأمر منوط بمشيئته تعالى وأمره .

﴿ والله واسع عليم ﴾ [٢٤٧] أي : واسع الفضل ، عليم بأحوال خلقه وما يصلح لهم .

السكينة والبركة بآثار الأنبياء

ويبدو أن القوم ظلّوا على عنادهم، ولم يذعنوا لحكم الله وشرعه، فاضطر نبيّهم أن يسأل الله تعالى أن يُجري على يديه معجزة محسوسة، تجعلهم ينقادون لحكمه ويستسلمون لشرعه، فاستجاب له تعالى، وحدثت المعجزة.

﴿ وقال لهم نبيّهم إن آية ملكه ﴾ أي: إن العلامة التي تدلّ على صحة ملك طالوت.

﴿ أن يأتيكم التابوت ﴾ وهو صندوق كانوا يضعون فيه قطعاً من ألواح التوراة التي أنزلها الله على موسى، وظلّوا يتوارثونها ويحافظون عليها حتى انتزعها أعداؤهم منهم عندما تغلبوا عليهم، وكانت قلوبهم تسكن وتطمئن ويستبشرون بالنصر عندما يكون الصندوق معهم، ولهذا قال تعالى في وصفه:

﴿ فيه سكينة من ربّكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون ﴾ أي: وفيه أيضاً بعض الأشياء المتوارثة من آثار النبيّين الكريمين موسى وهارون، وقد ذكر كثير من المفسّرين أنه كان يوجد في الصندوق عصا موسى وثيابه وعمامة هارون، ولا شك أن آثار الأنبياء التي باشرها بأنفسهم مباركة، وقد صحّ أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يتبرّكون بآثار النبي ﷺ، كماء وضوئه، وبصاقه، وشعره، وقدحه الذي كان يشرب فيه، والأحاديث النبويّة الدالة على هذا كثيرة وصحيحة، وقد أخبرنا تعالى في قصة يوسف عن شأن قميصه وكيف ردّ تعالى بصريعقوب عندما ألقي القميص على وجهه ﴿ اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً ﴾ واءتوني بأهلكم أجمعين^(١).

﴿ تحمله الملائكة ﴾ أي: تأتيكم به الملائكة حاملين له، وهي المعجزة الدالة على صحة ملك طالوت، وصدق نبيّهم فيما أخبرهم به.

﴿ إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ [٢٤٨] وعندما رأوا المعجزة وجاءهم التابوت، انقادوا لحكم الله وأذعنوا لأمره وأقروا بالملك لطالوت، وخرجوا للجهاد معه.

الاختبار

وبعد أن خرجوا للقتال أمر الله تعالى طالوت، بواسطة النبيّ الذي كان معه، أن يختبر جنوده ليعرف مدى طاعتهم له وتمسكهم بأوامره.

(١) يوسف: الآية ٩٣. انظر: العلم والوحي والنبوة في سورة يوسف.

﴿ فلما فصل طالوت بالجنود ﴾ أي : خرج بالجنود وتوجّه إلى قتال عدوّه ، وكان خروجهم في وقت حرّ وعطش شديد.

﴿ قال إن الله مبتليكم بنهر ﴾ أي : قال طالوت لهم : إن الله مُختبركم بنهر ستمرون عليه ، ويمكن أن يكون هذا النهر نهر الشريعة الذي يجري بين الأردن وفلسطين .

﴿ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي ﴾ أي : ليس من جنودي ولن يقاتل معي ، فالذي لا يصبر على العطش لا يصبر في أرض المعركة ولا يثبت في وجه العدو .

﴿ ومن لم يطعمه فإنه مِنِّي ﴾ أي : مَنْ لم يشرب منه فإنه من جنودي ، وسيقاتل معي .

﴿ إِلَّا مَنْ غُرِفَ بِيَدِهِ ﴾ أي : إِلَّا مَنْ شَرِبَ مِنْهُ مِقْدَاراً قَلِيلاً مَلَأَ كَفَّهُ . وذكروا أنه تعالى بارك للذين التزموا الأمر ، بهذا الماء القليل فكفاهم وأرواهم ، فالقليل الطيب الحلال خير من الكثير الحرام .

﴿ فشرّبوا منه إِلَّا قليلاً منهم ﴾ أي : سقط أكثرهم في الاختبار ، وشرّبوا من ماء النهر ، وخالفوا الأمر ، إِلَّا طائفة قليلة منهم ، ذكرت روايات المفسرين أن عددهم كان كعدد الصحابة في غزوة بدر ، ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً .

وبهذه الطائفة القليلة عبر طالوت النهر إلى العدو الذي كان قد حشد قوته وعُدده في الجهة الثانية من النهر .

﴿ فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه ﴾ أي : فلما اجتاز طالوت النهر هو والفتة القليلة المؤمنة ، الذين أطاعوه ولم يخالفوا أمره ، ورأوا قوة عدوهم وكثرة جنوده وقوة سلاحه وعتاده :

﴿ قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ﴾ أي : قال بعضهم لبعض : لا قدرة ولا قوة لنا اليوم على مقاتلة جالوت وجنوده ، وظهر بهذا فضل أصحاب النبي ﷺ عندما رأوا جيوش الأحزاب قادمة عليهم ، قالوا ما حكى سبحانه وتعالى عنهم : ﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إِلَّا إيماناً وتسليماً ﴾ (١) .

﴿ قال الذين يظنون أنهم مُلاقوا الله ﴾ أي : قال الصفوة الممتازة منهم ، الذين

(١) الأحزاب : الآية ٢٢ .

كانوا يوقنون بالشهادة، وأنه تعالى سيكرمهم بلقائه إن قتلوا في سبيله.

﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ﴾ أي: بتأييد الله تعالى ونصره لها، فالنصر لا يكون بكثرة العدد والعُدَد، وإنما النصر من الله تعالى.

وهذا لا يعني ترك الاستعداد وحشد القوى والطاقات لقتال العدو، فإن ذلك مطلوب من المسلمين شرعاً، بصريح قوله تعالى: ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم... ﴾ ^(١) فالواجب على المسلمين أن يعدّوا أقصى ما يستطيعون من أسباب القوة المادية، قبل التصدي لقتال أعدائهم، وعليهم في الوقت نفسه أن يعتمدوا على الله تعالى ويتوكلوا عليه، ويسألوه النصر، ويصبروا عند مواجهة عدوهم:

﴿ والله مع الصابرين ﴾ [٢٤٩] يؤيدهم ويثبتهم وينصرهم.

المعركة

﴿ ولما برزوا لجالوت وجنوده ﴾ وتمّت المواجهة بين الفئتين، الفئة المؤمنة القليلة بقيادة طالوت، والفئة الكثيرة الكافرة بقيادة جالوت، توجه المؤمنون إلى الله تعالى يستغيثون به ويستنصرونه:

﴿ قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً ﴾ أي: أصبّ الصبر في قلوبنا حتى لا يكون فينا جزع أو خوف، ﴿ وثبت أقدامنا ﴾ في أرض المعركة، فلا يكون منا فرار وهزيمة. ﴿ وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ [٢٥٠].

واستجاب الله دعاءهم، فالدعاء عند مواجهة العدو في الميدان دعاء مستجاب. ﴿ فهزموهم باذن الله ﴾ أي: بمشيئته وأمره تعالى.

﴿ وقتل داود جالوت ﴾ وكان داود حينئذ جندياً من جنود الفئة المؤمنة مع طالوت، فأكرمه الله تعالى بعد ذلك بكرامة النبوة والملك:

﴿ وآتاه الله الملك والحكمة ﴾ أي: الملك على بني إسرائيل والنبوة فيهم، وأعزّ الله بني إسرائيل في عهده وعهد ولده من بعده سليمان عليهما السلام، وعلوا علواً كبيراً.

(١) الأنفال: الآية ٦٠.

﴿وعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ أي: علَّمَهُ سبحانه من العلوم النافعة المفيدة، والتي أخبر عنها تعالى بقوله: ﴿وعَلَّمْنَاهُ صِنْعَةَ لِبُوسٍ لَكُمْ لَتَحْصَنَكُمْ مِنْ بِأَسْكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾^(١) فكان عليه السلام يصنع الدروع ويأكل من عمل يده، ويتعَفَّف عن أموال الأمة التي ملكه الله تعالى عليها.

ثم بيَّن سبحانه الحكمة من تشريع الجهاد وتكليف المؤمنين بالقتال فقال: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض﴾ أي: لولا أن الله يدفع بعض الناس ببعض، ولهذا أمر سبحانه المؤمنين بقتال الكافرين.

﴿لفسدت الأرض﴾ أي: لانتشر الفساد في الأرض، وغلب عليها المفسدون، كما قال في موضع آخر: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يُذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز﴾^(٢).

فالله سبحانه يدفع المفسدين بالصالحين، والكافرين بالمؤمنين، فالجهاد ضروري لدرء الفساد وقمع المفسدين.

﴿ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾ [٢٥١] بتكليف المؤمنين بالجهاد وتأيدهم ونصرهم.

وإن انتصار المؤمنين يؤدي إلى تطبيق شريعة الله تعالى في الأرض، وينشر العدل والسلام في ربوعها، كما قال سبحانه: ﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور﴾^(٣).

وهذا يؤدي إلى نزول الرحمات، وكثرة الخيرات والبركات، والسعة والرخاء، وكل ذلك من فضله سبحانه وتعالى على العالمين.

ولا يخفى الاتساق والاحتباك، بين هذه القصة وبين آيات الجهاد، المذكورة في السورة في أكثر من موضع، وانسجامها أيضاً مع مرحلة ما بعد الهجرة، التي أنزلت فيها آيات السورة، إذ كان المؤمنون فئة قليلة مكلفة بمواجهة قوى الكفر والشرك، المسيطرة

(١) الأنبياء: الآية ٨٠.

(٢) الحج: الآية ٤٠.

(٣) الحج: الآية ٤١.

على جميع الأقطار في العالم، فضلاً عن إبراز آيات القصة لفضيلة الاستسلام لله تعالى، والرضا بحكمه وشرعه. وفي القصة أيضاً دليل على أن القرآن الكريم هو كلام الله تعالى، مُنزل على النبي ﷺ فأنتى له عليه الصلاة والسلام، وهو الأمي الذي عاش في أمة أمية، أن يعرف هذه الأخبار السالفة، ويطلع على هذه الأحداث التاريخية القديمة، لولا إعلام الله تعالى له بها وإخباره عنها. ولهذا اتجهت الآيات تخاطب النبي ﷺ بقوله تعالى:

﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق ﴾ أي: الثابت المطابق للواقع، الذي لا شك فيه، فهذه الآيات لا يعلمها إلا نبي مُرسل، ولهذا قال تعالى بعدها مقررًا ومؤكداً: ﴿ وإنك لمن المرسلين ﴾ [٢٥١].

التفاضل بين الأنبياء والمرسلين

لقد أكرمك الله بصفتي النبوة والرسالة، كما أكرم بهما سائر المرسلين، ولكنك تمتاز عليهم بفوائد وخصائص خصك الحق بها، فالمرسلون متفاضلون فيما بينهم، وهو ما تابعت الآيات تقريره وبيانه:

﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ﴾ أي: بالخصائص والمناقب المتباينة، قال تعالى: ﴿ ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبوراً ﴾ (١).

ثم بين تعالى بعض أوجه التفاضل بينهم فقال:

﴿ منهم من كلم الله ﴾ أي: كلمه الله كموسى عليه السلام.

﴿ ورفع بعضهم درجات ﴾ أي: ومنهم من رفعه تعالى على سائر الأنبياء بدرجات، ولا شك أنه سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، وأبهم لتفخيم شأنه، كأنه العَلم المتعين لهذا الوصف، المستغني عن التعيين (٢).

قال العلامة أبو السعود رحمه الله: والظاهر أنه رسول الله ﷺ، كما ينبىء عنه الإخبار بكونه عليه الصلاة والسلام منهم، فإن ذلك في قوة ﴿ بعضهم ﴾، فإنه قد خص بالدعوة العامة، والحجج الجمّة، والمعجزات المستمرة، والآيات المتعاقبة بتعاقب الدهور (٣).

(١) الإسراء: الآية ٥٥.

(٢) تفسير البضاوي والنسفي والخازن ٣٩٣/١.

(٣) تفسير أبي السعود ٢٤٦/١.

قال عليه الصلاة والسلام: «ما من نبي من الأنبياء إلا قد أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أُوتيت وحياً أوحى الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»^(١). وقال عليه الصلاة والسلام: «فُضِّلْتُ على الأنبياء بسَّتْ: أُعْطِيتُ جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأُحِلَّتْ لي الغنائم، وجُعِلَتْ لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون»^(٢).

﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وغيرهما، مما سبق ذكره.

﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ وهو جبريل عليه السلام، كما مرَّ عند قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾.

سبب النزاع والاختلاف بين الناس

فالأنبياء والمرسلون عليهم السلام متفاضلون بالخصائص والمناقب، ولكنهم متفقون بالدعوة الواحدة، وهي الدعوة إلى توحيد الله تعالى وعبادته وطاعته وحده، والإسلام دينهم جميعاً، كما تقدّم عند قوله تعالى لإبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ والاختلاف والافتتال الذي حدث بين الناس، منشؤه من الناس أنفسهم، لا من التفاضل بين الأنبياء عليهم السلام، وهذا ما بيّنه تعالى بقوله الكريم:

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ أَيُّ: مِنْ بَعْدِ الرَّسْلِ مِنَ الْأُمَمِ الْمُخْتَلَفَةِ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى هِدَايَةِ جَمِيعِ النَّاسِ، وَهُوَ سَبْحَانَهُ الْقَائِلُ: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تَكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾^(٣). ﴿مَنْ بَعْدَ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتِ﴾ التي أيد الله بها المرسلين، والتي تدلّ الناس على الحق وتبيّنه لهم.

﴿وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا﴾ أي: ولكن الناس اختلفوا؛ لأنه تعالى جعل لهم اختياراً وإرادةً وكسباً، فالاختلاف والتنازع نابع من الناس، من اختيارهم وكسبهم: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ﴾ أي: صدق بدعوة المرسلين، وأسلم لله تعالى.

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان (١٥٢).

(٢) صحيح مسلم، كتاب المساجد (٥٢٣).

(٣) يونس: الآية ٩٩.

﴿ومنهم مَنْ كفر﴾ فأعرض عن دعوة المرسلين وجحد وعاند.

وكلّ ذلك بمشيئته تعالى وإرادته، فهو الذي أعطى الإنسان المشيئة والإرادة والاختيار؛ ولهذا عادت الآية لتؤكد هذه الحقيقة، وهي تمام مشيئته سبحانه، وأنه لا يحدث شيء في ملكه إلّا بإرادته جلّ وعلا:

﴿ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد﴾ [٢٥٣] وهو العليم الحكيم القادر القاهر، فالحوادث كلها بمشيئته سبحانه، خيراً كانت أو شراً، إيماناً أو كفراً، والنزاع والاختلاف بين الناس نابع من إرادتهم واختيارهم، كما سبق به علمه وتعلّقت به إرادته جلّ جلاله.

فلا مسؤولية بدون تكليف، ولا تكليف بدون اختيار وإرادة، وأقرب مثال على ذلك فريضة الزكاة، فلا يُسأل عنها إلّا مَنْ كُلفَ بها، ولا تكليف بدون مال، والمال في الحقيقة من الله تعالى، ولعلّ هذا هو سبب قوله تعالى بعد ذلك:

﴿يا أيّها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم﴾ أي: أنفقوا ما أوجب عليكم إنفاقه مما أعطاكم.

﴿من قبل أن يأتي يوم﴾ هو يوم الحساب والمسؤولية.

﴿لا بيع فيه﴾ أي: لا تقدرون فيه على الإنفاق وتدارك ما فاتكم، لأنه يوم الحساب والجزاء لا يوم العمل والتكليف.

﴿ولا خلة﴾ أي: ولا مودة فيه ولا صداقة، فالمسؤولية شخصية، ولا يتحمّل أحد وزر غيره.

﴿ولا شفاعة﴾ إلّا لِمَنْ أذن له الرحمن ورضي له قولاً، فلا تتكلوا على غيركم، وأدّوا ما كلفكم به ربّكم، واحذروا أن تظلموا أنفسكم بمعصيته.

﴿والكافرون هم الظالمون﴾ [٢٥٤] العريقون بالظلم، المستحقّون لهذا الوصف، فلا تكونوا مثلهم، تجحدون فضله عليكم، وتستعملون نعمته في غير ما كلفكم به.

آية الكرسي

وجاءت بعد ذلك آية الكرسي، بما فيها من صفات جلاله تعالى وكماله، تؤكد هذه الحقيقة، وهي كمال مشيئته تعالى وتمامها، ونفاذها في كل المكوّنات، وقد وصفت هذه

الآية بأنها أعظم آية في القرآن الكريم، لما فيها من أسمائه تعالى الحسنی وصفاته العليا، تقدّست ذاته، وتباركت أسماؤه، وتسامت صفاته، جلّ جلاله.

وفي الحديث الشريف عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا المنذر، أتدري أيّ آية من كتاب الله معك أعظم؟» قال: قلت الله ورسوله أعلم. قال: «يا أبا المنذر، أتدري أيّ آية من كتاب الله معك أعظم؟» قال: قلت: ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾. قال: فضرب على صدري وقال: «والله ليهنك العلم أبا المنذر»^(١).

﴿الله لا إله إلا هو﴾ الله وحده المستحقّ للعبادة ولا يستحقها غيره سبحانه. ﴿الحيّ﴾ الذي لا يموت ولا يزول ولا يفنى، الباقي أزلاً وأبداً. ﴿القيوم﴾ القائم على الدوام بتدبير خلقه، والقائم على كل نفس بما كسبت، والقائم بذاته فلا يستمدّ قيامه من غيره سبحانه.

﴿لا تأخذه سنة﴾ أي: نعاس، وهو ما يتقدم النوم من فتور. ﴿ولا نوم﴾ فهو سبحانه منزّه عن كل صفات النقص، والنوم من صفات النقص، يدلّ على العجز والضعف والتحوّل والتغيّر، يتنزّه الحق سبحانه عن كل ذلك. وفي الحديث الشريف عن أبي موسى الأشعري قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات، فقال: «إن الله عزّ وجل لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل^(٢)، حجابهُ النور^(٣)، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»^(٤).

﴿له ما في السموت وما في الأرض﴾ ملكاً وتدبيراً.

﴿مَنْ ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ أي: لا أحد يشفع عنده يوم القيامة إلا بإذنه، وهو بيان لكمال عزّته وكبريائه جلّ جلاله.

﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ أي: يعلم ما قبلهم وما بعدهم، وما كان وما سيكون من أمور الدنيا والآخرة، وهو بيان لكمال علمه الذي وسّع كل شيء.

(١) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين (٨١٠).

(٢) معناه - والله أعلم - الذي بعده.

(٣) المراد بالحجاب هنا المانع من رؤيته سبحانه.

(٤) أي جميع المخلوقات، لأن بصره سبحانه محيط بهم. صحيح مسلم، كتاب الإيمان (١٧٩).

﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه ﴾ أي : لا يحيطون بشيء من معلوماته ، فالعلم هنا بمعنى المعلوم ، وهذا كقول الخضر لموسى عليه السلام حين نقر العصفور في البحر : ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كما نقص هذا العصفور من هذا البحر . فهذا وما شاكله راجع إلى المعلومات ؛ لأن علم الله سبحانه وتعالى ، الذي هو صفة ذاته ، لا يتبعض ^(١).

﴿ إلا بما شاء ﴾ أن يطلعهم عليه ، فكل العلوم التي تعلمها الأنبياء والرسل والملائكة والإنس والجن بمشيئته سبحانه وتيسيره ﴿ علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ ^(٢).

﴿ وسِعَ كرسیه السموات والأرض ﴾ أي : علمه ، ومنه الكرّاسة ، لتضمنها العلم ^(٣) ، ومثله قوله تعالى : ﴿ ربّنا وسّعت كل شيء رحمةً وعلماً فاغفر للذين تابوا واتّبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ﴾ ^(٤).

وقال ابن عباس - من رواية جعفر بن أبي المغيرة - : كرسیه علمه . ورجحه الطبري ^(٥).

أو هو جسم غير العرش ، محيط بالسموات والأرض ، دلّ عليه ما أخرجه ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه ، عن أبي ذر رضي الله عنه أنه سأل النبي ﷺ عن الكرسي فقال : « يا أبا ذر ما السموات السبع والأرضون السبع عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة » ^(٦).

﴿ ولا يؤوده حفظهما ﴾ أي : ولا يثقله سبحانه حفظ السموات والأرض .

﴿ وهو العليّ ﴾ أي : المتعالي عن الأشباه والأنداد والأمثال ، وعن صفات النقص والعجز . أو علو يليق بذاته جلّ جلاله .

﴿ العظيم ﴾ [٢٢٥] في عزّه وجلاله ، فهو أعلى من كل شيء ، وأعظم من كل شيء ، جلّ جلاله .

هذه الآية مشتملة على أمهات المسائل الإلهية ، فإنها دالة على أنه سبحانه وتعالى

(١) تفسير القرطبي ٢٧٦/٣ .

(٢) العلق : الآية ٥ .

(٣) تفسير النسفي ٣٩٨/١ .

(٤) غافر : الآية ٧ .

(٥) القرطبي ٢٧٦/٣ .

(٦) روح المعاني ٩/٣ .

موجود واحد في الألوهية، متّصف بالحياة، واجب الوجود لذاته، موجد لغيره، إذ القيوم هو القائم بنفسه المقيم لغيره، منزّه عن التحيز والحلول، مبرأ عن التغيّر والفتور، لا يناسب الأشباح، ولا يعتريه ما يعتري الأرواح، مالك الملك والملكوت، ومُبدع الأصول والفروع، ذو البطش الشديد، الذي لا يشفع عنده إلاّ مَنْ أذنَ له، عالم الأشياء كلها، واسع الملك والقدرة، لا يشغله شأن ولا يؤوده شاق، متعالٍ عما يدركه وَهْم، عظيم لا يحيط به فهم^(١).

لا إكراه في الدين

وقرّرت الآيات بعد ذلك حرية الاختيار عند الإنسان في شأن الدين والعقيدة، بقوله تعالى:

﴿ لا إكراه في الدين ﴾ أي: لا تُكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام، فإنه بين واضح، جليّ دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه^(٢).
فالجملّة على هذا المعنى خبر، المراد منه النهي.

وقد يكون المعنى: لا يتصوّر الإكراه في الدين؛ لأنه في الحقيقة إلزام الغير فعلاً لا يرى فيه خيراً يحمله عليه، والدين خير كله، والجملّة على هذا المعنى خبر باعتبار الحقيقة ونفس الأمر، فالدين ليس فيه إكراه من الله تعالى وقسر، بل مبني الأمر على التمكين والاختيار، ولولا ذلك لما حصل الابتلاء، ولبطل الامتحان، فالآية نظير قوله تعالى: ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾^(٣).

ثم قال تعالى على سبيل التعليل لما تقرّر:

﴿قد تبين الرشد من الغي﴾ أي: ظهر وتميز الحق من الباطل بالدلائل الكثيرة، والعاقل من يبادر إلى الإسلام دون حاجة إلى الإكراه، فالإسلام يكرم الإنسان ويحترم إرادته، ويترك له حرية الاختيار، بعد أن يبين له الحق من الباطل، ويحمّله مسؤولية اختياره.

﴿فمن يكفر بالطاغوت﴾ أي: بالشیطان وأعوانه، من دعاة الكفر ورؤساء الضلال. والطاغوت: من الطغيان، بناء مبالغة، كالجبوت والملكوت، وقد يؤنّث

(١) تفسير البضاوي ٣٩٩/١.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٢٣١/١.

(٣) الكهف: الآية ٢٩. انظر: روح المعاني ١٣/٢.

ضميره، كما في قوله تعالى: ﴿والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأناثوا إلى الله لهم البشرى فبشّر عباد﴾ (١)، فهو يشمل كل ما يُطغي الإنسان، ويدفعه إلى مجاوزة حدود عبوديته لله تعالى.

﴿ويؤمن بالله﴾ مع الاستسلام الكامل لدينه وشرعه، فلا يعبد سواه، فلا بدّ للكافر أن يتوب أولاً عن كفره ويتبرأ منه، ويؤمن بعد ذلك بالله وحده، ويلتزم برسالته. ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ أي: بالغ بالتمسك والاعتصام بالجبل الوثيق المحكم.

﴿لا انفصام لها﴾ أي: لا انقطاع لها.

﴿والله سميع عليم﴾ [٢٥٦].

فالتمسك بالإسلام هو سلم النجاة، وساحل الأمان؛ إذ المخاطر المحيطة بالإنسان كبيرة، ولا نجاة له منها إلاّ باللجوء إلى الله تعالى، والاعتصام بحبل دينه، والتمسك بشريعته، كما قال سبحانه: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبيّن الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾ (٢).

فهو سبحانه وليّ المؤمنين يتولّاهم بهدايته ورحمته، إذا اعتصموا بحبله، فلا يضلّون ولا يتيهون.

﴿الله وليّ الذين آمنوا﴾ أي: متولّي أمورهم، وهذا من فضله تبارك وتعالى عليهم، وقد قرّره سبحانه في أكثر من موضع من القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿إن وليّ الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين﴾ (٣).

﴿يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ أي: يخرجهم بهدايته وتوفيقه، من ظلمات الكفر والمعاصي والشبه والشكوك إلى نور الإيمان وبرد اليقين.

﴿والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور﴾ أي: من نور الإيمان الفطري الذي جُبلوا عليه، أو من نور البينات المتتابعة، المنزلة عليهم بواسطة الأنبياء والمرسلين، وذلك بحرمانهم منها، وجعلهم يُعرضون عنها.

(١) الزمر: الآية ١٧.

(٢) آل عمران: الآية ١٠٣.

(٣) الأعراف: الآية ١٩٦.

﴿ إلى الظلمات ﴾ ظلمات الانهماك بالشهوات، وظلمات الشكوك والأوهام والحيرة والقلق.

﴿ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ [٢٥٧] بسبب إصرارهم على الكفر واختيارهم له.

مناظرة إبراهيم للطاغوت

ثم أوردت الآيات مثلاً على انطماس البصيرة، وانطفاء نور الفطرة، بسبب الانهماك بالمعاصي والآثام والتكبر والغرور والطغيان، فعرضت مناظرة بين نبي الله إبراهيم عليه السلام، وبين طاغية متجبر مغرور، حجبتة ظلمات طغيانه وغروره عن رؤية الحقائق الواضحة الكبيرة.

﴿ ألم تر ﴾ وهو كما مرّ سؤال تعليم وتعجيب.

﴿ إلى الذي حاج إبراهيم في ربه ﴾ أي: جادل إبراهيم عليه السلام في ربه، ويبدو أنه كان طاغية متألهاً متجبّراً، كما كان فرعون في زمن موسى عليه السلام.

﴿ أن آتاه الله المُلْك ﴾ أي: لأن الله تعالى آتاه الملك والسلطان، أنكر وجحد فضله عليه، وبدل أن يشكره أنكر وجوده تعالى، وأخذ يخاصم ويجادل في ذلك.

﴿ إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت ﴾ ويبدو أن إبراهيم عليه السلام قال هذا جواباً لسؤال وجهه إليه الطاغية، كما قال موسى عليه السلام، عندما سأله فرعون: ﴿ قال فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا موسى ﴾، قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴿ (١) 》.

فموسى عليه السلام برهن على وجود الله تعالى بالخلق والهداية، وإبراهيم عليه السلام برهن على وجوده تعالى بالإحياء والإماتة، وكلها من الأدلة الظاهرة والحجج القاطعة، التي لا ينكرها إلا الذي غشيتة الظلمات الكثيفة، وحجبتة الحُجب الغليظة.

فما كان من هذا المغرور المتكبر إلا أن ادّعى لنفسه القدرة على الإحياء والإماتة:

﴿ قال أنا أحيي وأميت ﴾ وذلك بالعفو عن المجرم الذي يستحق القتل، وقتل

البريء. هكذا بسبب ظلمة الغرور والكبر، التبس عليه الأمر، فلم يميّز بين حقيقة الإحياء والإماتة، وبين إصدار الأوامر الظالمة، التي لا تزيد عن كونها أسباباً لإطالة الحياة أو إنهاؤها، إذا وافقت قدر الله تعالى ومشيبته.

(١) طه: الآيتان ٤٩ - ٥٠.

وما كان من إبراهيم عليه السلام، أمام هذا الغرور والتكبر، إلا أن واجهه بناموس من النواميس الكونية، التي أبدعتها القدرة الإلهية، وتعلقت بها المشيئة الربانية القاهرة، والتي لا يستطيع أي إنسان مهما انطمست بصيرته أن يجحدها وينكرها:

﴿ قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فائت بها من المغرب ﴾ فهي واقع ملموس مُشاهد لا يقبل الجدل، وهي حقيقة كونية تطالع الأنظار والمدارك كل يوم، ولا تتخلف مرة ولا تتأخر، وهي شاهد يخاطب الفطرة، حتى ولو كان صاحبها لا يعرف شيئاً^(١). هكذا تمكن إبراهيم عليه السلام، بمنطق الإيمان وقوة حججه ووضوح براهينه، أن يحسم الأمر بحجة واحدة ملزمة قاطعة، وكانت النتيجة:

﴿ فبهت الذي كفر ﴾ أي: غلب الجاحد المغرور المتكبر، وصار مبهوراً منقطعاً متحيراً مغلوباً، بعد أن كان منتفشاً مستكبراً مغروراً.

﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ [٢٥٨] أي: لا يوفقهم ولا يُخرجهم من ظلمات كفرهم وظلمهم.

الحياة بعد الموت

حقيقة الموت والحياة بيد الله تعالى، لا يقدر عليهما غيره، تدلان على تمام مشيئته وكمال قدرته، فهو وحده المُحيي والمُميت، ولا تأثير للأسباب التي نراها في الإحياء والإماتة، فهي لا تقيد طلاقة إرادته تعالى وقدرته، فهو سبحانه يُحيي ويُميت بأسباب وبدون أسباب، يتحقق مراده سبحانه في الإحياء والإماتة بصور كثيرة لا تُعدّ، ذكرت الآيات الكريمة التالية بعضها:

﴿ أو كالذي مرّ على قرية ﴾ أي: أو رأيت مثل الذي مرّ على قرية، وهو سؤال تعجيب وتعليم، معطوف على ما سبق من قوله: ﴿ ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم ﴾.

ويبدو أنه نبي من أنبياء بني إسرائيل، الذين لم تنقطع النبوة فيهم حتى زمن عيسى عليه السلام، أنجاه تعالى مما أنزله ببني إسرائيل على يد البابليين في زمن بختنصر، سلّطهم الله على بني إسرائيل بسبب فسادهم وفجورهم، فخرّبوا بيت المقدس، وقتلوا كثيراً من أهلها، كما أسروا عدداً كبيراً منهم، مرّ هذا النبي على البلدة.

(١) في ظلال القرآن ٢٩٨/١.

﴿وهي خاوية على عروشها﴾ أي: خالية من سكانها، متهدمة جدرانها، ساقطة
سقوف بنيانها، فوقف متحسراً محزوناً على ما أصابها:

﴿قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها﴾ أي: كيف يحيي الله هذه البلدة بعد موتها،
قال ذلك استعظاماً لقدرة الله تعالى على الإحياء، وذلك لما رأى من شدة خرابها
وهمودها، فلم يقله على سبيل الشك في القدرة، بل على سبيل الاستبعاد في العادة^(١).

﴿فأماته الله مائة عام﴾ أي: جعله الله تعالى يموت بدون تقدّم أسباب، واستمر
موته بتقديره تعالى مائة عام، حفظ الله تعالى في أثناء ذلك جسده من التعفن والتآكل،
كما حجبهُ أيضاً عن أنظار الناس والطير والوحش.

﴿ثم بعثه﴾ أي ثم أحياه وردّه إلى الحياة.
﴿قال﴾ أي: الله سبحانه له بواسطة الوحي.
﴿كم لبث﴾ أي: كم مقدار الزمن الذي مكثت فيه ميتاً.
ويبدو أن الله تعالى أماته في أول النهار، وبعثه في آخر النهار، ولهذا:

﴿قال لبث يوماً أو بعض يوم﴾ وقد ظن مثل ذلك أصحاب الكهف، كما حكى
الحق عنهم في قوله: ﴿وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم﴾ قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا
يوماً أو بعض يوم^(٢)، فالموت كالنوم، لا يشعر الإنسان في أثناءه بمرور الوقت.

﴿قال بل لبث مائة عام﴾ وهي مدة كافية لتبدّل أحوال الناس، مات في أثناءها
جيل ونشأ جيل آخر، وسقطت حضارة وقامت حضارة، وأعاد الله تعالى البلدة الميتة إلى
حياتها، وتجدد عمرانها وشبابها، حفظه الله تعالى طول هذه المدة من البلى والتعفن
والتفتت، وحفظ أيضاً طعامه وشرابه فلم يتغيّر ولم يتعفن. وأمره تعالى أن ينظر إليه ويراه
كما هو، معجزة محسوسة مُشاهدة دالة على كمال قدرته جلّ وعلا.

﴿فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه﴾ أي: لم يتغير، فلم تغيّر السنون، ولم
يتعفن ولم يتن.

﴿وانظر إلى حمارك﴾ وكان معه حمار، أماته الله تعالى أيضاً، ولكنه لم يحفظه
بعد الموت، ففترقت أعضاؤه وبليت عظامه وتفتت، فأمره تعالى أن ينظر إليه وهو
متفرّق متفتت، كبرهان محسوس على طول المدة التي مرّت عليه، فيعرف قدرة الله

(١) تنوير الأذهان ٢٠٣/١.

(٢) الكهف: الآية ١٨.

تعالى وفضله عليه، بحفظه من التفتت والتآكل، وحفظ طعامه وشرابه من التغير والتعفن، بينما تفرقت عظام الحمار وبليت، في ظروف جوية وأرضية واحدة، وهذا يدل على طلاقة قدرته تعالى وإرادته، وأنه سبحانه لا تقيد قدرته قوانين ولا نواميس، وهو سبحانه خالق القوانين ومقدر النواميس.

﴿ولنجعلك آية للناس﴾ أي: فعلنا ذلك بك لنجعلك دليلاً مُعْجِزاً يدل على كمال قدرة الله تعالى، وأنه وحده المُحيي والمُميت، وأنه قادر على الإعادة بعد الموت والتمزق.

﴿وانظر إلى العظام﴾ أي: عظام الحمار التي بليت وتفرقت.

﴿كيف ننشزها﴾ أي: نحركها ونرفع أجزائها إلى بعضها ونركبها.

﴿ثم نكسوها لحماً﴾ كما كانت قبل الموت والبلية.

﴿فلما تبين له﴾ أي: لما رأى إعادة الحياة وشاهدها عياناً.

﴿قال أعلم أن الله على كل شيء قدير﴾ [٢٥٩] قرىء مجزوماً موصولاً على الأمر، يعني: قال الله له: ﴿اعلم﴾.

وقرىء ﴿اعلم﴾، على قطع الألف مع رفع الميم، على الخبر، أي: أخبر عن نفسه أنه يعلم كمال قدرة الله تعالى، وأنه سبحانه قادر على الإحياء والإماتة.

ودلت صيغة المضارع ﴿اعلم﴾ على أن علمه بذلك مستمر، وأنه ما كان شاكاً بقدرته تعالى، وما حدث ضم إليه العلم القائم على المشاهدة والمعينة، إلى ما كان عنده من علم قائم على الإيمان بالغيب، الثابت بالخبر الصادق.

من علم اليقين إلى عين اليقين

وهو ما سأل به إبراهيم عليه السلام، فيما أخبر الله تعالى عنه بقوله:

﴿وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى﴾ بعد أن تتمزق أجسادها وتفتت.

﴿وكيف﴾ كما قال ابن عطية، إنما هي استفهام عن هيئة الإحياء، والإحياء متقرر، فالسؤال لما وقع بكيف دلّ على حال شيء موجود مقرر عند السائل والمسؤول، كما تقول: كيف علم فلان؟ فالسؤال في الآية عن هيئة الإحياء لا عن نفس الإحياء^(١).

(١) انظر: المحرر الوجيز ٤١٩/١.

﴿ قال أو لم تؤمن ﴾ بقدرتي على الإحياء بعد الموت، ولا شك أنه تعالى يعلم إيمان إبراهيم عليه السلام، ولكنه أراد أن يُظهر علمه للناس على لسان إبراهيم.

﴿ قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾ أي: بلى آمنت، ولكن لينضم لي علم المشاهدة إلى علم الاستدلال، فذلك أسكن للقلب وأثبت للنفس.

قال ابن كثير رحمه الله: أحب أن يترقى من علم اليقين بذلك، إلى عين اليقين، وأن يرى ذلك مشاهدة^(١).

وهو ما ذكره سبحانه في قوله الكريم: ﴿ كلا لو تعلمون علم اليقين. لترون الجحيم. ثم لترونها عين اليقين ﴾^(٢).

وأما ما جاء في الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «نحن أحقّ بالشك من إبراهيم إذ قال: ﴿ ربّ أرني كيف تحيي الموتى ﴾»^(٣)، فمراد النبي ﷺ نفى الشك عن إبراهيم، فكأنه قال: لو كان شك لكنّا أحقّ به، ونحن لا نشك، فإبراهيم عليه السلام أخرى ألا يشك.

﴿ قال فخذ أربعة من الطير ﴾ من أنواع مختلفة.

﴿ فصرهنّ إليك ﴾ أي: أملهنّ إليك وقربهنّ إليك، وتأمل بهنّ لتعرف أوصافهنّ، لئلا تلتبس عليك بعد الإحياء.

﴿ ثم اجعل على كل جبل منهنّ جزءاً ﴾ أي: فرق أجزاءهنّ، بعد ذبحهنّ وتقطيعهنّ وخلط الأجزاء ببعضها، على أربعة جبال.

﴿ ثم ادعهنّ ﴾ أي: قل لهنّ: تعالين بإذن الله تعالى.

﴿ يأتينك سعيّاً ﴾ أي: يأتينك مسرعات، بعد أن تنضمّ الأجزاء المتفرقة إلى بعضها، ويرجع كل جزء إلى موضعه من الجسد، بقدرة الله تعالى الكاملة، ومشيتته النافذة في ذرات الأجسام، وتعود إليهنّ الحياة الكاملة، كما كانوا قبل الذبح والتقطيع والتفريق.

﴿ واعلم أن الله عزيز ﴾ يفعل ما يريد؛ لأنه غالب على كل الأشياء.

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢٣٦/١.

(٢) التكاثر: الآية ٥ - ٧.

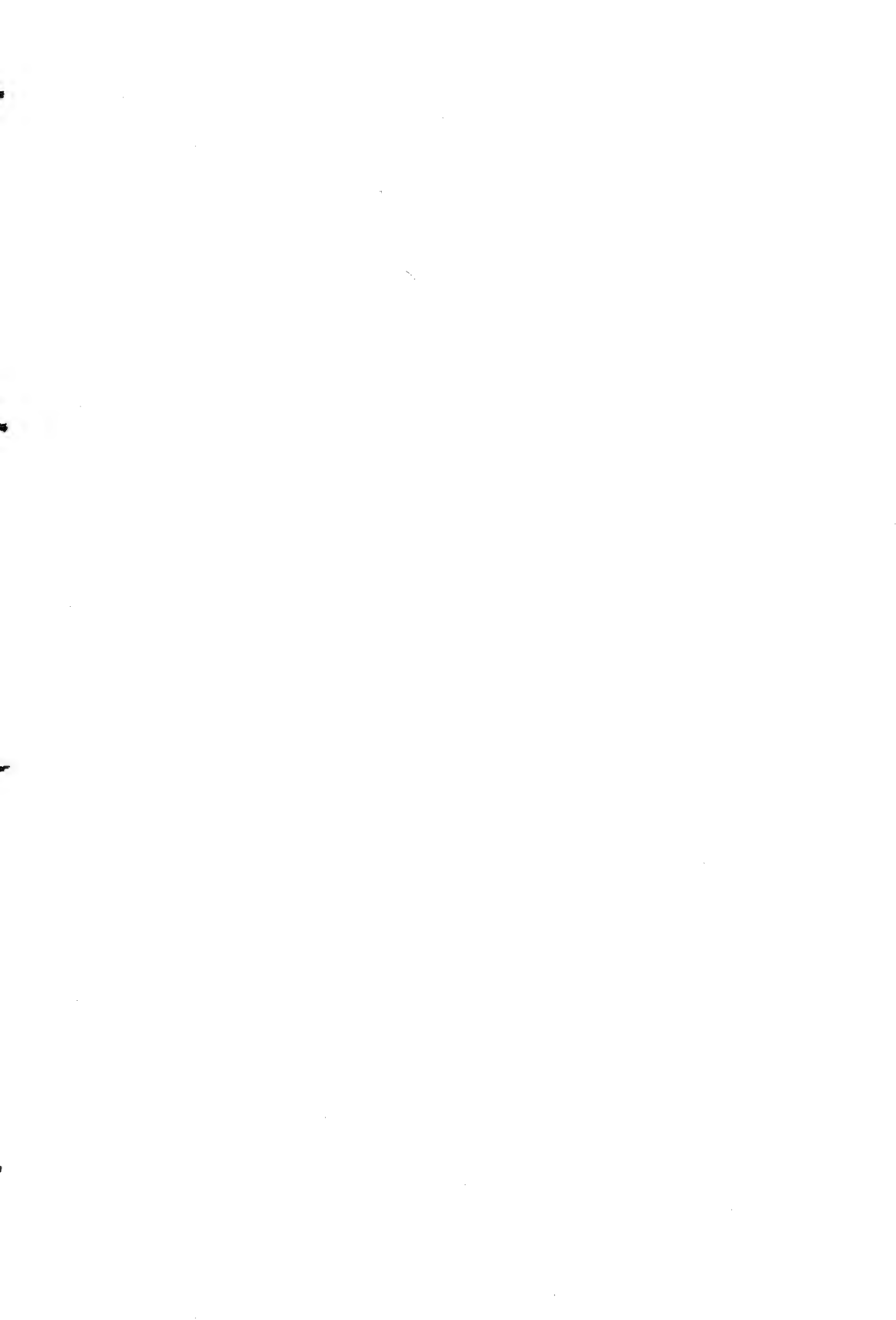
(٣) انظر الحديث كاملاً في صحيح البخاري، (٣٣٧٢).

﴿حكيم﴾ [٢٦٠] في جميع أقواله وأفعاله، جلّ جلاله.

وهكذا رأى إبراهيم منظراً معجباً مدهشاً، رأى كيف تتطير الأجزاء إلى بعضها وتتلاصق بتناسق وانسجام، ويرجع كل جزء إلى مكانه، وتعود قطرات الدماء المتناثرة إلى موضعها التي كانت فيها عند الذبح، لتستأنف جريانها في عروقها، بعد أن أعاد الله تعالى إليها الحياة من جديد.

وتركتنا الآيات محلّقين بخیالنا مع المنظر العجيب المدهش، مع الأعضاء والأجزاء المتناثرة، تطير في الجو إلى بعضها، لتتلاحم وتعود كما كانت، واستأنفت سيرها على طريق التشريع وبيان الأحكام، وسبق للآيات أن مهّدت للموضوع التشريعي الذي ستتناوله بالبيان في الآية الكريمة التي مرّت: ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم﴾ فالموضوع موضوع الأموال، أو موضوع الاقتصاد، كما يسمى في هذا العصر، وبيان أسسه الكبرى التي تحدّد كيفية المبادلات المالية والاقتصادية بين الناس، وهو من أخطر الموضوعات، وأكثرها تأثيراً على حياة الناس، وعلاقاتهم فيما بينهم، على مستوى الأفراد والجماعات، ولعلّ هذا سرّ تأخيره إلى خواتيم السورة.

الفصل التاسع
مبادئ أساسية
في الاقتصاد الإسلامي



السَّنابل السَّبع

وفاجأتنا الآيات، بعد أن شرعت تتحدّث عن موضوع الأموال، بمنظر معجب مدهش أيضاً، منظر حبة في باطن الأرض، تتحول بقدرة الله تعالى ومشيتته إلى سبعمئة حبة متراكبة تركيباً عجبياً معجزاً في سبع سنابل، في الآية السابقة اجتمعت الأجزاء المتفرقة، وعادت إلى تلاحمها وتناسقها كما كانت، وهنا الحبة الواحدة الضائعة في طبّات الثرى، تتحوّل بقدرة الله تعالى إلى سبعمئة حبة، في سبع سنابل محمولة على ساق نبتة واحدة!!!.

﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ﴾ أي: ينفقون أموالهم التي رزقهم الله إياها، لكي يتقرّبوا إليه تعالى، مستسلمين لأمره، ومنقادين لشرعه.

إن أول وأهم أسس النظام الاقتصادي في الشريعة الإسلامية، أنه نظام تكافلي اجتماعي تعاوني، فالواجب المفروض على أصحاب الأموال، أن يخصصوا جزءاً معلوماً من أموالهم، للجانب الضعيف المحتاج في المجتمع، وهو أمر إلزامي في أعلى درجات الإلزام في الشريعة الإسلامية، فهو فرض لازم، وركن أصيل من أركان الإسلام الكبرى.

ولما كانت الشريعة الإسلامية شريعة رحمة وسماحة، والله سبحانه يعلم شدة حُب الإنسان للمال، وأنه شحيح به، يشقّ عليه أن ينفق جزءاً منه على غيره، تلطف سبحانه في تشريع الإنفاق لطفاً كبيراً، وحثّ عليه بأساليب رفيقة ورقيقة، تدلّ على رحمته تعالى بعباده ولطفه بهم، وقد مرّ معنا في السورة بعض هذه الأساليب، كقوله سبحانه: ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يقرض الله قرضاً حسناً ﴾.

وها هي الآيات هنا تلتزم هذا الأسلوب اللطيف الرقيق، في تربية النفوس على البذل، وتخليصها من الشحّ الذي جُبِلت عليه، بهذا المثل الرائع:

﴿ كمثل حبة أنبت سبع سنابل ﴾ بقدرته تعالى ومشيتته.

﴿ في كل سنبلة مائة حبة ﴾ فتبلغ المضاعفة سبعمائة ضعف، فضلاً منه تعالى، الذي لا حدَّ لفضله وإحسانه.

﴿ والله يضاعف لمن يشاء ﴾ على حسب علمه سبحانه بمدى إخلاص المُنفِق.
﴿ والله واسع ﴾ أي: واسع الغنى والفضل.

﴿ عليم ﴾ [٢٦١] أي: عليم بنبات المنفقين وأحوالهم.

الشريعة الإنسانية

وتمتاز الشريعة الإسلامية بإنسانيتها، وتقديرها لعواطف الناس ومشاعرهم، وخاصة المحتاجين، ولهذا توجَّهت الآيات الكريمة إلى المنفقين من أصحاب الأموال، تحثُّهم على احترام عواطف المحتاجين، وتحذِّرهم من التعالي عليهم، والظهور أمامهم بمظهر المتفضل الذي يمنَّ عليهم بما يعطيهم.

﴿ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا متاً ولا أذى ﴾ بأن يعدد عليه ما أعطاه، ويقول له: أعطيتك كذا وكذا. أو يعيره بفقره ويكلِّمه كلاماً قاسياً، فيه إهانة وإذلال، وكل ذلك محرَّم في الشريعة الإسلامية، كما في قوله تعالى: ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر ﴾^(١).

﴿ لهم أجرهم عند ربِّهم ولا خوف عليهم ﴾ أي: يوم القيامة.

﴿ ولا هم يحزنون ﴾ [٢٦٢] أي: عند الموت على ما خلفوا وراءهم في الدنيا؛ لأنهم صاروا إلى ما هو خير لهم منها.

﴿ قول معروف ﴾ أي: كلام جميل طيب حسن يُقال للفقير.

﴿ ومغفرة ﴾ أي: وستر لحال الفقير المحتاج، وترك التشهير به.

﴿ خير من صدقة يتبعها أذى ﴾ كأن يمنَّ عليه ويفضح حاجته وفقره.

﴿ والله غني ﴾ أي: غني عن طاعة المَنّان المؤذي.

﴿ حليم ﴾ [٢٦٣] فلا يعاجله بالعقوبة، لكي يتوب ويرجع عن ذنبه.

ثم بيّنت الآيات أن المَنّ على الفقراء وتوجيه أيّ أذى لهم، يضيع ثواب الصدقة ويُبطله.

﴿ يا أيُّها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم باليمن والأذى ﴾ فتكونون عندئذ:

(١) الضحى: الآيتان ٩ - ١٠.

﴿ كالذي ينفق ماله رياء الناس ﴾ أي: كالمنفق المُرائي، الذي ينفق ماله لأجل الرياء وحبّ السمعة والشهرة بين الناس.

﴿ ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ أي: ولا يريد بإفناقه ثواب الله تعالى ورضوانه يوم القيامة؛ لأنه لا يؤمن الإيمان الصادق الصحيح بالله واليوم الآخر.

ولكي تقرب الآيات هذا المعنى المجرد للنفوس والعقول، مثلت له بهذا المثال المادّي، فلأمثلة دور تربوي كبير، وتأثير قوي على القلوب والنفوس.

﴿ فمثله ﴾ أي: مثل المنفق المُرائي بنفقته.

﴿ كمثل صفوان ﴾ وهو الحجر الأملس الصلب.

﴿ عليه تراب ﴾ أي: تغطيه طبقة من التراب.

﴿ فأصابه وابل ﴾ أي: أنزل الله عليه مطراً غزيراً قوياً، أزال التراب عنه وذهب به.

﴿ فتركه صلداً ﴾ أي: فأصبح الصفوان بعد المطر مجرداً من التراب، لم يستفد من المطر، فلم ينبت عليه شيء من النبات، بل حدث العكس، أظهر المطر حقيقته وبدت قسوته وصلابته وأنه لا خير فيه.

وكذلك حال المُرّائين بعبادتهم، المائنين على الفقراء بصدقاتهم والمؤذنين لهم:

﴿ لا يقدرّون على شيء مما كسبوا ﴾ أي: لا ينتفعون بشيء من طاعاتهم وعبادتهم، فلا يجدون لها عند الله ثواباً، وفي الحديث الشريف عن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة: المَنَّان الذي لا يعطي شيئاً إلاّ منه، والمنفق سلعته بالحلف الفاجر، والمسبل إزاره»^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، مَنْ عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»^(٢).

﴿ والله لا يهدي القوم الكافرين ﴾ [٢٦٤] أي: الجاحدين فضله عليهم والمُصّرّين على الكفر.

ودلّت الآية على أن الرياء والمنّ والأذى في الإنفاق من صفات الكفار، ولا بدّ للمؤمن أن يتجنّب عنها^(٣).

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان (١٠٦).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الزهد (٢٩٨٥).

(٣) البيضاوي ٤١٧/١.

وفي مقابل المثل السابق، ضربت الآيات مثلاً للمخلصين في صدقاتهم، بقوله تعالى :

﴿ ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله ﴾ أي : أنفقوا أموالهم طلباً لرضوان الله تعالى .

﴿ وتثبيتاً من أنفسهم ﴾ أي : تثبيتاً لأنفسهم على طريق الإيمان والاستسلام لله تعالى ، فإن في نفس الإنسان ميلاً فطرياً إلى المال وتعلقاً به ، فمن تغلب على نفسه وقهر شحها ، وأنفق المال تقرباً لله تعالى ، ثبتها على طريق الإسلام ، وأغلق على الشيطان ثغرة يمكن أن يستغلها لإغوائه وإضلاله ، كما سيأتي عند قوله تعالى : ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ﴾ . ويمكن أن يكون ﴿ من ﴾ للتبويض ، ويكون المعنى : أي : مثبتين بعض أنفسهم على الإيمان ، فمن بذل ماله لله تعالى فقد ثبت بعض نفسه ، ومن بذل ماله وروحه لله تعالى فقد ثبت كل نفسه .

﴿ كمثل جنة بربوة ﴾ أي : كمثل بستان بمرتفع من الأرض ، حيث تكون الأشجار أحسن منظراً وأزكى ثمرأ .

﴿ أصابها وابل ﴾ أي : مطر شديد .

﴿ فأتت أكلها ضعفين ﴾ أي : أعطت إنتاجاً مضاعفاً مرتين عما كانت تعطي في كل موسم .

﴿ فإن لم يصبها وابل فطل ﴾ وهو المطر الخفيف اللين ، والمراد بيان أن خير هذه البستان الطيبة لا يتخلف في مختلف الأحوال ، وكذلك حال هؤلاء المنفقين في سبيل الله ، لا تضيق عند الله نفقاتهم ، فلهم ثوابهم ، وإن كان متفاوتاً بحسب درجات إخلاصهم لله تعالى ، أو كان متفاوتاً بحسب مقدار نفقاتهم وحرصهم على إيصالها إلى الأقرب والأحوج والأبقى .

﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ [٢٦٥] فاجعلوا عملكم خالصاً لوجهه تعالى ، وابتغوا به رضوانه .

أسف وحسرة

وأضافت الآيات مثلاً آخر للذين يحرمون أنفسهم من ثواب أعمالهم ، وهم أحوج ما يكونون إليه ، وذلك بسبب مراءاتهم أو إعجابهم بها ، والمن بها على الفقراء :

﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعنان تجري من تحتها الأنهار﴾ أي :
أحب أحدكم أن تكون له بستان من نخيل وأعنان تجري الأنهار فيها؟ والاستفهام
للإنكار، وتخصيص النخيل والأعنان بالذكر لأن ثمرهما من أفضل الفواكه وأكثرها نفعاً،
فيهما الغذاء والتفكه.

﴿له فيها من كل الثمرات﴾ أي : يجني صاحبها منها ثماراً كثيرة.

﴿وأصابه الكبير﴾ أي : أصاب كبير الشيخوخة والهزم صاحب البستان، حتى
أصبح لا يقدر على الكسب.

﴿وله ذرية ضعفاء﴾ أي : وله أولاد صغار ضعاف لا يقدر على الكسب أيضاً،
فهم يعتمدون في معاشهم على ثمرات جنتهم.

﴿فأصابها إعصار﴾ أي : ريح قوية تستدير على نفسها، تسمى زوبعة، وتسمى
إعصاراً لأنه يلتف كما يلتف الثوب المعصور، أو لأنه يعصر الأجسام المار بها^(١).

﴿فيه نار﴾ أي : يحمل الإعصار ناراً.

﴿فاحترقت﴾ أي : فاحترقت الجنة بنار الإعصار الذي أصابها.

وتركنا الآية عند هذه الجملة القصيرة، لتصور مدى الحسرة والأسف الذي
يعصف في نفس صاحب الجنة، وهو يراها تحترق، قبل أن يأتي تعقيب الحق تعالى
على المثل بقوله: ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾ [٢٦٦] أي :
تتفكرون بما فيها من عظات وعبر، تنتفعون بها، فضرب الأمثال في القرآن الكريم
أسلوب تربوي، يساعد المخاطبين على فهم المعاني المجردة، ويجعلهم يفعلون بها.

سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه جلساءه من الصحابة يوماً فقال: فيم ترون
هذه الآية نزلت ﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة﴾؟ قالوا: الله أعلم. فغضب عمر فقال:
قولوا نعلم أولاً نعلم. فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين. قال عمر:
يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك. قال ابن عباس: ضربت مثلاً لعمل. قال عمر: أي
عمل؟ قال ابن عباس: لعمل. قال عمر: لرجل غني يعمل بطاعة الله عز وجل، ثم بعث
الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله^(٢).

(١) روح المعاني ٣/٣٨.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير (٤٥٣٨).

الأموال الواجبة فيها الزكاة

هَيَّاتِ الآيَاتِ بِهَذِهِ الْأَمْثَالِ الرَّائِعَةِ، نَفُوسَ الْمَكْلَفِينَ لِقَبُولِ التَّكْلِيفِ وَالرِّضَا بِهِ، فَوَجَّهَتْ إِلَيْهِمْ بَعْدَهَا خُطَابَ التَّكْلِيفِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾، أَي: أَنْفَقُوا النِّفْقَةَ الْوَاجِبَةَ عَلَيْكُمْ، مِنْ خِيَارِ الْمَالِ الَّذِي اكْتَسَبْتُمُوهُ بِعَمَلِكُمْ، الَّذِي أَحَلَّهُ اللَّهُ لَكُمْ، كَالتَّجَارَةِ وَالصَّنَاعَةِ.

فَفِي الْآيَةِ دَلِيلٌ ظَاهِرٌ عَلَى وَجوبِ الزَّكَاةِ فِي كُلِّ مَالٍ اكْتَسَبَهُ الْإِنْسَانُ، سَوَاءَ كَانَ مِنَ النِّقُودِ أَمْ مِنْ عَرُوضِ التَّجَارَةِ، إِذَا تَوَفَّرَتْ فِيهِ شُرُوطُ الْوَجوبِ، الْمَذْكُورَةُ فِي كِتَابِ الْفَقْهِ، وَأَهْمُهَا أَنْ يَبْلُغَ الْمَالُ نَصَاباً، وَأَنْ يَحُولَ عَلَيْهِ الْحَوْلُ، وَأَنْ يَكُونَ الْمَالُ مَمْلُوكاً لِصَاحِبِهِ مَلِكاً تَاماً، وَأَنْ يَكُونَ حَلَالاً طَيِّباً.

﴿ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ أَي: وَأَنْفَقُوا مِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ، مِنَ النَّبَاتِ وَالثَّمَارِ وَالْمَعَادِنِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى وَجوبِ الزَّكَاةِ فِي الْمَحَاصِيلِ الزَّرَاعِيَّةِ وَفِي الْمَعَادِنِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَآتَوْا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾^(١). وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «فِيمَا سَقَتِ السَّمَاءُ وَالْعَيُونُ أَوْ كَانَ عَثَرِيًّا»^(٢) الْعَشْرُ، وَمَا سَقَى بِالنُّضْحِ نِصْفَ الْعَشْرِ»^(٣).

﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ ﴾ أَي: لَا تَقْصِدُوا الْمَالَ الرَّدِيءَ.

﴿ مِنْهُ تَنَفَّقُونَ ﴾ أَي: مِنْهُ تَتَصَدَّقُونَ، فَتَعْطُونَ الْفُقَرَاءَ الْمَالَ الرَّدِيءَ، وَتَحْتَفِظُونَ لَأَنْفُسِكُمْ بِالْمَالِ الْجَيِّدِ.

﴿ وَلَسْتُمْ بِأَخَذِهِ ﴾ أَي: وَالْحَالُ أَنْكُمْ لَا تَأْخُذُونَهُ فِي حَقُوقِكُمْ.

﴿ إِلَّا أَنْ تَغْمُضُوا فِيهِ ﴾ أَي: إِلَّا أَنْ تَتَسَاهَلُوا، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا رَأَى مَا يَكْرَهُ أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ، وَكَأَنَّ الْآيَةَ تَقُولُ لَهُمْ: فَكَيْفَ تَرْضَوْنَ لِلَّهِ تَعَالَى مَا لَا تَرْضَوْنَ لَأَنْفُسِكُمْ.

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [٢٦٧] فَهُوَ مُسْتَحَقٌّ لِلْحَمْدِ عَلَى نِعَمِهِ، فَاشْكُرُوهُ وَتَقَرَّبُوا إِلَيْهِ بِالطَّيِّبِ لَا بِالْخَبِيثِ.

(١) الْأَنْعَامُ: الْآيَةُ ١٤١.

(٢) أَي: يَعِثُ عَلَى الْمَاءِ بِنَفْسِهِ وَلَا يَتَكَلَّفُ صَاحِبُهُ سَقِيَهُ.

(٣) صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ، كِتَابُ الزَّكَاةِ (١٤٨٣).

وفي هذه الآية أيضاً دليل على إنسانية الشريعة الإسلامية، وحرصها على كرامة المحتاجين والفقراء، وتسويتها بينهم وبين الأغنياء في وجوه الانتفاع بأموال الزكاة كاللباس والطعام والشراب... إلخ.

حزب الشيطان

مرّ معنا قريباً أن الإنسان مفطور على حبّ المال والشحّ به، وهو نقطة ضعف بشرية يمكن أن يتسلّل الشيطان منها إلى الإنسان، ليصدّه عن طاعة الله تعالى، وذلك بأن يخوّفه من الفقر، ويجعله يضرّ بماله ويمنع زكاته عن مستحقّيها، وهذا ما حدّرنا تعالى منه بقوله:

﴿الشيطان يعدكم الفقر﴾ أي: يخوّفكم من الفقر إذا أنفقتُم ما أمركم الله تعالى به، ويمهّد بالتخويف من الفقر إلى تزيين البخل.

﴿ويأمركم بالفحشاء﴾ أي: ويأمركم بالبخل ويحسنه لكم، مع أنه خصلة ذميمة فاحشة، والفاحش عند العرب: البخل.

وقد يكون المعنى: ومع نهيه إياكم عن الإنفاق خشية الإملاق، يأمركم بالمعاصي والمآثم والمحارم^(١).

ففي الطاعات يأمركم بالبخل، وفي المعاصي يأمركم بالإنفاق والتبذير والإسراف، وهو حال مشاهد عند كثير من أصحاب الأموال، ييخلون عن أداء حقوق الله تعالى، وهي يسيرة قليلة، وينفقون الأموال الكثيرة على المحرّمات والفواحش، مما يدلّ على أن الشيطان استحوذ عليهم، فانقادوا له وأصبحوا من أعوانه وأتباعه، كما قال تعالى: ﴿استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون﴾^(٢).

ثم بيّنت الآية ما يترتب على الإنفاق من فوائد، تؤدّي بالإنسان إلى التغلّب على شحّ نفسه وقهر شيطانه.

﴿والله يعدكم مغفرة منه﴾ أي: مغفرة لذنوبكم ستراً لها، فالحسنات تمحو

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢٤١/١.

(٢) المجادلة: الآية ١٩.

السيئات، كما قال تعالى: ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين﴾^(١).

وفي الحديث الشريف عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «الصدقة تطفئ غضب الرب وتدفع ميتة السوء»^(٢).

﴿وفضلاً﴾ أي: ويخلف عليكم أفضل مما أنفقتم، كما مرّ في آية السنابل السبع.

﴿والله واسع عليم﴾ [٢٦٨].

ولا يقتصر إحسانه وفضله سبحانه على الشؤون المادية، وإنما يمتدّ أيضاً إلى الأمور المعنوية الرفيعة والخصال الحميدة:

﴿يؤت الحكمة مَنْ يشاء﴾ أي: يؤت الإصابة في الأقوال والأفعال مَنْ يشاء من عباده، ودلّ ورود الآية في سياق آيات الإنفاق، على أن للمنفقين في سبيل الله حظاً كبيراً من الحكمة، ويوفّقهم الله تعالى إلى السداد في الأقوال والأفعال، وهي من الخصال الكريمة التي تؤدّي إلى دفع الشرّ وجلب الخير.

﴿وَمَنْ يُوْتِ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ أي: في الدنيا والآخرة.

﴿وما يذكر إلّا أولو الألباب﴾ [٢٦٩] أي: وما ينتفع بهذه المواعظ إلّا أصحاب العقول. ويؤدّي الإنفاق في سبيله تعالى إلى معونته وتأييده:

﴿وما أنفقتم من نفقة﴾ أي: في طاعته تعالى.

﴿أو نذرتم من نذر﴾ تتقربون به إليه سبحانه.

﴿فإن الله يعلمه﴾ فيجازيكم عليه بمعونته ونصره وتأييده.

﴿وما للظالمين من أنصار﴾ [٢٧٠] أي: وليس للذين ينفقون أموالهم في طاعة الشيطان، من أنصار يمنعونهم من عذابه تعالى وانتقامه.

إخفاء الصدقة

وبعد أن حثت الآيات على الصدقات وأداء الواجبات المالية، وبيّنت آثارها الطيبة في الدنيا والآخرة، شرعت ببيان كيفية الإنفاق وأحسن طرق الأداء:

(١) هود: الآية ١١٤.

(٢) رواه الترمذي.

﴿ إن تبدوا الصدقات فنعماً هي ﴾ أي: إن تُظهروا دفع مال الزكاة وغيره إلى المستحقين، فنعم ما تفعلون إذا قصدتم التقرب إليه تعالى.

﴿ وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء ﴾ أي: إن تعطوها خفية للفقراء في السر:

﴿ فهو خير لكم ﴾ لأن في الإخفاء حفظاً لكم من الرياء وحبّ الظهور والسمعة، قال ابن كثير رحمه الله: الإسرار أفضل لهذه الآية، ولما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله... ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»^(١).

﴿ ويكفر عنكم من سيئاتكم ﴾ لأن الحسنات تمحو السيئات.

﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ [٢٧١] يعلم سبحانه ما تخفون من الصدقات وما تبدون.

ولا شك أن إعطاء الصدقات للفقراء سرّاً أكرم لهم، فالآية تُظهر إنسانية الشريعة الإسلامية، التي تحرص على كرامة الإنسان.

وجاءت الآية التالية بعدها تضيف إلى إنسانية الشريعة الإسلامية سماحتها، فالتكافل الاجتماعي الإسلامي لا يقتصر على المسلمين فقط، بل يشمل غيرهم من الذين يعيشون في المجتمع الإسلامي، وقد أجازت الشريعة الإسلامية دفع جزء من صدقات المسلمين عدا الزكاة إلى غير المسلمين، وهذا ما قرره الآيات الكريمة، وهي تخاطب النبي ﷺ بقوله تعالى:

﴿ ليس عليك هداهم ﴾ أي: لست مكلفاً بهدايتهم إلى الإسلام، وإنما عليك تبليغهم دعوة الإسلام، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿ فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر ﴾^(٢). وكان عليه الصلاة والسلام حريصاً على هدايتهم، وقد أخرج ابن أبي حاتم وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان يأمرنا ألا نتصدّق إلاّ على أهل الإسلام حتى نزلت هذه الآية... أي: ليس عليك هدى من خالفك حتى تمنعهم الصدقة لأجل دخولهم في الإسلام^(٣).

﴿ ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ فالهداية منوطة بمشيئته تعالى وعلمه، وهو سبحانه أعلم حيث يجعل هدايته، كما مرّ معنا عند قوله تعالى: ﴿ يضلّ به كثيراً ويهدي به

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢٤٣/١.

(٢) الغاشية: الآية ٢١ - ٢٢.

(٣) روح المعاني ٤٥/٣.

كثيراً وما يضلّ به إلّا الفاسقين ﴿١﴾. والجدير بالذكر هنا أن الصدقات التي يجوز إعطاؤها لغير المسلمين، هي صدقات التطوّع، أما الصدقات المفروضة فلا يجوز دفعها لغير المسلمين، لقوله عليه الصلاة والسلام لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن: «إنك ستأتي قوماً أهل كتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا إلّا إلّه إلّا الله وأن محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فتردّ على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتّق دعوة المظلوم فإنه ليس بينه وبين الله حجاب» (١).

﴿وما تنفقوا من خير فلا أنفسكم﴾ أي: يعود نفعه على أنفسكم، فلا تمنّوا به على الناس ولا تؤذوهم بالتناول عليهم.

﴿وما تنفقون إلّا ابتغاء وجه الله﴾ أي: فأنفقوا عليهم ولو كانوا غير مسلمين، ما دمتم تبتغون بنفقتكم رضوان الله تعالى.

ومن هنا نطلع على بعض الآفاق السامية السّمة الوضيئة، التي يرفع الإسلام قلوب المسلمين إليها، ويروّضهم عليها، إن الإسلام لا يقرّر مبدأ الحرية الدينية وحده، ولا ينهى عن الإكراه على الدين فحسب، إنما يقرّر ما هو أبعد من ذلك كله، يقرّر السماحة الإنسانية المستمدة من توجيه الله سبحانه، يقرّر حق المحتاجين جميعاً في أن ينالوا العون والمساعدة، ما داموا في غير حالة حرب مع الجماعة المسلمة، دون نظر إلى عقيدتهم (٢).

﴿وما تنفقوا من خير يوفّ إليكم﴾ أي: يوفّ إليكم مضاعفاً، كما مرّ في آية السنايل السبع.

﴿وأنتم لا تظلمون﴾ [٢٧٢] أي: لا تنقصون شيئاً من ثواب صدقاتكم.

أفضل مصارف الصدقات

ثم بيّنت الآيات أفضل مصارف الصدقات وأكثرها ثواباً بقوله تعالى:

﴿للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله﴾ أي: اجعلوا صدقاتكم للفقراء الذين حبسوا أنفسهم على الجهاد في سبيل الله، فمنعهم ذلك عن الاكتساب وطلب الرزق.

(١) صحيح البخاري، كتاب الزكاة (١٤٩٦).

(٢) في ظلال القرآن ١/٣١٥.

﴿ لا يستطيعون ضرباً في الأرض ﴾ أي : لا يستطيعون لاشتغالهم بالجهاد، الانتقال والسفر في الأرض للكسب والتجارة، وتسحب الآية على الذين عجزوا عن الكسب بسبب الجراحات التي أصابتهم في أثناء الجهاد والقتال، وعلى الذين حبسوا أنفسهم على طلب علم نافع تحتاج إليه الأمة، فهؤلاء يعطون من أموال الزكاة مقدار ما يحتاجون إليه من النفقات، ماداموا محتاجين.

﴿ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ﴾ أي : يحسبهم الجاهل بحالهم أغنياء، بسبب تعففهم عن المسألة، فهم يتظاهرون بالغنى ويسترون فقرهم وحاجتهم، وقد وصفهم النبي ﷺ بقوله : «ليس المسكين الذي يطوف على الناس، تردّه اللقمة واللقمتان والتمرّة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفتن به فيصدّق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس»^(١).

فمن يستطيع الضرب في الأرض والاكتساب، فهو واجد لنوع من الغنى، لا يجوز له أن يدع العمل والاكتساب ويسأل الناس، وفي الحديث الشريف عن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة ليس في وجهه مزعة لحم»^(٢).

﴿ تعرفهم بسيماهم ﴾ أي تعرف حقيقة حاجتهم بما ترى من أثر الجهد والحاجة البادي عليهم.

﴿ لا يسألون الناس إلحافاً ﴾ أي : إلحاحاً، والمعنى أنهم لا يسألون، وإن سألوا للضرورة لم يلحوا.

فهؤلاء أولى من غيرهم بالنفقة عليهم، وخاصة إذا كانوا من أقارب المنفق وجيرانه، ولهذا ختمت الآية وهي ترغب بالنفقة على أمثال هؤلاء :

﴿ وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم ﴾ [٢٧٣].

ثم ختم الله تعالى آيات النفقة ببيان فضيلة المنفقين على وجه العموم، وما لهم عنده تعالى من الثواب الجزيل :

﴿ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلانيةً فلهم أجرهم عند ربّهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ [٢٧٤].

(١) صحيح البخاري، كتاب الزكاة (١٤٧٩).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الزكاة (١٤٧٤).

اقتصاد إسلامي لا ربوي

تبين لنا من الآيات السابقة أن المجتمع الإسلامي مجتمع متكافل متعاون، ومن الطبيعي في مثل هذا المجتمع أن يكون نظامه المالي نظاماً لا ربوياً، لأن النظام الربوي يقوم على استغلال حاجات المحتاجين، وهذا ينافي التكافل والتعاون الذي ظهر لنا من خلال الآيات السابقة، ولهذا حرم الإسلام الربا، وجعل أهم طرق الاكتساب المشروعة فيه تقوم على الجهد والضمان، فالزيادة المشروطة لرأس المال، ولا يقابلها جهد ولا ضمان، زيادة غير مشروعة في الإسلام، ولهذا اتجهت الآيات في خواتيم سورة البقرة تقرر تحريم الربا مطلقاً، بجميع أنواعه وأشكاله.

وكما استهلّت الآيات الكريمة حديثها عن الإنفاق في سبيل الله، بالمثل المعجب المدهش، مثال السنابل السبع ذات السبعمئة حبة، استهلّت بالمقابل حديثها عن الربا بهذا الوصف المخيف المرعب للمرابين، وقد انتفخت بطونهم انتفاخاً كبيراً، حتى اختل توازنهم واضطربت أجسامهم، فأصبحوا كالمصروعين المخبولين، والجزاء في الإسلام من جنس العمل.

فالربا هو الوجه الآخر المقابل للصدقة، الوجه الكالح الطالح، الصدقة عطاء وسماحة وطهارة وزكاة، وتعاون وتكافل، والربا شحّ وقذارة ودنس وأثرة وفردية، الصدقة نزول عن المال بلا عوض ولا ردّ، والربا استرداد للدين ومعه زيادة حرام مقتطعة من جهد المدين أو من لحمه^(١).

﴿الذين يأكلون الربا﴾ أي: يأخذون الربا مباشرة، أو يساهمون بما يؤدي إلى الربا، كما جاء في الحديث الشريف عن جابر رضي الله عنه قال: لعن رسول الله ﷺ أكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه، وقال: «هم سواء»^(٢).

﴿لا يقومون﴾ أي: إذا بُعثوا من قبورهم يوم القيامة.

﴿إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان﴾ أي: يصصره الشيطان، وأصل الخبط: الضرب والوطء على غير استواء.

﴿من المس﴾ أي: من الجنون، يقال: مُسّ الرجل فهو ممسوس، إذا كان به جنون، ومعنى الآية أن أكل الربا يُبعث يوم القيامة مثل المصروع الذي لا يستطيع

(١) انظر: في ظلال القرآن ٣١٨/١.

(٢) صحيح مسلم، كتاب المساقاة (١٥٩٨).

الحركة الصحيحة؛ لأن الربا ربا في بطونهم حتى أثقلهم^(١).

فالآية تصف حال المُرابين يوم القيامة، عندما يُبعثون من قبورهم، وهو الذي ذهب إليه جمهور المفسرين، وذهب إليه أيضاً ابن عطية في تفسيره، إلا أنه أضاف إليه معنى آخر فقال: يُبعث كالمجنون عقوبة له وتمقيتاً عند جمع المحشر، ويقوّي هذا التأويل المُجمّع عليه، أن في قراءة عبد الله بن مسعود: ﴿لا يقومون يوم القيامة إلا كما يقوم المجنون﴾^(٢)، وأما ألفاظ الآية فكانت تحتل تشبيه حال القائم بحرص وجشع إلى تجارة الربا بقيام المجنون؛ لأن الطمع والرغبة تستفزّه حتى تضطرب أعضاؤه، وهذا كما نقول لمسرّع في مشية مخلط من كثرة حركاته إما لفرع أو غيره: قد جُنّ هذا^(٣).

وهذا المعنى الذي أضافه ابن عطية لأقوال المفسرين، ذهب إلى مثله سيد قطب رحمه الله فقال: ولقد مضت معظم التفاسير على أن المقصود بالقيام في هذه الصورة المُفزع، هو القيام يوم البعث، ولكن هذه الصورة فيما نرى واقعة بذاتها في حياة البشرية في هذه الأرض... إنهم لا يقومون في الحياة ولا يتحركون إلا حركة الممسوس المضطرب القلب المتخبط، الذي لا ينال استقراراً ولا طمأنينة ولا راحة^(٤).

ولا مانع من الجمع بين المعنيين ما دام لفظ الآية يحتملها، كما رأى ابن عطية، فنقول: إن الآية تصف أحوالهم النفسية في الدنيا، وأحوال قيامهم من قبورهم يوم القيامة، ومن يشاهد أحوال المتعاملين بالربا في أسواق التعامل المالي في أيام الأزمات والتقلبات، يرى أن معنى الآية ينسحب عليهم تماماً، لكثرة ما يرى من اضطرابهم.

﴿ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا﴾ أي: هذا العقاب بسبب أنهم جعلوا البيع والربا متشابهين في الحل، فكما أن البيع يؤدي إلى الربح وهو حلال، فكذلك الربا يؤدي إلى الربح، وهو حلال في نظرهم أيضاً، مع أن الفرق واضح بين ربح لا يقابله جهد ولا ضمان خسارة، وهو ربح الربا، وبين ربح البيع الذي يقابله ضمان الخسارة المحتملة.

﴿وأحلّ الله البيع وحرم الربا﴾ فالحاكمة والتشريع لله تعالى وحده، وهو الذي يحلّ ويحرم، والحلال ما أحله سبحانه والحرام ما حرّمه، وعلينا جميعاً الانقياد والرضا لما شرعه لنا.

(١) تفسير الخازن ٤٣١/١.

(٢) هذه القراءة إن صحت تحمل على البيان والتوضيح.

(٣) المحرر الوجيز ٤٨١/٢.

(٤) في ظلال القرآن ٣٢٥/١.

﴿ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ أي: مَنْ بلغه زجر ونهي من ربِّه، كالنهي عن الربا.

﴿ فَاَنْتَهَى ﴾ أي: فاستسلم لحكم الله تعالى، وانتهى عمَّا حرَّمه عليه.
﴿ فله ما سلف ﴾ أي: فله ما مضى قبل التحريم، والله سبحانه يغفر له ولا يؤاخذ.

﴿ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ أي: فيما يأمره وينهاه، ويحلُّ له ويحرِّم عليه، وليس له من أمر نفسه شيء، فما عليه إلَّا التسليم والانقياد لحكم الله وشرعه.
﴿ وَمَنْ عَادَ ﴾ أي: عاد إلى الربا بعد التحريم، وأصرَّ على التعامل بالربا مستحلًّا له بعد أن حرَّمه الله تعالى.

﴿ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [٢٧٥] لأنهم لم يستسلموا لحكم الله وشرعه، وأصرُّوا على عنادهم وجحودهم واتباعهم لأهوائهم.

من أضرار الربا

وبعد أن بيَّن الله تعالى عقاب أكَّلة الربا يوم القيامة، بيَّن ما يترتب عليه في الدنيا، فقال: ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا ﴾ أي: ينقصه ويهلكه ويذهب بركته، فالربا لا خير فيه، وعاقبة المال الذي ينمو بالربا إلى البوار، وأقرب شاهد على ذلك ما تعانيه المجتمعات الربوية من آفات التضخُّم المالي، فالأموال الربوية كثيرة، ولكن قيمتها الشرائية تتضاءل يوماً بعد يوم، وقد جاء في الحديث الشريف عن ابن مسعود رفعه: «إن الربا وإن كثر فإن عاقبته إلى قلة»^(١).

وفي مقابل محق الربا:

﴿ وَيَرْبِي الصَّدَقَاتِ ﴾ أي: يزيد سبحانه ويبارك في الأموال التي ينقاد أصحابها لحكمه تعالى فيؤدُّون زكاتها، ويدفعون منها الصدقات الواجبة عليهم.

﴿ وَاللَّهُ لَا يَحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ ﴾ أي: شديد الكفر مُصرًّا على استحلال المحرَّمات.

﴿ أَثِيمٌ ﴾ [٢٧٦] أي: كثير الآثام والمعاصي، مُتمادٍ بها.

فآكل الربا كفَّار أثيم، يمقتة الله تعالى ويحجبه عن ساحات فضله ورحمته، ولهذا

(١) رواه أحمد وابن ماجه والحاكم وصحَّحه، كما في فتح الباري ٢٠٤/٨.

ترى أكلة الربا في همٍّ دائم، وقلق مستمر، بينما ترى المؤمنين المنقادين لشرع الله تعالى يتمتعون بأمن نفسي وسكينة وطمأنينة وجدانية، بسبب ما يفيض الله تعالى على قلوبهم ونفوسهم من آثار رحمته وعنايته.

وإبرازاً لهذا المعنى، التفتت الآيات تتحدث عنهم، منوّهة بفضل الله تعالى عليهم:

﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ [٢٧٧] وذلك بسبب انقيادهم لأحكام دين الله تعالى، والتزامهم بشرعه.

إعلان الحرب على المُرابين

ثم توجهت الآيات بالخطاب إلى المؤمنين، تحثهم على ترك الربا؛ إذ كان الربا سائداً في معاملات الناس قبل الإسلام، وقد اهتم الإسلام اهتماماً كبيراً بتنقية المجتمع الإسلامي من هذه الآفة الخطيرة، وقد نجح نجاحاً كبيراً في هذا المجال، كما نجح بتطهيره من سائر الآفات الجاهلية التي كانت منتشرة فيه:

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله﴾ بطاعته والاستسلام لأحكام شريعته.

﴿وذروا ما بقي من الربا﴾ أي: اتركوا بقايا الربا التي شرطتموها على الناس، فلا تطالبوهم بها.

﴿إن كنتم مؤمنين﴾ [٢٧٨] أي: إن كنتم حقاً مؤمنين فإنكم تبادرون إلى طاعته وامثال أمره.

﴿فإن لم تفعلوا﴾ أي: إن لم تنقادوا لحكمه وتستجيبوا لأمره.

﴿فأذنوا بحرب من الله ورسوله﴾ أي: اعلّموا واستيقنوا أنكم مُعرّضون لحرب من الله ورسوله.

وجاء لفظ ﴿حرب﴾ نكرة ليفيد تعظيم أمر هذه الحرب، فهي حرب عظيمة لا تعلمون كيفيتها ولا وقتها ولا وسائلها، حرب من الله، والله جنود السموات والأرض، وما يعلم جنود ربك إلا هو، حرب في أموالكم وفي أجسامكم وفي قلوبكم وعقولكم ونفوسكم، وفي مجتمعاتكم وفي تسليط عدوكم عليكم...

حرب مستمرة لا هوادة فيها ولا رحمة، حتى تستسلموا لأحكام الله تعالى وشريعته، وتنبوا عن مجاوزة حدوده.

وخطاب الآية بصيغة الجمع يدلّ على المسؤولية الجماعية للمجتمعات التي ينتشر فيها التعامل بالربا، كما أن هذا المستوى المُخيف في التهديد والوعيد، الذي لم تستعمله الآيات إلّا مع أكّلة الربا، يدلّ على خطورة الربا أولاً، وعلى شدة وقسوة وتحجّر نفوس المُرايين ثانياً، فلا ينفادون ويستسلمون لأحكام دين الله تعالى إلّا بعد إعلان الحرب عليهم من الله تعالى ومن رسوله عليه الصلاة والسلام.

﴿وإن تبتم﴾ أي: وتركتم التعامل بالربا.

﴿فلكم رؤوس أموالكم﴾ أي: فلكم الحق بمطالبة المدينين والمستقرضين، برؤوس أموالكم التي دفعتموها لهم، فالإسلام شريعة الله تعالى لا يُحابي أحداً على حساب أحد، ولا ينقص حقاً لأحد مهما كان.

﴿لا تظلمون﴾ أي: لا تظلمون بأخذ أيّ زيادة على رؤوس أموالكم، فالربا حرام سواء كانت الزيادة كثيرة أم قليلة، وسواء كان الاستقراض للاستثمار أم للاستهلاك، فالآية تردّ على الذين يستحلّون قليل الربا، ويستحلّون الربا الذي يكون في قرض للاستهلاك، فكل صور الربا حرام، لأن الله تعالى شرع لأصحاب الأموال أن يستردّوا أموالهم فقط دون أيّ زيادة عليها، وقد نادى النبي ﷺ بتحريمه على الإطلاق في خطبة حجة الوداع، عندما قال فيها: «ألا إن كل رباً من ربا الجاهلية موضوع، لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون»^(١).

﴿ولا تُظلمون﴾ [٢٧٩] أي: ولا يجوز للمستقرض أو المدين أن يردّ أقلّ مما أخذ، وإن فعل ذلك فهو ظالم، فإذا كان المدين قادراً على الوفاء ولم يؤدّ ما عليه يعدّ ظالماً، ويجبر على الوفاء شرعاً، وإن أصرّ على المماطلة عوقب بالسجن، وللقاضي أن يبيع أمواله لوفاء دينه، وفي الحديث الشريف عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «مطل الغني ظلم، وإن أتبع أحدكم على مليء فليتبع»^(٢).

وبوّب الإمام البخاري في صحيحه في كتاب الاستقراض، فقال: لصاحب الحق مقال، ويذكر عن النبي ﷺ: «لي الواجد يحلّ عقوبته وعرضه».

واللي بالفتح: المطل. والواجد من الوجد بالضم، يعني القدرة. والحديث المذكور وصله أحمد وإسحاق في مسنديهما، وأبو داود والنسائي وإسناده حسن،

(١) انظر الحديث كاملاً في سنن أبي داود.

(٢) صحيح مسلم، كتاب المساقاة (١٥٦٤).

واستدلّ به على مشروعية حبس المدين إذا كان قادراً على الوفاء؛ تأديباً له وتشديداً عليه^(١).

وهذا يدلّ أيضاً على أن نظام الفائدة الربوية المرتبطة بالأجل لا تجوز في الإسلام، والمدين الغني إذا تأخر عن الوفاء يحبس تشديداً عليه، ولا توضع عليه الفوائد الربوية بسبب تأخره، كما هو الحال في تعامل الناس مع المؤسسات الربوية في هذا العصر. وأما إذا كان المدين معسراً لا قدرة له على الوفاء، فإنه ينظر ويمهل حتى يتيسر له الوفاء.

الأخلاق الإسلامية في المعاملات المالية

وهو ما بيّنه الله تعالى في قوله بعد آيات الربا:

﴿وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة﴾ أي: إن وُجد ذو عسرة فإمهال وتأخير إلى زمن اليسار، وهو ضدّ الإعسار.

ولا يجوز في هذه الحالة لأصحاب الأموال أن يطالبوا المدين بفوائد ربوية تقابل إمهاله وإنظاره، كما كان أهل الجاهلية يفعلون، يقولون للمعسر: إما أن تقضي وإما أن تُربي. وهكذا حتى تبلغ الفوائد الربوية أضعاف الدين المستقرض، وهو ما تفعله الدول الغنية في العصر الحاضر مع الدول الفقيرة المستقرضة، إنهم باسم المساعدات الاقتصادية الربوية، التي يقدمونها للشعوب الفقيرة، يمتصّون خيرات وجهد هذه الشعوب الضعيفة، فيزداد الفقراء فقراً وضنكاً، ويزداد الأغنياء جشعاً وشرهاً وسرفاً وترفاً؛ ولهذا أنزل سبحانه قوله الكريم، يخاطب المُرابين في الجاهلية، الذين كانوا يأكلون الربا أضعافاً مضاعفة بسبب عجز وضعف المدينين: ﴿يا أيّها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلّكم تفلحون﴾^(٢).

فالأخلاق في الشريعة الإسلامية لا تنفصل عن الأحكام، ولو كانت في المعاملات المالية، وإنظار المعسر خلق كريم ألزم الله تعالى به أصحاب الأموال الدائنين، في هذه الآية الكريمة، وهو مظهر من مظاهر التعاون في المجتمع الإسلامي، القائم - كما مرّ - على التكافل والتعاون.

(١) انظر: فتح الباري ٦٢/٥.

(٢) آل عمران: الآية ١٣٠.

ثم ارتفعت الآيات بالإنسان المسلم إلى أفق خلقي كريم أسمى من الأول، بقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا﴾ بإبراء المعسر عن بعض المال، أو عن كله. ﴿خير لكم﴾ أي: أكثر ثواباً من الإنظار والإمهال.

﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [٢٨٠] أي: إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ مَا فِيهِ مِنْ خَيْرٍ كَبِيرٍ فِي الدُّنْيَا، والعاقبة الطيبة الحسنة في الآخرة.

وتدل الآية على أن إبراء المدين أمر مندوب إليه، أما إنظار المعسر فواجب لازم. وقد حث النبي ﷺ في عدد من الأحاديث الشريفة على التجاوز عن المعسر، منها ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كَانَ رَجُلٌ يُدَايِنُ النَّاسَ، فَكَانَ يَقُولُ لِفَتَاهُ: إِذَا أَتَيْتَ مَعْسَرًا فَتَجَاوَزْ عَنْهُ، لَعَلَّ اللَّهَ يَتَجَاوَزُ عَنْكَ، فَلَقِيَ اللَّهَ فَتَجَاوَزَ عَنْهُ»^(١).

وطلب أبو قتادة رضي الله عنه غريماً له، فتوارى عنه ثم وجده، فقال: إني معسر، فقال: آله؟ قال: الله، قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْجِيَهُ اللَّهُ مِنْ كَرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلْيَنْفَسْ عَنْ مَعْسَرٍ أَوْ يَضَعْ عَنْهُ»^(٢).

وحتى تتمكن هذه الأخلاق الكريمة في نفوس المؤمنين، حرصت الآيات الكريمة في السورة - كما لاحظنا - على ربط الأحكام الشرعية العملية بالتقوى، وها هي الآن - كما عودتنا - تتوجه إلى المؤمنين، بعد أن حرمت عليهم التعامل بالربا، تعظمهم وتذكّرهم بمسؤوليتهم الكبرى أمام الله تعالى يوم القيامة.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ وهو يوم المسؤولية والحساب والجزاء.

﴿ثُمَّ تَوْفَى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ أي: ما صدر عنها من خير أو شر.

﴿وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾ [٢٨١] أي: لَا يَظْلَمُونَ أَبَدًا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، فلا تنقص حسناتهم ولا تزداد سيئاتهم.

والجدير بالذكر أن هذه الآية هي آخر آيات القرآن الكريم نزولاً على النبي ﷺ، بها خُتم الوحي وانقطعت النبوة، وعاش النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية تسع ليالٍ ثم توفي يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول^(٣).

قال الإمام البخاري في صحيحه، في كتاب التفسير، باب ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ

(١) صحيح مسلم، كتاب المساقاة (١٥٦٢).

(٢) صحيح مسلم، كتاب المساقاة (١٥٦٣).

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٢٥٢/١.

فيه إلى الله ﴿١﴾. ثم ساق بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: آخر آية نزلت على النبي ﷺ آية الربا. قال ابن حجر رحمه الله تعالى: وجاء عنه من وجه آخر: آخر آية نزلت على النبي ﷺ ﴿٢﴾ واتفقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ﴿٣﴾ أخرجه الطبري من طرق عنه، وطريق الجمع بين هذين القولين أن هذه الآية هي ختام الآيات المنزلة في الربا، إذ هي معطوفة عليهن^(١).

توثيق الحقوق في المعاملات المالية

ثم بيّنت الآيات بمناسبة تحريم الربا وتشريع إنظار المدين أو إبرائه، أهم الوسائل المشروعة لتوثيق الحقوق وضمان وفائها لأصحابها، بقوله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين ﴿١﴾ أي: إذا تعاملتم بالدين.

وحقيقة الدين عبارة عن كل معاملة، كان أحد العوضين فيها نقداً، والآخر في الذمة نسيئة - مؤجلاً - فإن العين عند العرب ما كان حاضراً، والدين ما كان غائباً^(٢).

﴿إلى أجل مسمى ﴿٢﴾ أي: إلى مدة معلومة محددة، وهذا يدل على وجوب كون أجل الدين معلوماً في العقد قطعاً للمنازعة.

﴿فاكتبوه ﴿٣﴾ أي: وثقوا عقد التعامل بالدين بالكتابة، سواء كان بيعاً أم سلماً أم قرضاً عند القائلين بجواز تأجيل القرض، لأن الكتابة تحفظ الحق وتدفع النزاع، والشريعة الإسلامية تحرص على حفظ الحقوق، وإزالة أسباب الخلاف والنزاع بين المتعاملين.

والأمر بالكتابة في الآية للإرشاد والاستحباب، لا للإيجاب، كما سيأتي.

قال ابن عباس رضي الله عنه: لما حرّم الربا أباح السلم. وقال: أشهد أن السلف المضمون إلى أجل مسمى قد أحله الله في كتابه وأذن فيه^(٣).

وعن ابن عباس أيضاً قال: قدّم النبي ﷺ المدينة، وهم يسلفون بالتمر السنتين والثلاث، فقال: «من أسلف في شيء ففي كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم»^(٤).

(١) فتح الباري ٢٠٥/٨.

(٢) تفسير القرطبي ٣٧٧/٣.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٢٥٢/١.

(٤) صحيح البخاري، كتاب السلم (٢٢٤٠).

﴿ وليكتب بينكم كاتب بالعدل ﴾ أي: ليكتب العقد بين الدائن والمدين، كاتب بالحق من غير ميل إلى أحد الجانبين.

﴿ ولا يَأْب كاتب أن يكتب ﴾ أي: ولا يمتنع كاتب أن يكتب كتاب الدين.

﴿ كما علّمه الله فليكتب ﴾ أي: فكما أنعم الله عليه وعلّمه الكتابة، فعليه أن يسخرها لفائدة الناس عند الحاجة إليها، وهذا كقوله تعالى: ﴿ وأحسن كما أحسن الله إليك ﴾ (١).

﴿ وليُملل الذي عليه الحق ﴾ أي: وليكن المُملّي من عليه الحق؛ لأنه بالإملاء يقرّ على نفسه بالحق، فالشريعة الإسلامية حريصة على حقوق الناس وتوثيقها، ولهذا أوصاه سبحانه بالتقوى.

﴿ وليتّق الله ربّه ﴾ أي: وعلى المُملّي أن يتّق الله الذي هو خالقه ومالّكه ومُربيه؛ فإنه مسؤول أمامه، فعليه ألاّ يمتنع عن الإقرار بما عليه من حق.

﴿ ولا يخس منه شيئاً ﴾ أي: ولا ينقص من الحق الواجب عليه شيئاً.

﴿ فإن كان الذي عليه الحق سفياً ﴾ أي: كان مبذراً للمال مُفْسِداً له، ومَن كان كذلك فإن الشريعة الإسلامية تمنعه من التصرف في ماله وتحجر عليه، كما قال تعالى: ﴿ ولا توتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولاً معروفاً ﴾ (٢).

﴿ أو ضعيفاً ﴾ أي: كان ضعيفاً بسبب صغر أو جنون.

﴿ أو لا يستطيع أن يملّ هو ﴾ أي: كان لا يستطيع الإفصاح والبيان بسبب خرس أو حُبسة في لسانه، كالفأفة والثأثة.

﴿ فليملل وليّه بالعدل ﴾ أي: فليملل صاحب الحق لأنه أعلم بحقه، أو فليملل وليّ الذي عليه الحق في حال عجزه عن الإملاء بنفسه.

ثم أضافت الآية إلى توثيق الحق بالكتابة، وسيلة ثانية للتوثيق، وهي الشهادة بقوله تعالى: ﴿ واستشهدوا شهيدين من رجالكم ﴾ أي: اطلبوا أن يشهد على الحق شاهدان من المسلمين، فلا تُقبَل شهادة الكافر على المسلم، وتُقبَل شهادة الكافر على الكافر فقط. ﴿ فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ﴾ أي: فليشهد رجل وامرأتان.

(١) القصص: الآية ٧٧.

(٢) النساء: الآية ٥.

﴿مَنْ تَرْضُونَ مِنَ الشَّهَدَاءِ﴾ وهم الذين تعرفون أمانتهم وعدالتهم.
ثم بيّنت الآية الحكمة من جعل شهادة المرأتين تعدل شهادة الرجل الواحد في
المعاملات المالية، بقوله تعالى:

﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا﴾ أي: أن تنسى إحداهما، إذ تغلب على المرأة عاطفتها.
﴿فَتَذْكُرَ إِحْدَاهُمَا الْآخَرَى﴾ أي: فتذكرها الأخرى.

وأفاد التصريح بـ ﴿إحداهما﴾ مرة ثانية، والعدول عن الضمير، عدم اختصاص
الضلال بواحدة بعينها، والتذكير بالأخرى^(١).

فلا يضيع شيء من الحق، لأن الإسلام حريص على إيصال الحقوق إلى أصحابها
كاملة؛ ولهذا جعل شهادة المرأتين تعدل شهادة رجل واحد، حيلة للحقوق وحرصاً
عليها، ومما يؤكد ذلك، أنه تقبل شرعاً في الإسلام شهادة المرأة وحدها في الموضوعات
الخاصة بالنساء، والتي يكون اهتمامهنّ بها أكثر، ولا يطلع عليها عادة غيرهنّ، كالولادة
والبكارة والثبوتية.

﴿وَلَا يَأْبَ الشَّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ أي: لا يمتنع الشهاداء عن تحمّل الشهادة
وأدائها، فالآية جمعت أمرين على جهة الندب^(٢).

ثم بيّنت الآية فوائد توثيق الدين بالكتابة، وهي توصي المتعاملين به، أن يستمروا
على ذلك، بقوله تعالى:

﴿وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ﴾ أي: لا تملّوا ولا تضجروا من
كتابة الدين وبيان أجله، سواء كان قليلاً أم كثيراً.

﴿ذَلِكَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: أعدل عند الله تعالى؛ لأنه سبحانه هو الذي شرعه
لكم وحكّم عليه.

﴿وَأَقْرَبُ لِلشَّهَادَةِ﴾ أي: وأثبت للشهادة وأعون على إقامتها وأدائها بشكل صحيح.

﴿وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ أي: وكتابة الدين تجعلكم أقرب إلى عدم الشك في مقدار
الحق والأجل والشاهد.

(١) روح المعاني ٥٩/٣.

(٢) المحرر الوجيز ٥١٤/٢.

﴿إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم﴾ أي: تتم فيما بينكم يداً بيد من غير تأجيل.

﴿فليس عليكم جناح ألا تكتبوها﴾ أي: فلا حرج عليكم في ترك كتابتها.

وكما أوصت الآية بكتابة الدين والإشهاد عليه، أوصت أيضاً بالإشهاد على البيع:

﴿وأشهدوا إذا تباعتم﴾ لأن الشهادة على البيع أحفظ للحق، وتنفي أسباب الاختلاف والخداع والتنازع.

وكما حرصت الآية على توثيق الحقوق وضمان وصولها إلى أصحابها، حرصت أيضاً على حقوق الكاتب والشاهد، وعدم الإضرار بها، ولهذا قال تعالى:

﴿ولا يضار كاتب ولا شهيد﴾ أي: لا ينبغي الإضرار بالشاهد والكاتب، بأن يمنع الكاتب من أجره كتابته، أو يحرم الشاهد من مؤنة وكلفة حضوره، فذلك إضرار بهما.

ويمكن أيضاً حمل الآية على معنى آخر، وهو: لا يضار كاتب بالامتناع عن الكتابة أو تحريفها، ولا يضار الشاهد بكتمان الشهادة أو تغييرها.

﴿وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم﴾ أي: إن تفعلوا ما نهيتهم عنه من الضرر، فإنه خروج عن الطاعة وإثم لاحق بكم.

﴿واتقوا الله﴾ بالتزام ما شرع لكم من أحكام، فإنه تعالى ما شرعها إلا لمصلحتكم.

﴿ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم﴾ [٢٨٢].

توثيق الحقوق بالرهن

ثم شرعت الآيات وسيلة ثالثة لتوثيق الحقوق، وهي الرهن، بقوله تعالى:

﴿وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة﴾ أي: إن كنتم مسافرين، وتعاملتم بالدين، ولم تجدوا كاتباً يكتبه لكم، فخذوا من المدين رهناً، حتى يؤدي ما عليه من حق.

ومن المعلوم أن أخذ الرهن لتوثيق الحق جائز في السفر والحضر، وعند وجود الكاتب والشاهد أو عند عدمهما، وخرج الكلام في الآية مخرج الغالب لا الشرط؛ إذ الغالب أن صاحب الحق يحتاج إلى قبض الرهن ممن عليه الحق في السفر، حيث لا

يجد كاتباً ولا شاهداً، وقد ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ توفي ودرعه مرهونة.
ثم بين تعالى أن وسائل التوثيق هذه، التي شرعها لنا في المعاملات المالية
الجارية بيننا، ليست لازمة واجبة، فعندما تشيع الثقة بين المتعاملين لا بأس أن يتبايعوا
ويتعاملوا بالدين، بدون كتابة ولا إظهار ولا رهن، مما يدل على سماحة الشريعة
الإسلامية، وأنها لا تضع القيود على المعاملات بين الناس، إلا حرصاً منها على حفظ
حقوقهم، ولهذا قال تعالى:

﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي: ولم يستوثق بالكتابة والشهادة والرهن.
﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي ائْتَمَنَّ أَمَانَتَهُ﴾ أي: ينبغي أن يكون المدين عند ظن الدائن الذي
وثق به، وعليه أن يؤدي الحق الذي ائتمن عليه.

﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ فهو سبحانه يعلم السر وأخفى، وقد أمرنا بترك الخيانة وأداء
الأمانة، ومن الأمانة أداء الشهادة، ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ أي: إذا دُعيتُم إلى أدائها، فقد يؤدي كتمانها إلى ضياع
الحق، فيقع كاتمها في الإثم:

﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثَمُ قَلْبِهِ﴾ أي: فإنه يأثم قلبه؛ لأنه يكتُم الشهادة في قلبه،
وإثم القلب أخطر أنواع الإثم؛ لأن صلاح سلوك الإنسان وفساده، متوقف على صلاح
القلب وفساده، كما مر في الحديث الشريف: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت
صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»^(١).

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [٢٨٣].

إسلام الصحابة لله

وجاء في ختام السورة بيان مسؤولية الإنسان الكاملة، عن أعمال جوارحه الظاهرة
والخفية، بقوله تعالى:

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: خلقاً وملكاً وتدبيراً.
﴿وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تَخْفَوْهُ يَحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ أي: إن تظهروا ما في
أنفسكم من سوء أو تخفوه، فإنه سبحانه يعلمه ويسألكم عنه.

(١) انظر الحديث كاملاً في صحيح مسلم (١٥٩٩).

﴿ فيغفر لمن يشاء ﴾ من عباده بفضلِهِ ورحمته .
﴿ ويعذب من يشاء ﴾ بعدله سبحانه .

﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ [٢٨٤] فمشيئته سبحانه نافذة ، وقدرته كاملة جلّ وعلا . قال ابن كثير رحمه الله : يخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض وما فيهنّ وما بينهما ، وأنه المطلع على ما فيهنّ ، لا تخفى عليه الظواهر ولا السرائر والضمائر ، وإن دقت وخفيت . والآيات في ذلك كثيرة جداً ، وقد أخبر في هذه الآية بمزيد على العلم ، وهو المحاسبة على ذلك ، ولهذا لما نزلت هذه الآية اشتدّ ذلك على الصحابة رضي الله عنهم ، وخافوا منها وعلى محاسبة الله لهم على جليل الأعمال وحقيقتها ، وهذا من شدة إيمانهم وإيقانهم^(١) .

وما قصده ابن كثير رحمه الله جاء في الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿ الله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ﴾ والله على كل شيء قدير ﴿ قال : فاشتدّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ ، فأتوا رسول الله ﷺ ثم بركوا على الركب وقالوا : أي رسول الله ، كلّفنا من الأعمال ما نطيق ، الصلاة والصيام والجهاد والصدقة ، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيعها . قال رسول الله ﷺ : « أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم : سمعنا وعصينا ؟ بل قولوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » قالوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير . فلما أقرأها القوم ذلّت بها ألسنتهم ، فأنزل الله في إثرها : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾ . فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى ، فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلّا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ « قال : نعم » ﴿ ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ﴾ « قال : نعم » ﴿ ربنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به ﴾ « قال : نعم » ﴿ واعف عنا وَاغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ « قال : نعم »^(٢) .

وظهر لنا من هذا أن من أسباب يُسرّ الشريعة الإسلامية وسماحتها ، استسلام الصحابة لأمر الله تعالى وانقيادهم لأحكامه بينما كان التشديد في شريعة التوراة بسبب

(١) انظر : مختصر تفسير ابن كثير ٢٥٦/١ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان (١٢٥) .

عناد بني إسرائيل وتعتتهم، وعدم انقيادهم لأحكام دين الله تعالى، وتقاعسهم عن تنفيذها، كما تقدّم في قصتهم مع البقرة التي أُمرُوا بذبحها.

وظهر لنا بهذا أيضاً الاتفاق والاتساق بين آيات السورة الكريمة، وهي أطول سورة في القرآن الكريم، من أولها إلى آخرها، وأنها حقاً جاءت لبيان حقيقة الإسلام لله تعالى وكيف يكون، وبيان أثره في سهولة التشريع وتيسيره، فرضي الله عن صحابة رسول الله ﷺ، فإن في إسلامهم لله تعالى وانقيادهم لأحكامه أثراً كبيراً في يُسر الشريعة الإسلامية وسماحتها، فهم حَمَلَتْها والمؤمنون عليها بعد رسول الله ﷺ، والمجاهدون الأول في سبيل نشرها بين الأمم والشعوب، وهم أيضاً المُسارعون إلى تنفيذ أحكامها، والمستسلمون لله تعالى، والراضون بما رضىه تعالى لهم، رضي الله عنهم وأرضاهم، ولهذا أثنى الله على إسلامهم واستسلامهم بقوله:

﴿ آمَنَ الرُّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [٢٨٥].

قال القرطبي رحمه الله: مدحهم الله وأثنى عليهم في هذه الآية، ورفع المشقة في أمر الخواطر عنهم، وهذه ثمرة الطاعة والانقطاع إلى الله تعالى، كما جرى لبني إسرائيل ضد ذلك من ذمهم وتحميلهم المشقات، من الذلة والمسكنة والانجلاء، إذ قالوا: سمعنا وعصينا، وهذه ثمرة العصيان والتمرد على الله تعالى، أعادنا الله من نقمه بمنه وكرمه^(١).

وقوله تعالى: ﴿ آمَنَ الرُّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ شهادة ربّانية رفيعة دلّت على صحّة إيمانهم رضي الله عنهم وصدق يقينهم، ذكر الله تعالى فيها إيمانهم معطوفاً على إيمان الرسول ﷺ.

﴿ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ ﴾ الذين أخبر الله سبحانه عنهم، فهم من الغيب الذي دلّ عليه الخبر الصادق، كما مرّ في أول السورة ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾.

﴿ وَكُتِبَ ﴾ أي: كتبه النبي أنزلها على رسله، وذكرها سبحانه في القرآن الكريم، كالتوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم.

﴿ وَرُسُلِهِ ﴾ أي: الذين أرسلهم سبحانه إلى عباده، من لدن آدم عليه السلام إلى خاتمهم سيّدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

(١) تفسير القرطبي ٤٢٧/٣.

﴿ لا نفرّق بين أحد من رسله ﴾ أي: لا نفرّق بينهم بالإيمان، فنؤمن ببعضهم ونجحد رسالة بعض، كما فعل اليهود والنصارى، فقد حكم الله عليهم بالكفر، فقال: ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرّقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً. أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً ﴾ (١).

أما المسلمون الذين يؤمنون بأن الإسلام لله تعالى هو الدين الذي دعا إليه جميع الأنبياء والمرسلين، فقال سبحانه فيهم: ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرّقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ (٢).
ثم أخبرت الآية عنهم أنهم أضافوا إلى إيمانهم وتصديقهم، إعلانهم الانقياد والإذعان لدينه سبحانه وشريعته:

﴿ وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾ [٢٨٥] أي: نسألك يا ربنا أن تغفر لنا، فنحن مفتقرون إلى رحمتك وإحسانك ومغفرتك، وإن مرجعنا يوم القيامة إلى حكمك، ولا شك أن هذا إقرار منهم بيوم القيامة وما فيه من حساب وجزاء، وبهذا يكونون قد جمعوا أركان الإيمان الأساسية، التي ذكرها تعالى في قوله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضلّ ضلالاً بعيداً ﴾ (٣)، والتي تقدّم ذكرها أيضاً في آية البرّ: ﴿ ليس البرّ أن تولّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبیین ... ﴾.

التكليف منوط بالوسع

﴿ لا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها ﴾ أي: إلّا ما تتسع له قدرتها ولا تضيق عنه، فالوسع: اسم لما يسع الإنسان ولا يضيق عليه (٤).

فالإنسان يستطيع أن يقوم بما كُلف به وبما هو أكثر منه، وهو مبدأ أساسي من مبادئ التكليف في الشريعة الإسلامية، تماز به على غيرها من الشرائع الإلهية، فهي

(١) النساء: الآيتان ١٥٠ - ١٥١.

(٢) النساء: الآية ١٥٢.

(٣) النساء: الآية ١٣٦.

(٤) تفسير الخازن ١/٤٥١.

شريعة رحمة وسماحة، التكليف فيها منوط بالوسع لا بالطاقة، وهي أعلى ما يستطيع الإنسان القيام به.

﴿لها ما كسبت﴾ أي: لها ثواب ما كسبت من الطاعات والحسنات.

﴿وعليها ما اكتسبت﴾ أي: وعليها مسؤولية ما اكتسبت من المعاصي والسيئات.

وجاءت العبارة في الحسنات بـ ﴿لها﴾ من حيث هي مما يفرح المرء بكسبه ويسرّ بها، فتضاف إلى ملكه، وجاءت السيئات بـ ﴿عليها﴾ من حيث هي أثقال وأوزار ومتحمّلات صعبة^(١). وأفاد قوله تعالى في الطاعات ﴿كسبت﴾ شمولها بفضله تعالى لكسب القلب وقصده فعل الخيرات والطاعات، فإن صاحبه يُثاب عليه ولو لم يفعله، وأما في جانب المعاصي فلا مؤاخذة للإنسان على همّه وعزمه، حتى يباشرها فعلاً، ولهذا قال تعالى فيها: ﴿اكتسبت﴾، وجاء في الحديث الشريف أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إن الله تجاوز لأمتي ما حدّثت به أنفسها ما لم يتكلموا أو يعملوا به»، وقال عليه الصلاة والسلام: «قال الله عزّ وجل: إذا همّ عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه، فإن عملها فاكتبوها سيئة، وإذا همّ بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فإن عملها فاكتبوها عشرًا»^(٢).

ثم علّمنا سبحانه كيف نلجأ إليه داعين ضارعين، فما أعظم رحمته بنا جلّ وعلا! يعلّمنا كيف نسأله، ويجعلنا نقف على أبواب فضله ورحمته، ليتفضّل علينا بفيوضات إحسانه وكرمه:

﴿ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ أي: لا تؤاخذنا إن صدر منّا بحكم ضعفنا وقصورنا، في حال النسيان والخطأ، شيئاً من المخالفة والعصيان، وقد فعل سبحانه ذلك، كما مرّ في الحديث الشريف، وقرّره سبحانه وتعالى في عدد من الآيات الكريمة، كقوله سبحانه: ﴿وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمّدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيماً﴾^(٣).

وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»^(٤).

(١) تفسير القرطبي ٤٣١/٣.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان (١٢٧) (١٢٨).

(٣) الأحزاب: الآية ٥.

(٤) رواه ابن ماجه وابن حبان.

﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا ﴾ أي: ثقلاً في التكليف والتشريع، وقد فعل سبحانه ذلك، فجاءت أحكام الشريعة الإسلامية سهلة ميسرة، لا حرج فيها.

﴿ كما حملته على الذين من قبلنا ﴾ كبنى إسرائيل، الذين شدد الله تعالى عليهم، كما تقدّم.

﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ من البلاء الشديد والمِحَن الكبيرة بسبب معاصينا، وكأنهم سألوه تعالى أن يعاملهم بفضله ورحمته وعفوه، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾^(١)، ولهذا سألوه بعد ذلك العفو والمغفرة والرحمة: ﴿وَاعْفُ عَنَّا﴾ بالتجاوز عن ذنوبنا فيما بيننا وبينك.

﴿ وَاعْفِرْ لَنَا ﴾ بسترها فلا تفضحنا فيما بيننا وبين عبادك.

﴿ وَارْحَمْنَا ﴾ بحفظنا من الذنوب والمعاصي، وتوفيقنا إلى طاعتك وعبادتك، فلا غنى لنا عن رحمتك.

﴿ أَنْتَ مَوْلَانَا ﴾ أي: متولّي أمورنا وناصرنا، فلا حول لنا ولا قوة إلّا بك.

﴿ فَاَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [٢٨٦] فلا نصر لنا عليهم إلّا بتأييدك ومعونتك. اللَّهُمَّ آمِينَ، اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلِّمْ.

وقد ورد في فضل هاتين الآيتين في خاتمة سورة البقرة، عدد من الأحاديث النبوية الشريفة، مرّ معنا منها حديث ابن عباس: بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضاً من فوقه، فرفع رأسه فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم، لم يفتح قطّ إلّا اليوم. فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض، لم ينزل قطّ إلّا اليوم. فسلم وقال: أبشر بنورين أُوتيتهما، لم يؤتهما نبيّ قبلك، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلّا أعطيته^(٢).

ومنها أيضاً حديث أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «مَنْ قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه»^(٣).

وقوله: «كفتاه» أي: أجزأتنا عنه من قيام الليل بالقرآن، وقيل: معناه كفتاه كل سوء، وقيل: دفعنا عنه شرّ الإنس والجنّ، وقيل: من الآفات، ويحتمل من الجميع^(٤).

(١) الشورى: الآية ٣٠.

(٢) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين (٨٠٦).

(٣) صحيح البخاري، فضائل القرآن (٥٠٠٩).

(٤) فتح الباري ٥٦/٩.

المراجع

● من كتب السّنة:

- صحيح البخاري مع فتح الباري، نشر رئاسة إدارة البحوث.
- صحيح مسلم، تحقيق وترتيب محمد فؤاد عبد الباقي.
- تيسير الوصول، للشيباني، طبعة البابي الحلبي.
- الترغيب والترهيب، للمنذري، الطبعة القطرية.

● من كتب التفسير:

- الجامع لأحكام القرآن، (تفسير القرطبي)، تحقيق أبو إسحاق أطفيش.
- روح المعاني، للآلوسي، دار الفكر.
- زاد المسير، لابن الجوزي، المكتب الإسلامي.
- مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني، دار القرآن الكريم.
- تفسير الفخر الرازي، (التفسير الكبير)، دار الفكر.
- جامع البيان، (تفسير الطبري)، دار المعرفة بيروت.
- تفسير البضاوي مع مجموعة التفاسير، دار إحياء التراث.
- تفسير النسفي مع مجموعة التفاسير، دار إحياء التراث.
- تفسير الخازن مع مجموعة التفاسير، دار إحياء التراث.
- أضواء البيان، للشنقيطي، المطابع الأهلية الرياض.
- فتح القدير، للشوكاني، دار المعرفة بيروت.
- في ظلال القرآن، لسيد قطب، دار الشروق.
- نظم الدرر، للبقاعي، ط ١ الهند.
- تفسير أبي السعود، للعمادي، دار إحياء التراث العربي.
- غرائب القرآن، للنيسابوري، هامش جامع البيان.

- تنوير الأذهان من تفسير روح البيان، لإسماعيل حقّي، دار القلم.
- المحرّر الوجيز، لابن عطية، القطرية.
- من موضوعات سور القرآن، للمؤلف ١ - ١٢.
- قرّة العينين على الجلالين، محمد أحمد كنعان، المكتب الإسلامي.

● مراجع مختلفة:

- مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، دار العلم للملايين.
- القرار المكين، مأمون شقفة، ط ١.
- خلق الإنسان بين الطب والقرآن، محمد علي البار.
- ردّ المحتار على الدرّ المختار، لابن عابدين، الميمنية.

فَهْرَسُ الْمَوْضُوعَاتِ

٥ الفاتحة، ثناء ودعاء
٧ البسملة، بسم الله الرحمن الرحيم
٩ الحمد لله رب العالمين
١١ يوم الدين
١٢ ضراعة ودعاء
١٣ الصراط المستقيم
١٧ الإسلام لله تعالى في سورة البقرة
١٩ المقدمة
٢١ موضوع السورة
٢٥ الفصل الأول: القرآن والإنسان
٢٧ الحروف النورانية
٢٨ الكتاب الكامل
٣٠ الإيمان بالغيب
٣٣ الإيمان بيوم القيامة
٣٥ هرم الجحود والفساد
٣٦ ختم وطبع
٣٧ المنافقون
٣٨ مرض وفساد
٣٩ سفه وجهل
٤١ قلق وحيرة
٤٣ الخائفون من النور
٤٥ قضيتان هامتان
٤٦ الإنسان والأرض والسماء
٤٨ التحدي بالقرآن

٥٠	ترهيب وترغيب
٥٢	الأمثال في القرآن الكريم
٥٣	عقول منفتحة وعقول منغلقة
٥٥	تقطيع الروابط الإنسانية
٥٦	ميتتان وحياتان
٥٧	مكان الإنسان ومكانته
٥٨	استفهام واستعلام
٦٠	قابلية الإنسان للتعلم
٦٢	سجود التحية والتكريم
٦٣	الهبوط إلى الأرض
٦٥	التوبة والتكليف والمسؤولية
٦٧	الفصل الثاني: التوراة وبنو إسرائيل
٦٩	يا بني إسرائيل
٧١	الأمر بالمعروف وفعله
٧٣	وسائل في التربية والتهديب
٧٥	النجاة من الظالمين وإهلاكهم
٧٧	عبادة العجل الذهبي
٧٨	شريعة التوراة
٨٠	سؤال التعنت والعناد
٨٢	الزاحفون على مقاعدهم
٨٣	عيون الماء في الصحراء
٨٥	الذلة والمسكنة
٨٧	ميثاق الطور
٨٩	بنو إسرائيل والبقرة
٩٢	قلوب قاسية
٩٥	الفصل الثالث: بنو إسرائيل: من السلف إلى الخلف
٩٧	تحريف الكتاب
١٠٠	أمانني خادعة

١٠١	مبادئ من شريعة القرآن وشريعة التوراة
١٠٤	تناقض في المواقف
١٠٥	تكذيب الرسل وقتلهم
١٠٧	التعصب والحسد
١١٠	حرصهم على الحياة
١١٢	عداوتهم للملائكة
١١٤	اتباعهم للشياطين
١٢٠	تأديب وتحذير
١٢٢	التدرج في التشريع والنسخ
١٢٤	من أخلاق الإسلام
١٢٥	تناكر وتجاحد
١٢٨	تنزيه الحق عن الولد
١٣١	تشيت ومواساة

١٣٥	الفصل الرابع : التوحيد وإبراهيم والبيت الحرام
١٣٧	إبراهيم ومقام الإمامة
١٣٩	البيت الحرام
١٤٣	الأمة المسلمة
١٤٦	ملة التوحيد ووصية الأنبياء بها
١٤٨	الإسلام ملة جميع الأنبياء
١٥١	الأمة الوسط والقبلة الوسط
١٥٤	أمة الشهداء والإسلام
١٥٧	استقبال البيت الحرام
١٥٩	التنافس المحمود
١٦١	تمام النعمة
١٦٣	الذكر والشكر
١٦٥	الاستسلام لحكم الله القدري
١٦٨	السعي بين الصفا والمروة
١٧٠	كتمان العلم

١٧٣ الفصل الخامس: العقيدة والشريعة
١٧٥ الإلهية والعبودية
١٧٦ من أدلة التوحيد
١٧٧ براءة وحسرة
١٧٩ التحذير من اتباع الشيطان ومن التقليد الأعمى
١٨١ العبادة والشكر
١٨٣ آكلو النار
١٨٥ آية البر
١٨٩ القصاص والحياة
١٩١ تشريع الوصية
١٩٣ تشريع الصيام
١٩٥ نزول القرآن في رمضان
١٩٨ الصيام والدعاء
٢٠٠ تخفيف وتيسير في أحكام الصيام
٢٠٤ تحريم أكل المال بالباطل
٢٠٥ الأهلة والمواقيت الشرعية
٢٠٧ تشريع الجهاد وتحريم العدوان
٢٠٩ استمرار الجهاد
٢١٢ الحج والجهاد
٢١٣ الإحصار في الحج والعمرة
٢١٥ التمتع بين العمرة والحج
٢١٦ من محظورات الإحرام
٢١٧ التجارة والعمل في الحج
٢١٩ الذكر والدعاء في الحج
٢٢٣ الفصل السادس: إسلام واستعلام (أسئلة الصحابة)
٢٢٥ توجيه رفيق وإرشاد لطيف
٢٢٨ إسلام وسلام
٢٣١ تذكير وتحذير

٢٣٢	الاختبار والصراع
٢٣٥	أسئلة الصحابة
٢٣٦	التشريع لله تعالى وحده
٢٣٧	السؤال عن القتال في الأشهر الحرم
٢٤٠	السؤال عن الخمر والميسر
٢٤١	السؤال عن الصدقة ومخالطة الأيتام
٢٤٣	تحريم النكاح بين المسلمين والمشركين
٢٤٤	السؤال عن المحيض
٢٤٩	الفصل السابع: الأسرة وتشريع الطلاق
٢٥١	حرص الإسلام على الأسرة
٢٥١	اليمين اللغو واليمين المنعقدة
٢٥٣	الإيلاء
٢٥٤	الأصل في الطلاق الحظر
٢٥٤	عدّة المطلقات
٢٥٦	المساواة بين الحقوق والواجبات
٢٥٧	الطلاق الرجعي مرتان
٢٥٩	الطليقة الثالثة
٢٦٠	التحذير من الإضرار والعدوان
٢٦١	الرجوع إلى الحياة الزوجية
٢٦٢	حق الأولاد في الرضاعة والنفقة
٢٦٥	عدّة الوفاة
٢٦٧	الطلاق قبل الدخول
٢٦٨	الصلاة والطلاق
٢٧٠	تخفيف وتيسير
٢٧٣	الفصل الثامن: أخبار وقصص من التاريخ
٢٧٥	الفارّون من الموت
٢٧٧	الحثّ على الثبات والاستبسال والبذل
٢٧٨	قصة طالوت وداود وجالوت

٢٨١	السكينة والبركة بآثار الأنبياء
٢٨١	الاختبار
٢٨٣	المعركة
٢٨٥	التفاضل بين الأنبياء والمرسلين
٢٨٦	سبب النزاع والاختلاف بين الناس
٢٨٧	آية الكرسي
٢٩٠	لا إكراه في الدين
٢٩٢	مناظرة إبراهيم للطاغوت
٢٩٣	الحياة بعد الموت
٢٩٥	من علم اليقين إلى عين اليقين
٢٩٩	الفصل التاسع : مبادئ أساسية في الاقتصاد الإسلامي
٣٠١	السنابل السبع
٣٠٢	الشريعة الإنسانية
٣٠٤	أسف وحسرة
٣٠٦	الأموال الواجبة فيها الزكاة
٣٠٧	حزب الشيطان
٣٠٨	إخفاء الصدقة
٣١٠	أفضل مصارف الصدقات
٣١٢	اقتصاد إسلامي لا ربوي
٣١٤	من أضرار الربا
٣١٥	إعلان الحرب على المرابين
٣١٧	الأخلاق الإسلامية في المعاملات المالية
٣١٩	توثيق الحقوق في المعاملات المالية
٣٢٢	توثيق الحقوق بالرهن
٣٢٣	إسلام الصحابة لله
٣٢٦	التكليف منوط بالوسع
٣٢٩	المراجع
٣٣١	فهرس الموضوعات